قصص القرآن

فى مواجهة أدب الرواية والمسرح



أحمد موسى سالم



تليفاكس ٠٤٤٨٠٥٤٠ - الإسكندرية


مكتبة الوفاء القانونية

قصــــص القــــرآن

في مواجهة أدب الرواية والمسرح

أحمد موسى سالم

الطبعة الأولى
2014

الناشـر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس : 5404480 – الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ ﴾

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

قرآن كريم



الإهـــداء

* إلى من يستمعون القول فيتبعون أحسنه ... بأتساع هذا الوطن العربي .

المؤلـــف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

أبدأ فأحمد الله العظيم على ما جل ودق من نعمه، وأثنى عليه، وأصلي وأسلم على النبي الكريم في مقام الأسوة الباقية به، ثم أقول:

إنه بعد جد غير متكافئ نحو قرن من الزمان حول موقف العرب، والمسلمين الأوائل، من الرواية الخيالية ومن المسرح، كما جاء بهما الغزو الفكري الأوروبي مع قافلة الاستعمار- يصدر هذا الكتاب بمشيئة الله، ليقدم في أول دراسة عربية موضوعية أصول نظرية "القصص" المتنوع في آداب الشعوب المتناظرة بآدابها، وتراثها، منذ فجر التاريخ، سواء أكان قصصًا "حقيقيًا" يلتزم في أخباره وصياغته خط التعبير عن حركة الواقع.. أو كان قصصًا "خياليًا" موضوعًا ومكلوبًا، لا يعكس في تخيلاته إلا الواقع الوهمي، الذي يهدم الحس العلمي، ويحتجب به البرهان الديني، من حيث ابتعاده ومصادرته للواقع الحقيقي..

أما ركائز هذه الدراسة فهي منهج الصدق التاريخي، والعلمي، والبياني، في قصص القرآن الكريم، وفي المنهج المستخلص من حياة العرب، وأشعارهم وحكمتهم، وقصصهم قبل الإسلام.. وهما منهجان متفقان ومتسقان في قضية التعبير، ومفهوم القصص، ورغم هذا الفارق الجلي الذي يكون بين "الإلهي" و"البشري" في البيان عن حقيقة علمية واحدة..

فمنذ ما قبل الإسلام، وعند نزول القرآن وإشراقه، كان ولا يزال المنهج العربي التعبيري والديني في تناول القصص واضحًا في أنه منهج

الصدق المبين، والحي، والمتجدد، في التعبير عن حركة الواقع ودلالاته في حياة الإنسان والمجتمع. ولكن خلال عصور الشتات، والظلام، التي تعاقبت على الوطن العربي بعد سقوط الدولة العباسية 656 هجرية و1258 ميلادية، وبعد الهجمات التتارية والتركية والمملوكية الشرسة على الوطن، واللغة، والناس والتراث، وحيث عاش العرب طويلًا – قبل صحوتهم المعاصرة – بغير حرية وبغيرة وحدة، وبغير ثقافة، وبغير عقيدة عملية، أو شخصية قومية سائدة، كادت أن تختفي حقائق ذلك العصر القرآني الأول بكل ما ارتكزت عليه حركة التحرير والتنوير بالإسلام والقرآن، في أزهى حضارة إنسانية واجتماعية عرفها العالم – من القصص الحق، والروايات الخبرية الصادقة، المستندة إلى "الإسناد" والتواتر في منهج التحقيق العلمي للقصة أو الرواية أو الخبر..

.. وحيث عاش المسلمون الذين كانوا أول من وضع قواعد المنهج العلمي، وأول من أنشأ نظام الجامعات العلمية حول أعمدة المساجد "الجامعة" وغيرها – يعتبرون " صدق الرواية" للعلوم المختلفة كما يتلقاها الدارس المجتهد عن شيوخه هي أول مرتبة من مراتب العلم قبل مرتبة الفقه والتفسير والإضافة ومن ذلك كان المسلمون يسمون "إجازة" النقل عن شيوخ العلماء كما يمنحها الشيخ لتلميذه بعد استيفاء التحصيل لأساسيات علم من العلوم: "إجازة بحق الرواية"..

"حق الرواية " إذن بالأمانة والصدق كان في كل علوم المسلمين التي يتوحد فيها الدنيوي بالأخروي واحدًا من عشرات الحقوق والالتزامات التي قامت عليها قوة المسلمين بحضارتهم العلمية الأخلاقية.. وليس أبلغ على دلالة هذا الحق، الذي ننكره اليوم أو نتنكر له، من أن هاتين الكلمتين العربيتين "بحق الرواية" انتقلنا بإشراقها مع مد الحضارة العربية الإسلامية

حتى وصلتا إلى أوروبا لتسهما في نهضتها عقب الحروب الصليبية، ومن ثم فقد تحولتا في نطق الألسنة الأوروبية الأعجمية لتصبحا أولا " بك الروايا" لصعوبة نطق حرف الحاء، ثم لتصبحا بالتطويع للسان اللاتيني "بك الروايوس" ثم "بكالوريوس" Baecalarius كما جاء في بحث للدكتور رفعت عبيد بجامعة ليدز.. وكما لا يزال الأوربيون يستعملونها إلى اليوم بمفهوم " إجازة بالتخرج" .. وكما أصبحنا نستخدمها أيضا نحن العرب .. ولكننا نستخدمها مع أشياء كثيرة – وأسفاه – بحق التبعية لأوروبا.. وليس " بحق الرواية" عن أكرم الأسلاف !!

ثم لم تلبث موجة الأساطير الشعوبية، والإسرائيليات، وأكاذيب الترف، أن اندفعت في محاولة لاغتيال هذا المنهج الإخباري الإسلامي، فوقع خلط كثير، وسقط ظلام كثيف، ومع ذلك فقد بقى القرآن محفوظًا بعصمته وصدقه، وبقى بجهد عدد من العلماء المجاهدين ما صح عندهم من الحديث النبوي بعد استخلاصه من مئات الألوف من الأحاديث الموضوعة، كما بقى قليل من الأخبار التي أفلتت من التحريف، وثروة غير قليلة من الشعر العربي في مرحلة ما قبل الإسلام، وهو مما تمسك العرب بروايته، والتمثل بما فيه من الأصالة القومية، والمآثر التي أقرها الإسلام من حياة ما قبل الإسلام، كما أن هذه الأخبار والأشعار قد لقيت اهتماما من مسلمي الأعاجم، الذين حفظوها وسط مصنفاتهم الملفقة ليبيعوا بها الغث مع السمين، وليجعلوا منها اللآلئ المضيئة على صدر ما نشطوا إلى تدوينه من آدابهم الزخرفية والاستمتاعية في مثل المقامات والأغاني، وحكايات الردة والزندقة، والمعتقدات الباطنية والحلول..

القرآن إذن في منهجه القصصي القائم على الحق، والمتتبع لسنن الله في حركة الواقع الاجتماعي بالصدق، هو ركيزة هذه الدراسة التحليلية

والنقدية لأدب الرواية والمسرح منذ اليونان، والذي وفد إلى بلادنا في غيبة أكثر الحقائق التعبيرية العربية مع قافلة الاستعمار، وفي ظل حرابة. وهي دراسة تتكامل بها عن أدب "القصة" المتنوع في وسائل التعبير الإنساني علميا مع الواقع، أو ضد الواقع "نظرية" قابلة لأن تضاف إلى علوم الإنسان الاجتماعية والتعبيرية بمستوى قوانين علوم الطبيعة.. تكون منطلقا صحيحا إلى دراسات عربية أكثر اتساعًا، وأعظم أثرًا، على طريق هذه الحقيقة البيانية في علم الإنسان، كما سجلها منهج القرآن الكريم في قصصه قبل أي مذهب اجتماعي حديث، أو أية فلسفة معاصرة، وهي أن الإنسان في سلوكه ولغته نتاج بيئته، وأنه من الممكن دائما في عدل الله وحكمته تغير فكر الإنسان ومنهج تعبيره وسلوكه إلى ما هو أفضل، أو إلى ما هو أسوأ بتغيير عوامل البيئة المحيطة به.

مثل هذه التقنين للحكاية والقصة وانطلاقا من ضوابط "الخبر الصادق" وبعيدا عن الانهيار الأسطوري، أو التصنيع الخيالي المسرحي — لم يصل إلينا شيء منه على شكل دراسة من أسلافنا العرب الأوائل في صدر الإسلام، فلقد شغلهم عن ذلك الجهاد أولا، ثم الترف ثانيا، ثم محاولة النجاة بعد أن تقوضت بالغفلات والمؤامرات أركان الصرح الكبير. لذلك فهم لم يتركوا لنا "وصيتهم" تجاه هذا الخطر "الخرافي" الذي تحفظوا منه وقاوموه أول الأمر، ثم استسلموا له مع موجات الترف والخيلاء والإخلاد إلى المتاع آخر الأمر، حتى اجترأت الأساطير والإسرائيليات على كل شيء قدمه العرب المسلمون إلى الوطن العربي والعالم، فلم يمتنع عليها إلا "القرآن" وإن حاصره الفكر الشعوبي في كتب التفاسير، وأدل الزخارف، وأشعار الزندقة والحمريات، وقصص ألف ليلة وليلة الفارسية..

نعم.. لقد بقي لنا القرآن في بيانه وبرهانه، وصدقه وعلمه، حاملًا وصايا الله، وقصص الأسلاف كما أخبرنا الله، وكما عملوا صادقين في طاعة الله.. لقد بقي ينتظر صحوتنا.. ويتعجل صحوتنا.. ويضيء لنا الطريق أمام صحوتنا.. ومع صحوتنا.. بقدر ما نستخلص منهجه المباشر في صدقه البياني، وصدقه العلمي، في منهجنا الصحيح للتعبير عن حركة الواقع، وحركة المجتمع، في الأدب والقصص، والتاريخ والسير.

من أجل هذا أصبحت هذه الإجابات الحاسمة والصحيحة عن الأسئلة التي صمت عنها التراث، والتي تفرض الصحوة العربية المعاصرة طرحها على المعاصرين، مع صمت الأدب والشعر، وعبث القصة والمسرح.. من أجل هذا أصبحت هذه الإجابات من نصيب هذا الجيل العربي الذي عليه أن يواجه عبء "الاجتهاد" في ضوء القرآن الكريم للإجابة العلمية والتاريخية عن حقيقة موقف العرب من أدب القصة، سواء في قصصهم الصادق بمنهجه الإسلامي، أو موقفهم من القصص الأسطوري الخرافي، أو الخيالي المسرحي، الذي يتصادم بنوعية مع الفكر العلمي، والبرهان الديني، والواقع الحي..

وبالتأكيد فإن هذه الإجابة الصحيحة عن هذه الأسئلة التي تخبطت وتناقضت حولها الإجابات – قد أصبحت ضرورة حياة وتصحيح لأخطاء وغفلات الماضي، بعد أن قامت ثورة مصر العربية 1952 لتغسل عن فكر الإنسان العربي كثيرا من غبار القرون السابقة بعد عصر طويل من الشروق العربي الإسلامي، ومن ذلك إلى جانب الخرافات التي تسللت لتغطي على حقائق الدين – هذا الاستهداف الاستعماري بخططه المختلفة للتحول بالعرب إلى فكر وآداب وأنماط الحياة الأوربية- كما هي بخيرها وشرها، وبدون تمحيص واختيار، وعدوانًا سافرا خفيا على الحقيقة

الإسلامية العربية في حياة المجتمع العربي، وذلك منذ مسرح صنوع، وأوبرا الخديوي إسماعيل، وحتى مسارح علب الليل للترفيه عن جنود الاحتلال، وعن عمد الريف الذين أريد تصفية ممتلكاتهم للبنوك الأجنبية بالليالي المذابة في الخمر والجنس، وعن تجار القطن لمصانع الإنجليز، وأمثالهم من السماسرة والورثة المبددين.. مختلطا هذا كله بالنغمة المتكررة بالزراية العلنية بمقومات وأصالة الشعب في اللغة والدين والقرآن داخل المشهد التقليدي والهستيري في السخرية من "الفقهاء الثلاثة".. الذين يرتبطون في وعي الرأي العام بالدين وقراءة القرآن في أزيائهم، والذين يقدمهم المخرج للمخطط الاستعماري على المسرح "لوحة حية" لا لنقد التخلف بين علماء الدين، وإنما لإزالة الدين، واللغة والقرآن، وتاريخ العرب بكل ما في من أصالة ومبادرات في مقابل بديل واحد هو مسرح الجنس الهابط، وحياة الذوبان في الخمر والأكاذيب، وابتذال الأجسام والعقول، تحت شعار مسعور هو "التفرنج" وطرح الماضي بكل حقائقه وضوابطه، والضياع القومي داخل ثوب مهلهل من مساوئ المدينة الأوروبية تخلعه على عبيدها ومواليها.. !

لقد اتجهت الثورة المصرية لذلك وهي تحمل عبء المواجهة العسكرية والحضارية للوجود الإسرائيلي العدواني على أرض العرب — إلى مواجهة مسئولية استرجاع الشعب العربي من "الشتات" الذي صار إليه بعد تتابع موجات الغزو الفكري على منابع "هويته" و"أصالته" وعلى ركائزه ومقوماته..

كذلك فقد كان من ثمار ما حققته ثورة مصر الشعبية، والتي لم تكن مطلقا ثمرة الأدب الروائي الخيالي، أو المسرحي التهريجي — تنشيطها للحركة الفكرية باتجاه نشر العلم، والتنوير الحقيقي باتجاه

وحدة المجتمع، وتعزيز التحالف غير الصراعي بين فئات الشعب ومنتجيه، مما امتدت به إلى الأمام حلقات التحرر الفكري العربي السابقة على أساس الأصالة، ومع حركة العصر. ولقد تحدد هذا الاتجاه ووضح لأول مرة بشكل مباشر عقب انتصار رمضان، وذلك على لسان الرئيس محمد أنور السادات عندما قدم للشعب تصوره لخط التقدم الصحيح في وثيقة أكتوبر، موضحًا به هذا التلازم إلى يربط بين مفهوم الأصالة وبين حركة العصر، وذلك من خلال رؤية حقيقية، وغير خيالية للواقع..

ولا شك أن إعلان هذه المعادلة التي تربط بين التقدم الذي ننشده وبين وحدة الأصالة والعصرية، في وثيقة شعبية هي واحدة من أهم المراجع في حياة الثورة، وحركة التصحيح – كانت جديرة بأن يستقبلها العلماء والمفكرون والأدباء باستجابة نشطة، ومخلصة، ومستنيرة، تنشأ منها حركة فكرية عربية شاملة تنسجم بإيقاعها الصحيح مع حركة التاريخ، لتناصر وتعزز في صحوة الأمة العربية وحدتها الفكرية، ووحدتها بالإيمان، ووحدتها بسلامة الوطن واللغة والتاريخ، ومن ثم يكون محققا بظهور الأصالة على ساحة الفكر العربي، والتعبير الأدبي، أن تتحدد ملامح الذات الخالصة في "هوية" الإنسان العربي المعاصر.. هذه الهوية التي ينبغي أن تختفي منها في الأدب العربي أعراض زرقة العيون، وشقرة الشعر، وقبعات الأفكار، ورطانات الألسنة.. بينما تتضح وتتجلى – في نمط الحياة والتعبير – ملامح هذا الإنسان المؤمن، الأسمر، اليقظ، والمبين، والمتفائل، في عصر التحديات والمتغيرات الكبرى.. والعلم.

إنني في هذا الاتجاه من محاولة الخروج بالأصالة من الظل إلى الضوء، ومن محاولة غسل وجهها الحسن من غبار القرون إلى مشرق العصر، وحركة الواقع، في مجال التعبير بالصدق، والعبور إلى الأهداف

القومية فوق حواجز الخرافات الأسطورية، والروايات الخيالية، والأوهام المسرحية- أكتب هذا الكتاب..

إنني أكتبه لأذكر بأن رسالة الأدباء والمفكرين في هذه المرحلة في بلادنا ليست هي دور " الموالي" لثقافة وآداب، وصيغ وشعارات أوروبا شرقا أو غربا. كما أن مهمتهم بالضرورة – في طليعة أمة تتحرر وتتقدم وتتوحد – ليست هي السخرية الملتوية، أو الاجتراء السافر على مقومات آلاف السنين في حياة أمتهم العربية وهي اللغة والدين والتاريخ..

إنني أكتب ها الكتاب لكي أزكي بالمنهج التعبيري الحقيقي بالصدق، والمباشر بالالتزام في الأدب العربي، هذه الواقعية العلمية المؤمنة في حياة العرب التعبيرية، في عصر نحن أحوج ما نكون فيه إلى تغليب النظرة العلمية على كل ساحات حياتنا، لكي نجتاز فجرة التخلف العلمي المعاصر، في الوقت الذي نستحضر فيه هويتنا. ونملك إرادتنا، ونحن نبني المجتمع العربي السليم ببناء الإنسان العربي الخالص، الذي نستبدل بهوية هوية إنسان غيره حتى وإن كان هو الإنسان الأوروبي، المنشق على نفسه إنسانيا بين اليمين واليسار.. والممزق حضاريا بين رحى المتعة الشاذة.. ورعب أسلحة الدمار..

لقد دخلت المدنية الأوربية بتأثير آدابها الخيالية والإلحادية إلى مدى بعيد في هذا التيه الذي ينفصم فيه العلم عن الإيمان، والفكر عن الواقع، وهكذا ترسبت في أمنيات العلماء والطبيعيين من تراكم أساطير القصص وأوهام المسرح هذا الاتجاه العدواني والعشوائي لتغيير مشيئة الله – الذي لا يؤمنون به – في الخلق، أي هذا الاتجاه لمحاولة تغيير الطبيعي في مجال حركة الحياة والأحياء فيما يسمونه بالكيمياء التركيبية: Synthetis Chemistry والتي تطورت في عصرنا فأصبحت كيمياء "تخليقية" كما

نسميها باللغة العربية، لأننا نؤمن بأن الوجود مخلوق، بينما بقى اصطلاح "التركيبية" يعني عند الأوروبيين محاولاتهم بغير وازع "تغيير" خلق الله، وذلك بمحاولة "تخليق" أنواع جديدة من الكائنات الحية في الأنابيب في الاتجاه إلى تغيير خلق الإنسان نفسه.. !!

فهذا العبث المدمر الذي صار إليه العلماء الطبيعيون هو حملة الريا الخيالي الضخم الذي تراكم به "الانفصال" في القصص الأوروبي والمسرح عن الواقع العلمي في حركة المجتمع، بينما هو يشطح ويتذبذب بين الصراخ والهزل في عرض مشاهد فصامية خيالية وجهتها " تغيير" سنن الله في نظام المجتمع والحياة .. ومن أجل ذلك كله، في مجال الصدق الأدبي، والصدق العلمي، حذّر القرآن المؤمنين من خطر انفصالهم بالتفكير الخيالي عن الواقع، هذا الانفصال الذي يغتربون به عن سنن الله، ويقعون به في وهم القدرة على تغيير خلق الله، أو التمني لهذا التغيير من داخل انشقاقات أنفسهم، وإنشطارات رؤيتهم.. وذلك حيث يقول القرآن على لسان الشيطان في عمله الذي ينفصل فيه فكر الإنسان المهزوم عن واقعه الجليّ: "ولأضلنهم، ولأمنينهم، ولآمرنهم، فليبتكن آذان الأنعام، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله.."

مثل هذا الاتجاه الذي يمكن أن نؤصل به الأصالة، بحيث تتجنب — على أساس علمي — مخاطر هذا السبيل من المشاهد الوهمية، والفنون والآداب الأوربية الخداعية، التي أتاحت للشرق والغرب أن يتلعبا طويلا بمصير العرب، وأن يتباريا في فتنتهم، وضرب وحدتهم، وطمس هويتهم — ليس في فكر العلماء والأدباء المعاصرين بدعا من الرأي، ولا ظنا من الظنون، بل هو والحمد لله — حق صاعد في شروقه ينادي به الكثيرون من

زوايا متعددة نحو هدف موحد، يجمع على مستقبل هذه الأمة بين الأصالة والعصرية في كل مجال..

إن هذا الحق العلمي في قضية التعبير العربي – وإن يكن غريبا أو مفاجئا لمن ينشدون إلى اليوم على أرغن الآداب الأوروبية الخيالية، ويرقصون على مزمارها، من أدبائنا الذين غرقوا فكريا في بحر الروم- إن هذا الحق القديم الجديد أخذ في أصوات واعية كثيرة استشهدت بها في هذا الكتاب – يعبر عن نفسه .. أصوات لا يمكن رميها بتهمة "الرجعية" .. أصوات تبرأ بالوعي والصدق والعلم من "الرجعية" السحيقة إلى خرافات هوميروس واسخيلوس كما يتغنى بها تحت ملامحهم الشاذة عدد غير قليل من تلامذة جامعات الغرب وهم يبثونها في أفكار بعض المعاصرين.

إن هذه الأخطار على التاريخ العربي، والقيم الثقافية، وركائز الإيمان، كما أحذر منها في هذه الجهود المخططة للأعداء، وفي إسهامات بعض مدعي الثقافة في بلادنا – إنما تتزايد في هذا العصر لتطويق الصحوة العربية، وتجميد إرادة العرب، ومنعهم من استرجاع ركائزهم وأصالتهم في ثقافتهم، وآدابهم وإيمانهم، وأخطر ما يتهدد العرب من ذلك لا تزال تختزنه الصهيونية العالمية في أدراجها للحاضر والمستقبل من السلع والأفكار الهدامة والمنكرة، كما فعلت الكثير منه للإعداد لقيام إسرائيل في الماضي القريب والبعيد..

على سبيل المثال في تحريف التاريخ العربي لصالح إسرائيل، قصة دعائية ربما يذكرها الجميع هي "الوصايا العشر" التي أخرجتها السينما الصهيونية باستئجار سيسيل دي ميل، وعممتها في الوطن العربي لتقول بصوت كاذب مرتفع إن التوراة نزلت على أحد جبال سيناء الجنوبية هو جبل موسى الذي يقع عليه دير سانت كاترين، ومعنى هذا أن لإسرائيل –

أيها العرب – وجودا تاريخيا، وحقا دينيا، على أرض سيناء.. يحدث هذا وعلماء التاريخ عندنا في غفلة ساهون، يقرأون القصص الخيالية، ويحلمون ويمرحون.. وبينما أدباء المدنية الأوربية معزولون في أبراجهم العاجية عن الماضي العربي يهزلون ويرطنون ويسخرون.. وبينما الحقيقة التي يمكن استقاؤها بالتفكير الحقيقي على امتداد الذراع في جهد بعض العلماء المحققين من المستشرقين، وفي شذرات مبعثرة في كتب التاريخ العربي، وفوق ذلك في مفهوم الحقائق التي أوردها القرآن الكريم، والتي يمكن استخلاصها من التوراة، وهي تؤكد كلها كما في تحقيق علمي للدكتور موسل أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة براغ في كتابه " عن شمال الحجاز" أن طريق الخروج لم يمر بجبال سيناء الجنوبية أبدًا، بل كان مرور إسرائيل من ساحلي خليج السويس وخليج العقبة، وكان مرورا عاجلًا مذعوراً باتجاه أرض مدين، وأن التوراة لم تنزل إلا على جبل حورب أو جيل الرب كما تسميه التوراة، وهو في الجنوب الشرقي من رأس خليج العقبة بأرض مدين.!

في الفصل الأخير من هذا الكتاب كان لابد أن اشير إلى هذا البديل من آدابنا العربية التي اشتهرت في أزهى عصور تاريخنا بكمال التعبير عنا، وبالصدق في تسجيل واقعنا، وشد عزائمنا ، والإشراق بآمالنا، وضبط إيقاع حركتنا الاجتماعية والتقدمية على هدى الإيمان، وضوابط الشرع، ونعمة العمل والحب والسلام. لقد أشرت إلى ما لا يزال يقف أيضا على أبواب صحوتنا من آدابنا العربية التي اشتهر منها في تراثنا، وفي تاريخ الأدب العلمي، تلك المدونات المشرقة بجمال الواقع، والصادعة بالحق، في الأدب الديني، والأدب السياسي، الأدب التاريخي في سير الأعلام، وقصص الشعوب، والعصور، وقصص كل يوم، وفي الأدب الجغرافي، أو أدب

الرحلات الخصبة بأخبارها، وأسمارها، وإشارتها، ومتاعها، والتي تقيم أطول الجسور بيننا وبين العالم المحيط بنا، من وجهة نظرنا نحن إلى العالم، وليس من وجهة نظر من يضللوننا عن هذا العالم..

مثل هذا الأدب الضخم بخصائص الإنسانية، وبتميباته الحقيقة لوعي الإنسان، وعلم الإنسان، وطهارة الإنسان، وإنسانية الإنسان.. مثل هذا الأدب العربي الإنساني المتدفق بحيويته الشعورية، والغنى بمنابع نشوته العقلية والعملية، والمبرأ شعرا ونثرا من مخاطر اللغو واللتاثيم.. لا يزال ينتظر على أبواب هذه الصحوة العربية الشاملة، ليكون الأداة والصياغة لحركة تنوير شاملة لحياتنا المقبلة.. ليكون هو أدبنا وتعبيرنا وفكرنا الذي يربطنا — في أقرب وأجمل ثمراته — بأسرتنا الكبيرة في الزمن. أي بالتاريخ الصحيح لأمتنا العربية ز وبوطننا المعاصر بأنهاره ووديانه، وصحاريه وبحاره، وسكانه وألوانه، هذا الوطن الأعلى والأحب بين الأوطان، والذي مع الألم والخجل لا يزال أكثر المثقفين تحت قبعاتهم العريضة لا يعرفون عنه إلا القليل، كما حدث أن أكثرنا لم يكن شيئا عن سيناء المصرية، وأهلها، وجمال طبيعتها النادر، وموارد صحاريها وجبالها ومياهها البالغة التنوع والوفرة، وذلك منذ أغلقها الانجليز عام 1882 إلى أن احتلها اليهود عام 1967.. عندئذ بدأنا فقط نعيش الحقيقة الغائبة!

وبعد.. فإن ما قصدت وجه الله به بهذا الكتاب هو أن تجدد الظروف الملائمة لسيادة فكرنا العربي الصحيح، بالإيمان، واللغة المبينة، والنظر العلمي، والفكر الحقيقي في كل صيغ التعبير الأدبي.. إننا بذلك، وبذلك فقط، نستطيع أن نحيا مرة أخرى حياتنا الصحيحة بعزائم الإيمان، وحقائق القرآن، وثمرات العدل والعلم، على هذه الأرض الحيرة نفسها،

بصحوها الدائم، وواقعها المشمس، ومداها البعيد، ورؤيتها الجلية.. متطهرين من وساوس العدو، ومن أساطير آلهته، ومن كهانات فكره، ومن ثمالات خمره، كما تطهرت شعوبنا وأرضنا من قبل مرة ومرة.. متحررين أيضا بهذا الطهر والصدق والإيمان في التعبير عن الواقع – من هذا الضياع في متاهات "الفنون الكاذبة" بحثا ضائعا عن هذا " التوازن" الذي يفقده في الواقع كل المنغمين بمعتقداتهم ومقوماتهم عن حركة الواقع..

وبذلك نتقدم بإرادتنا مع ما أراده الله.. لكي يبقى ما بأيدينا من نعمة الإيمان والجهاد والصدق- حيا، ومشرقا، وفعالا، ونحن ندافع – عملا وتعبيرا – عن حريتنا الكاملة الدعائم، والأبعاد، والأهداف، كما عرفها أسلافنا، وكما عاشوا بها، وكما دافعوا عنها.. وانتصروا بها..

وعلى الله قصد السبيل.. والحمد لله رب العالمين،

أحمد موسى سالم

القاهرة : جمادي الأولى 1396

مايو 1976

مقدمة تاريخية للبحث

ربما كان من المفيد بعد هذه المقدمة التي قدمت بها لموضوع الكتاب أن أكتب هذه المقدمة الأخرى حول تاريخ هذا البحث في القصة، وحول تطور اهتمامي به. فلقد كان لهذا البحث في الواقع "قصة".. قصة حقيقية تبتت جورها في أرض الواقع، واستقت من روافده، وتفرعت فيه، بكل ما استهدى إليه البحث من ألوان الحقائق، والشواهد ، والاستدلالات.. ولا شك أن من المفيد أن ألخص للقارئ قبل الدخول في هذه الدراسة طبيعة وظروف مناخها الذي نشأت فيه..

كانت بداية اهتمامي بهذا البحث في الثلاثينات، أي منذ حوالي أربعين عامًا، وكانت نظرتي إليه أول الأمر في بواكير الشباب – أدبية خالصة، قبل أن ينفتح به الطريق أمامي إلى تعقب جذوره في مبادئ الدين وأصول النظر العلمي من الأساس.

كنت في ذلك الوقت، محكومًا بمناخ التخلف المطبق على الوطن العربي، وعلى مصر تحت حكم الإنجليز.. أجرب في الشباب الباكر قبل سن العشرين أول عمل لي بالصحافة محررًا غير حزبي في باب الأدب والفن في جريدة كوكب الشرق الصباحية، والتي كان يملكها لحساب الوفد أحمد حافظ عوض، وكان يكتب فيها في ذلك الوقت طه حسين مع مجموعة من تلامذته الذين ظهروا فيما بعد في مجال السياسة والصحافة والثقافة، مثل السيدة سهير القلماوي، وإبراهيم عبده، وجلال الحمامصي، ومحمد صبيح..

في تلك الحقبة القائمة التي بدا فيها رؤية الأجيال الجديدة من غير المعوقين فكريا: أن العمل الحزبي يصرخ على السطح، ويدق الهواء بالهتاف، بينما آلام الشعب في أعماقه، وقيود الاستعمار تبطئ من حركة أفكاره، وتضلله عن حقيقته وهويته- نشرت في الكوكب قصة نقدية قصيرة بعنوان "خيال" حاولت بها في بداية النطق والتعبير أن أكشف عن هذه الصورة المضحكة، والتي كانت من أعظم الصدمات الذهنية التي أصابتني في أول حياتي العملية — لهؤلاء المتأدبين الذي يتهافتون على محاكاة الأدب الغربي بكتابة نماذج مزورة من القصص المترجم، بأسلوب غث وفج، فترى أحدهم يحكي عن زينب وحسن أحداثًا وصورًا ينقلها نقلا حرفيًا خاطفًا ومتعسفًا عن قصة إنجليزية تحكي عن مرجريت وجون، وقصة فرنسية تحكي عن ماري وشارل، مع تجريد القصة الممصرة بالطبع من كل ما كانت تحمله من مضمون المؤلف، ومن وشى الصناعة الأدبية التي كان يعجز المتأدبون اللصوص- لأسباب كثيرة — عن صناعة البديل العربي لها، فتبدو قصصهم الهزيلة عارية مرتجفة، ترطن — كغانية دهما قاطع طريق — بكلام عربية واستغاثات أوربية !!

كان هؤلاء المتأدبون — ولا يزالون إلى اليوم مع تنوع وسائل السطو بغير خجل — يلعبون هذا "الدور" المهين بالعبودية الأدبية لأوروبا، و"يمثلون" على شعبهم بأعمال وهمية تدخل في مخطط الغزو الفكري الاستعماري، دون أن يفطنوا إلى فداحة ما يرتكبون من جرائم وطنية، وأوزار فكرية، وقد سكروا — رغم أنهم لصوص — بخمرة الفخر بمترجماتهم الممصرة، وزهوا التمني للشهرة والخلود، لأنهم وسط ملايين ممن لا يقرأون ولا يكتبون من أبناء شعبهم المنتجين الشرفاء.. قد استطاعوا أن يصلوا إلى مستودع ديكنز أو موباسان في تراث غزاتهم ومستعبديهم، ليختلسوا منه

بخبرات مركبة من الأمية والجهل ما يفخرون بها، وما يسكرون بخمره.. عراة على الطريق!

وكانت مجلتا الرسالة والرواية تصدران في تلك الأيام بجهد أحد المتعاطفين مع الثقافة الفرنسية، والمشجعين في نفس الوقت لإشاعة "الرومانسية" في التعبير الأدبي إيغالا في تخليق المناخ الأوروبي حول الأدب العربي المعاصر، وهكذا تحت قدر كبير من المثابرة استطاع المرحوم أحمد حسن الزيات أن يضع في حضانة مجلتيه الرسالة والرواية، وتحت ريش دجاجتيه العربيتين الغربيتين كثيرًا من البيض الذي اجتذبه من بين أعداد كبيرة من الأدباء الناشئين، على أمل النجاح في تفريخه لنهضة أدبية عربية شاملة!.. ولكن أكثر هذا البيض فسد في تيار للأدب بغير منهج، وبغير أصالة، وبغير عصرية .. ومع الأسف حتى مصطفى صادق الرافعي الذي شغله "الأسلوب" و"الوشي" والصراع مع العقاد وطه - كان في تيار هذه النهضة الأدبية القصصية الأوروبية الرومانسية لا يشعر بضرورة الحاجة إلى أدب يمثل الفكر السياسي والاجتماعي لهؤلاء العرب الذين يتكلم باسمهم، ويتفاصح في المناسبات الدينية بلسانهم، وليس بحقائق الدين، وركائز الدعوة التي تبني في تيارها الأدبي مجتمع العرب الحر الجديد!

وهكذا فسد أكثر البيض تحت ريش مجلتي الرسالة والرواية.. فبعضه كان بالضرورة بيض غربان ونسور، وبعضه كان بيض طواويس وببغاوات .. والذي صح من بقاياه لم يخرج منه إلا هؤلاء القصاصون والمتمسرحون الذين ظنوا - وهم "يمثلون" ادوار الأدباء الكبار في العالم - أنهم حققوا العبادة الصحيحة - داخل أبراجهم المغلقة عليهم لآلهة اليونان وأوروبا القديمة والحديثة!

منذ ذلك الزمان وقد عاصرت عن قرب، وعن بعد أيضًا مشاهد هذه الغزوات الأدبية للغة العربية، وللأفكار العربية في أعماقها بدأ اهتمامي بالسؤال عن "القصة العربية" . ما جذورها؟ .. وما طبيعتها؟ .. وما خصائصها؟ .. وما نماذجها في التراث؟ .. أسئلة صعبة... رأيت غيري قد سارع إلى الجواب عنها، وقطع بالحكم في أمرها .. وقطعت سنوات طويلة أبحث عن جوابها الصحيح.. حتى جاء هذا اليوم..

في ذلك الزمان المبكر من نشأتي أتيح لي أن أحصل على دراسة بالمجان في رأس وخيال أحد القصاصين الكبار.. كانت هذه الدراسة الخاطفة بالفعل هي البداية لتفكيري السليم في هذه القضية، لقد كانت الدراسة خوارًا جادًا وصحيحًا في حركة الأجيال بين أديب كهل مرض بالقصة والمسرحية إلى حد الاحتضار، وبين ناشئ في غيبه يبحث ويتحرى لنفسه قبل أن يدركه المرض..!!

كان الأديب الكبير على تفاوت العمر زميلا صحفيًا مسئولا عن الأدب في إحدى الصحف التي عملت بها. وكان كعادة هؤلاء الأدباء له مقهى خاص يشرب فيه الخمر بغير تحرج، ويلتقي بالزملاء، والمعجبين، والفارغين، لينفخ الجميع أكثر ما عندهم من الكلمات والحذلقات في الهواء.. وكان هذا الزميل الكهل يطمع بعد أن عرضوا له رواية مسرحية في دار الأوبرا – سبق بالتأكيد تأليفها عشرات المرات تحت عشرات العناوين – في أن يصبح رأسين مصر أو شيئًا من هذا القبيل في تاريخ الرواية الأدبية..!

كان رأسه الأشيب مليئًا بالكثير من الآمال الخرافية عن مستقبل القصة بين العرب بمفهوم القصة عنده، وهو الذوبان والتلاشي في محاكاة أدب الغر ب. وكان من باب التفضل والإحسان قد سمح – دون أن يخطرني

– بأن يضع مواهبي الناشئة في رعاية عبقرية المشعة، حتى أرى الطريق واضحًا وأواصل السير.. على درب الأدب القصصي.. الدخيل!

وكانت ذروة السذاجة أن اختار لي من عنده شيخًا من أعلام القصة الأوروبية هو القصاص الروسي تولستوي لكي أتتلمذ عليه، وأشرع في دراسة أعماله وتاريخ حياته، وكتب النقاد فيه، وأثره في عصره، وقياسه إلى أقرانه، حتى يصح لي مع الزمن أن أتقمص خيال هذا العبقري، فأنتقل من درجة المريد في القصة إلى درجة الإمام!!.. وهكذا كانوا ولا يزالون يفكرون!

في بعض هذا الحوار الغريب لازلت أذكر أنني قلت يومذاك لزميلي الأستاذ الكبير – الذي أفلست أكثر مشاريعه القصصية فيما بعد – "إنني لا أحب لنفسي أبدًا أن أكون تولستري أو دوستويفسكي أو غيرهما ممن تقترح لي. أنني أشعر بالغثيان من هذا التصور. إن كلا من العملاقين مستقر في شجرة إنتاجه على جذور مشتركة في الفكر الأوروبي، وبعيدة المدى في التاريخ، وهو يمثل امتدادًا ونشاطًا خاصًا لهذه الجذور بالمزاج القومي الروسي، المتمثل في هذا الاستبطان الصوفي الأدبي لتفاعل حركة الشعوب الروسية، وأحداث حياتهم، في طبيعة بلادهم الخاصة، ذات المساحات الجليدية الشاسعة المروعة، وما ينعكس على جليدها من ظلال حياة القياصرة، وكنائس وترانيم المسيحية الأرثوذكسية، وجحافل الفلاحين والفقراء والجائعين، الذين طالما سقطوا موتى على جوانب الطرق الخاوية من الجوع والجهل والفودكا!

ثم قلت كما لا زالت أذكر "إن كلا من هذين العملاقين هو تعبير في مرحلة من التاريخ عن تراث متطور للشعب الروسي، ولخصائصه داخل عصره. وأما ما يعنيني في المقابل فهو أن أكون بتعبيري الأدبي كما ينبغي

أن أكون، صحيح الانتماء عصريًا إلى الأمة العربية فوق هذا الوطن – مصر – .. ولكن كيف؟.. إن الجواب الصحيح لم أصل إليه بعد!"..

قال في لجاجة الجدل " إن العرب لم يعرفوا القصة الفنية، ولم يفكروا في بنائها، بينما هي في دلالتها الحضارية أرقى من شعر المديح والهجاء، ومهمة الأدباء العرب في هذا العصر هي تطويع أساليبهم في التعبير الأدبي لهذا الفن الرفيع".

قلت له "إنني أرى حتى الآن أن العربي كان مثالا في أول العهد بالإسلام للإنسان السوي. وأنا لا أفرض عليك أي رأي. كذلك فإنه مما يتفق مع قيام الحضارة العربية الإسلامية على القرآن، الذي هو كمال التعبير باللغة عن منهج الإنسان الكامل، أن نؤمن بهذه الحقيقة التاريخية التي تقول إن العربي الأول كان سيد البيان بلغته، وإن بيانه في نفس الوقت كان طريقه إلى التعبير عن صفات السيد وهي الحرية والديان والمعروف..؟ أو الحرية والبيان والإيمان".

ثم قلت "ولذلك فمن المهم أن نبحث لنعرف: هل كان خلو الأدب العربي قبل الإسلام وبعده من القصة الخيالية والمسرح هو من باب النقص.. أم هو من باب الكمال؟ .. هل كان هذا القصور فقرًا في هذا اللون من الأدب .. أم كان غنى عنه .. هذا رأيي حتى الآن" !

قال الزميل الكبير بلغه الاستنكار والتقريع، وكان ينطق الراء غينًا على لغة أهل باريس: "إنك بهذا الرأي الأخرق المتسرع ستثر ثائرة المثقفين والأدباء عليك، وأنا أولهم.. ولسوف نحاربك إن جنحت إلى مثل هذه الآراء حربًا شعواء".. ثم كرر "وأنا أولهم" !!

ولم أهتم بأقوال الزميل الكبير، الذي طال ما أثمله الوهم، ولم تلبث آن انقطعت بيني وبينه السبل، والحمد لله، كما انقطعت بيني وبينه قربى الأفكار والأهداف.. وإن كنت قد سجلت في أوراقي هذا الحديث في أوانه..

وتتابعت دراستي بعد ذلك للتراث مع تنقلي في العمل من مكان إلى آخر، ومن تجربة ومشاهدة إلى رأي وخبرة، حتى كانت أوائل الأربعينات فبدأت برغم تهديد الأستاذ الكبير – في نشر سلسلة من المقالات حول هذا الموضوع نفسه وهو " القصة عند العرب وعند غيرهم" وكان قد استقر لي هذا الرأي المبدئي بأن القصة عند شعب من الشعوب هي انعكاس بالصدق أو بالكذب، بالحقيقة أو بالخيال، لرؤيته للواقع وحكايته عنه، متأثرًا في ذلك بلغته ومعتقداته وظروفه الاجتماعية.. وبيئته!

وكان رد الفعل الغريب لهذه المقالات بين الأدباء المصريين هو على عكس نبوءة الأستاذ الكبير – جدارًا من الصمت، ومزيجًا من هز الأكتاف، وقلة الاكتراث، بينما كان استقبالها في سورية والعراق، وحتى الشاطئ الشرق للجزيرة العربية في الكويت والبحرين حارًا ومشجعًا، ومصحوبًا بالكثير من الاهتمام والتمحيص، الذي ظهر في كثير من وسائل مناقشة الرأي، والرد عليه بالتأييد أو الاستفسار أو الاعتراض، أو الخروج برأي وسط.. أو رأي جديد، كما هو مسجل في مطبوعات تلك الحقبة..

كنت قد نشرت تلك المقالات في مجلة "الأنصار" العربية الإسلامية التي كنت أرأس تحريرها في تلك الفترة. وكان ذلك بتوقيع رمزي لمضمون هذه الدراسة وهو اسم "صادق الحكيم" وقد قصدت به أن "الصدق" هو حكمتنا ومنهجنا في القصص والتعبير". وأعتقد أنه قد كان لهذه المقالات

أثرها في الإعلان عن نظرة أكثر جدية وعلمية في فهم التراث القصصي عند العرب وغيرهم على أساس ديني واجتماعي، وفي تنشيط عدد من الدراسات العربية المفيدة في هذا الاتجاه في أعمال عدد من المفكرين في سورية ولبنان.

ومع ذلك فإنه مع استمرار الأدب العربي في التدهور بسبب انسلاخ مناهج التعليم في بلادنا بتأثير الاستعمار عن المنهج السليم بتحفيظ القرآن من الطفولة لتربية ملكة اللغة، وتهيئة مناخ الإيمان، وكذلك بإهمال الأدب العربي، والتاريخ العربي، والتربية الدينية في بقية مراحل التعليم حتى الجامعة التي فصلها الاستعمار بمناهجها الغربية عن الأزهر، كما فصل الأزهر بطرائقه التقليدية عن ثقافة العصر وتيارات العصر.. فقد استمر بنفس المعدل تدهور الأدب القصصي الروائي، والأدب القصصي المسرحي إلى حد الانهيار الأول، والابتذال للأخير، الذي أصبح اليوم فرعًا من فروع اللهو الهابط، وستارًا تحت عنوان الفن للتجارة بالجنس، وتحديدًا في المزاج الشرقي بالوسائل الغربية لاستعادة الأوضاع القديمة للجواري في قصور السلاطين، ولكن في إطارات جماهيرية مباحة للجميع. إنها نخاسة جديدة عصرية ترفع شعارًا "اصطلاحيًا" لا علاقة له أساسًا بالأدب أو التنوير أو الثورات الفكرية أو النهضات الإصلاحية هو الشعار الفارسي الخيامي القديم "اغتنم اللذات" بالإضافة إلى الإعلان البوهيمي المألوف في كل أوروبا "ادفع ... وفرفش"!

ثم انقطعت صلتي بالصحافة والكتابة عدد سنين، في حياة بعيدة عن المدينة المكتظة، اللاهثة تحت نير لا تراه .. حياة بسيطة وحرة أقرب في صحارينا الغنية بأخبارها وأفكارها إلى البداوة الأولى منها إلى أي شيء آخر. لم أترهب ولم أتصوف، فلقد كان معي أهلي وأبنائي، وكنت مع

القادرين منهم نعمل بأيدينا بغير امتهان.. وهناك حيث خرج من خرج إلى هذه الأرض ابتغاء وجه الله، وتحررًا إلى الله في بداء الله، وحيث عاش بها من عاش بها، ويعيش إلى اليوم، من خفت عنهم أوزارهم الحياة، ومن تقع أعينهم في كل نظرة ينظرونها على نعمة جديدة من نعم الله.. هناك حيث أبلغ بي السير.. نظرت كما أمر الله "سيروا فانظروا" .. نظرت من غير حواجز نحو المنظور، أو تمويهات وراء المنظور.. نظرت وتفكرت .. وتعلمت .. فلم يكن هناك مع أصدق الصدق في كل ما حولي – إلا الآفاق .. والنفس ... والتوجه إلى الله .. وحمد الله..

هناك تعلمت من غير كتب أن القصص الحق هو التتبع بالصدق للحق، والاستهداء به إلى الحق، وإلى علم الحق.. من أجل ممارسة جميع الأعمال بالحق..

وعندما رجعت إلى المدينة عادت ملاحظتي إلى الأدب في مجالاته المعاصرة، وإنتاجه المعاصر إلى ظواهر هذا الصراع المستمر بين الأصيل والدخيل، وإلى تصور مدى ما يمكن أن تنتهي إليه آثار هذا الصراع على التحولات الفكرية، والتغيرات الاجتماعية، على ما يمكن أن تؤدي إليه الجهود المخلصة من التعجيل.. بدلا من التأجيل ... بإرساء الأساس الثقافي القومي الديني التقدمي الذي ينشأ فوقه، وينمو، مجتمعنا العربي الجديد في هذا العصر..

ثم حدث أن زرت أوربا أكثر من مرة، وكان المسرح من بين ما شهدته بعيني، وناقشت فيه، إلى جانب تقديري لسلطان العلم الحديث وإنجازاته التي هي ثمرة نظريات جذورها ممتدة بأعماقها إلى الحضارة العربية الإسلامية، لقد زرت عددًا من المسارح الكبيرة، وشاهدت عددًا من المسرحيات القديمة، أو البرامج الخفيفة والترفيهية التي بدأت تحل

محلها، ولمست بنفسي تدهور المسرح القديم في وطنه الأول، ومناخه الملائم، إلى أشكال ومذاهب في التأليف المسرحي تقطع بطبيعة التضاد بين المزيد من البناء بالعلم والمزيد من التمويه بالدراما!!

كذلك فإن تجربتي حول موضوع "العرب والقصة" واتساعه بالدراسة المقارنة مع "العالم والقصة" قد زادت بعد هذه المشاهدات على المسارح الأوربية، والمناقشات مع المثقفين الشرقيين والغربيين حول المدلول الحقيقي لخفوت أنوار المسرح المعاصر، وتراجعها إلى مذاهب جديدة أكثر اهتمامًا بالقضايا الاجتماعية، وبالإنسان الذي يفتقر إلى من يقترب إليه "بالخطاب" على المسرح التعليمي بالأسلوب المباشر، وبالصدق الذي هو أحوج إليه في عصر العلم من أي رؤية خيالية، محكمة التمويه، لانبعاث المحاكاة مع واقع مخترع قد انتهى عصره.. وسقطت طبقته!

واليوم أنا أعود بهذا الكتاب إلى هذا الموضوع في هذه الدراسة الموجزة – إلى حد ما –حول "قصة القصة عند العرب" ، وحول أن هذا النوع من القصص الذي يحكمه المنهج القرآني على أساس الصدق التاريخي، والصدق العلمي، والصدق في الهدف الإنساني – هو أجدر القصص في حياتنا المعاصرة، وحياة البشر بصفة عامة بالدراسة والاهتمام، والتوصل منه إلى هذا القانون الذي يقدم به القصص العربي القرآني هذا الشكل العلمي من أشكال الوحدة بين القوانين العلمية وبين الأدب..

إن هذه الدراسة بهذا الاتجاه الواسع، والتي تأخرت كثيرًا عن أوانها في حياتنا الفكرية إلى قرون طويلة وحتى هذا العصر – هي بحد ذاتها ركيزة من ركائز وحقائق الدين الإلهي الحق، الكامل في الإسلام، والذي يحدد بهذا الالتزام العام بالصدق حدود الحياة، وعلاقات المجتمع، وأهداف التواصل الاجتماعي في هذا المجتمع الديني العالمي والعصري

والصادق، في مقابل ما تحدده هذه الديانات الوضعية، والأيديولوجيات الإلحادية، التي تطمس بانقطاعها عن الصدق بالتعبير والأدب والفن الخيالي والتمويهي حدود الشمول العلمي لحركة هذه الحياة الجادة.

إن قصة القصص العربي الصادق، في حدود الخبر الصادق، والسيرة الأمينة للاماكن والعصور والناس والأفراد والأشياء.. هي قصة الجهاد الموحّد على كل ساحات الحياة العربية بهذا الصدق العلمي الذي يزيده التعبير باللغة العربية المبينة جمالا في كمال النظم، وروعة الإيقاع، في داخل منظوماته العديدة التي يتسق فيها الواقع والحس مع العبير الأدبي والشمول الإنساني، وذلك في مقابل هذا الحلم العزائي المطوط في الخرافات الشعرية والأساطير، أو هذا الابتزاز الدرامي للنقائض الخفية، والآمال المحطمة، في تلك المسرحيات التي لم تتجاوز مهمتها تصنيع وتنويع العزاء للمقهورين والقاهرين، في عمليات تنويم وتخدير بالمؤثرات السمعية والبصرية والحركية من أجل هذا الانبعاث المريح أو المتوتر لمجموعة من أحلام اليقظة، تم بتوجيه السلطة التي يمثلها الإمبراطور أو الملوك والنبلاء أو الاحتكاريون.. والحزب !

إن قصة القصة العربية كما أحكيها وأدافع عنها في هذا الكتاب هي في حقيقتها قصة هذا الشروق الأول للحقيقة ذات الوجه الصبوح في واقع الإنسان الفطري، والحر، والمتحرك بحريته وفطرته إلى هدف شديد الوضوح في حياته.. هدف يتحقق به هذا الاتساق والانسجام بكل حواسه وعقله مع طبيعة شديدة الوضوح أيضًا، يراها تتحرك معه، وفيه، ومن حوله، بهذه التوافقية التي تظهر له في لغته الجميلة الشاعرة، وهي تعكس في أنغامها إيقاع هذه الطبيعة المنسجم مع حركته، بينما تتدفق في

كلماتها ومعانيها ونظامها الصوتي أفكار وكلمات هذه الطبيعة التي هي قوانين الله وحكمته تجري على لسانه، وتهديد إلى خالقه..

بهذا التوافق بين الإنسان العربي مع الطبيعة التي سخرها الله له باتجاه أفكارها وقوانينها، وليس ضد أفكارها وقوانينها، وحكمة الله فيها – تظهر جميع الأشياء أمامه في مواقعها كما هي بغير اختلاط، وتظهر في وحدة مع نفسها، وفي وحدة معه بغير انفصام.. وبهذا الصدق في الرؤية من خلال الحركة، والصدق في التعبير مع سلامة الحواس.. وجد هذا الإنسان العربي برهانه المتجدد والدائم على الله.. ووجد مع هذا البرهان بداية الطريق، كما وجد الهدف والمنهج والسكينة.. أي وجد سلامه النفسي الذي هو ذروة انتصاره بالحرية والإيمان وصدق العمل، وصدق العمل، وصدق التعبير.. شعرًا ونثرًا .. ومثلا وحكمة.. وأدبًا وخطابًا.

.. ثم لعلي بعد ذلك أن أكون بحكاية بعض المواقف في قصة هذا البحث قد مهدت طريقًا رحبًا أمام القارئ العربي ليتابع فصول هذه الدراسة بقدر كاف من الجد، وقدر كاف من الوضوح، حتى يرى رأيه فيه – إن شاء الله بقدر كاف ومثمر من الإنصاف..

القسم الأول

بداية القصة..

والآراء المعاصـــرة لهـا

الفصل الأول

بدَايَة القِصَّة.. وَ الآراء المعَاصِرَة لهَا

القصة الأولى:

لم يكد ذلك الإنسان الأول يمد خطاه على هذه الأرض، بعد أن تطامنت لسعيه، فوق بقاعها المتباينة الحرارة والخصوبة، والمتعددة المجاهل والمعالم – حتى نشط في رعايته – بحكمة الخلق ورحمة الخالق – ثلاثة أوصياء، في صورة ثلاثة قوانين تحكم أبعاد حركته؛ وتلائم بين قدراته وبين بيئته، بينما هي تدفعه من ظهره ليعيش، وتنفذ إليه من حواسه ليفكر.

هذه القوانين الثلاثة تكمن فيه وتظهر له في شكل حاجات أساسية على الوجه التالي:

1- قانون حفظ الذات... ويظهر في حاجة الإنسان إلى الماء والطعام.

2- قانون حفظ النوع ... ويظهر في حاجته إلى المأوى والأسرة.

3- قانون حفظ النمو والتطور... ويظهر في حاجته إلى اللغة والعلم والدين.

ففي حاجتين من ثلاث حاجات اشترك الإنسان مع جميع الأحياء المرافقة له على الأرض، وهي الطعام والنسل، أي حفظ الذات وحفظ النوع. وأما الحاجة الثالثة وهي اللغة والعلم والدين فقد تميز بها الإنسان الذي انفرد بعقله، وبمسئوليته عن اختيار منهجه في قيادة الأشياء والأحياء المحيطة به.

لقد أتيح إذن للإنسان بقوة القانون الثالث أن يتجاوز كل رفاقه على الأرض في مواقعها الثابتة، وأن ينفرد عنها ببناء حياته الفكرية والاجتماعية والتاريخية، وأن ينمي هذه الحياة ويطورها عن طريق فهم أكثر للطبيعة، وعلم أرشد بقوانينها، يكشف بهما عن نظامها وطاقاتها، ويخترع من الأدوات والنظم ما يسيطر به على حركتها، وما يحقق له –

وفق عقيدته وأهدافه – مزيدًا من استثمار طاقاتها وخاماتها.. وكانت وسيلته في كل ذلك حواسه ولغته وعقله، وقدرته على الملاحظة والتجربة والمتابعة وراء هدفين أساسيين هما المزيد من قدرته على الاستثمار، ومن قدرته على إتقاء المهالك والأخطار.

وعندما نحاول أن نتصور الآن بداية الإنسان الأول نجد أنه قد هبط إلى الأرض بحواس كاملة الصلاحية والحساسية للرؤية والإصغاء والملاحظة، ولتجميع الصور والأصوات في كلمات معبرة، وملخصات لغوية، يؤلف بها منظومات أفكاره، ويسجل منها لفائف ذاكرته ومعلوماته، لتكون هي وسائله – بحسب قدرته العقلية على الاستخلاص، وقدرته الشعورية على التوازن – للتمييز في جمع العلم، وفي متابعة التجارب، بين الخطأ والصواب، وبين الظن واليقين.

لقد بدأ هذا الإنسان حياته الأولى على هذه الأرض – مع اكتمال وسائله الحسية والعقلية، ومع امتلائه بكل احتمالات المستقبل – مجردًا من أية تجربة سابقة، ولذلك فقد كان عليه من الخطوة الأولى أن يندفع لجمع الأخبار، أو المعلومات والحقائق، تحت ضغط القوانين الثلاثة الدافعة له، وتحت حكم حاجته إلى أن ينمو ويأمن، فكان اتجاهه الدائم إلى محاولة الكشف عن هذه العلاقات الخفية بين الأشياء ونفسها، وبينه هو وبين الأشياء، ثم بينه وبين هذا المجهول المعلوم فوق الإنسان والأشياء.. وفوق الزمان والمكان.. هذا الذي يتم به تفسير الحياة والوجود، والماضي والمستقبل، ويقوم على أساسه شكل من أشكال الدين الحق، أو الدين الوضعي، أو الفلسفة بظنونها المختلفة.

وهكذا يومًا بعد آخر أخذت تتجمع للإنسان بمختلف بيئاته "أخبار" صادقة – كما يراها – عما حوله، وعن نفسه، وعن عشيرته وبني جنسه..

"أخبار" يستطيع أن "يُقصها" بمعنى أن يتتبعها ليعرف المزيد منها.. ويستطيع أن "يقصها" بمعنى أن يرويها لغيره، ليزداد حفظه لها في تاريخ وثروة الحياة والعلم وهو يكررها، ويفهمها، ويتابع الإضافة إليها لتزيد ثروته من المعرفة والقوة.

من هذه الأخبار الصادقة التي كانت هي "أول القصص" في حياة الإنسان بدأت معرفته تزداد، ويبدأ امتحانه المتواصل لمفردات هذه المعرفة يزيد من قدرته على الحكم العلمي، وهي مرتبة فوق العلم، من حيث أن القدرة على هذا الحكم العلمي، أو على الحكم اليقيني، المرتكز على أخبار صادقة تثبت نتائجها بالتجربة، هو الذي يعين الإنسان في أي موقف من مواقف الحسم الفردي أو الجماعي على اتخاذ "القرار" السليم الذي يترتب عليه تحصيل النفع، أو تجنب الضرر..

هكذا إذن ولدت القصة الأولى في حياة الإنسان بمولده.. لقد ولدت معه من حاجته إلى "الخبر الصادق" عما في نفسه، وعما في داخل الأشياء والأحياء المحيطة به، وعما هو من حاجة الفرد وحاجة الناس إلى تبادل المعرفة بهذه الأخبار الصادقة، التي هي دليله على طرق العلم، وبعيداً عن متاهات الجهل.

لقد كانت هذه "الأخبار" التي حملتها "القصص الأولى" في حياة الإنسان بحكم القوانين الحافظة والمحركة له هي في كتاب حياته "أبجدية" معرفته الأولى، وهي مسجلاته الصوتية والمصورة التي بدأ بجمعها في واعيته وذاكرته، وفي كلمته وإشارته، مصبوبة –حتى لا ينساها– في قوالب نغمية تعكس إيقاع حركة الطبيعة المحيطة به على حركته.. تعكس إيقاعها موجهًا إليه بلغتها التي فهمها ونقلها في صوته، ونقل صورتها إلى عقله، ليتابع ويجمع – من هذا المصدر الذي لا يكذب وهو

الطبيعة –حقائق العلم الذي يهديه إلى الدين الحق، وحقائق الدين الذي يهديه بالعلم إلى تصحيح هدفه، وإلى المسئولية عن العمل على تحقيق هذا الهدف ساعة بعد ساعة، ويومًا بعد يوم، وجيلًا بعد جيل.

المطابقة للواقع:

إذا كان الأمر كذلك، وكان الإنسان الأول في روايته لتلك "القصص الأولى" من تجاربه إنما كان يروي "الأخبار الصادقة" التي وقعت له ليضيفها إلى ثروته العلمية والنضالية، فمن أين جاء الخلاف في هذه الرواية، وكيف بدأت الخرافة تتسلل إلى "الأخبار" لتضع منها قصصًا خرافية وأساطير.. ومن بعد روايات خيالية ومسرحيات!؟

الخلاف بالتأكيد جاء من هذا التباين الطبيعي بين الناس في قدرة المطابقة للواقع في رواية الخبر، وفي نقل الانطباعات الشعورية عنه، وبخاصة عند التصدي لتفسير بعض الظواهر الطبيعية من خلال مؤثرات بيئية معينة لا تساعد على هذا التفسير بغير افتراض خرافي!

لقد كان هذا الإنسان الأول يخرج في حياته الأولى، وفي بكور الوعي والعقل، ليجمع الغذاء من الغابة، أو ليطارد الصيد عند منابع الماء، وذلك قبل عصر الرعي والزراعة، فكان يختزن كل مشاهداته من الصور والأصوات خلال رحلاته الخطرة والمثيرة، ماضيًا بتأثير ما وعاه من حوار الحركة بينه وبين الأخطار والآمال التي أحاطت به، في تقويم لغته، وتجويد مطابقته – حول الفكرة التي وعاها – بين الصور التي رآها، ودلالاتها الصوتية في الكلمة المناسبة لها، وبين الواقع الذي عاشه لحظات الخطر والأمل، والذي اجتمعت له صوره وأصواته بالكلمات والإشارات.. فإلى أي حد تكون المطابقة بين مشاهداته وحواسه، وبين حواسه ولغته، وبين لغته وروايته عن الواقع نفسه.. كما كان – وليس عن الواقع الآخر

الذي يمكن أن تغيب منه أشياء بسبب ضعف الملاحظة.. أو أن تضاف إليه أشياء بسبب قوة التخيل.. وحيث تبدأ الأسطورة وتتمدد بأوهامها في حرارة المبالغات..!

إن هذا الإنسان الصائد، أو جامع الغذاء، إذ ما عاد إلى مأواه بين زوجه وولده، أو مع إخوانه وعشيرته، بدأ في إتمام مهمته الخطيرة بعد الحصول على الطعام وذلك بأداء واجب "الرواي" أو "القصاص".. فهو في فترة إعداد الطعام أو التهامه، يتحدث.. ليقدم لهم حصيلة أخرى هامة جداً مما وقع له، وجمعه في رحلته الخطرة، من غذاء الصور والأصوات والحركات التي تضيف إليهم علم ما لم يعلموا.. لقد جاء إليهم إلى جانب الصيد أو الثمار بصيد أثمن هو هذه "الأخبار" التي تضيف علماً، وتعلم جديداً، وتبعث سروراً، أو تخلق حذراً، وبذلك يضيف هذا "الراوي" إلى أهله وعشيرته قدرة تشد أزرهم في نضالهم — بقدر ما يكون من صدق روايته، ومن مطابقة الخبر لواقعه.. قدرة تمیهم بمزيد من النور يخترقون به الظلمة الكثيفة، ويكتشفون به مساحة أكبر من المجهول، نحو مزيد من الشبع والأمن.. والعلم الأشمل بالعالم المجهول!

لقد كان هذا الإنسان الأول — كما نتصوره اليوم — يحاول أن يملأ الفجوات الناقصة في المعنى الذي يدركه وعيه ولا ينطق به لسانه .. كان يفعل ذلك بالصرخات والإشارات وهو يخبر زوجه وأولاده وعشيرته مبشراً.. أو منذراً — لقد كان بأصواته وصرخاته — أو بقهقهاته — وإشاراته يجتهد أن تقع المطابقة بين ما شهده وما يحكي عنه ويحاكيه، فلم تكن في حياة البداية والبداوة، أي في حياة لم يحكمها القهر الطبقي بعد — أية ضرورة للكذب في الرواية ونقل الأخبار.

نعم.. ففي البداية، وفي مرحلة التعلم الطليقة بين الإنسان والطبيعة لم يكن "الكذب" في رواية الأخبار من حاجات الإنسان الأساسية مثل حاجته إلى الماء والخبز، أو إلى المأوى والزوجة، أو إلى الكلمة والعلم.. بل إن هذه القوانين الثلاثة الأساسية التي تحكم أبعاد حركة الإنسان لا تمنحه أفضل ما في رعايتها له إلا بالصدق.. وبالتأكيد فإن قانون الحاجة إلى اللغة والعلم والدين لا يمكن أن يتقبل الكذب، أو الخطأ في التجربة، أو الانحراف عن الصواب بانحراف الحواس عن نقل المنظور الصحيح، أو المسموع الكامل، فكل هذا يرفضه العلم بمفهومه المحدود في علوم الطبيعة، كما يرفضه بداهة بمفهومه الواسع في علم الدين والتاريخ والطبيعة، المتحدة في علم واحد يقود الإنسان إلى الصواب والحق.

لقد كان من البديهيات في حياة الإنسان الأول أن مخالفة الواقع في رواية "الخبر" تقضي على القيمة العلمية لهذا الخبر في حياة الإنسان، وتذهب بما فيه من هداية الجماعة إلى ما يصلحها.. فالكذب لم يكن يتجاوز أول الأمر قصور حواس الإنسان عن الرصد، أو قصور لغته عن التعبير، أو بعض نزوات الطمع الغريزي في الإنسان كما يحدث عندما يخفي الصائد شيئًا لنفسه عن أسرته، أو لأسرته عن عشيرته.. أو عندما تدفعه هذه الأثرة بشكل آخر إلى المبالغة في رواية ما وقع له بما لم يقع، مستهدفًا مزيدًا من الاهتمام، أو لفت الأنظار إليه بين الأسرة والعشيرة.. وأمام نفسه أيضًا!

لقد كان الصدق وثيق الارتباط في رواية الخبر بمصلحة الجماعات البدوية الأولى، التي سلمت في تكوينها الاجتماعي والحركي بعيدًا عن قهر النظم الطبقية، وعن تلوث الفكر بالثقافات الاستمتاعية أو الخداعية أو العزائية، ولا يزال مثل هذا الصدق في رواية الأخبار هو محور الأمن في

حياة القبائل العربية البدوية، كما في صحراء مصر الشرقية، وفي جميع أرض سيناء حتى حدودها المصرية عند العقبة ورفح، حيث في معايشتي لهم في سيناء الجنوبية بضع سنوات وجدتهم يسمون الأخبار باسم جامع هو "العلوم" وذلك من حيث أن العلم في كل مجالاته هو "الخبر الصحيح" والصادق عن المعلوم. فالخبر الصادق عن حركة الأشياء هو علم الطبيعة، والخبر الصادق عن قوانين حركة الإنسان في المكان والزمان هو علم التاريخ، والخبر الصادق عن الله الواحد الحق من طريق الكتب والرسل هو علم الدين، وهذا الفهم الصحيح هو من صميم اللغة، وما نزل به القرآن.

لقد شهدتهم كثيرًا كلما التقوا على ماء العيون، أو عبر أسفارهم بين الأودية والجبال راجلين، أو فوق ظهور إبلهم، أو على الطرق الممهدة للسيارات — يسأل الرجل الرجل من قومه، أو من قبيلة مجاورة لقومه عن "العلوم".. إنه يسأله بعد التحية الطيبة قائلًا "إيش العلوم يا فلان" فيقص كل منهما — وقد توقفا لحظة ذات شأن في سير الأحداث على تلك الأرض الواسعة — أصدق ما يعلمه من الأخبار لصاحبه. إن كلًا منهما يحدث الآخر بإيجاز يبلغ القصد بكل جديد مهم من شئون الحياة الجامعية في مجتمعهم فيقول "والله البلاد ممطورة والحمد لله" أو يقول "سال الوادي الفلاني عند سدر.." أو "البلاد ربيع.. والزرع خصاب الحمد لله.. يعوض بذاره"أو "جماعة فلان وفلان حضروهم كبار العرب وتكافلوا على القضاء، وقعدوا الحق.." أو "لك طولة العمر فلان مات.. وفلان أعرس على بنت فلان".. "والشيخ فلان عقب ما نزل الطور، ولاقى المأمور طلع البر.." إلخ. وهكذا كما في لغة العرب الأولى الصحيحة فإن الأخبار "علوم" لأنها واقع.

إن كل هذه الأخبار الصادقة عن المطر، الزرع، والناس، والدولة.. هي من "العلوم".. ولو لم تكن صادقة لم تكن علما.. ولانعكست دلالتها. وفقدت قيمتها، كما يجري الآن في كثير من أخبار أو "علوم" الصحف غير العلمية.. أي غير الصادقة.. في بعض الأحوال!

الأسئلة الدائمة:

ولكن هذا الإنسان الأول كان أيضًا رغم بساطة عيشه أكثر مواجهة لهذه الأسئلة الكبرى في كل عصر – عما وراء الطبيعة والحياة والإنسان، وعما فوقها من سلطان، وما بعدها من مصير.. إنها الأسئلة التي لا يزال يبتعد بها الإنسان عما هو في حدود رؤيته الحسية، وقدرته العقلية، والتي كثيرًا ما يبتعد بها عن الطريق الصحيح للجواب عنها جوابًا لا يشغله عما هو فيه من حمل أمانة الحياة، أو عن قياس المجهول على العلوم قياسًا شعوريًا وعقليًا يهديه إلى حقيقتها في جواب صادق شامل هو "الله".

إن هذه الأسئلة تجاوزت محاولة الإنسان الأول معرفة: هل هذا النهر أعمق من قامة الرجل حتى يمكن عبوره؟؟ أو هل هذا الحيوان المتسلل في غبشة الفجر هو وحش أو صيد..؟ .. أو هل هذه الأفعى التي تسربت إلى متاعه سامة أو غير سامة؟ ... إنها الأسئلة عن الوجود الأكثر شمولا: والأبعد أفقًا، في النظر والتفكر... وعلى الرغم من صعوبة عيش الإنسان الأول، ووفرة مشقاته، فلقد عجز عن أن يشيح بوجهه وفكره عن هذا الأفق البعيد، فأجاب بما وسعه من العلم ومن الخبر الصادق، أو غير الصادق، كما لا يزال الإنسان المعاصر يحاول أن يجيب عنها، عاجزًا كالإنسان الأول عن الإشاحة عنها بوجهه أو بفكر، وعاجزًا كذلك – رغم وفرة أجهزته وضجة ادعاءاته – عن أن يصل في جوابه عنها إلى قول

فصل، أو جواب حكيم، يوقف هذا الصراع الدموي المتزايد بين الإنسان وأخيه الإنسان، بسبب الغلو في الإجابات الخاطئة عن هذه الأسئلة نفسها..!

إن هذه الأسئلة الدائمة عن الوجود وعن الإنسان، والحياة والمستقبل تعددت منذ حياة هذا الإنسان الأول وهو يدرك الحقيقة مرة، ويخطئها عشرات المرات.. فهل بدأ هذا الوجود بنفسه..؟ .. إذن فمتى وكيف؟

أم هل بدأه خالق أكبر فمتى... ولماذا.... وكيف؟

ثم من هو هذا الخالق.. هل هو واحد أحد.. أم ثلاثة في واحد.. أم عشرات هنا وهناك في أرواح الطبيعة.. وفي آلهتها كما تخيلها الإنسان.. أو كما وضع أسماءها الكاهن.. أو العابث.. أو المختل صانع الأساطير؟.. أو الراقص المخمور في مواكب من سماه غباء وعبثا: إنه الخمر!؟

هل هو إله واحد ليس كمثله شيء.. شرع الدين الحق، وحدد الحدود، وأرسل الرسل، وكشف عن بعض الغيب، ومد بعد الموت من مراحل الحياة، وأخرج المؤمنين من الظلمات إلى النور...؟

أم هل هو آلهة متعددة لم يشرعوا شرعًا.. ولم يضعوا حدودًا.. ولم يبلغوا من أمر الناس إلا أن يدفعوا بهم من النور إلى الظلمات..؟!

لقد تعددت الإجابات لتعلن عن المزيد من القصور في مطابقة "الخبر" للواقع.. ولتجد الخلافات والصراعات بين الأمم والشعوب والأفراد أسبابها التي لا تنتهي.. ولتنشأ من الصدق الأكاذيب، ومن الأخبار الأساطير.. بل لينشأ التشبيه بالصدق، وتنشأ المحاكاة للواقع بغير الواقع، في صناعة تمويهية للكلمة، والصورة، والحركة، يخرج منها كهنوت جديد هو "الدراما" ومعبد وثني جديد هو المسرح..!!

فكيف تعددت هذه الإجابات عن "واقع" ذي "طبيعة" واحدة، كان من الممكن أن تتعدد جوانب وأبعاد الصدق فيه.. لا أن تتعدد جوانب التناقض في النظر إليه بما يخرج عنه في ذاته.. وعنه في غايته!!

تعدد الإجابات:

لقد تعددت إجابات الإنسان منذ فجر الحياة عن هذه الأسئلة الكبرى – ولا تزال تتعدد – لأسباب أساسية في البيئة، هي نفس الأسباب التي تعددت بها لغاته .. إنها ظروف وعناصر وخصائص ومناخ البيئة هي التي تفرض هذا التعدد في الإجابات، وبذلك تفرض هذه الخلافات الطبيعية والمتجددة، بين الأمم في معتقداتها وأديانها.. فهل ظروف البيئة تجعل الحاجة إلى الطعام قبل الأخلاق، أم هل هي تجعل الالتزام بالأخلاق قبل الطعام..؟ أم هل هي ترفض الحياة نفسها بطعامها وأخلاقها.. ترفضها بالعمل كما ترفضها بالعقل.. وبذلك تجعل عقيدتها أن تلغي حاجة الإنسان على هذه الأرض إلى أي شيء فوق هذه الأرض!

إن من البيئات المتميزة بملامحها ومؤثراتها على فكر الإنسان وعقله وحاجاته مناطق الغابات الاستوائية في الهند، وفي أواسط أفريقية، حيث تبطئ حركة الإنسان الدافعة تحت الأمطار الغزيرة، والحرارة الشديدة، أو داخل ظلمات الغابات الكثيفة، والمخاطر الكامنة، وحيث يصبح الاسترخاء في نصف غيبوبته، والاستغناء عن العمل والحركة تحت ظاهر الوفرة والخصوبة – هي الطابع العام لحياة هذا الإنسان الاستوائي المصدوم داخل تناقض الوفرة وخطر الموت بالوحوش والأوبئة، والظلم الطبقي، والقهر الملكي.. والتماوت الكهنوتي.. وكلها طفيليات تخلقت وتعاظمت في مناخ الغيبوبة والاسترخاء!

إنه في هذه الرؤية الخاملة والمعتمة للأشياء، والرؤوس منكسة تحت المطر، وأرواح الأشياء، أو طوطمها، هائمة داخل ظلمات الغابة، وحيث لابد من طقوس كثيرة كما يؤكد الساحر لإرضائها، وجلب منافعها، وتفادي غضبها، وحيث تفعل الحرارة في الحواس فعل المخدر، فيغيب العقل، ويتفكك النشاط، ويصبح قتل ذبابة جريمة في ديانة الهندوس، وفي وصايا بوذا الخمس، مع أن الذباب هو الذي يحمل الأوبئة الساحقة – كيف يتاح للإنسان في هذه المصيدة الخانقة لإنسانيته، والمعطلة لعقله وحواسه، أن يرى الأشياء واضحة المعالم تحت سماء صافية، وأفق بعيد، وسعي متصل، ليسألها عن أخبارها فتصدق الخبر، وتعطيه الدليل؟

فإذا قال هذا الإنسان الاستوائي برفض الحياة، ودعا إلى عودة النفس من جديد لباعثها فيه وهو كما يزعم "برهمن" كان عذره أنه وجد نفسه هكذا تمامًا على طريقة فقراء الهنود "مغروسًا برأسه" في أهوال خصوبة شرسة، وحرارة خانقة، وغيبوبة دائمة. إن توازنه الوحيد هو أن يرفض الحياة، وأن يرفض أساسًا التصديق بالمنظر الخارجي الباطل، الذي تصنعه حواس الإنسان، وهو لذلك يرفض "العقل" ويتحرز من قيوده" أي من معقولاته ليدفن نفسه بنفسه بالاستبطان داخل نفسه، ليفنى في نفسه أو – كما يتصور – ليفنى بالنير فانا في الروح الأعلى.. في البريم آتمان!!

مثل هذا الإنسان في صياغته النهائية لإجاباته عن الأسئلة الإنسانية الكبرى في هذا الشكل الشائع في تلك البيئة من ديانات "الرفض" يقدم إجابة غير صحيحة بالنسبة لفطرة الإنسان السوية ونوعه، ولكنه يقدم إجابة صحيحة تمامًا – رغم أخطائها –بالنسبة لبيئته وواقعه ورؤيته هو!!

وكذلك فهناك من البيئات المتميزة بخصائصها ومؤثراتها القوية على فكر الإنسان وعقله وحاجاته – هذه المناطق الجليدية الباردة في قارة

أوروبا بأسرها وشمال أمريكا حيث تنزل الحرارة في الشتاء كثيرًا تحت الصفر، وحيث تجري فيه أنهار قليلة الجدوى في الزراعة وهي تشق مناطقها الجبلية الوعرة في أكثر بقاعها. وهكذا لا يكاد يمضي الصيف الواهن الخاطف حتى يقبل الشتاء بجليده، ومشكلاته، وحيث يتحصن الناس وراء الجدران والنوافذ المغلقة، وإلى جوار "المدافئ" دائمة الاشتعال، والتي استعاضوا عنها اليوم في المدن بالتدفئة المركزية.. ففي هذه البيئة القابضة بظلامها وبرودتها، والدافعة إلى الحركة النشطة لحماية الجسم من التجمد، وللدفاع العاجل عن النفس بتوفير الطعام والوقود، والتي لم يغير العلم الحديث كثيرًا من طابعها، أو يخفف من مؤثراتها، عاش هذا الإنسان الأوروبي – سليل الهنود الرافضين للحياة – على خط معاكس نسبيًا مع مناهج ومعتقدات أسلافه. إنه لا يرفض الحياة ولكنه يتشبث بها. وهو لا يحمل أية وصية مقدسة بالامتناع عن قتل أي كائن حي ولو كان بعوضة أو صرصورًا، لأن وصيته المقدسة من أيام الإسكندر وأوغسطوس كانت هي حتمية قتل أخيه الإنسان، وبخاصة هذا الذي يملك مزارع القمح والعنب فوق أرضه الخصبة والواقعة جنوبي وشرقي البحر الأبيض المتوسط.. الإنسان العربي!!

وهذا الإنسان الأوروبي، الذي لا يرى من السماء الصاحية قدرًا يكشف له عن علاقات الأشياء في مواقعها الطبيعية، بل هو قلما عرف يومًا ما: ما هي السماء الصافية – هذا الإنسان تعلق مثل أسلافه بالخرافات الملائمة له. لقد صنع له آلهة تساعده في التشبث بالحياة من أجل أن يمتلك الأهداف الصعبة فوق أرضه الوعرة المثلجة.. من أجل أن يأكل ويشبع، ويسكن ويستدفئ، ويسكر ويفجر.. وكان أن صنع من "زيوس" أي "النهار" الذي يتيح له وقته أن يجلب الطعام لنفسه وأسرته، وأن يزيح

الجليد عن بابه وطريقه – كبيرًا لآلهته التي اختارها بحسب هواه فيها، ومصلحته منها، ممثلة لعناصر الطبيعة القوية التي تطبق بسلطاتها عليه، ويريد هو أن يصل يومًا ما – كما يحلم – أن يطبق هو بلسانه عليها، وأن يغير من مسارها، بل ومن قوانينها.. أليس هو الذي اخترع أسماء هذه الآلهة، واختلق لها من الأساطير ما يجعلها مثله: تسرق وتأكل.. وتحب وتخدع.. وتسكر وتفجر!!

إنه من وراء الجدران المغلقة عاش طويلا، وبجوار "المدفأة" جلس كما فرضت بيئته عليه ليفكر من وراء النوافذ في الحياة المحجوبة عنه خارج النوافذ ... لقد جلس طويلًا يفكر في الحياة المتحركة من حوله من نقطة ساكنة خارج الحياة بجوار مدفأته.. وكان فكره تحت حكم هذه البيئة وهو يمضي في البحث عن حقائق الأشياء، وعلاقات الأشياء، وما وراء الأشياء – من داخل نقطته الساكنة – فكرًا رمزيًا واستنباطيًا، تمامًا كفكر أسلافه الهنود، وإن تنافر هدفه في التشبث العدواني بالحياة مع هدفهم في الرفض السلبي والسلمي للحياة..!

لقد خرج وهو يذيب جليد أفكاره بجوار المدفأة قرونًا طويلة بفلسفة واحدة رغم انقسامها منذ اليونان إلى مذهبين متناقضين في الظاهر هما: المثالية والمادية.. كما أن كلًا من هذين المذهبين بقى إلى اليوم من خلال تعدد الفلسفات المتفرعة عليه من متغيرات العصور يقدم اتجاهاته الواحدة والمتسقة في تعبيره عن ديانة أوروبية الحادية تعلم أبناءها في تشبثها العدواني بالحياة أن "الطعام قبل الأخلاق"، وأن "العقل الإنساني أسرع في تدبير هذا الطعام من الله، أو من الآلهة" وأن: اتقاء البرد وتوفير الطعام يضاعفان من الحاجة للعمل ولذلك فإن توفير "العمل الجماعي" بالسخرة المقنعة تحت شعارات أفلاطونية، أو السخرة بالتجويع لابتزاز جهد العاملين بأرخص

الأجور، هو السياسة التي يجب أن تتابع، ليبقى قيصر، أو شبحه، أو فكرته، في شكل السلطة التي يبررها هذا الإنسان الجليدي بعقيدة ما، بعيدة عن الإيمان بالله، حتى وإن حملت بتأثير المسيحية القادمة من بلاد العرب اسم الله..!

مثل هذا الإنسان الأوروبي، وفي هذه البيئة المسيطرة على فكره وسلوكه – عندما نقل الحروف الأبجدية عن العرب الذين تعلم الكتابة منهم ليصبح إنسانًا – بدأ فنزع سمة المساواة بين هذه الحروف فجعل منها حروفًا كبيرة وأخرى صغيرة، تعبيرًا عن تصوره الثابت – رغم خداعه بكلمة الديمقراطية – للطابع الروماني القهري في دمه وعقله.. وهو عندما تعلم المنهج العلمي من العرب أيضًا، وخرج بذلك من عمائه الفلسفي التجريدي الأرسطي ثابر حتى أخضع ثمار هذا العلم لعدوانه، ولشراهته إلى ترويع السلم، والتجارة بالحرب، والتباهي بقدرته على تدمير العمران، وقتل الحياة، فكان هذا العصر الذري، وكان هذا التسابق الخفي بين الشرق والغرب على الحروب بالأوبئة، أو بتغييرات مدمرة للطقس!

وهذا بنفسه هو الإنسان الذي نشأ في ظلال ثلوج الأوليمب يمضغ أساطير هوميروس، ويهتف بحياة آلهة الحب والخمر، و"يصطنع" بهذا الاستبطان الرمزي التمويهي الخرافي مشاهد مواكبه وتمثيلياته.. ويبني "مسرحه" المزخرف بالأكاذيب، وأحلام الرفاهية، وعطايا آلهة الخمر والحظ والجنس، وهو يطمع به أن يحقق الأمل الأوروبي في حياة لا تتجمد، وسلطان على الشعوب المالكة للموارد لا يقهر، منذ عصر اسخيلوس وسوفوكليس.. حتى عصر ابسن وبرخت!

إن هذا الإنسان الذي لم يفهم في ترجمته عن واقعه، وسيظل من الصعب عليه أن يفهم داخل هذا الواقع – أن هناك "الله" يحكم السماوات

والأرض، ويقرر بالسنن والقوانين العلمية مشيئة علمه وحكمته في كل شيء.. لا يزال حبيس عادات إنسان الظلام، الذي ألقت به عدوانيته في التشبث بالحياة إلى هذه المراحل المتتابعة لحضاراته وفلسفاته بنفس مزاجها الأحادي، والأسطوري، والتسلطي، الذي لم يتغير مذاقه منذ العصر العبودي لليونان والرومان، وحتى هذا العصر الذي تمارس فيه نظم وفلسفات مختلفة نفس تلك النزعات تحت أسماء "مسرحية" تمويهية مثل الصهيونية، أو العالم الحر، أو الشيوعية!

إن إجابة هذا الإنسان الأوروبي كانت ولا تزال بالنسبة لهذه الأسئلة الإنسانية الكبرى هي إجابة غير صحيحة بالقياس إلى فطرة الإنسان ونوعه، وإن كانت صحيحة تمامًا — رغم انحرافها عن الصحيح — بالنسبة إلى بيئته وواقعه ورؤيته..!

مهد الرسالات:

وأخيرًا — وإن كان موقعه أولًا — نجد هذه البيئة المتميزة بخصائصها ومؤثراتها، والمحددة على سطح الكرة الأرضية مناخيًا وجغرافيًا وتاريخيًا بحدود الوطن العربي، الذي كان مهدًا للرسالات الداعية إلى الله، ومشرقًا لشرائع الدين الحق، ودارًا عتيقة لهذه اللغة العربية التي هي أول لغة عرفها الإنسان، وأبقى اللغات بمرونتها وكمالها إلى اليوم.. اللغة التي نزلت بها الكتب على الرسل، إذ نزلت التوراة بالعبرية، وسجل الإنجيل الآرامية، وهما لهجتان من لهجات اللغة العربية خارج الجزيرة، ثم نزل القرن بالفصحى ليمتد به إلى ما شاء الله كمالها وبقاؤها.

في هذه البيئة التي هي صحراء واسعة في قلب العالم القديم والحديث تتخللها أنهار، ولا نقول إنها بيئة أنهار تحيط بها الصحراء، ما بين الخليط

والمحيط – ويبدأ الإنسان العربي أول مراحل تكوينه الإنساني متبديًا ومتعربًا في بداء الجزيرة الساطع، من خلال حركته الدائبة، وسط حركة الأشياء التي يراها في مواقعها ومواكبها شديدة الوضوح بالنسبة إليه. فكأنها بين النهار والليل – وحيث لا سقف يحجبه عنها، ولا استقرار يعطي به ظهره لها – هي أسره التي يلقاها، ويأنس إليها، ويتعامل معها، داخل هذه المشاهد الكونية الدائرة بكمال اتساقها أمام عينيه، تخاطبه بأنغام الرياح، وإيقاع الأضواء، وإيماءات الظلال، بينما يدور من فوقه ومن حوله هذا الملكوت السماوي والأرضي، فيفهم ويتعلم، ويؤمن ويتعرب، ثم يفيض لسانه بما في قلبه وعقله، فإذا هو في لغته العربية المبينة لسان هذه الطبيعة وعقلها ونظرتها.. وإيمانها أيضًا!

إنه في هذا البداء المضيء الذي يفيض فيه الخفاء، ويبطل الشك، ويتحرك الساكن، وينطق الأبكم، يسير هذا الإنسان الحر، المتفكر، في غير فضول ولا ترف.. إنه يسير إلى غاية كما تسير الأضواء والرياح والسحب، والشمس والقمر، والنجوم والأفلاك.. إنه يسير لينظر.. يسير مرفوع الرأس إلى السماء يسأل عن الغيث، ومبسوط النظر على الأرض يبحث عن المرعى... إنه يسير لينظر ويسمع.. ويعي ويسجل.. فلا تخطئه نأمة، ولا تفوته سانحة.. مستهديًا إلى الله وهو يرى دلالة الأشياء عليه.. في أصواتها وصورها.. كما يرى هذه الدلالة عليه أعظم في اتساقها وديمومتها.

إن هذا البرهان على الله، المتلألئ في شعاع، والشامخ في ليل، والمبسوط على أفق، والساري في نسمة، والهاتف في صباح، والمسبح في ضحى، والمعترض بقصص الهداية عند مفترقات الطرق – إن هذا البرهان الذي صعد عمودًا من النور أمام عيني إبراهيم في برية العراق، وبلغ في موجات التسبيح باسم الله قلب محمد وسمعه في غار حراء.. إن هذا البرهان

الذي لا يزال جليًا أمام من يسير وينظر، ومن يسير ويسمع، على أرض الوطن العربي وبدائه، هو الذي يمنح قضية الإيمان إلى اليوم هذه الهيمنة العلمية والزمانية، على غيرها من القضايا والتشبيهات فوق هذه الأرض، ويمنح المؤمنين الصادقين هذه الصحوة التي يميزون بها طريقهم في هذا العصر، رغم خطط أعدائهم، وفوق أماني المتربصين بهم، وهم يستعدون اليقين، ويسترجعون الحق، ويلتزمون بالصدق.. صدق الرؤية... وصدق الكلمة... وصدق العمل... وصدق الغاية.

إن إجابة هذا الإنسان العربي تصبح بهذا الصدق في التعبير.. في رؤيته للواقع، وإخباره عنه، وقصصه له، هي الإجابة الصحيحة بالقياس إلى فطرة الإنسان ونوعه، كما أنها كما كانت وكما سوف تكون.. هي الإجابة الصحيحة تمامًا بالنسبة إلى بيئته الفطرية، وواقعه المضيء، ورؤيته الشاملة..

الصدق والكذب:

من هذه المواقف البيئية المتسقة – رغم اختلافها في النظر إلى الواقع، وفي التعبير عن فطرة الإنسان ونوعه – تمضي المجاميع البشرية منذ حياة الإنسان الأول، متدافعة أو منغالية، وهي تعبر باختلاف بيئاتها عن تفسيرها المختلف للوجود والحياة والإنسان، وهي في مواقفها المتصادمة تحاول أن تقدم البرهان على صدقها الكامل بالنسبة لنفسها، وبالنسبة للنوع البشري، وبالنسبة لحقائق الحياة، دافعة بالبشرية حصيلة هذه الأحداث إلى غايتها المقدرة.

ولقد عاشت هذه "الأنواع" النظرية، والمواقف التفسيرية المختلفة للحياة تصنع قصصها وأخبارها، وتصوغ حياتها وتقاليدها، بين الصدق والكذب، حتى ظهر الإسلام بمنهجه العلمي، وبرهانه العملي، وصدقه التطبيقي التقدمي: وهنا – في ضوء باهر جديد لحضارة ووعي الإنسان – تحددت معايير أصدق وأقرب إلى العلم والتجربة واللمس، للحكم على طبيعة هذه الخلافات النظرية بين البشر، والتي لا تزال تنشأ بسبب اختلاف مواقعهم البيئية وتراثهم المستقر في جذورهم تطورهم في الزمان والمكان.. وبذلك تجاوز الإنسان – في كل قاراته – مرحلة الاعتماد الوحيد في الكفاح الفكري والديني والمذهبي على طوطميات السحرة، أو طلسمات الكهنة، أو تجريدات وأوهام الفلاسفة، حتى وإن كانوا بدرجة ديكارت أو هيجل أو كارل ماركس!!

لقد تحدد بظهور المجتمع العربي الإسلامي، والمنهج العلمي القرآني – منذ القرن السابع الميلادي – أن الصراع بين البشر ليس في حقيقته – كما يذاع بقوة في عصرنا – بين من يملكون الذكاء ومن لا يملكونه كما ترى الرأسمالية.. أو بين من يملكون العمل ومن لا يملكونه كما ترى الماركسية.. وإنما هو في حقيقته الطبيعية والحاكمة "تدافع" و"حوار" بكل الوسائل والأسلحة واللغات بين "عقائد البشر" أي بين هذه "النظريات" و"المذاهب" و"الأيديولوجيات" التي ترتفع أصواتها، ويتطاحن جدلها بكل الوسائل والقوى والدعايات لتعبر عن هذا "التدافع" الطبيعي الحي والمستمر بين البشر، في معركة ادعاء النظرة الصحيحة لواقع النوع الإنساني وحاجته. وهو تدافع يمضي إلى غايته بقدر ما في مواقف هذه "النظريات"

من الصدق والوهم... ومن العلم والجهل.. ومن الإيمان والإلحاد.. ومن الرؤية الشاملة والمنفتحة بالإنسان على ما وراء الزمان والمكان.. أو الرؤية القاصرة والمنغلقة به في حدود هذا الزمان والمكان.. حيث تحاصر الحياة الإنسان بالموت، وتنتهي به في نظر كثير من أهل الأرض.. إلى العدم.. فلا "بعث" في عالم أزكى ينتهي فيه الصراع أو التدافع، ويخلد فيه إنسان أكثر علمًا، وأطيب مقامًا.

إن هذا التدافع باختلاف الرؤية الإنسانية للوجود والحياة والإنسان.. التدافع بالمذاهب والنظريات والأديان هو الذي يفسر لنا لماذا لا يزال الأقوياء والجبابرة من الرأسماليين والماركسيين في عالمنا الحديث وهم يدورون ويداورون في شقاء بالغ حول أنصاب علومهم الخطرة، وداخل مصانعهم المقعدة، ومدنهم الذرية، ونظمهم الحزبية — لا يبصرون أبعد من أنوفهم، مع أنهم صعدوا إلى القمر، وكدروا جو المريخ، كذلك فهم لا يبلغون من تصورهم لتقدم نوع الإنسان أبعد من تنبئهم بهذه "الجنة" التي يحلمون بإقامتها لأجيالهم القادمة على هذه الأرض.. جنة أزرار الملك سليمان.. جنة "شبيك لبيك" و"نعم حاضر"... فكل شيء موجود تحت ضغطة الزر السحري.. الطعام والشراب، والخمر والمتعة، والسيارة والفراغ.. جنة يحرص على إدعائها الشيوعيون.. حيث تعم البطالة، ويموت الصراع، ويموت معه الجدل الماركسي بالطبع، وتسقط التناقضات في هاوية سحيقة، لكي تقوم في الخيال هذه "الجنة الأرضية" التي يدعيها الرأسماليون من الجانب الآخر؛ وبهذا يتقرر أن المثوبة على هذه الأرض هي فقط لجبابرة الرجل الأبيض الذي سرق بكل وسائله الملتوية أكثر خيرات أفريقية السوداء،

وأسيا الصفراء، وأرض العرب.. والذي يهدد أيضًا من الجنس البشري.. ثم يطمع في المزيد من العدوان.. والسرقة!!

وهكذا كان ولا يزال مصير العالم متعلقًا بهذا التدافع الحتمي بين الصدق القوي رغم حصاره، والكذب الواهن رغم جحيجه.. وهو تعلق يدركه الأقوياء من واقع شقائهم رغم قوتهم: ويدركه الضعفاء أو المستضعفون بقوة أملهم، واستبشارهم بالمستقبل رغم ضعفهم.. وهم يعلمون من سنن التاريخ وأحكامه أن جميع الجبابرة يسقطون، وتسقط حضاراتهم معهم، عندما تبلغ أكاذيبهم نهاية الطريق المسدود، وأن جميع المستضعفين ينهضون، وتنهض حضارات جديدة معهم، عندما يهتدون بالصدق إلى أول الطريق الصحيح.. الطريق إلى الله.

الفصل الثاني

أعجب الآراء بين العرب المعاصرين عن القصة عند العرب

لا خلاف إذن على أن "القصة" كانت هي "الصور الخيرية" التي ولدت مع الإنسان، لتحدد له بأول استعمالاته للكلمة والإشارة مدى رؤيته للواقع، وتفسيره له، وموقفه منه. وأن هذا النسيج القصصي لا يزال يخرج من فم الإنسان، في حديث كل يوم، وفي الأدب الذي هو حديث جيل إلى جيل أو أجيال، ليصنع شبكة من الذبذبات الصوتية، أو سطوراً بغير حصر تنطق بها الكتب، هي التي تحدد عقيدة المجتمع، وتعبر عن موقفه لحظة بعد أخرى، من هذا الواقع المحيط به، وعن ردود أفعاله فيه.

ولكن الذين تصدوا من المفكرين والأدباء العرب – تحت تأثير مخدر الثقافة الأوروبية القصصية – للحكم على القصة عند العرب بقياسها إلى القصة والمسرح عند الأوروبيين – فإنهم أكثر الصواب في هذا الحكم للأسباب الآتية:

●بعد المسافة الفكرية والزمنية بينهم وبين أسلافهم العرب، مع أنهم ورثتهم الذين يعيشون على أرضهم، ويتكلمون لغتهم، ويعتقدون عقائدهم، ويسترشدون بأصدق ما تركوه لهم وهو القرآن الكريم، وما صح تناقله من علم النبي وحديثه، والشعر القديم، وما صحت روايته من قصص العرب قبل الإسلام وبعده، ومن أخبار أيامهم، وإنجازاتهم العلمية التي تغير بها تاريخ البشرية.

●الاعتقاد في مناخ نشأتهم بمناهج تعليمية وضع الاستعمار قواعدها الأولى، ولما تزل مهيمنة على مناخ التعليم والثقافة والفكر في الوطن العربي – بأن القصة الخيالية المقروءة والقصة المسرحية المنظورة من الفنون التقدمية التي ينتفع العرب من الأخذ بها – وإن تأخروا طويلاً عن ذلك – في مجال سعيهم الحثيث لتجاوز التخلف عن العصر، وملاحقة المتقدمين فيه.

في دراستهم القاصرة للقصص العربي الأول، حيث نظروا إليه من وراء ألف حجاب، كانوا قد حكموا في موضوع القصة الخيالية والمسرحية حكمًا مسبقًا لصالحها، وانقادوا بذلك إلى وجهات نظر مروضيهم وحاضنيهم من الأوربيين المستعربين، الذين جمعوا – في نظرتهم إلى نفور الأدب العربي الأول من القصة الخيالية أو المسرحية – بين الجهل بأكثر خصائص الأمة العربية وطبائعها ومعاني لغتها، وبين الهوى الذي يخدمون به خطط الصهيونية والاستعمارية وغيرهما لطمس مصادر الثقافة العربية الأصيلة، والتهوين من مقوماتها، وإنكار خصائصها الإنسانية، وطابعها المتجدد العصرية والتقدمية، وذلك حتى يقع المعاصرون من أبناء هذه الأمة مع أزمة الانفصال عن جذورهم في هذا "الاغتراب" الذي يدفعهم إلى تقبل "حضانة" الحالة: السيدة أوروبا، وتقبل ثقافتها وفنونها.. بل ولغتها!

ولهذا فقد كانت آراء أدبائنا التي صرخوا بها كالأطفال وهم يرددون مقاطع الدرس المحفوظ وراء معلميهم هي صور "مرعوشة" وكئيبة من كلمات أساتذتهم المستعربين أو المستشرقين!!

ولهذا أيضًا – وهو أمر بالغ حد الأسى والأسف – عجزوا عن أن يكتشفوا – وما كان أيسر ذلك على أكثرهم – هذا القانون الصحيح في علم الإنسان، والذي يحكم بضرورة اختلاف البيئات التي يعيش فيها البشر مناخيًا وجغرافيًا – أشكال وأنواع وفصائل "القصة" بين شعوب العالم، كما حكم هذا القانون اختلاف لغاتهم، بل واختلاف الصور والمعاني – المعبرة عن حقائق واحدة في الواقع الكوني – داخل هذه اللغات المتباينة في الجذور والمفردات والتراكيب.. والدلالة الإنسانية!

لقد عجزوا – وهم حفدة الأسلاف الأكرمين والأصدقين من العرب – أن يدركوا أن القصة مثل اللغة والدين تختلف باختلاف رؤية الواقع،

واختلاف الحكاية عنه، بقدر ما يكون هذا الاختلاف الواسع إلى حد التناقض بين "الخبر الصادق" الذي يرتقي إلى مستوى الوحي الإلهي في الدين الحق، وعلم التاريخ في منهج هذا الدين، وبين "الأسطورة" التي تظهر بها بالقهر والهوى والاسترخاء والعجز أوهام الشعوب الشرقية في تصور الماضي، مغلفًا بأمنيات وأحلام الحاضر؛ كما يتمناها العاجزون والمقهورون والمحرومون.. ثم هذه القصص في أبنيتها وأثوابها الخيالية التي تعالج في الغرب أمراض الشراهة إلى المتعة، وتواجه ضغط الحاجة البيئية الملحة إلى تغيير الواقع – الشديد البرودة والقليل الموارد – حيث تضعهم القصة الخيالية الروائية، أو القصة الدرامية المسرحية داخل جلسات خاصة أن عامة يتعرضون فيها من طريق الاستهواء الفكري والحسي إلى تكرار حالات "التوتر والانفراج" وراء قدر من المتعة الوقتية، وقدر آخر من الاطمئنان إلى مزيد من هذه المتعة في الطعام والدفء والخمر والحب والتملك في المستقبل القريب، كما هو مفهوم المتعة المطلق عند الأوروبيين منذ اليونان الأوائل، وحتى اليوم..!

الأسئلة المطروحة:

مع هذا الوضوح للحدود التي تفصل بقوانين علم الإنسان بين الصدق في رواية الواقع، ومواجهة الواقع، وبين ما يمكن أن نسميه درجات الكذب، أو خداع الحواس التي ينشأ عنها الانخداع أو الخداع العقلي في رواية هذا الواقع – غاب عن المعاصرين من أسلاف العرب في سكرات الشوق لمثل تلك "المتعة" بمفهومها الأوروبي القديم والحديث، أي مفهومها الذي يقدم الطعام على الأخلاق، والخمر على الماء، والعاجل على الآجل – غاب عنهم هذا القانون الواضح لهم في شمس بلادهم، واتساع آفاقها، وإيقاع صوت القرآن فيها، ومضوا وراء أعينهم المعصوبة بعصائب فكر

المستعربين، وحواسهم المخمورة ببقايا وساوس الاستعماريين – يصيحون صياح المجاذيب ليفرضوا على الأدب العربي المعاصر تخليه عن ذاته في الصدق، وعن مقوماته في الوضوح، وعن هيمنته على غيره من آداب أهل الأرض وهو يزكي بأسلوبه الجلي المباشر، وإيقاعه الإنشادي المبشر – حقائق الإيمان، وشرائع الله، وطريق الخلود.

وهم لا يريدون ذلك بالأدب العربي فقط، وإنما يريدونه أيضًا لكي يحشروا الإنسان العربي بالإكراه أو بالخداع، وبعد سلخه عن ثوبه الأدبي القومي الفضفاض – في تلك البدلة الأدبية الأوروبية الضيقة، التي يبحث فيها تحت قبعته، أو يغرق بها تحت قبعته، في خيالات تلك القصص المصنوعة حول أبطال ليس لهم وجود في الواقع، بعد أن كان هو بأدبه الحي يحكي حكاية الواقع الذي هو بطله.. هذا الواقع الذي تغير به وراء هؤلاء الأبطال تاريخ العالم كله، ومسيرته، إلى ما هو أفضل، عصورًا بأكملها لا يستطيع العالم نسيانها.

والأسئلة المطروحة أمام هؤلاء الأدباء والمفكرين كانت بطبيعة هذه القضية أسئلة كثيرة ومتنوعة، ولكنها في جملتها كانت تصدر عن سؤالين أساسيين هما:

السؤال الأول: هل عرف العرب فن القصة الخيالية وقصة المسرح؟.. إن كانوا قد عرفوا ذلك على أصوله الفنية كما عالجها الأوروبيون أو قريبًا من ذلك فما هو الدليل؟ .. وفي أي عصر؟ .. وأين كانت مسارحهم؟.. وهل كان ذلك قبل الإسلام.. أم بعد الإسلام؟ .. وهل كان نقلًا عن اليونان بالتلامس الحضاري.. الذي كان بين اليونان والعرب قسريًا عصورًا طويلة.. أم كان هذا الفن القصصي بطقوسه الأوروبية الوثنية مزدهرًا على جذوره الأصيلة في آداب العرب وفنونهم ومعتقداتهم ولغتهم؟

السؤال الآخر: إذا كان العرب لم يعرفوا هذا الفن القصصي، ولم يقربوه بطقوسه الأوروبية – فلماذا..؟.. مع أنهم اتصلوا طويلًا بالحضارة اليونانية الرومانية قبل الإسلام، وبعد الإسلام، وكان اتصالهم بها في مصر والشام وفلسطين والبتراء – اتصال المغلوب بالغالب، والمغصوب بالغاصب.. لماذا إذن لم ينقلوا هذا الفن.. وفي المسرح بالذات؟.. لماذا لم يحاكوه محاماة التابع لثقافة المتبوع؟.. وهل كان هذا الرفض من هؤلاء العرب المتحضرين لأنهم كانوا قاصرين عنه في قدرة الخيال والابتكار؟.. أم لأنه كان لهم فيما صلح لهم من آدابهم غناء من جهة الكمال لا من جهة النقص.. ومن جهة السمو فوق آداب اليونان – التجار الغاصبين المعربدين.. وليس من جهة القصور؟!

لم يضع الأدباء والمفكرين العرب أسئلتهم عن القصة عند العرب في مثل هذه الحدود التي ترسم منهجًا سليمًا لمحاولة الجواب العلمي والتاريخي، بل ساروا في انقيادهم الأعمى لأساتذتهم وأهوائهم في طريقين آخرين عادوا بعدهما بعجائب الآراء المغرضة والخاطئة.. وهما:

الطريق الأول: وعليه أكثر المستعربين والمستشرقين وهو الحكم بأن العرب كانوا قاصرين عن الفن القصصي والمسرحي لأسباب تلمسوها مثل أساتذتهم بكل من الجهل والهوى، وهي تفسر في زعمهم قصور العرب "المساكين" عن امتلاك القياد لهذا الفن الأوروبي "الرفيع"..!

والطريق الآخر: وعليه أكثر المتهافتين بأشواقهم من الأدباء العرب وراء الهدف الحضاري العظيم – في زعمهم أيضًا – وهو مسرحة الأدب العربي القابل في تصورهم لهذه المنحة الحضارية الكبرى. وهؤلاء وإن لم ينكروا مثل سابقيهم قصور العرب عن إرساء قواعد هذا الفن الخيالي والمسرحي في آدابهم إلا أنهم على أسنانهم، ويبرقون بعيونهم، وهم يذرعون

أرجاء التاريخ الأدبي وعصوره في حياة الأمة العربية المديدة لكي يلتمسوا أو يقتنصوا الشواهد الباهتة والزائفة من هنا وهناك ليؤكدوا وجود هذه "القابليات" والظواهر على عبقرية قصصية "كامنة" في آداب وفكر "وتلهفات" هذه الأمة لكي تتقدم وراء أوروبا، وفي قوالب ومفاهيم آدابها الخيالية والمسرحية.. وأنه من الواجب القومي عندهم بذل كل الجهود للنفخ في هذه الشرارات الصغيرة لتصبح نارًا عظمية لفن عربي خيالي ومسرحي فعال.. في هذا العصر!

الجميع إذن بين هؤلاء المتأدبين قد أجمعوا على ظاهرة "القصور الخيالي" الذي لازم آداب هذه الأمة العربية في مجال القصص والمسرح، مع أنها هي الأمة التي كانت – مع قيامها بنفسها حرة دائمة في معاقلها بالجزيرة العربية.. هي المرشد الأول، والمنارة لأولئك اليونان الأوائل، ثم لهؤلاء الأوروبيين الأواخر، في كل ما هو أساسي لعمارة الحياة، وعمران البشر، من العلم ومنهج العلم.. ومن ثم فقد أجمع هؤلاء على أن ينشط أبناء هذه الأمة العربية التي عاشت تحمل أمانة المرشد بالصدق والعلم والدين.. لكي يشيدوا لهم في هذا العصر الذي بدأت تخفت فيه أصوات المسارح أمام إشعاع التقدم العلمي – مسرحًا عربيًا تتحرك فوقه قصص الإنسان.. بالمفهوم الأوروبي.. أي بمفهوم حضارة الإنسان الأوروبي، وعندما دخل بحضارته العدوانية دور الاحتضار!

وهكذا لم يفكر واحدا من هؤلاء المتفضلين بصراخ الدعاية للمسرح الذي توارى في بلاده في الظل، وللقصة الخيالية التي مزقتها مدارس العبث واللامعقول – لم يفكر واحد منهم في أن يطرح السؤال الصحيح في منهج البحث العلمي وهو "ما نوع هذا القصص الذي عرفه العرب الأوائل تعبيرًا بآدابهم عن حياتهم، وواقعهم، وخصائصهم؟.. وما هي

القيمة الأدبية والإنسانية والاجتماعية في هذا النوع من القصص بالنسبة إلى قيمة الفن الأوروبي القصصي، القديم والمعاصر، إذا وزناهما معًا بموازين علوم الاجتماع أي بموازين علم الإنسان السوي، وليس بمقاييس نزوات الإصلاح المتخبطة، أو فنون المتعة الهابطة!!

لا يعرفون آباءهم:

ربما كان تاريخ الخديو إسماعيل حفيد محمد علي وسليل الأتراك الأوروبيين، والصنيعة اللينة في أيدي الاستعماريين واليهود — هو أول مشهد حقيقي يمكن التفرس فيه لدراسة البدايات المشبوهة لهذه اللفتة الخطرة باتجاه فنون أوروبا القصصية.. ففي لحظة هزيمة وإفلاس وبيع لكل التراث العربي باع الخديو التعس مصر لدائنيه — أو هكذا ظن — وهو يعدهم إذا رفعوا قبضهم عن عنقه بأن يجعل مصر الجائعة المقهورة بفلاحيها الأميين، وشعبها المضطهد تحت حثالة المماليك والأرمن، ودهاة اليهود والفرنسيين والإنجليز — قطعة من أوروبا.. ومن أجل هذا أنشأ الأوبرا بجوار المقهى البلدي.. وأنشأ حديقة الحيوان لتأكل السباع والقردة.. ويجوع من حولها البشر!!

ومن هذه البداية.. بداية الرجل الذي وجدوا في قصوره عند نهاية حياته 400 جارية بيضاء غير الجواري اللائي وهبن لخاصته من الأغنياء والعمد — نفهم من أي بؤرة نبعت ولا تزال تسيل تلك الأشواق التي يتواجد بها المجذوبون بالمسرح من الأدباء والمتأدبين..!

.. ونبدأ بأحد الأساتذة الأعلام في دراسة الأدب وهو محمد هاشم عطية أستاذ الأدب العربي السابق بدار العلوم.. منارة هذا الأدب قبل انطفائها.. يستعرض هذا العالم لقرائه وطلبته في كتاب "الأدب العربي

وتاريخه" بعض آراء المستشرقين عن الإنسان العربي فيذكر رأي بعضهم في تمسك العربي بالتوحيد في الدين، ويذكر تعليلهم ذلك بوحدة الحياة على أفقه – يقصدون ثباتها – وأن هذه الحياة الفقيرة في تعدد المناظر – وليس هذا صحيحًا – قد جعلته في باديته الجرداء، وصحرائه المحرقة "ثابت الفكر" – أي غير قابل للتحول من فلسفة إلى أخرى – وحرمته من هذا "القلق العقلي" و"الحيرة الفكرية" التي تجعل صاحبها "نزاعًا إلى الاستقصاء والتعمق في البحث وإلى الدخول في أعماق الأشياء، والتغلغل في أسرار الكون"!!

يقول أستاذ الأدب العربي هذا الكلام ومثله ولا يستطيع أن يقول لقرائه في الرد على هؤلاء المستشرقين أن العرب قد حققوا "السلام النفسي" عندما بلغوا أعظم العلم بأسرار هذا الكون وهو الإيمان بالله الحق، الذي منحهم هذا السلام للفرد في نفسه، وللمجتمع في أفراده وعلاقاته، وأن العرب لو خيروا مرة أخرى بين ذروة السلام النفسي، واليقين الديني، والاستقرار العقلي على الصواب الواحد، وبين سفوح "القلق العقلي" و"التيه الفكري" التي يقطنها ويتشبث بها الأوروبيون سواء في عصر اليونان الفلسفي التجريدي التسلطي، أو في العصر الحديث العلمي الانفصامي الخداعي.. ما اختار العرب في ذلك العصر، وفي كل العصر، إلا هذا السلام النفسي مع الله، والسلام الاجتماعي في غاية هذه الحياة.. ولرفضوا – مهما كان الثمن – هذا الخيال الكاذب الذي تتعدد ألوانه أو أكاذيبه كما تتعدد سكرات الخمر، وتتتابع أمانيه وظنونه ومتاهاته كما تتتابع أضغاث الأحلام!

أوليس من المؤسف، والغريب، أن يصاب مثل هذا العالم بالحيرة في هذه القضية الواضحة لعينيه تحت شمس بلاده.. القضية التي هو طرف

فيها، وطرف مبصر.. فلا يستطيع أن يكشف عن سلامة المنهج العربي في أدب النظرة والنظرية الواحدة – إنسانيًا واجتماعيًا وعلميًا، ولا يملك أن يمد الطرف ليكشف عما في حياة أهل السراب مع أساطير الشرق، وأهل الضباب مع مسرحيات وخداعيات الغرب من نقائص في التكوين، وحيرة أسلمتهم إلى الظنون، وقصور عن التوازن في حياتهم المكروبة بين واقعهم وفطرتهم، فكانت هذه المآسي التي امتلأت بها عصورهم، وكان هذا الارتماء المهين بين أذرع الأساطير وغياباتها في الشرق، وهذا الاندفاع الأرعن مع صناعة أحلام اليقظة وخداعياتها على مسرح الغرب، وفي كل هذه المآسي يسكر القاهرون والمقهورون معًا بهذا العزاء الرخيص، ويجتازون بغير دين، أو بديانات وضعية خرافية، كل التخوم والحدود التي تضعها الفطرة وتوحي بها لتكريم الإنسان بالإيمان، والصدق، والطهر، في الحب والعمل، وفي رواية الأخبار والقصص والأحاديث.

بل إن هذا العالم اللامع يصاب أيضًا ببعض "القلق العقلي" فيقول في تعقيب مهزوز الثقة على هؤلاء المستشرقين "ونحن نقول إن كلام هؤلاء المستشرقين وإن كان في جملته صحيحًا إلا أن فيه مبالغة وتحاملًا ظاهرًا"!

ثم يمضي محمد هاشم عطية مع هذه النغمة التي يعلن بها على استحياء أن قول المستشرقين "صحيح في جملته".. فماذا بعد..؟.. إلا أن فيه مبالغة وتحاملًا.. فقط!!

ثم يطيب للأديب العالم – غفر الله له – أن يسهم بعد ذلك في التحامل على العرب بغير مبالغة، أو في مدح العرب بما يشبه الذم، فيقول في دفاع هزيل، أو في هزل له رنة الدفاع "ولو أن العرب عرفوا هذا القصص الأوروبي، وهذا التمثيل، لأخرجوا منه للناس عجبا.." .. سبحان الله!

نعم وآه لو عرفوا.. أي لو عرف هؤلاء الصادقون طريق الأكاذيب، وخيالات المرضى، وأوهام السكارى.. ولكنهم والحمد لله لم يعرفوا.. بل إنهم ارتفعوا بأنفسهم وعقولهم عن أن يعرفوا مع مرورهم الطويل العهد بتلك المعابد الوثنية المسرحية التي أقامها غزاتهم على أرضهم، وفي أطراف مدنهم.. إنهم في الطرف المقابل لها أشاحوا عنها.. قبل الإسلام وبعد الإسلام.. فهل هذا لغز؟.. أم إن المتأخرين من هؤلاء الأدباء العرب المستغربين قد طال بهم العهد عن آبائهم.. فهم لهم منكرون!؟.. وفي وعيهم للحياة الأولى يترددون.. بين كمال لم يدركوه عن آبائهم.. ونقص يتباكون عليه بين يدي غزاة أفكارهم.. وديارهم!؟

المدرسة العربية:

في مرحلة متوسطة بين ظهور عملاء الثقافة الغربية الاستعمارية في الوطن العربي من أمثال مارون نقاش ويعقوب صنوع منذ سنة 1848 وبين ظهور مدرسة أوروبية استشراقية متعددة الضربات والاتجاهات التشكيكية لصالح الغرب، والتي برز فيها اسم طه حسين وأحمد أمين وأمين الخولي وسلامة موسى وكثيرون من أشباههم — نشأت مدرسة عربية تجمعت من أخلاط الوسائل العقيمة في تصور الثقافة العربية وهدفها ومضمونها الوثيق الاتحاد بالإسلام. كانت هذه المدرسة التي بدأت من حركة عرابي "عربية" في لغتها وظاهر تمسكها بمحاكاة العربي القديم، ولكنها كانت "شرقية" في تذوقها للثقافة العربية، ورؤيتها الحضارية الجزئية للعرب والإسلام والتراث... معنى شرقية أنها كانت تعاني مما دسه اليهود والشعوبيون في أخبار المسلمين أعراضًا أسطورية..

كانت هذه المدرسة التي اشتعلت شراراتها من بقايا معارك عرابي عن "الهوية العربية" الضائعة في بحر الترك، ومظالم العثمانيين، وعبثيات

الأسـرة الأوروبيـة الخديويـة المستبدة بـالحكم في مـصر، والمتواطئـة مـع الأوروبيين على أطماعهم في مصر – كانت هـذه المدرسـة هـي الجـذوة التي بقيـت مـشتعلة علـى الخـط الـدفاعي الأخـير، لتنقـل بأصـواتها وهمهماتهـا رسـالة الأمـل والعمـل مـن الأجيـال الـسابقة إلى الأجيـال القادمـة، رغـم كـل العوائق والهزائم، فكـان مـن طلائعهـا ورجالهـا في مـصر البـارودي وحـافظ وشـوقي، كمـا ظهـر الكـثيرون مـن جملـة هـذه الجـذوة الـذين صـاحوا وتكلموا وخطبوا وقالوا الشعر في ثورة سنة 1919، حيـث كانت تتجلى دائمًـا بـبعض الومـضات العـابرة الواعـد ببـزوغ عـصر الجملـة العربيـة الصحيحة، المؤثرة في تشكيل دوافـع الحيـاة مـن خـلال أحـداث الثـورة الـتي اتحد بها في ألسنة الشيوخ والقسس والساسة من المسلمين والمسيحيين نظـم ومعنـى واتجـاه "الجملـة القرآنيـة".. الـتي كانـت وحـدها هـي مبعـث الـضوء والطاقة والهدف العظيم في معركـة الحريـة الوطنيـة ضـد الإنجليـز، والـتي كانت تحمل في أطوائهـا أصـوات وآمـال وغايـات الانبعـاث القـومي مـن أجـل وحدة كل العرب على أرضهم بعد إجلاء غاصبيهم.

ثـم ظهـرت في أعقـاب هـذه الـصحوة، ومـع تنـشيط الأوروبـيين الاسـتعماريين لغـزوة مقابلـة، ملامـح أدب المعانـاة بعـد اسـتيعاب الإنجليـز للثورة، ومع المعاناة كثرت الزخارف اللفظية، وتعـددت الأشـكال التعبيرية المحملة بأثقـال الزينـة، والفارغة مـن المضمون، علـى سـاحة ضيقة للـدوران حـول الـنفس.. وعـرف النـاس مـن هـذا الطـراز كتابـات محمـود صـادق الرافعي..

كـان أدب الرافعـي وهـو يخـوض بـه تلـك الموقعـة الفاصـلة بـين جيـل عرابي المهزوم وجيل الاسـتعمار المتشكك مـرة عجيبـة المذاق لهـذه التيـارات الفكريـة المتـصارعة علـى عقـل وإرادة شـعب تـسعة أعـشاره لا يقـرأون ولا

يكتبون ولا يستشارون.. كل أدب الرافعي محاولة غير واضحة بين الأنقاض للدعوة إلى المقومات والخصائص العربية في اللغة والدين.. كانت محاولة تنوء بما حمله أسلوب الرافعي من الوشي الشرقي الذي تكاد تغترب به جملته عن "الجملة القرآنية" التي بدأ أدبه منها، وكان كلما أعوزه التدليل على عبقريته تحت شنشنة هذا الوشي وزينته نزع مرة إلى الأسطورية الشرقية في كلام ينحو به نحو عبثيات الجاحظ في البخلاء، أو ترهات الأصفهاني في الأغاني، أو نزع أخرى – على اغتراب منه وارتباك – إلى تذوق الكأس الأوروبية في الأدب القصصي فلمس بأطراف نفسه وتعبيره بعض ما تحمله في أنماطها من استباحة وتصنع وضياع، ليبلغ من أمر أدبيه في بعض ما انعكس عليه الفكر الغربي في عصره بعض ما أصاب أدب المهاجرين من عرب الشام إلى أمريكا في شمالها أو جنوبها من هجنة فاجعة حملت بها الكلمة العربية في مثل كتابات جبران صليبها ومأساتها بالغربة والرمز..!

وهكذا في نهاية عصر هذه المدرسة العربية اللسان، الشرقية المضمون – أي الحاملة لتراث تركي فارسي في فهم الإسلام أكثر منه عربي قرآني – التقى الرافعي في معاركه الاستعراضية والهزلية مع نمور الورق والكتب الأوروبية والترجمات لدعاوي المستشرقين من أمثال طه حسين والعقاد ليتحدد اتجاه جديد للضياع القومي، ويتم به التخلي عن الأثواب الشرقية في مفاهيم وأشكال الأدب العربي، وعن الكثير مما كانت تحمله هذه الأثواب من نقوش ورموز للزندقة والخرافة والدروشة لكي تحل محلها خرافات وجراح أخرى من الغرب، داخل أثواب جديدة للتعبير الوثني بالقصة الخيالية، والقصة المسرحية، والشعور المنثور أو المكسور..!

ولما كنا نتكلم هنا عن فن القصة والمسرح فإننا نقدم حياة الرافعي داخل دوامة مفترق الطرق، لكي نستشهد بتعففه عن معاقرة القصة الخيالية في أدبه بمفهومها الأوروبي، مع إلمامه في بعض اهتزازه بهذا الفن، ومعاناته في الظلمة المطبقة لكي يرى الطريق لجملته العربية حين يريد أن يجعل أفقها القرآن، بينما يتنازعها في رأسه ولسانه طاغيتان في الأسطورة الشرقية، وفي الأكذوبة الأوروبية..!

ولقد واجه الرافعي هذه الأزمة الفكرية بأنواع متعددة من الأجوبة من خلال تلك الأشكال البسيطة لمحاولاته القصصية، المعتمدة أساسًا على قدر من الخبر الصادق، ولكنه واجه الإجابة الصريحة عن سؤال محدد حول القصة الأوروبية وخلو أدبه منها فقال على لسان تلميذه وصاحبه محمد سعيد العريان في مقال نشرته له مجلة الأنصار عدد جمادى الآخرة سنة 1362 أنقل منه ما يلي في جوابه عن هذا السؤال.. يقول الرافعي لتلميذه سعيد:

"ألا ترى أن من يكتبون هذه القصص – أي ببنائها الأوروبي – إنما يكتبونها مدبرين عن الحقيقة، وعن معنى الحقيقية.. وأنت متى كان وجهك إلى الباطل، وظهرك إلى الحق، فمهما تتقدم في رأي نفسك فإنما تتأخر في رأي الحق"!

ثم يقول سعيد أيضًا في نفس المقال عن رأي الرافعي في القصة الأوروبية "وكان يرى القصص نفسها صناعة لهو، ومسلاة فراغ. وهذا قد يكون له وجه في علاج الحياة العملية، وفي تخفيف حدة الصراع الاجتماعي في أوروبا وأمريكا، ولكن ما موضعه عندنا في الشرق. والشرق إنما نعمل في نهضته لمعالجة هذا اللهو الذي جعل نصف وجوده السياسي عدما، ولملء الفراغ الذي جعل نصف حياته الإنسانية موتًا".

ثم يقول الرافعي أيضًا فيما يرويه عنه سعيد العريان في هذا المقال لمجلة الأنصار "ألا ترى أن تلك الروايات توضع قصصًا، ثم تقرأ فتبقى قصصًا.. وإن هي صنعت شيئًا في قرائها لم تزد على ما تفعل المخدرات، إذ تكون مسكنات عصبية إلى حين، ثم تتقلب هي نفسها بعد قليل مهيبات عصبية"!

ولكن الرافعي مع كل هذا الاقتراب من الحقيقة أو القانون الذي يحكم أنواع القصة وفصائلها في العالم لم يتوصل إليه. كان الرافعي في غيابه كتبه الإنشائية مثل "إعجاز القرآن" لا ينظر إلى نجوم الحقائق والمعاني العربية إلا أشباحًا تلوح له من قاع بئره الشرقي. وعندما اشتد عليه أذى من حاربوه من سحرة الدعاية للثقافة الأوروبية على أنقاض المقومات العربية فتنوه بحبالهم وعصيهم فقام إليهم يضرب معهم بعصاه، ليجدد معهم ولكن على طريقته.. وهكذا جنح في أخريات حياته ليجرب على استحياء كتابة نوع من القصص ظن أنه من اختراعه.. قصص قصيرة تقوم على عمود الإنشاء، والوشي اللفظي، يبث من خلالها الحكمة التي يريد بثها، مرتكزًا في بدايتها إلى خبر صادق من أخبار التاريخ، أو إلى سيرة رجل معلوم.

لقد كان هذا بذاته دليلًا على الوهن لا على القوة، وعلى المصادمة لطبيعة اللغة العربية وليس على إمكان إطلاقها في اتجاه قابليات كامنة فيها. ولقد كان هذا بذاته أيضًا هو ما فعله الحاجظ عندما أحدق به عصر دوار السكر بالخرافات الفارسية والأساطير الهندية، فقام إلى "توليفاته" المشهورة بين الصدق العربي في الخبر وبين الإثارة المسكرة في الأسطورة الشرقية كلما حاولت أن تفهم وتستمتع بهذا الصدق. وكان جهده هو أن يضيف إلى الأخبار الصادقة من العبث والإبهام ما يجعلها مثيرة

ومسكرة للقاعد المترف، أو الغافل المحروم. أو كان يخترع هذه الأخبار اختراعًا كما فعل في كتابه "البخلاء" داخل نفس القوالب التي تسير فيها الأخبار الصحيحة في الناس، بحيث لا يستبعد القارئ أن تكون هذه الأخبار الموضوعة هي مما "يجوز" على حد قول الجاحظ نفسه "أن تكون في الناس".. وسنشير إلى الجاحظ وأشباهه في فصل قادم من هذا الكتاب.

هكذا كتب الرافعي من قبيل ما وقع فيه من الإكراه والنبه قصصًا إنشائية حول أخبار صحيحة مثل ما كتبه عن سعيد بن المسيب مثلًا ليعالج مشكلة اجتماعية في الزواج.. أو مثل قصة "اليمامتان" وقد استخلصها من أخبار معارك التحرير العربي لمصر بقيادة عمرو بن العاص.

لم يكن الرافعي بهذا قد عدل عن رأيه الصحيح، أو عمد إلى أن يتناقض مع نفسه.. لقد وقع له فقط ما يقع للمؤمن من "اللمم" ببعض الذنوب الصغيرة.. أو العبث المقصود به الرفق.. أما التناقض والجنوح فكان حقًا لأولئك الأدباء المجاذيب من خصومة.. الذين دقوا الطبول، ونفخوا في المزامير، وحركوا المواكب، وصلوا وراء آلهتهم من أدباء الغرب ومفكريه. فلقد كان على هؤلاء وحدهم أن يقدموا البرهان على صدق دعاواهم الدعائية، وأن يكونوا الطلائع لكتابة القصة الروائية والقصة المسرحية، التي تجمع الشعب العربي وراءها على ثورة تعبيرية بانية، تحوى في مشارقها ثورة فكرية هادية، يتسع بها طريق العرب إلى الحرية، وإلى العدل في علاقات المجتمع، وإلى الوحدة الجامعة لهم وسط هذا العالم المطبق عليهم، والطامع في مواردهم وأرضهم، إلى تقدم وثيق.. وكان كل هذا بينهم شعارًا لا حقيقة فيه!

لقد انساق هؤلاء تمامًا إلى حماقة "الاستغراب" فكتبوا قصصًا ومسرحيات سقطت أمام أعينهم، فلم يتفوقوا بها أكثر مما تفوقوا

بضلالتهم في حرب الحق وأهله. لقد سقطت قصص طه حسين وتلامذته ورفاقه.. سقطت كما تسقط الأوهام المتداعية.. وتبخرت كما تتبخر الفقاقيع في مستنقع.. وبقيت ذنوبهم وحدها بارزة من بعد هذه الأوهام في ذاكرة الشعب.. بقيت ثابتة من جانب هذا الشعب الذي لم تمت لغته منذ آدم، ولم يخفت فيه صوت كتاب الله بالعربية والصدق إليه. لقد ثبت وتأكد أن المجتمع العربي لا يزال في تصميم معماره الراسخ منتميًا بقواعده إلى الإيمان والعربية والعلم، وإن مثل هذه "الهيجات العصبية" في فن القصص الأوروبي لا يمكن أن تكون في تجديد هذا المجتمع العربي وتقويمه، وفي تنميته ودعمه – بديلًا لمعاني ومقومات وموازين هذه "الجملة القرآنية" التي لا تزال في حياتنا، وفي عالمنا، هي وحدها مشرق الصدق والعلم والرؤية الصحيحة للمستقبل.

لقد كان الفارق شاسعًا – في هذه القصص التي نفقت وسقطت لأعلام الدعاية لأدب أوروبا القصصي وثقافتها، والتبعية لها – بين القضية التي طرحوها وبين البرهان المنهار الذي انتهت قصصهم إليه.. ولو قد تعقل من يعيدون النظر اليوم في أدب القصة العربية فاستعادوا الدلالة الحاسمة والقطعية في السقوط المتتابع لهذه القصص الأوروبية التي يكتبها الكاتبون العرب باللغة العربية – لأدركوا في ضوء أوفر من الحقائق – أن طه حسين الذي عاش جيل بأكمله على أنه عميد الأدب العربي – ما كان ليستطيع ولو شرب مياه بحر الروم كلها حتى جبل طارق أن يكتب مشهدًا واحدًا صغيرًا من مسرحية بالعربية تؤثر في العرب مثل ما أثرت أمثال هذه المشاهد في روائع شكسبير في ما كبث أو هاملت أو عطيل.. ولأدركوا كذلك – حتى تتعادل القضية – إن شكسبير هذا، وهو بحق عميد شعراء الإنجليز، ما كان ليستطيع ولو قطع فيافي بني سعد والدهناء والربع

الخالي على قدميه الاثنتين أو على قدم واحدة، أن يرتجل، أو يكتب بهذا الإيقاع العربي الكوني الخالد في لغة العرب بيتًا واحدًا من الشعر يهز وجدان العرب جميعًا في كل العصور، ويحكم فيهم، ويعيش محفوظًا بألسنتهم، وناميًا في أعمالهم، ومضيئًا على طرق معروفهم، كما كان ولا يزال شأن البيت والأبيات من شعر زهير وطرفة وحاتم ولبيد والخنساء وعروة بين الورد وعمرو بن كلثوم وغيرهم كثيرون من الأعلام الذين أثروا في العرب، وفي العالم، بل وفي شعراء أوروبا وأدبائها في عصر نهضتها، مثل الشاعر الألماني جوته الذي اختيار من أشعار العرب القدماء مختارات تحدث عنها في كتابه "الديوان الشرقي" الذي أكد به – ما غاب عن طه حسين وأمثاله – هذا الطابع الإنساني التقدمي لهذا الشعر العربي الذي كان بدلالاته التقدمية، وعذوبته الإيقاعية، أحد عناصر الحضارة العربية الإسلامية الدافقة التي أذابت البنيان الجليدي والهمجي لأوروبا في عصور ظلامها الطويلة، دافعة بها إلى عصور نهضتها الحيوية بما قدمته إليها من حقائق النظر العلمي، والحس الإنساني، في اللغة والآداب والشعر. فإذا كانت أوروبا برغم كل ما يلفت إليه من التقدم العلمي لا تزال متشبثة بوثنيتها وعدوانيتها، من واقع تشبثها الطبقي بمنابع هذه الوثنية والعدوانية في فنونها الخيالية الخداعية المسرحية والروائية، فكيف يمكن أن تكون هذه الفنون نفسها في هذا العصر أساسًا لتقدم العرب.. أساتذة أوروبا القدماء.. والذين لا يزالون يملكون إلى اليوم مقوماتهم إلى التقدم المتكامل بالإيمان والعلم في اللغة، والدين، والتاريخ!؟

المدرسة الأوروبية:

ونتقل الآن في مجال استطلاع آراء الأدباء العرب عن القصة عند العرب إلى طه حسين الذي لم يكن رغم انشغاله بقضايا مباشرة لتوهين

اللغـة العربيـة، والتـشكيك في قـصة وجـود إبـراهيم وإسماعيـل بمكـة – ليفوتـه الاهتمـام بالدعاية بكـل الوسـائل للقـصص الأوروبـي اليونـاني، فهـو يشجع الـرأي القائل بطواعيـة العـرب – الفـارغين في نظـره مـن أي مقومـات حضارية – لتقبل هذا الفن عن أساتذة العالم عنده وهم اليونان أو الروم!

ويواجه طه حسين أحد العوائق التي تتكر عليه وعلى مدرسته صحة هذا الرأي، وهو الاستدلال علـى نفـور العـرب مـن الفـن القصصي المسرحي بأنهم عنـدما واجهـوا الحضارة اليونانيـة علـى أرض الأمـصار لم يلبثـوا – في العصر العباسي – أن أقبلوا على ترجمة كتب الفلسفة اليونانيـة، بينمـا لم يقتربوا من المسرح ومؤلفاته بل ولم يناقشوا فكرته وفلسفته أصلًا.

هنا ينشط طه حسين ليصنع الجواب أو ليستعيره من بعض أقطابه من المستشرقين فيقول ملتمسًا العذر للعرب "إن المسرح اليوناني كان قد توقف عن الحياة خـلال القـرنين التاسـع والعاشـر. بسبب اضطهاد الكنيسة لـه. وبـذلك فـإن العـرب المسلمين عنـدما أقبلـوا علـى "التـزود" بعلـوم اليونـان لم يجـدوا علـى مائـدتهم يومـذاك إلا الفلسفة وكتـب أرسـطو.. وبعـض الآداب اليونانية المنحطة، وهكذا – كما يقول – أقبلوا على أرسطو وشغلوا به"!!

يريـد طـه حسين في واحـد مـن إجاباتـه التبريريـة أن يقـول "ولـو كـان العـرب قـد وجـدوا اسـخيلوس وسـوفوكليس ويوريبيـديس... إذن.. ولكـن.. وأسفاه"!!

وينسى طه حسين – الذي عاش أكثر عمره ينسى – هـذه الحقـائق الجلية التي تسد على تبريره الواهي كل الطرق:

1- كانت أهم الكتابات في المسرح والدراما وبناء المسرحية هي كتابات أرسطو في كتبه في ذلك الوقت.

2- اتصل العرب قبل الإسلام بالحضارة اليونانية المسرحية، وفي رحلاتهم السنوية إلى الشام للتجارة، ومروا بمسارح اليونان في المدن العربية التي اغتصبوها.. ولم ينخدعوا فيها من أول الأمر فقد عرفوا أنها طقوس مبتذلة في معابد وثنية.. وهذا هو تعريفها الصحيح إلى اليوم.

3- اضطهاد الكنيسة للمسرح اليوناني خلال القرنين التاسع والعاشر يفتح الطريق إلى السؤال عن القرنين السابع والثامن، وهما بداية وذروة ظهور وانتصار الإسلامي بالأمة العربية التي خرجت به.. فلماذا لم يأخذ هؤلاء العرب لا بالفلسفة اليونانية.. ولا بالمسرح اليوناني؟.. سؤال لا يزال تلامذة طه حسين يبتعدون حتى عن فكرة الاقتراب منه!!

وننتقل إلى علم متفرد في المدرسة الأوروبية هو عباس محمود العقاد فنجده في الجواب العملي على الأسئلة المطروحة يؤثر السلامة بعد هزائمه الأدبية المتكررة بأن يأوي في شيبته إلى الكتابة الآمنة الراغدة في سيرة القادة العظام بين العرب المسلمين. لقد أوى إلى ظل سيرة الرسول وأصحابه. وعندما واجه السؤال المباشر عن "القصة عند العرب" حصر إجابته في كلام لو صاحبه فيه بعض الرشد، وتخلى عنه فيه بعض الزهو لانكشف له وجه الصواب المشرق في هذه الحقيقة التي لمس بيده أكمام ذراعها، وارتج عليه فلم يرتفع ببصرة إلى آية وجهها.

يقول العقاد في رؤيته الجزئية "إن الأسباب الموضوعية لظهور القصص المسرحي والفني عند العرب لم تكتمل، ولذلك لم يظهر هذا الفن" ثم يعود فيقول في رطانة المغترب عن تلك الحياة الكاملة التي عاشها النبي وأصحابه مع أنه عاش أفضل أيامه الأخيرة غارقًا في فضل الكتابة في سيرتهم.. إنه يقول "إن حياة المجتمع العربي الصحراوي التي لم تتعدد فيها

أدوار الحياة الاجتماعية باختلاف الأعمال والصناعات والطبقات لا تتهيأ لقيام فن التمثيل، وظهور أدب المسرح، وأن ما كان من العلاقات الاجتماعية "المحدودة" في حياتهم البدوية والحضرية كان يغني عن التعبير عنه ما اشتهروا به من الشعر والفروسية والمساجلات والمناظرات..إلخ".

فالجميع والعقاد معهم يحيلون السبب إلى "البساطة" في حياة العرب. والبساطة هي عندهم ضعف أو قصور، والتركيب قوة ومبادرة، حتى وإن كان تركيبًا للظلم، ومبادرة داخل الظلام. والعقاد برأيه هذا كان يمكن أن يقول كلامًا أفضل لولا هذا الانقلاب الدرامي في قراءاته الكثيرة ضد العرب ومع أوروبا.. لقد كان من الممكن أن يقول إن حياة العرب ببساطتها المستقيمة لم تكن لتسمح بقيام نظام الطبقات، وما يجره معه من الصراع الطبقي. ولما كان هذا الصراع هو الذي فجر المآسي والمشكلات الاجتماعية في أوروبا بما يستوجب التفكير في مواجهتها بوسائل سياسية واقتصادية وأدبية كان منها الرواية والمسرح – فإن العرب اكتفوا في تعبيرهم الأدبي عن سلام حياتهم الاجتماعية بالقصائد والمساجلات والمفاخرات..إلخ".

حسنًا.. وحتى مع هذا التقويم لكلام العقاد فإن كلامه يبقى محتاجًا إلى الإجابة عن سؤال نافذ هو: لماذا – مع وجود القهر الطبقي وتعدد الأدوار الاجتماعية بين السادة والعبيد والقادة والصناع والزراع والمغنين وتجار اللذات وغيرهم من بلاد الشرق مثل فارس – لماذا لم يظهر فيها الأدب المسرحي؟!

سؤال لم يستطيع العقاد أن يجيب عنه لأن الجواب الصحيح عنه ليس مسجلًا في الكتب الأوروبية التي كانت على امتداد يده يأتي بها ليضعها

في "مفرمة" الترجمة في رأسه، لينقل منها ما يشاء كما يشاء إلى لغة العرب!

على أنه في قضية القصة عند العرب لا يمكن إغفال شهادة العقاد من واقع حياته الأدبية الحافلة، على هذا التباين في التكوين والهدف بين الأدب العربي وبين فنون القصص التلفيقي الروائي والمسرحي في الثقافة الأوروبية.

لقد ظهر العقاد بين أقرانه من الأدباء الذين أفرزتهم صحوة التحرر في مصر والوطن العربي باتجاهاته المختلفة، متمتعًا منذ ظهوره بملكات تعبيرية لا يماري فيها أحد بمقياس عصر، كما أن أحدًا لا يمكن أن يتهم العقاد بأنه كان أقل من دعاة القصة والمسرح، أو الذين تخصصوا فيهما — إلمامًا وإطلاعًا على آداب الغرب وثقافته. لا شك أنه بمفهوم كلمة "مثقف" العصرية كان العقاد أعمق وأشمل ثقافة من طه حسين، وتوفيق الحكيم، ومحمود تيمور، وسلسلة قافلة القصاصين والمتمسرحين.. فلماذا انصرف العقاد عن القصة والمسرح.. وعلى أي ساحة للأدب العربي والثقافة العربية تحرك حتى استقر؟

لقد كان لنشأة العقاد وللملكاته التعبيرية الخاصة بالعربية أثر كبير في عزوفه أولًا عن "هلوسة" القصة والمسرح، وفي اقترابه بذلك من منهج عربي في التفكير والتعبير قادة إلى اقتحام واقع المجتمع المصري، والمشاركة أول الأمر في التأثير السياسي بقوة الكلمة العربية المباشرة، والمشاركة أيضًا في المقال الأدبي في محاولة لنقل المجتمع — في ضوء ما بدأ له أنه الصحيح — إلى أقرب نقطة من ديمقراطية الغرب وثقافته.

ولكن العقاد لم يلبث أن أدرك الطريق الرحب، الأقرب والأصدق في حاجات الأمة العربية المعاصرة إلى صحوتها، فتفرغ لكتابة سير الأنبياء

إبراهيم والمسيح ومحمد، ثم إلى صحابة الرسول.. مجتهدًا أن يقدم الأسوة لأبناء الجيل، وأن يقرب إليهم المصدر الحقيقي لنظرية العدل الاجتماعي، ورؤية المستقبل، من خلال القصة التاريخية الصادقة.

وهكذا.. وعلى الرغم من شطحات العقاد الكثيرة فقد كان ولا يزال وسيظل أبقى في ذاكرة الأمة العربية، بقدر اقترابه من أصالتها وخصائصها في التعبير – من جميع فرسان الأكذوبات القصصية، وأبطال أدب الـ Fingêre أي أدب التلفيق الروائي، وادعاء ما ليس له أثر في الواقع.. كما كان يسميه اللاتين.!

ولكن أمين الخولي – رغم كل سيئاته العقلية في هذه المدرسة – يحاول أن يقدم جوابًا هو في رؤيته أقرب إلى التصور العلمي من رأي العقاد، فهو يرى أن الظروف الموضوعية لم تتهيأ في الحياة العربية قبل الإسلام لكي تساعد على قيام المسرح في الأدب العربي يمثل ما تهيأت هذه الظروف في جاهلية اليونان حيث قامت أركان المسرح عندهم على حياة ريفية نشطة ومستقرة، بحيث يساعد استقرارها على تنوع المظاهر التجسيمية للوثنية في حياة اليونان. بينما كانت حياة العربي غير المستقرة، كما كان اعتقاده النابع من هذه الحياة – بعيدين عن أن ييسرا له هذا الاستقرار التجسيمي في وثنيته – كما يفهمها الخولي – وبذلك انتفى عنده الدافع لوجود المسرح..!!

ثم نمضي مع هذا الفكر الممسوخ عن العرب، ووثنية العرب، لنتبين قدرًا من الصواب الذي لم يستكمله الشيخ الخولي – عجزًا أو كبرًا – وهو أن العرب مع شركهم بالله الذي عرفوه وعظموه قبل الإسلام. لم تكن لهم أساطير يفسرون بها الحياة تفسيرًا وضعيًا غير إلهي. فلقد عصمتهم بدواتهم وهم يتحركون داخل آيات الله، ويشهدون ويسمعون

شهادتها على الله خالقًا لكل شيء – من التفسير الوثني الذي شاع عن الحياة في أساطير الشرق والغرب. لقد فسروا حياتهم بكل وضوح على أن الله هو الخالق، وهو الأول والآخر، وهذه الحياة البدوية المتحركة بهم في حوارهم الدائم مع الطبيعة والأشياء والأحياء هي التي تنزهوا بها عن أي تجسيم وثني فيما عدا تلك الأحجار الغريبة على أرضهم، والمستوردة مثل هبل أو "أبولو" إله الشمس عند اليونان من الشام. وما كان مثل ذلك العارض ليقع – كما يقع دائمًا – في غير فترات الغنى المبطر، واللهو المتسلل بغفلاته من خارج الحدود، ومع التجارة الدائرة على أيديهم بين الشام واليمن؛ ومن أوروبا إلى الهند.

فهل كان من الصعب أن يتكلم أمين الخولي عربيًا هكذا..؟.. فلن تكون إذن هذه اللكنة التي يرتضونها بالهوى المعلن والمستتر إلى الغرب!؟

ومع ذلك فقد كان الخولي في جوابه أقل شططًا، وأقرب فهمًا، من ذلك الفيلسوف الشيخ زكي نجيب محمود، الذي لا يزال يمشي داخل ظله في دنيا الناس، أو لا تزال دنياه تمشي على رأسها بعيدًا عن الناس، فهو يتصدى لهذه القضية رافعًا في وجه الحقيقية "نبوت" ثقافته الأوروبية التي درج عليها، وتغذى بها – كما يقول – وامتص كل أوهامها.. وهو لذلك يقول "إن العرب لم يعرفوا أدب المسرح وقصته لأنهم عجزوا عن تمييز الشخصيات الفردية بعضها من بعض، ولأنهم – كما يدعي بغير حرج – لم يعترفوا بوجود الفرد مستقلًا بذاته دون أن يكون جزءًا من كل أعم منه"!

ثم يؤكد زكي نجيب محمود هذه التهمة فيقول متعثرًا في عجمة السائح الأوروبي "إن الشرق – أي فارس وتركيا والهند – لم يعرف أشخاصًا، فلم يعرف المسرحية ولا القصة"!!

وهكذا، والحمد لله، يعجز الدماغ الأوروبي فوق كتفي فيلسوفنا "الشرقي" زكي نجيب محمود – عن فهم أن الإنسان العربي قبل الإسلام، وبعد الإسلام، هو هذا الفرد المستقل الإرادة، الحر، الذي يصنع مجتمعه بمستوى القبيلة أو الشعب أو الأمة – باختيار حريته، ليكون مجتمع الأحرار لا العبيد، ومجتمع السواسية والعدل لا مجتمع الطبقة والتميز.. إنه بهذا الفرد الذي يظهر بإرادته في مجتمعه، ولا يذوب أو يضيع في مجتمعه – بقى للعرب مجتمع الدين الحق الذي أقاموه بتسابقهم الصادق إلى غاياته.. ونشروه بأسوة أعمالهم به.. ودافعوا عنه بأموالهم وأنفسهم.. ولا يزالون.

ولكن من ذا الذي يستطيع أن يقنع الفيلسوف الشرقي الأوروبي زكي نجيب محمود بأن الإنسان العربي – الذي يعز عليه فهمه – قد شرب الكثير من الضوء، ونما على كثير من الحرية، والبداء، والنظر العلمي، والإيمان، وأنه بذلك قد أقام مجتمعه على أساس أنه الفرد الحر بذاته وإرادته داخل هذا المجتمع، لا ليشغب على غيره، أو لينتقص من حق أخيه، أو لينزع إلى التسلط عليه، وإنما ليجعل من وجوده وجودًا للجميع، ومن حريته حرية للجميع، وليجعل من دفاعه عن وجود أخيه وحريته ولو بحياته – تعبيره الصحيح والمستمر عن وجوده "هو" وعن حريته وإرادته.

لهذا لم ينشأ الصراع الطبقي قبل الإسلام أو بعده بين العرب، ولم تختلف حظوظ الأفراد في الحياة والحقوق بما يميز بين شخصياتهم، أو يناقض بين مطالبهم.. أو يحول بينهم وبين تطبيق هذا القانون الاجتماعي الأخرى والأبوي على مجتمعاتهم الحرة والمتساوية إنسانيًا قبل الإسلام، بما لم تبلغ إليه أي دعوة مماثلة في هذا العصر، والتي يتم بها تقاسم الأموال الطوعي بين أفراد الجماعة أو القبيلة، أو يتم بها في لغة العرب الأولى "أن يخلطوا فقراءهم بأغنيائهم" بغير حدود، وبغير توقف، بقدر ما تدور الأموال

بينهم، لكي يتعادلوا ويتساووا دائما.. ولذلك لم يقم المسرح قبل الإسلام.. ثم جاء الإسلام بالعدل الأوفى في الشريعة التي تمرس هؤلاء العرب على مقوماتها في حياتهم الأولى حول الإيمان بالله والمعروف.. فلم يقم المسرح أيضًا.. ليبقى وجه الفيلسوف الشيخ زكي نجيب محمود كاسفًا ومنقبضًا حتى اليوم!!

وأما أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة فقد كان عليه أيضًا أن يعطي جوابًا بقلمه الرومانسي، ومزاجه الشرقي، عن هذه القضية التي كانت مجلته أحد الأبواق الدعائية للجانب الأوروبي من أجوبتها. وهكذا كان يسيرًا على الزيات أن يردد نفس أقوال المستشرقين عن "البداوة" وقصورها، و"الدين" وبساطته.. أي أن الإسلام كان بعيدًا بالشعائر البسيطة التي جاء بها وهو يلغي "الكهانة" ويزكي "العلم" ويرفع من قيمة "الإنسان" حتى يتساوى الجميع أمام الله.. هذا الإسلام كان بعيدًا بعالمه البسيط عن عالم الطقوس والمراتب والتماثيل والصور والأيقونات التي عرفتها الوثنية "الفاخرة" عند اليونان قبل المسيحية، وبعد المسيحية أيضًا..!!

ويتناول الزيات بالرجم أيضًا طبيعة الأرض العربية في تعليل غياب المسرح في الأدب العربي، ويزعم أن قلة أسفار الرب كانت كذلك من أسباب قصورهم عن إدراك هذا الخيال الواسع اللازم لبناء القصة المسرحية.. ناسيًا أن العرب سافروا قبل الإسلام حتى وصلوا إلى انجلترا والصين. وأن أول معرفة حقيقية عن الحياة في مستوى أرقى وأفضل قد وصلت إلى اليونان في مرحلة همجيتهم الأولى من مصادر الحضارة العربية في الجزر القريبة في البحر الأبيض من شواطئ الشام وآسيا الصغرى. وأن هؤلاء العرب هم الذين حملوا على طرقهم العالمية تجارة العالم برًا وبحرًا إلى أقصى الأرض، ومع ذلك فإن أسفارهم لم تعلمهم "الخيال الواسع"

بمعنى الكذب.. بل علمتهم الخيال الواسع بمعنى امتداد نظرتهم بالصدق حتى يروا بهذا الصدق ذلك العالم الآخر بعد الموت، حيث لا يكون ولا يبقى غير الله، وأعمال الصادقين، وذلك حيث قال شاعرهم قبل الإسلام:

كل شيء مصيره للزوال غير ربي وصالح الأعمال

من أجل هذا لم يتورع الزيات – رحمه الله – عن الزراية بقومه لأنهم حرموا بسبب الدين والطبيعة الجغرافية نعمة الأساطير والخرافات التي كانت كفيلة – كما علمه معلموه – أن تمنحهم خصائص "الروية والتفكير" و"التعمق في البحث".. ومن ذلك تتولد قدرتهم على بناء الأدب المسرحي مثل اليونان، الذين حملوا أوزار وألوان تلك الخرافات الوثنية في طراطيرها وأثوابها المزركشة.. فكان لهم المسرح.. مع أثقال الظلم الاجتماعي.. وهراء الفكر التجريدي الفلسفي في متاهات الفلاسفة العشرة قبل سقراط.. ومنذ سقراط.. وبعد سقراط.. مما أسقطه أو صححه العلم الحديث!

ولكن سيدة من هذه المدرسة نفسها كانت أعقل من كل هؤلاء الرجال، وأقل محاكاة لأقوال سادتهم المستعربين أو المستشرقين.. لقد كانت سهير القلماوي وهي تلميذة وفية لأستاذها طه حسين – أقرب من أستاذها رؤية للحق، وأنفذ من كل من سبق من رجال مدرستها وعيًا بمقومات الحياة العربية الأولى، في هذه القضية التي قصدت لإبداء الرأي فيها غير مغتربة عن قومها، ولا مغمضة من حواسها وبصيرتها تحت شمس بلادها وسمائها.

تقول سهير القلماوي من مختار ما تميز عقلها بإدراكه، وفي أصح إجابة قرأتها لعدد من عمالقة أو أقزام هذه المدرسة الأوروبية عن هذا

السؤال: "لا يجد المسرح والدراما بيئة طبيعية في إيمان العرب ومعتقداتهم، كما لا يجد المسرح عندهم صراعًا مع الآلهة والأقدار. ذلك أن الإنسان العربي كان بإيمانه في سلام مع الله، الواحد الأكبر، وفي رضى بالقدر لا يحول بينه وبين السعي، وإن حال بينه وبين المصارعة والصراع. الإنسان العربي يتجه بفكره إلى التحديد، فالأبيض أبيض، والأسود أسود. أما الضباب، والغمام، والرمادية، ومنزلة البين بين، فكلها أجواء لا يراح نفسيًا إليها.."

هكذا جمعت سهير القلماوي في كلماتها القليلة، ورؤيتها البصيرة النابعة من ذاتها وليس من محاكاتها – بين ثلاث حقائق منصفة للعرب في بعدهم، وغناهم، عن المسرح والدراما.. وهن حقائق: الإيمان بالله الواحد الحق.. فلا أساطير.. والرضى بقدر الله مع السعي فلا صراع ولا تصارع، وإنما سلام مع الله ينعكس سلامًا على المجتمع.. ثم الصدق العلمي الفاصل بهذا الإيمان بتحديد الرؤية والمواقف.. وهنا تموت الدراما.. التي هي التخليق الوهمي والخداعي للأشياء والأفكار والمواقف وراء أشباح الظلام والظلم والوثنية!

كان بحسب السيدة سهير القلماوي أن تقول ما قالته لتشير بذلك إشارتها الصحيحة إلى نفس الطريق الواحد الذي لا تتحقق للعرب في غيره صحواتهم القومية، وانتصاراتهم الحضارية، السلمية والعسكرية. وهكذا كان الكثير من الإيمان والصدق والرؤية الواضحة والكاشفة لمسرحية بناء "الكيان الإسرائيلي" هي التي عبرت بالقوات المصرية إلى النصر، وإلى تغيير المواقف لصالح العرب، في معارك 10 من رمضان سنة 1973 بقيادة قادة مؤمنين غلبوا بالفن العلمي خداع العدو، وكسروا بالإيمان العملي غرور العدو، فانتصروا عليه".

وتنقل هذه المرة مثالًا من سورية الشقيقة في أقوال للدكتور جميل سلطان في كتابه "فن القصة" الذي تصدى به في الأربعينات للدعاية بكل ما وسعه من المغريات والألوان "الرمادية" عن هذا الفن الأوروبي الذي شملت الخطط الغزو به جميع أرجاء الوطن العربي.

كان جميل سلطان صدى لما سبق من الأقوال، ولكنه كان أكثر إعلانًا عن رغبته في ذيوع القصة الأوروبية.. كان يتقلب على سن قلمه وهو يكتب بين الأمر والرجاء.. فلو كان ملكًا أو طاغية لأصدر أمره بتعميم فن القصة – دون انتظار أثر المحاولات لترويج طقوسه.. ولكنه والحمد لله كان أديبًا رقيقًا، عطوفًا على تقدم قومه وإن كان إلى آداب غزاته، هذه الآداب التي لا تعني إلا مزيدًا من الطمس لآداب أمته.

إن جميل سلطان يقول لذلك في صوت الأمر والاستجداء معًا "يجب أن نثير الهمم لاقتباس ما نحن بحاجة إليه من أدب الغرب"!

لقد أدرك جميل سلطان أن طبيعتنا تقاوم زرع هذا "الفيروس" الخداعي الدرامي في أساليب لغتنا وتفكيرنا وأدابنا.. ولهذا فهو يطلب "وجوب الاهتمام.. بالاقتباس"!!

ولكن لماذا نقهر طبيعتنا على ما نكره.. ولا نعيد تهيئتها لما نحب، وما نتقبل، وما تنشط له وبه؟

نعم.. لماذا نكرهها على هذا الأدب الأوروبي الدخيل.. الملائم فقط لقابليات أصحابه، وجذور لغتهم ومعتقداتهم؟

لماذا نكره طبيعتنا على أدب القصة والمسرح.. إلى حد الاقتباس.. والتصرف في النقل.. الأمر الذي لم يتورع عنه جميع المتأدبين من كتبة القصة باللغة العربية في العصر الحديث؟

الجواب عند أمثال جميل سلطان الذي عجم رغم ترافعه الحماسي عن آداب الغرب القصصية عن أن يقدم شيئًا من إبداعه القصصي المسرحي أو الروائي.. سواء عن طريق اقتباس الشكل وهو "الرواية الخيالية والقصة المسرحية".. أو عن طريق اقتباس الموضوعات نفسها لهذه الروايات والمسرحيات بمختلف أشكال التقريب والتعريب!!

ومع كل ذلك.. أي مع عجز الدكتور جميل سلطان عن تقديم قصة عربية أصيلة أو مقتبسة على النمط الأوروبي، فإنه لم يحدث قراءة الذين يلقى عليهم هذا الأمر الثقيل فيقول لهم ويرشدهم إلى هذه الطريقة المعقولة والسريعة التي يمكن بها لأمة لها لغتها وعقائدها وخصائصها أن "تقتبس" خصائص أمة أخرى، أو مجموعة من الأمم، لها لغاتها وعقائدها وخصائصها المتناقضة مع ما عند هذه الأمة.. التي هي الأمة العربية!!

قلعة تسقط:

على أنه كان من الحتم في طبائع الأشياء أن تبلغ الغزوة بالقصة الخيالية والمسرح ذروتها الأليمة أو المضحكة من الألم وهي سقوط قلعة الأدب العربي "دار العلوم" في قبضة الدعاة والمبشرين بالمسرح بعد أن تميزت بهذه الثقافة العربية الخالصة على كليات الآداب وعلى الأزهر أعوامًا غير قصيرة.

لقد بدا للصديق القديم عمر الدسوقي أن يجدد شباب فكره التقليدي بمغامرة يستحدث بها في مناهج الدراسة بدار العلوم دراسة "نشأة المسرح وتاريخه وأصوله" وأن يضع للطلبة وهو أستاذ الأدب كتابًا حول هذه المعلومات التي جاء يدق الناقوس لتعليمها بحماسة الداعية، والمبشر بثقافة الغرب.. بعد أن تجاوزه العمر، وتجاوز دعايته العصر.

يقول عمر الدسوقي في كتابه المذكور الذي سلم به الحصن إلى مقتحميه: "أخذ العرب يتجهون نحو الثقافة الغربية في أوائل القرن التاسع عشر، والقصة الغربية تجذبهم إليها، وقد نقلنا عن الغرب مئات القصص، ثم أخذنا تقليدهم في كتابتها، ولازلنا حتى اليوم ننقل إلى العربية كثيرًا من قصص الغرب، ولكننا لم نعن بدراسة فنون القصة وأصولها العناية اللازمة، ولذلك تخلفنا في إتقان القصة حتى اليوم، ولم ينبغ منا إلا نفر قليل في هذا الميدان..!

وهكذا من البداية يخطئ عمر الدسوقي، أو يبرر، عندما يدعي أن العرب اتجهوا نحو الثقافة الغربية ومنها القصة الأوروبية، ويخفي وراء "الستار" حقيقة الإكراه الاستعماري، وجهد العمالة والترويج لهذه الثقافة، مع جهود الطمس والتوهين والقتل البطئ لمقومات اللغة العربية، بل قتل اللغة العربية نفسها، وتبديد إيقاعها في المجتمع، وتفريغها من أصواتها الحية حتى يخلوا الجو للأوزة الأوروبية لتبيض على أرضنا وتكاكي برطاناتها وقصصها وخداعها الجذاب كما يسميه الشيخ عمر.

نعم وعمر الدسوقي يتوهم أيضًا بتدريسه مادة القصة الأوروبية والمسرح إمكان تحول هذا الفن الدخيل الذي لم يتجاوز في بعض العواصم العربية كما يقول في كتابه "حب المرح والتهريج" — إلى فن أصيل.. ناسيًا أنه من غير الطبيعي أن يتعلم الإنسان حب ما يكرهه بطبيعته، أو أن يخرج عن ذاته الناطقة في لغته، والحاضنة له في طبيعة بلاده، وتراث تاريخه، حتى وإن كان تحت سلطان الغالبين، ومخططات غزوهم الثقافي بثقافة هي بوثنيتها وعدوانيتها وطابعها الطبقي ورطانتها — أبعد عن أن تشبع حاجات الإنسان العربي إلى التقدم بلغته ودينه وإنسانيته، وصدقه العلمي، وسلام نفسه.

وهكذا فإن عمر دسوقي سيبقى ما شاء الله داخل دار العلوم، وعلى باب دار العلوم، يعزف بكتابه المدخول عن المسرح على أرغن بغير أصابع، ويدعو إلى مذهب بغير برهان.. إلا إذا انتبه فتذكر واستدرك.. وأعطى وجهة مرة أخرى للحق والصواب.

عودة الوعي:

ثم نعرض أخيرًا في هذا الفصل إلى الفنان الذي تخصص لفن القصة والمسرح، مترهبًا وراء أسواره، وراغبًا عن غيره، ومتسمًا بأكثر الخصائص التي تجعله علمًا فيه، والمبرز الذي جاء ليكسر قانون التأبي والتمنع في لغة العرب على هذا الفن الأوروبي المتغلب.. نعرض للقصاص وكاتب المسرح المتفرغ توفيق الحكيم، لننظر هل انكسر هذا القانون الذي يستعصي به الأدب العربي – ليكون أدبًا عربيًا – على فن القصة والمسرح الأوروبي.. أم إن القانون – مهما كانت الأقنعة – ثابت وصحيح؟

إننا سننتظر في استكشاف عابر هل توفيق الحكيم هو "الحلقة المفقودة" – كما يريد هو أن يوحي للناس – على طريق تطور الآداب العربية إلى فن القصة والمسرح..؟ أي هل هو في أحسن الفروض "إنسان" المسرح العربي الأول متطورًا بلغة دارون ليكون أول من يمشي على قدميه، ويبني هذا المسرح بين العرب، والذي سيتناسل منه مسرحيون عرب كثيرون وكثيرون أم أنه هو في حقيقته، وبمفهوم "الانقلاب" أو "التطور العكسي" بلغة أرسطو عن الدراما ليس إلا ظهور الحجة على العجز، والبداية إلى عودة الوعي للكثيرين من الأدباء الذين أصيبوا بالشتات بين المفاهيم "الشرقية الفارسية التركية الهندية".. والمفاهيم "الأوروبية اليونانية الفرنسية الإنجليزية".. لكي يبحثوا من جديد في تراثهم عن الأمل المفقود.. والأدب الحي..!

إن توفيق الحكيم، المتوقر في ظاهره، والمتذوق من داخله، والنواسي في حب الشرق، والتقليدي للشرقيين في النفور مما هو عربي أصيل، والمنتمي بحسب جيله وثقافته وحرصه – إلى أوروبا بلاد الغالبين، وأرض الحجاج لألقاب العلم، ومصدر الرموز الجديدة في كهانة الأدب – إن توفيق الحكيم قد قفز رغم هدوئه، وتعدد أطوار نشأته، قفزة شرقية بعيدة المدى في حب الغرب، ليجمع في فكره وأدبه بين حب الشرق وحب الغرب معًا.. ومع التزام الجفاء دائمًا لكل ما هو عربي أصيل!

كان أبو نواس الشاعر الشرقي الطروب – سعيدًا في تمرده بشعره وسلوكه على آداب الإسلام، وفي استخفافه بشعر وآداب العرب، وفي مثل هذا التمرد والتشفي، والغرق في اللهو والخمر، قاعدًا ذليلًا يستجدي ويسكر.. كان يقول سخرية بالإنسان العربي الراحل الحر:

قل لمن قام على رسم درس ما ضره لو أنه كان جلس

واحتفظ توفيق الحكيم بهذا المزاج الشرقي باتجاه الغرب منذ فتح قلبه لباريس، ولثقافة وأدب فرنسا، ومنذ تعلم التهام القصص الفرنسي بنفس الولع الذي كان يلتهم به طبقة المفضل من "المكرونة" الإيطالية!.. وأصبح دون حرج مع نفسه، ولامع الناس والأشياء – شرقيًا أوروبيًا.. طالما أن طابعه الشرقي الغربي لا يلزمه اعتقادًا معينًا، كما لا يحول بينه وبين هوى غلاب.

في كتابه "عصفور من الشرق" يبوح توفيق الحكيم بالكثير من أسرار نفسه، ويكشف عن مفاتيح شخصيته الكثيرة الطقوس والشخوص، بينما هو أمام قارئه يتجرد له عن شغفه، ويستعيد للفن كما يعشقه مثالًا عن زركشات عصر الاستسلام العباسي للأهواء الفارسية الكسروية الشرقية.

لقد كان في كتابه هذا وهو يطوف بالقارئ العربي معالم المسرح في باريس، وبالكنائس، وبالمقاهي والفنادق وحوانيت الكتب - يدندن بأناشيد من يطوف بآلهة مقدسة، بينما وهو يقفز من هنا وهناك يغرد كعصفور شرقي، ينقر على كل غصن، ويسجد لكل جمال، ويهتف بكل معبود، وهو يذكرنا بشعر جلال الرومي الذي توحدت أمامه الأوطان والأديان حيث يقول:

"أيها النور المشرق.. لا تبتعد عني.. أنظر إلى زنار زرادشت حول خصري.. أحمل الزنار.. وأحمل المخلاة.. مسلم أنا.. ولكني نصرا براهمي وزرادشتي.. ليس لي سوى معبد واحد.. مسجد.. أو كنيسة.. أو بيت أصنام"!!

في باريس.. وفي القاهرة أيضًا.. لبس توفيق الحكيم في قصصه وأفكاره زنار الشرق والغرب معًا.. ثم عاد فاستدرك ليقول: إن الشرق استكشف السماء، وإن الغرب استكشف الأرض.. ولذلك فهو يريد بالحج إلى الغرب، وبمحبة فنون وثقافة الغرب، وزيارة الكنائس والمسارح في الغرب - أن يؤكد لنفسه قدرته على أن يجمع بين السعادتين، وأن يتنقل بلسانه بين المذاقين والطعمين.. لأنه في السماء كما في الأرض بحسب زعمه: مساجد وكنائس.. ومساح ومكتبات.. وعشق وخمر.. وإلحاد وتبتل.. ودعوة أيضًا إلى فتح أبواب الجنس الصريح للجماهير.. وعلى مهل.. ولم لا.. أليس هكذا في تحرر أهل باريس تلتصق أجسام العشاق وتهتز على حوائط شوارعها.. على نغمة الاسكرتز والراقصة.. أو ليس ذلك التحرر الجنسي صحة.. وقوة.. وحضارة عظيمة!؟

ويعلن توفيق الحكيم في ذروة شبابه - في عصفور من الشرق - عن أعظم رحلات حياته إذ هو في باريس يبحث عن الوجه الذي يحبه.. يبحث

عنه في الكنيسة.. وفي المسرح.. وفي المطعم.. وفي المقهى.. وهو يتصفح الوجوه.. ويغرد لنفسه بأشعار إسحاق الموصلي بعد أن وجد هذا الوجه لشادن لم تر باريس مثله.. إنه وجه بائعة التذاكر في مسرح الأوديون!

ويعلن توفيق الحكيم على لسان هذا الشرقي الأفرنجي "محسن" وهو يكتب إلى شباب مصر بهذا الخبال التحرري الباريسي في ظل عصر الباشوات والأحزاب، واشتداد غزو الثقافة اليونانية، وانتشار المسارح في شوارع اللهو لخدمة جنود الاحتلال – أن آلهة باريس الحضارية قد كشفت له عن سرها بعد صبره الطويل، وبعد طوافه الملهوف بهياكلها، حتى وصل إلى مسرح شاتليه ليسمع السيمفونية الخامسة لبيتهوفن.. ليسمع إلى "الصوت الإلهي البشري" في "عالم بيتهوفن الذي لا تدخله إلا النفوس المهذبة"!

ويحكي توفيق الحكيم أو محسن عن "السكون القدسي" الذي خيم على المسرح عندما ظهر رئيس الفرقة بعصاه الصغيرة.. وعن شعوره بنفس الخشوع الذي خامره في الكنيسة ذلك اليوم.. وعندما تحركت يد الأستاذ: "إذا بيتهوفن يتكلم للغته السماوية، قوية أول الأمر في ذلك الأليجرو – السريع النغم – ثم حلوة بعد ذلك كأنها أصوات الملائكة الصافية في ذلك الأندانت الهادئ – بطئ النغم – ثم فياضة بالسرور الداخلي من ذلك الاسكرتزو المشرق – الحركة الراقصة – إلى أن تنتهي منه إلى ذلك الفرح المتفجر من أضواء وأنغام البرستو الأخير – أي السريع جدًا والختامي – ...(".

بهذه النشوة القدسية كما يسميها توفيق الحكيم، وبهذا الغرق فيما يشبه بحر الحلول الصوفي بالأفرنجي – وبهذا الغياب عن "الوعي" الذي تحتاج إليه مصر من أبنائها، وبالذات من أصحاب المواهب والرؤية

الأشمل من طلائعها ومثقفيها – يتكلم توفيق الحكيم بلغة الوارث المبدد، وابن الطبقة المترف، من خلال مشاعر لاهية مزركشة بكل الألوان، ومستبطنة لكل الانتماءات.. يتكلم إلى قرائه الذين لا يزال نحو 70٪ من رجالهم ونسائهم لا يقرأون ولا يكتبون – حتى اليوم – بينما هم يكدحون تحت مستوى كفاية الإنسان وحاجاته الأساسية، ليزرعوا حقول مصر، وليضعوا الخبز واللحم والزهر على مائدة الأديب الشرقي الكبير، الذي ينام أكثر لياليه – فوق هموم هؤلاء الشرفاء – مستدفئًا في أحضان الأندانتي والأسكرتزو!!

ولكن توفيق الحكيم يفرق سريعًا كعادته وذلك لينصح صديقًا أوربيًا أراد أن يزور معه الشرق فهو يقول له في كتابه عصفور من الشرق "مهلًا أيها الصديق.. إن تلك الأنهار التي تريد أن نشرب منها قد تسممت كلها.. لقد قضى الأمر ولم يعد هناك نبع صاف، فإن الزهد قد ذهب كذلك من الشرق. وإن ثياب الشرق الجميلة هي اليوم خليط عجيب من الثياب الأوروبية يثير منظره الضحك، كما يثيره منظر قردة اختطفت ملابس سائحين من مختلف الأجناس وصعدت بها فوق شجرة ترتديها، وتقاد حركات أصحابها"!

وهنا نصل إلى ذروة المأساة في فكر توفيق الحكيم الذي انتزع مع بعض رفاقه بعضًا من هذه الثياب الأوروبية ليدخل فيه، ويقلد به قصص الأوروبي وفنه المسرحي، مجتهدًا أن يتخير تخير "الواعي" ما يظن أن تقليده يروج ... وليس ما يرى أن موضوعه ينفع..!

إن توفيق الحكيم واجه مثل غيره هذا السؤال عن الفن القصصي المسرحي عند العرب وأجاب عنه إجابة صحيحة في مضمونها، وهي أن هذا الفن لا جذور له في أدب العرب، ومن هذه النقطة يتسلم هو في بداية التطور

العكسي هذه "المهمة العظمى" لسد فراغ ألفي سنة أو يزيد من حاجة الأدب العربي إلى هذا الفن الأوروبي بكل خصائصه.. كما يزعم لنا بتواضع شديد وهو يقدم لمجموعة من مسرحياته!

يقول توفيق الحكيم "إن أي مؤلف مسرحي أوروبي معاصر إنما يعمل اليوم وقدمه مستقرة فوق تجارب ألفين من السنين.. تجارب راسخة في أدب بلاده منذ عهد الإغريق.. أما في بلادنا ولغتنا وأدبنا – فميدان التجربة في التأليف المسرحي ضيق محدود، لأن أدبنا العربي لم يعترف بالأدب المسرحي قالبًا أدبيًا إلا منذ سنوات قلائل، كما أننا لن ننقل إلى لغتنا من أدب المسرح القديم والحديث إلا منذ سنوات قلائل أيضًا"!

ثم يستمر فيقول ليحدد مهمته في الأدب العربي ويبشر بها "فالمؤلف المسرحي المعاصر ينهض اليوم على فراغ، أو شبه فراغ، من تجارب قليلة. وهو يعمل وخلفه فجوة هائلة لم تملأها جهود السابقين على مدى الأجيال.. هذا إذن سر رحلتي القلقة في كل الجهات، فأنا أحاول في قلق جنوني أن أسارع إلى ملء بعض الفجوة على قدر إمكاني وجهدي، وأنا أقوم في ثلاثين سنة برحلة قطعها الأدب المسرحي في اللغات الأخرى في نحو ألفي سنة"!!

أرهام البطل:

هذا إذن هو إسخيلوس اليونان يخرج من وفاته عند سفح التل العاري بأسفل الاكروبوليس، حيث كانت تمثل له أقدم مسرحية وصل للمعاصرين نصها منذ سنة 490 ق.م لكي يظهر على أرض وادينا المشمس بعد نحو ألفين وأربعمائة من السنين.. لكي يظهر ويعيد على أرض النيل

فنون اليونان بلغة العرب، ولكي يملأ بسواعده القوية على التقليد والمحاكاة للقصة والمسرح هذه الفجوة الكبيرة في آداب اللغة العربية!

هذا إذن هو البطل في مسرحية "التأليف المسرحي" العربي يولد في قلقه الجنوني.. حاملًا بهذا القلق مخايل أسلافه من بناة المسرح الأول إسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس — والمحنون تسيبيس من قبل — وكل من مجدوا من جماهير اليونان السكارى والمحظوظين، والزامرين والراقصين، أمجاد سيدهم ديونيسيوس إله الخمر، وحملوا تمثاله الفاخر من معبده حتى يضعوه في وسط الساحة.. ليدور من حوله التمثيل ليلة بعد أخرى!

نعم.. هذا هو عبقري لمسرح الأول على أرضنا.. هذا هو صوت "ثغاء الماعز" المقدس ينزل على لسان رجل من بيننا في مصر ناطقًا بالتراجيديا عربيًا.. بعد حرمان ألفين من السنين.. هذا هو البطل توفيق حسين الحكيم.. فليقل لنا البطل إذن كيف فعل بهذا الفن الأوروبي في بلادنا وهو يركب عربة أسلافه، ويظهر في ملامحهم، وحلق في الخيال بأجنحتهم.. ماذا قدم خلال ثلاثين سنة من شوامخ عالمية، ومن مفاخر وأمجاد مسرحية!؟

ما هو العمل المسرحي الواحد الذي نجح من بين عشرات القصص التقليدية، تحت العادية، التي كتبها توفيق الحكيم في مسرحه الذي بناه شامخًا للعرب؟.. ما هو العمل المسرحي الواحد الذي طافت به المسارح في مصر والوطن العربي وأرجاء العالم، فانشغل به الناس، وتطور به المسرح، وتقدمت به الإنسانية خطوة واضحة إلى الأمام؟

لقد كتب هذا الفنان الشرقي الغربي، عاشق باريس، عشرات من القصص، التي تعب كما يتعب "الرفاء" في خرازتها وترقيعها من حصيلة ما

خلعته عليه آداب الغابرين والمحدثين في أوروبا. ولكن المشكلة كانت أكبر من مخرازه، والفجوة كانت أوسع من وهمه. لقد تسلح في باريس على يد مدربه الفرنسي العجوز بحرفة خرز "الحوار"، وامتص من كتب الفلسفة والمعتزلة والمتكلمين طقوس علم الكلام، ومخادعات العقل، ولكن كيف كان يتأتى له بكل أدواته وطقوسه وأحلامه أن يقهر اللغة العربية "الدينية" المبيتة على أن تمسخ من خصائصها، فتدخل بسحره في عباب أوهام الدراما، وتضع به على وجهها النقي أقنعة الخداع العقلي، والإيماء واللمز، وتثغو ثغاء الماعز الجبلي؟!

كيف – وهو يعترف في بعض صحواته بالعكس – كان يمكن أن يقع هذا "الحدث" الذي تتناقض به السنن، ونحتل به اتساق حقائق الوجود، فتقيم لغة القرآن المبينة مسرحًا وثنيًا في دعائمه وأهدافه، وأن يحمل الصدق في طبيعة لغة الدين حملًا غير شرعي بأهواء بعض الممسوسين المحدثين.. لبلد بأصواتها على المسرح ذلك الحلق القميء من الأكذوبات الإغريقيات.. الوثنيات!

ولكن توفيق الحكيم مع مغامرته بادعاء بطولة التأليف المسرحي بالعربية، وانتحاله رسالة ملء الفجوة المسرحية في آداب العرب – لم يكن ساذجًا إلى الحد الذي يصدق فيه كل أوهام نفسه، فلقد لمس برودة الواقع واستخفافه به في هذا الفشل الذي وطئ بأقدامه الغليظة أعناق أمانيه، وانزوى بكتبه رغم الجهود التي نشطت لترويجه. وهكذا ألجأه حواره مع نفسه إلى وهم أكبر يتحصن به هو "البرج العاجي"..!

لقد فشلت أمام عينيه أول أعماله "أهل الكهف" وفشل مثلها كل ما لحق بها من أخواتها، لأن هذه الطفيليات الأدبية لا تزال بملامحها وطبيعتها الأوروبية "رطانة" في مجتمع عربي لم يفقد خصائصه رغم تخلفه. وهكذا زعم البطل – كما يقول في كتابه "أدب الحياة" أن المسرح المصري "كان

وقت ظهور مسرحياته في حالة احتضار حقيقي"!.. ولذلك فقد ألحق مسرحياته بالأدب النظري.. وأغلق على نفسه البرج!

والتناقض في هذا الزعم أن المسرح المصري أو العربي لم يوجد بعد – وقد أقر هو بذلك في حديثه عن الفجوة – فكيف يكون هذا المسرح قد ولد.. ثم اعتراه المرض في طفولته التعسة.. ثم ها هو ذا يموت.. والبطل ينظر عاجزًا إليه؟!

والتناقض بعد هذا أيضًا هو ما زعمه البطل عن نفسه أنه قد جاء أخيرًا ليملأ هذه "الفجوة" على قدر إمكانه وجهده، وهو الذي يقول في كتابه "أدب الحياة" في أسباب ضعف المسرحية العربية "إن ضعف المسرحية في الأدب العربي أمر طبيعي لأنها نوع لا يمت بصلة إلى أصول هذا الأدب" وهكذا بدلًا من أن يعالج توفيق الحكيم بعقلية القاضي المتزن – لا عقلية الفنان الشرقي – بحث أصول الأدب العربي حتى يتبين له أنه من غير الطبيعي توليد أدب من نقيضه، كتوليد شجرة الصنوبر الجليدية من نخلة المناطق الحارة.. والنخلة أنفع لأهلها.. والصنوبرة بأصحابها أحق.. إنه بدلًا من هذا الموقف المتزن يشطح توفيق الحكيم بقلقه المجنون فيقول في تجاهل متعمد إن هذا "التوليد" أو "التخليق" القسري ممكن "في أزمان طويلة". ربما في الأزمان التي تكون بعد انهيار الحضارة الأوروبية المعاصرة.. وبعد أن يزحف الجليد في العصور القادمة جنوبًا حتى يدرك الوطن العربي فيصبح هو يونان المستقبل.. وحيث تبدأ من جديد مواكب عبادة إله الخمر.. وأغاني الجنس.. وصراخ مسرح وليد بجوار طيبة أو الأقصر.. وحيث تبتل في قبورها طربًا بقايا عظام أدباء هذا العصر من العرب الذين نسوا أنفسهم ولغتهم وتاريخهم.. وسجدوا من أجل الفن القصصي والمسرحي باتجاه الشمال.. والجليد.. وأرض العدوان القديم!

ولكن توفيق الحكيم في تناقضاته الشرقية الكثيرة يجلس أخيرًا - في هذا التعقيب على جهوده ومحاولاته - جلسة القاضي ليحكم على كل عمله وعمل أمثاله بنظرة أصدق إلى المستقبل من خلال وقائع الحاضر حول القصة والمسرح فيقول في نفس كتابه أدب الحياة.. وليته وعى ما يقول.. أو وعاه غيره عنه "ومهما يكن من أمر فإن طابع المسرحية والقصة القصيرة بما فيه من ضغط وتركيز، وإيجاز وتلميح، هو الأدنى إلى طابع العصر الحديث ومستقبله القريب".

ثم يمضي فيقول من نبوئته العلمية التي لم تفده شيئًا "ومن يدري؟.. فقد تدور الأيام دورتها وتصبح "البلاغة" في عرف العالم القادم، كما كانت في عرف الأدب القديم، هي بلاغة الإيجاز، يفرضها على العالم اليوم عصر السرعة.. كما فرضتها قديمًا عند العرب الرحل سرعة تنقلهم بين واحات الصحراء.. فالسرعة في كل زمان ومكان تنمي في الإنسان سرعة الإدراك، وسرعة التلقي والاستيعاب، فيتخذ الفن تبعًا لذلك من القوالب ما يتفق مع العصر والحياة".. انتهى.

ولكن توفيق الحكيم.. الذي لا يصبر على مزاجه الشرقي.. ينسى ما يقوله في بعض ومضات الصدق العلمي والإنساني في مجلس قاض يحكم.. ينسى أن الأيام تدور، والزمان يدور، وأن على العاقل أن يعقل عقله حتى لا يدور.. لقد نسى توفيق الحكيم في سباقه من أجل القصة الخيالية والمسرحية أنه يركب جوادًا من الخيال على أرض الواقع الذي أغمض عينيه عنه، وفتح يده فقط له.. حتى كبا به جواده أخيرًا فسقط.. سقط وهو يخسر رحلته الطويلة التي جمع فيها بين مرح الفنان، وحكمة المجنون، وإصرار العاشق، وحرص الشحيح.. لقد خسر كل رحلته.. وكبا على جواده.. وتحطمت على مشهد من الناس كل واجهاته المسرحية وهو يدافع عن نفسه.. وعن رحلة حياته التي خسرها كلها.. في واقع أليم لا

مسرح فيه.. رحلته ما بين "عودة الروح" كما زعم.. وبين "عودة الوعي" كما أقسم.. فلقد أقسم حانثًا كما يعلم!

الثورة والطريق:

ولكن الثورة المتفجرة من معين أصالة الشعب، والمتدافعة في عبابها بعصارات صمته وكلامه، وصبره وآلامه، تقطع الطريق فجأة على المدرسة اليونانية كلها.. المدرسة التي صنعها المستشرقون والمستعربون والمبشرون.. وصنعتها الأصابع الصهيونية والاستعمارية في الجامعات الأوروبية التي نرسل إليها أبنائنا شرقًا وغربًا قبل أية حضانة فكرية، ودون أية حصانة قوية.. لقد جاءت الثورة آية ودرسًا، ورحمة وعقوبة.. وتبددت أحلام كثيرة مجنونة في الهواء، وجفت بعض الألسنة من الروع في الحلوق، وغارت بعض الأعين من المفاجأة في المآقي.

لقد تحطم أمام طه حسين أكبر الأصنام التي نحتها من عشق الأوليمب وحجارة الأكروبول.. صنم الإقليمية المضاد للقومية العربية.. صنم الولاء لحضارة بحر الروم، ولثقافة اليونان في الشمال الغربي المقدس من بحر الروم.. البحر الذي كان قبل الروم والرومان بحرًا عربيًا.. والذي صار بعد إجلاء جيوس الروم والرومان عن بلادنا بحرًا إسلاميًا.. لقد سقط هذا الصنم الكبير أمام طه حسين الذي استمع إلى صوت تشهم صنمه، وأصغى مليًا إلى أشلاء الصم المهشم وكأنها تعاتبه.

لقد سقط حلم طه حسين في إقليمية مصر، وتغيير قبلتها إلى أرض اليونان بدلًا من أرض الدعوة وتاريخ الدين باتجاه مكة والبيت ومقام إبراهيم وإسماعيل لقد سقط هذا الحلم كما سقط من بعده بثورة مصر حلم فرنسا في استحقاق الجزائر العربية، رغم عروبتها، إلى الجنسية الفرنسية تحت عنوان خداعي مثل "قدسية بحر الروم" هو قومية "الأماني

المشتركة" التي تحكم كلًا من فرنسا والجزائر في أوهام دعاة الاستعمار وطغاته.. لولا حكمة قائد واقعي غير مسرحي هو ديجول.. ولولا مساندة مصر بالعمل لا بالكلام.

لقد سقط الصنم الإقليمي المزدان بالكثير من الوشي والخرز والقرابين، واستقام بالثورة حس الشعب القومي، واستقر في سياسة مصر ما حاول الإنجليز والفرنسيون والخديويون من قبل أن يطمسوه من عروبة مصر، وأصالة مصر.. وغدت مصر – كما هي بطبيعتها – جزءًا نشطًا من الأمة العربية، تحيا بوحدة هذه الأمة، وتكابد مع أجزائها الأخرى كلما وقع الشتات، وعاثت الفرقة.

لقد سقط بالثورة مستقبل مزعوم للثقافة في مصر على أساس التبعية للغرب، ولجذور الغرب في اليونان، وعادت مصر ومعها شعوب عربية تأثرت بها إلى أثوابها الأصيلة، في عقيدتها وثقافتها، لتعيد في ضوء العصر قياسها على قدر حاجتها، وتجديدها بقوة فكاكها من أسرها، وتنمية أصواتها الصحيحة في التعبير بها عن ذاتها المتقدمة، وإرادتها الحرة.

وسقطت أيضًا أمام تلك المدرسة الغابرة أكثر الخطايا والامتيازات التي استأثرت بها الطبقة من بقايا الحكم العثماني والمملوكي.. من بقايا المماليك السادة.. والناعمين الطغاة.. لم يعد أي مصري متهمًا بأنه "باشا" يسعده اللقب والقيد الذي يخلعه عليه سيده الملك.. فلقد كان الطغيان وامتياز الملوك والأغنياء جزءًا من تركيب الديمقراطية اليونانية" الزائفة.. وبالثورة سقطت رموز هذه الأوزار!

وسقطت أيضًا أمام تلك المدرسة الأدبية الغابرة هذه السهوة القاتلة عن مواجهة المخطط الصهيوني الاستعماري بزرع إسرائيل بكل موبقات الغرب واستعماره وصهيونيته في قلب العرب.. زرعها في موضع "المسجد

الأقصى" الذي هو طرف المحور، والعمود الأساسي لصرح الوحدة العربية، مع "المسجد الحرام".. لقد كانت مصر والعرب قبل الثورة في نومه الغائب في كل مخدرات التخلف.. ومخدرات المدرسة الأوروبية.. مدرسة الصفوة الارستقراطية المتميزة من الممسوسين بالقلق الجنوني، والسكارى بخمر باخوس.. وباريس ولندن.. فرسان مدرسة الروم.. والقصة الخيالية والمسرح.. ونظريات المستشرقين!!

وسقطت أيضًا أمام تلك المدرسة الغابرة تلك الواجهة المضللة عن صورة الدولة التي تريدها هذه المدرسة.. الدولة العلمانية التي انتصرت على الكنيسة في أوروبا.. وعليها أن تنتصر على "المسجد" في الوطن العربي.. كأنما المسجد كان مجمع كهان، أو رجال دين طقوسيين معتمين مطلسمين.. وكأنما "المسجد" ليس هو قلب كل مسلم.. أو كأن قوائمه ودعائمه في قلب كل مسلم ليست مهيأة ليرتفع منها الصوت، وينتشر منها الضوء.. وتتحدد في محرابها القبلة الواحدة.

لقد سقط الاحتمال السريع لقيام النظام العلماني الذي يبيح قتل الحريات باسم الحرية، ومحاربة الإيمان باسم التقدم، وسفك دم الطهارة الأخلاقية، واستعباد المرأة لتجارة الجنس، باسم التحرر. ومع سقوط هذا الاحتمال برز من الظلام الطويل الذي عاش فيه شعبنا المطالب بالحرية والعلم والإيمان هذا الاحتمال الآخر.. الاحتمال الحتمي الذي برز بمقومات واقعية، ساطعة بنورها الذي يشق الظلام: بينما يحكي مرحلة بعد أخرى آمال هذا الشعب الذي صحا.. ليجاهد بقلبه وعقله.. وبأصالته وعصريته، من أجل أن يبني دولة العلم والإيمان.. والعدل والسواسية.. والرخاء والتقدم.

الفصل الثالث

المستشرقون يتهمون العرب بقصور الخيال القصصي

الذهب الأفرنجي:

عندما عاد مارون نقاش من إيطاليا إلى بيروت سنة 1846 حاملًا معه في سلته أول جراثيم وبكتريا – الغزو المسرحي للعرب في العصر الحديث – بعد تلك المحاولات التي فشلت على عهد الاستعمار اليوناني والروماني الطويل للوطن العربي – صاح يبشر قومه في بيروت بأنه جاء إليهم ومعه "الذهب الأفرنجي المسبوك" وكان هذا هو أدق تلخيص بلسانه لجريمته، التي تسلمها منه على أثره رجال الإرساليات التبشيرية في بيروت وغيرها.. وأي تلخيص يكون أدق من أن يقول مارون بأن "المسرح" هو فن أوروبي خالص، وأن يلقي الضوء بهذا النص، وهو عميل للثقافة الأوربية في بلد مهزوم على عمل المبشرين الذين كان ولا يزال أهم أعمالهم في خدمة الاستعمار الأوروبي هو محاربة الإسلام، وطمس اللغة العربية.. ومن أجل هذا شاركوا بنشاط خفي وعلني في تأسيس المسرح، الذي يتحقق على خشبته تفتيت الدين واللغة..

وأنشأ مارون نقاش مسرحه الذي أطلق منه على العرب أول رصاص الكلمات الأوربية الشقراء، الزرقاء العيون، المصبوغة الوجه القبيح بشتى الألوان.. مترجمة في لغته العربية الركيكة.. وهو يعرض رواية "البخيل" لموليير.

لقد كان هذا الذهب الأفرنجي المسبوك، في المخطط الاستعماري المحبوك. يتدفق من أول الأمر من عناصر وثيقة الاتصال بالاستعمار – عمالة أو غواية أو عماية – وكان في مقدمة هؤلاء العملاء كما يقول عمر الدسوقي في كتابه "المسرحية" مراكز الإرساليات التبشيرية الأجنبية لأنهم – في نظره الكليل – حملة المشاعل للنهضة الأدبية العربية!!.. وهكذا من

الكلية الأمريكية ببيروت سنة 1860 ومن الكلية اليسوعية بعدها بقليل خرجت الشعلة الاستعمارية ومعها "الذهب الأفرنجي المسبوك" لتوجه الشباب العربي إلى فن القصة الغربية بجوار "نشر التعاليم الدينية طبقًا للمذاهب المسيحية الغربية" كما يقول الشيخ عمر الدسوقي!

من هنا.. ومع وضوح المسيرة الفاشلة وسط الشعب العربي، وجمهوره الذي تزداد يقظته يومًا بعد يوم، ويتخلص من أغلاله وقيوده قيدًا بعد قيد، ووهمًا بعد وهم – يتحدد ارتباط الدعاية والتنشيط للفن القصصي الأوروبي بالرواية أو المسرحية بضميم الخطط التي ينفذها الاستعمار لنشر ثقافته، ولتفكيك وتخريب مقومات الثقافة العربية المقابلة والمتميزة بجذورها وأصالتها عن هذه الثقافة، حتى ينفتح الطريق لذوبان وضياع الذات والهوية العربية في تبعية مطلقة لأوروبا غربًا أو شرقًا..

ولقد عاش العرب بعد بداية هذا الغزو قرنًا من الزمان رأوا فيه كيف كانت الصهيونية فيما أعدته من زراعة "إسرائيل" في قلب العرب وكأنها على ميعاد محدد داخل هذا المخطط الكبير لتجد بعد الغزو المسرحي والثقافي الأوروبي بكل ألوانه "فراغًا وضياعًا للذات العربية" تضع إسرائيل في "بحبوحته" أقدامها مطمئنة فوق أجساد شعب حطمته آلهة الغرب.. وخرافات معبد دلفي.. وصراخ وتأوهات القصاصين من المسلمين في هذيانهم الإتباعي وهم يكتبون: "يا إلهي.." أو "بحق الآلهة لم فعلت هذا يا سوسو!!"..

لقد كان في حساب الإرساليات التبشيرية الاستعمارية أن خططهم الثقافية تتجه داخل الوطن العربي إلى إعداد مناخ ثقافي أوروبي يتسع لتقبل "الغزاة الأوروبيين الجدد في أثواب "إسرائيل" وتحت شعار صليب مبتكر في صورة "نجمة داود".. فلقد كان معلومًا لهذه الإرساليات، وقبل أن يفتح

العرب أعينهم على ما تدبره الصهيونية والاستعمار.. وقبل أن يأتي مارون نقاش بالذهب الأفرنجي المسبوك.. أن الخطط لزراعة إسرائيل في قلب الوطن العربي تسير حثيثًا تحت سطح السياسة الأوربية العالمية.. وهكذا يتحدد للباحث العربي اليوم مدى الارتباط الوثيق بين هذا الغزو الثقافي بالمسرح الأوروبي اليوناني، والمخطط المرسوم لملايين الكلمات الهاذية والخليعة والمنومة والمحطمة لمقومات الدين واللغة والتاريخ والأخلاق.. والتي ألقيت بالفعل من فوق هذا المسرح تحت شعار الفن.. أو الإصلاح الاجتماعي.. أو الترفيه عن جنود الاحتلال وكبار العمد.. وسماسرة المحاصيل – وبين إعداد الظروف الملائمة للعدو ليغتصب الأرض العربية، ويقيم عليها كيانها كدولة عدوانية توسعية أوربية صهيونية اسمها "إسرائيل"..!

وإذا كان أمل الأعداء لم يتحقق تمامًا بالصورة التي أرادوها، وإذا كانت الصحوات العربية المتتابعة لا تزال تمنع احتمالات الصور الزاهية للنصر الإسرائيلي الأول فإنه من المحقق أن الوجود الإسرائيلي بشكله القائم الآن على طريق صراع طويل – كان هو الصفقة الأولى من حساب "الذهب الأفرنجي المسبوك" والتي تمت خلال قرن واحد من الزمان بين ظهور أول مسرح هزلي في بيروت سنة 1847 وبين إعلان أعظم حدث مأساوي في تاريخ العرب الحديث وهو قيام دولة إسرائيل سنة 1948.. وهكذا بمفهوم هذه الصفقة يمكن تفسير الخط المتوازي بهذه المنامات المسرحية السقيمة، وأضغاث الأحلام في مثل مسرحيات "أهل الكهف" و "شهرزاد" و "بيجماليون" و "براكسا" – وبين نشاط الخطط الأوربية بالعدوان والتمر وتمزيق الكيان العربي من داخله بالخلافات،

والمتناقضات.. بعد تفريغه بأفيون القصة، وخمر المسرح.. من حقائقه، ولغته، ومن دينه، وأصالته!

السلام والصراع:

وعندما نمر في هذا الفصل على بعض آراء المستشرقين في قضية القصة عند العرب سنجد أن هذه الآراء التحريفية والمختلفه هي "السفر المقدس" الذي صدرت عنه آراء المريدين والعابدين والسالكين من أدباء العرب الذين يعتنقون في العصر الحديث ديانة القصة الأوروبية ومسرح اليونان. وسنجد أن الطابع العام لهذه الآراء هو النظرة العنصرية المتعالية التي لا يزال ينظر بها الرجل الأبيض الأوروبي – بلون الجليد ومزاجه – إلى شعوب الأرض التي يطمع دائمًا في افتراسها، وسرقة مواردها، وبخاصة شعوب الوطن العربي..

إننا لا نأبه لهذا الشعور العنصري عند الأوروبي الذي لا يرى الحقيقة إلا بعين واحدة في وسط رأسه، كما يراها إنسانه الخرافي "السيكلوب".. لا نأبه رغم تفاهات أساطير هوميروس، ومواكب الخمر والجنس، وثغاء الماعز، أن تكون هذه البربريات هي في شعوره ولا شعوره – مصدر التفوق، ومنبعًا للقيم الإنسانية التي يزعمها لحضارته العدوانية منذ بداياتها.. ولكننا نعترض، ونقاوم جميع هذه الدعايات والخطط التي تعدها القوى المختلفة لتبتلع ثقافة الأوربي ذي العين الواحدة ثقافة أخيه العربي ذي العينين الاثنتين المفتوحتين.. لتبتلع الثقافة التي لا تؤمن إلا بالأرض والأدوات والمتعة والحرب والعدم.. هذه الثقافة العربية الكاملة التي تؤمن بالأرض والسماء.. والإيمان والعلم.. والإنسان وأخيه.. والجهاد والسلام.. والحياة والبعث!

نعم.. بغير عنصرية.. ولا مباهاة.. ولكن دفاعًا عن النفس نحن نعترض، ونصحح، ونقاوم.. ونبذل الجهد لنبني حياتنا الأفضل.. حياتنا العربية المؤمنة.. وليست الحياة التي يريد أن يفرضها علينا الأوربي وراء طلائع فكر المستشرقين المجندين في فرقة الاستخبارات الاستعمارية الذين هم أعداؤنا القدماء من أيام الاسكندر.. وحتى هرقل.. ونابليون.. واللنبي.. وكرومر!

ونبدأ بأخف هذه الصور المقلوبة في فهم الموقف العربي من القصة الموضوعة ومن المسرح في كلام المستشرق الألماني جوستاف فون جرينبوم الذي يضع إصبعًا خبيرة على ما هو أقرب للواقع في تفسير العزوف والاستغناء في الأدب العربي الأول عن ممارسة الاستبطان الكهنوتي في صناعة الرواية الخيالية، والقصة المسرحية.. إن السبب ليس القصور أو العجز.. ولكنه السلام الاجتماعي الذي حققه الإسلام للعرب..

يقول جرينبوم "إن الإسلام كما خرج به العرب من جزيرتهم لم ينجح – كما يقول – في خلق فن مسرحي رغم معرفة المسلمين بالثقافة اليونانية والهندية، وهذا لا يعود إلى سبب تاريخي قدر ما يعود إلى مفهوم الإنسان في الإسلام، وهو مفهوم يمنع وقوع أي صراع درامي".

ولكن جرينبوم المتخصص في التنقيب عن العناصر الإغريقية المزعومة في الحضارة الإسلامية، وصاحب كتاب "الإسلام في إطار تاريخ الحضارة" يعود فيرى أن هذا السلام الذي يرسيه الإسلام في نفس المسلم تجاه نفسه، وتجاه الآخرين، وتجاه الحياة والوجود – والذي لمسه جرينبوم بأطراف أصابعه لمسًا – إنما هو سلام الإنسان فاقد الاختيار أمام الله.. سلام الإنسان المغلوب على أمره أمام خالقه الواحد المسيطر الذي آمن به.. وعلى هذا يصبح هذا السلام في نظر الخواجا جرينبوم عقبة وضعها

الإسلام أمام العرب تمنعهم من المزايا العظمى في وقوع الصراع الدرامي في أنفسهم.. إن هذا السلام الاجتماعي والفردي في نفوس المسلمين، والذي لم تنجح أوروبا وأمريكا من بعدها - حتى داخل عيادات الأطباء النفسيين - في الوصول إليه، وبعد تجربة الديمقراطية بأشكالها الرأسمالية أو الاشتراكية أكثر من ألفي سنة.. إن هذا السلام الإسلامي حرم المسلمين من أن يصبح المسلم العربي إنسانًا صراعيًا دراماتيكيًا.. يا للهول!!

أوليري الحقود:

ولكن مستشرقًا حقودًا معاصرًا هو ديلاس أوليري يتحدث في غرور مبشر استعماري يجلس بين أكواخ قبائل البوشمان ليكذب عليهم، وهو نشوان بجريمته، وبقدرته الموهومة على تمثيل "دوره".. المحدد له في مكاتب وزارة المستعمرات..

يقول الإنجليزي أوليري في بداية مزاعم التفوق اليوناني "إن الثقافة الإسلامية في أساسها وفي جوهرها جزء من المادة الهيلينية والرومانية، بل إنه حتى علم التوحيد الإسلامي قد تحدد وتطور بواسطة منابع هيلينية"!.. والخلط في هذا الإدعاء الهيليني يدركه المسلمون اليوم وهم يكتشفون أن هذا التسلل الهيليني الفلسفي إلى المدونات الإسلامية في عصور الانحلال كان أكبر محنة أصابت المسلمين بالشقاق الذي يراد لهم مثله اليوم، هذا الشقاق الذي دخلت به معتقدات وثنية، براهمية وبوذية ويهودية ويونانية في طقوس الفرق الصوفية والشيعية والباطنية والفلسفية، تحت مسميات إسلامية، لا صلة لها بالإسلام كما دعا إليه محمد رسول الله، وكما نزل به القرآن العربي المبين..

وعلى هذا فإنه من المقطوع به أن تنقية التراث الإسلامي من هذه "المادة الهيلينية والرومانية" بكل زيفها وخيالها وشتاتها وسفسطتها هي في صميمها – لو استطاع مثل أوليري أن يفهم – تنقية للإسلام مما ليس منه.. ومما هو باق في أسوأ دلالاته لنرده على أوليري – وارث الهيلينية والرومانية – على عنوانه إذا أراد!

ويتهم الإنجليزي أوليري الإنسان العربي في سلسلة من تناقضاته في كتابه الهابط والحاقد "العرب قبل محمد" بأنه "مادي" أي أن العربي يعشق الدرهم والدينار.. وهو الذي أعطى في جدبه ما لم يعطه ملوك أوروبا كلهم، بل أعطى أخاه، وأعطى الناس، وأعطى أوروبا نفسها، بإيمانه وعلمه وخلقه، وحضارته العلمية، وإنسانيته ما لم يعطه كل ملوك أوروبا، وقاطعي الطرق المتوجين في أكثر عصورها.. وما لم يعطها إياه جميع فلاسفتها التجريديين من أيام سقراط حتى ديوي!

ويصف أوليري الإنسان العربي أيضًا بأنه "ضيق الخيال" لأنه لم يختلق أسطورة، ولم ينتظم في مواكب المخمورين الداعرين لتمجيد إله الخمر والكروم والخصب ديونيسيوس، ولم يرفع الدعائم الأولى لطقوس الوثنية على مسرح التمثيل، ولم يغير لغته الغنية بالشمس والصفو والحق بلغة تتمزق في أفواه أصحابها بأمراض الصرع والصراع.

ويتهم أوليري الإنسان العربي أيضًا – وهو ينسى أن شكسبير وجوته وأعظم شعراء أوروبا في عصر النهضة هم بعض أعشاب حديقته التعبيرية التي أثمرت ثمانية قرون في الأندلس، وغمرت أنغامها وعطورها صقلية ونابولي وباريس ومونبلييه ولندن وروستوك وكراكوف وغيرها – يتهمه أوليري بأنه جامد العواطف!.. نعم وينسى أن "الفروسية" والحب والنبل كانت بعض عطاء هذا الإنسان العربي للقلوب الأوربية الصخرية.. وكلمة

فروسية لا تزال في لغات أوروبا هي الكلمة العربية بنصها cavalry أي الخيالة..

ولكن أوليري – على سجية أسلافه – لا يلبث أن ينقلب على نفسه في تناقضات الدور الذي يؤديه ضد الواقع فهو ينسى سبابه بهذا التفضل على العربي حين يصفه بأنه "كريم" و "مخلص لتقاليد قبيلته"!

ومن هذه التناقضات العجيبة أيضًا ما تختلف به مقاييس وموازين أوليري حين يتحدث عن أبناء عمه الآريين من الفرس فيقلب قضية الديمقراطية رأسًا على عقب لأنها تجيء في صالح العرب، ويرحب بالوثنية وتأليه البشر والطغاة عندما يكون هذا هو مذهب الفرس. فلنسمع له في بعض خرافاته الهيلينية وهو يتعالم في كتابه التلفيقي "الفكر العربي" فيقول وهو يحكي عن رؤيته للتاريخ الإسلامي بعين السيكلوب الواحدة في قاع رأسه: "إن حكم الساسانيين الفرس لم ينته بالحكم الإسلامي فحسب، وإنما انقرضت الأسرة الساسانية نفسها. وقد بقي الكثيرون من الفرس على أفكارهم القديمة برغم اعتناقهم الإسلام؛ فكانوا على استعداد لعبادة "الخليفة" كما عبدوا ملوكهم من قبل، بينما لم يرحبوا بنظرية الخلافة كما جاءت بها تطبيقات العرب، والتي لم تجعل من الخليفة أكثر من شيخ قبيلة منتخب بطريقة "ديمقراطية" على نحو ما كان في قبائل الصحراء، وقد بدا ذلك في نظر الفرس كأنه رجوع إلى البربرية البدائية"!

وهكذا يكون التطور الحضاري المطلوب في نظر الأوربيين بالنسبة للعرب تطورًا عكسيًا مثل الانقلاب العكسي في سير الدراما.. فالديمقراطية التي يمارسها العربي.. الحر.. الكريم.. بربرية بدائية.. والوثنية التي يتأله بها الحكام الطغاة من الفرس وهم يستعبدون رعاياهم

هي تقدمية حضارية.. وعلى هذا فلقد كان من الصعب جدًا على عقل أوليري وأمثاله أن يفهم أن هذا الإنسان العربي الديمقراطي الحر.. الكريم.. الذي تجاوز في واقعه الذي عاشه بالصدق كل الخيال – لا يمكن أن يكون "ضيق الخيال".. ولا يمكن بالتأكيد وقد انتصر بالصدق فحقق الحرية لإرادته، والسلام مع نفسه، والسواسية والتكافل مع الآخرين – أن يفتعل كابوس "الصراع الدرامي" الذي تطهر فكره منه، وارتفع تعبيره عن مستواه، بعيدًا تمامًا عن خشبة الفن المسرحي الوثني.. وعالمه الشبحي..!

معايير الإنسانية:

وفي هذه القضية – مثل جميع القضايا المتصلة بالعرب والإسلام – لا يتناقض مستشرق مع نفسه فحسب، وإنما يتناقض المستشرقون مع أنفسهم ما بين عصر وعصر، وما بين أنفسهم في العصر الواحد، وإن أجمعوا بصورة أو بأخرى على هدفهم المحدد وهو الاستخفاف أو الزراية أو الاختلاق، أو سوء الفهم، في كل ما يتعلق بالعرب والإسلام..

فمن هذا ما يزعمه المستشرق كارل هنريخ بيكر الذي كان أستاذًا بجامعة هامبورج وأنشأ مجلة بالألمانية سماها "الإسلام" وتخصص في نفث أكاذيبه حول وجود عناصر يونانية ومسيحية في الحضارة الإسلامية، فهو يقول "إن النزعة الإنسانية التي تولدت من التراث اليوناني في أوروبا لم يؤد الإسلام إلى مثلها بين المسلمين، وقد نشأ عن ذلك أن العالم الإسلامي لم يأخذ من التراث اليوناني إلا ما كان ذا نزعة عقلية منطقية، أما الشعر الغنائي والأدب الروائي حيث تتمثل الروح اليونانية فقد ظل أمرهما مغلقًا على المسلمين"!.

فهذا المستشرق الذي زار مصر وكان شبه مستشار للإنجليز بوزارة المعارف سنة 1916 يناقض أوليري الذي يزعم أن الثقافة الإسلامية كلها هيلينية رومانية، ويناقض نفسه وهو مؤلف كتاب "النصرانية والإسلام" في أن الإسلام لم يؤد إلى النزعة الإسلامية بين المسلمين بينما هو يزعم وقوع التبادل الفكري بين الإسلام والنصرانية، فعلى أي أساس كان هذا التبادل إذا افترضنا إنسانية النصرانية – إذا لم يكن الإسلام يملك الإنسانية مصدرًا كما يملك القابلية لها تبادلًا!؟

وكيف ينتزع بيكر الإنسانية من الإسلام وهو مصدرها الذي لا ينضب في طبيعة دعوته، وفي آثار هذه الدعوة التي حررت في سنواتها الأولى نصارى مصر المضطهدين من المذابح البربرية التي أدار الرومان دولابها الدموي على أجسادهم نحو ستة قرون بغير انقطاع.. ومن هم الرومان؟ إنهم تلامذة اليونان، وأتباع "إنسانيتهم" المزعومة الملطخة بالدم، والخمر والابتزاز، والخداع، كما عاش الإسكندر وبطالسته يتيهون على الناس وهم يظلمون ويفجرون؟!

ولا نحدث بيكر عن إنسانية المسلمين في أوروبا، وآثار إنسانيتهم إلى اليوم في كل جامعاتها.. كما لا نحدثه عن اللاإنسانية التي حملت بها أوروبا عارها الأبدي في محاكم التفتيش، وهي تنتزع روح المسيحية لتحل محلها روح الوحش اليوناني والروماني، السائد إلى اليوم في صراع الدول الأوربية شرقًا وغربًا.. على استعباد العالم..

ولكن الفيلسوف والمؤرخ الفرنسي يوسف ارنست رينان يتخذ في قضية الإنسانية أسلوبًا أكثر غرورًا وتحديًا من الألماني بيكر فهو يرى لإرضاء نزعة التفوق العنصري في خياله الحاد أن الجنس الآري هو الجنس المتفوق، وأن الساميين – بحسب التسمية اليهودية – ومنهم العرب هم أقل

في مستوى الخصائص الدافعة إلى التقدم. ثم يعكس رينان الواقع بالنسبة للإنسان العربي فيدعي أنه غيبي بمفهوم خرافي، ومتعلق بالمعجزات بمفهوم أنه يؤمن بالمشاهد التي يكون معناها كسر القوانين العلمية.. وهذا بالطبع وهم كبير، واختلاق يردده من ربطوا مفهوم الإنسانية والتقدم بنشاط غرائز التسلط والعدوان..

والواقع أن هذه الصورة التي تعكسها الأوضاع في الشرق، أي في الأوطان العربية التي تأثرت بعد الإسلام بخرافات وأساطير فارس والهند في معتقداتها وغيبياتها ليست صحيحة بالنسبة للإنسان العربي الأول، والإنسان العربي إلى اليوم، كلما انتبه إلى حقائق الإسلام المنسقة والعلمية في القرآن الكريم، وفي التاريخ التطبيقي للإسلام في عصر المسلمين الأوائل.

فالإنسان العربي المؤمن مؤمن بالغيب الذي جاء به القرآن، وهو غيب يؤكده علم الإيمان، ومنهج التفكر السليم في حركة الحياة التي تنبئ عن خالقها، وتنتزه عن العشوائية في مسيرتها ومداراتها.. فالغيب الذي هو حقائق الإيمان بالله والملائكة والوحي والبعث والحساب هو غيب علمي يرتكز على معلوم يؤدي إليه.. وليس هو غيب من نوع حلول الآلهة في البشر كما كان الفرس يتصورون حلول آلهتهم في أجساد ملوكهم..!

وأما "المعجزات" والكلمة الصحيحة هي "الآيات" فقد آمن العرب المسلمون، ولا يزالون يؤمنون بأنها تمت بجميع صورها وفق السنن والقوانين العلمية التي هي صنع ومشيئة الله، فكيف يكسر الله بآياته سننه..؟.. المسألة التي لا يفهمها رينان وأمثاله أن المؤمن يؤمن بوقوع الآيات على أساس علمي وإن كان تفسيرها العلمي فوق طاقته.. كما يقع كل يوم في

الطبيعة، وفي حياة الإنسان عدد كبير من الظواهر التي يصعب تفسيرها العلمي وإن كان من الحتم أن لها هذا التفسير..

ولكن رينان صاحب موسوعة التاريخ المسيحي، وبسبب تعصبه الاستعماري الأوروبي ضد العرب، وبسبب عبقريته الآرية اليونانية أيضًا كان لابد له أن يكون متناقضًا مع نفسه.. ولم لا.. فالذين يمكن أن يحاسبوه عن جرائمه العقلية ضد العرب هم بسبب "ساميتهم" أقل منه استيعابًا لما يقول، وأعجز عن تطويق أكاذيبه، وأقصر يدًا ومنطقًا عن محاسبته المذلة لغروره.. وفي مجال هذا التناقض الذي يتنافس فيه فكر السادة الآريين نترحم على روح العالم رينان بتقديم فقرة من كلماته التي يصف بها اللغة العربية عند انبثاقها بالإسلام حاملة باتجاه تغيير وتحرير وتديين وعلمنة العالم القديم: سور القرآن الكريم.. نقدم كلمات تضعه باعترافه أمام ظاهرة علمية لا تفسير لها عنده، وإن كان لها تفسير علمي على التحقيق، كما وجد المؤمنون العرب أنفسهم بالإيمان أمام جميع الآيات التي قدمها الله.. والتي لا يزال يقدمها في الخلق والحياة والإنسان — كل يوم.. ولكن أكثر هؤلاء المستشرقين لا يعقلون..

هذه الكلمات التي ترفع من قدر رينان العلمي في صدق ملاحظته هي نفسها التي تدينه، وتهبط بمستوى أمانته إلى الحضيض عندما يتكلم بغرور وبغباء معًا عن المستوى الأدنى للساميين عن الآريين، في حين أنه ثابت قديمًا، وثبت حديثًا، أن فارق عقل أمة عن أمة هو اللغة.. فكيف يمكن أن تقاس اللغات الهندوأوربية الخرسانية شبه البكماء في الشئون الإنسانية باللغة العربية التي معناها اللغة المبينة، والتي تحقق بها تغيير العالم أكثر من مرة، وفي أعظم مرة، مع استمرار بقائها بنفس النضارة الحيوية، ومع جمال وجلال الإيقاع، ومع الغنى المتجدد بالمعاني الأكثر أصالة في مطالب

البشر، بغير غضون أو تجاعيد أو شيخوخة.. بينما سقطت ودفنت اليونانية والرومانية القديمتان مثخنتان بالعجز والتصلب والضمور بعد أقصر الجولات في حياة ميتة إنسانيًا.. ومصير ما تولد منهما من اللهجات رهين بما تبقى من عمر هذه الحضارة الحديثة التي تعاني أعراض الانهيار.

يقول رينان وهو يتحدث عن بداية مشاركة سكان الجزيرة العربية في النشاط العالمي المحيط بهم منذ ظهور الإسلام – بحسب رؤيته – كما يتحدث أيضًا عن "مزايا" الجنس السامي!.. يقول:

"إن وسط شبه الجزيرة العربية وهو موطن العرب الأصلي لم يظهر في تاريخ الشرق القديم إلا متأخرًا ومع ذلك فإنه هنالك بالتحديد تستمر بفضل الحياة البدوية الميزات الأصلية للجنس السامي – العربي – ففي القرن السادس بعد الميلاد يتراءى هناك عالم زاخر بالحياة وبالشعر، و "بالرقي" في بلاد لم تعط حتى هذا التاريخ أية علامة على وجودها".

ويمضي رينان بعد ذلك فيتحدث عن اللغة العربية نفسها، التي هي خزانة معاني وحقائق وخصائص وتراث العرب، فيبدي عن بالغ دهشته وهو يقف أمامها كما يقف العالم أمام ظاهرة تبهره، وتثيره، ومع ذلك تبقى أعلى من علمه، وابعد عن منال منطقه وأدواته.. إنه يقول في كلام قرأه المستشرقون فلم يفهموه، أو تجاهلوه.. إنه يقول في كلمات ينبغي أن نعيد نحن العرب النظر إليها، ونعلم أنه برغم كل الهجمات في حرب الغزو الفكري فإن بقاء العرب، وبقاء الحق الذي يمثلونه، والسلام الكبير الذي يدافعون عنه – رهين بدفاعهم عن لغتهم الصحيحة، وبقدرتهم على أن ينبعثوا من جديد من أعماق كلماتها الحية والغنية، والمشرقة على الدوام فوق سحب العدوان، وسحائب النسيان، في محكم القرآن المبين.

إن يوسف ارنست رينان يمضي فيقول في كتابه عن اللغات السامية:

"ومن الظواهر التي اقترن بها هذا الانبثاق غير المنتظر لوعي جديد في الجنس البشري – يعني ظهور الإسلام – ربما كانت اللغة العربية نفسها هي الظاهرة الأشد غرابة، والأكثر استعصاء على الشرح والتعليل. فهذه اللغة المجهولة ما قبل التاريخ تبدو لنا فجأة بكل كمالها ومرونتها وثروتها التي لا تنتهي، لقد كانت من الكمال منذ بدايتها بدرجة تدفعنا إلى القول بإيجاز أنها منذ ذلك الوقت حتى العصر الحديث لم تتعرض لأي تعديل ذي بال. اللغة العربية لا طفولة لها، وليس لها شيخوخة أيضًا، منذ ظهرت على الملأ، ومنذ انتصاراتها التي لا مثيل لها".

ألا يكفي هذا الكلام للدلالة، أو للإشارة إلى أن دعوة الإسلام لم تكن لتظهر، إن كانت هي الدعوة الصحيحة بين الأديان والدعوات، إلا من خلال تعبير وبيان اللغة الأكثر حيوية ومرونة وثروة وكمالًا بين لغات العالم، ومن أجل هذا اتسعت لمعاني وكلمات الوحي بالقرآن الخالد بغير تحريف إلى اليوم..؟!

وأما كان مثل هذا الكلام الواضح تمامًا يكفي جوقة المنشدين من الكتبة والمتأدبين بالوطن العربي، على أرغن مارون نقاش وصنوع، ومبشري الإرساليات الأجنبية – لكي يدركوا أنه لكي يكون مسرح عربي، ودراما واختلاق، وخمر وزمر، وآلهة وأوليمب، فإنه ينبغي – كما هو في المخطط الصهيوني الاستعماري – إزالة هذه اللغة العربية.. أما إذا كان هدفهم هو الهدف الوطني والقومي أي هو إنجاز التقدم الحقيقي للعرب، فوق أرضهم، وبمقوماتهم وعقيدتهم ولغتهم وقرآنهم.. فإن المسرح يكون أكذوبة.. ومعبدًا خرافيًا لم ينشأ في أوروبا منذ اليونان إلا في ظل الأثرياء والسلطة.. وأنه ظل هكذا لعبة وملهاة للقصور حتى الثورة

الفرنسية.. وأن محاولات تسخير أكاذيب الدراما، واستبطاناتها الصراعية الخداعية لخدمة القضايا الاجتماعية قد ثبت فشلها تمامًا. فالمسرح لابد له من رعاية، والراعي دائمًا هو الملوك والنبلاء والسلطة.. وقد صمت المسرح الأوروبي الذي تحول الآن إلى بيات شتوي لأكثر الخرافات بسبب صحوة الشعوب، وانتشار العلم، وسيطرة سياسة المواجهة في المشكلات العالمية، وليس الخداع والمناورات.. والصراع الدرامي!

ولكنه كان مقدورًا لهذه الجوقة أن تنشد في الظلام قبل أن ينقشع أنشودة جنادب الحقل، ولم يكن في وسعهم – كما نشأوا في حصار الثقافة الاستعمارية الأوربية – أن ينظروا في كلام المستشرقين بالعين المبصرة فيناقشوا ما فيه من خلط وتناقض وتحامل ويفندوه.. وهكذا حملوا أوزاره على ظهورهم.. وتنادوا به سفهًا في كتبهم ودعاياتهم..

المكتوب والمقدور:

ومن بين هذا الخلط أيضًا في مزاعم المستشرقين حول قصور الخيال العربي في مجال "الاختلاق الدرامي" واعتبار ذلك منقصة وبدائية – ما جاء على لسان المستشرق الفرنسي هنري كوربان من السوربون والذي اشتغل مديرًا للمعهد الفرنسي للدراسات الإيرانية في طهران، فهو من أجل الدراما يعتبر مسيرة الفكر التاريخي الإسلامي المنتظم في هذا الكون بلا حد، ومع الزمن بلا نهاية، بين حركتين متعادلتين هما "المبدأ والمعاد" – نوعًا من التفكير الذي يلغي تصور التطور في هذا العالم. فكل شيء يحدث إنما هو "مكتوب" بالنسبة للسير العمودي لأحداث الوجود، وأما بالنسبة للسير الأفقي في أحداث المعاش اليومية فهي أمور ثانوية عند العربي المسلم.. وهو يزعم لذلك أن هذا النبض المنتظم في الفكر التاريخي الإسلامي في

مدارات تتعاقب بين المبدأ والمعاد لا يخلق إلا "الأسطورة" ولا يمكنه أن يخلق الدراما!

أما أنه يخلق الأسطورة فلا.. لأن الأسطورة هي المنجم الذي خرجت منه عناصر الدراما، فإذا كان الإسلام لا يختلق الدراما فلأنه أساسًا لا يصنع الأسطورة..

وأما عن "المكتوب" وحكم الله وقدره فنظرة المسلمين والعرب إليه لا تخرج عن مقاييس ومعاني القرآن، فالمكتوب هو حكم الله القائم على "الحكمة" في سبب الخلق، وعلى العدل في إقامته وتسييره، وعلى التطور في معنى الخلق نفسه إلى الأحسن بمفهوم أوسع من الإدراك الأوروبي الضيق للوجود.. أي بمفهوم أوسع للمكان والزمان.. فعند المعاد.. وبعد تغير وتطور جميع الصور المادية الراهنة للسماوات والأرض.. يظهر إنسان خالد.. إنسان جديد لا يرهقه الصراع.. ولا يتملكه الوهم والخوف.. ولا تقصر به أدوات العلم والحكمة.. وفي كل هذه المعاني القرآنية لا يوجد أثر للخرافة أو الأسطورة.. وإنما هو موقف علمي من العالم بقدر ما يتسع له إدراك الإنسان المتحرك والعابر — كما يتحرك كل شيء حوله — بين المبدأ والمعاد.. إلى ما هو أفضل للمؤمن.. الذي ثبت باختيار إيمانه وعمله أنه بمفهوم إنساني أشمل لقانون "الانتخاب الطبيعي" قابل لاستئناف حياته "متطورًا" إلى الإنسان الكامل.. بعد عبور حالة الموت.. واستقبال حقيقة البعث.. وطور الحساب!

فإذا كان مثل هذا الإيمان.. وعبر هذه المدارات الأبعد والأشمل "عموديًا" و"أفقيًا" لا يستطيع العربي أن "يختلق" الدراما.. فهذا حق لا يمارى فيه.. ولكنه حق في جانب الكمال وليس في جانب النقص.. وفي جانب إنسانية أرفع نظامًا، وأغنى تعبيرًا، وليس في جانب بدائية أو تخلفية هي كما كانت ولا تزال ورغم كل الظواهر الخادعة في المجتمعات الأوربية

القديمة والحديثة طبيعة هذه المجتمعات، في فكرها التاريخي والتفسيري الضيق للحياة والإنسان.. إنه كمال في جانب هذه الحضارة العربية الإسلامية التي وعت التطور العمودي والأفقي في الاتجاه الصحيح الذي انتهت به في أزهى عصور التاريخ إلى تصحيح مسار التطور الإنساني باتجاه العلم.. وليس باتجاه الخرافة!

ثم يأتي ماسينيون في مجال هذا الكلام عن إيمان المسلمين بقدر الله إيمانًا يحرمهم الإرادة الحرة فيقول: "إنه ليست هناك دراما في الإسلام، لأن الدراما كما يعرفها التفكير الأوروبي الشائع تدور في قلب الإنسان. إنها دراما حريتهم – أي حريتهم في الاختيار – ولكن هذه الحرية بالنسبة للمسلمين مشروطة بالإرادة الإلهية التي لا تعتبرهم إلا أدوات فحسب.."!

وهذا الفهم المقلوب أيضًا لمعنى المشيئة الإلهية في إيمان المسلم هو انعكاس للوضع الذي يحس به الملحد الأوروبي العقلاني تجاه "الحقيقة الإلهية" وعجزه رغم الأناجيل الأربعة عن أن يجد لها شعاعًا من ضوء في أغوار نفسه المتصارعة على أشباح شهواتها، وعقدها، ومطامعها، ومخاوفها، وظنونها!.

إن ماسينيون الذي لا يزال يرى الآلهة بمستوى خرافات هوميروس، ولعب وتماثيل معبد دلفي، وجزيرة ديلوس.. وجوبيتر وزيوس.. لا يستطيع أن يعي إمكان سبر "الاختيار البشري" في مدار المشيئة الإلهية، ثم يبقى مع ذلك اختيارًا حرًا كاملًا، طالما أن الإنسان المؤمن لا يعلم من غيب المشيئة الإلهية بالنسبة لأعماله إلا بعد وقوع هذه الأعمال.. فكل ما وقع هو مشيئة الله، وكل ما سيقع هو مشيئته أيضًا، ولكن المؤمن يختاره بكامل حريته قبل وقوعه.. يختاره ليجتاز امتحان التعبير والبيان عن ذاته وطبيعته كما أرادها الله له.. وهو يختار ما هو بقواعد الأخلاق والعدل، وبقوانين

العلم والسنن، من فطرة الإنسان السوية في كل مكان في الأرض.. فماذا يضير المؤمن أن يكون مختارًا لما هو اختيار الله، وأنه دفع ثمن هذا الاختيار بأنه رفض الشر وقاومه، وأقبل على الخير وحمل أمانته..!؟

ثم ما هو امتياز هذا الإنسان المتجرد بإرادته في وجه عالم مغلق في وجهه، عالم لا تنتظمه إرادة خالق.. مدبر وحكيم وعادل.. وليس في قدرة هذا الإنسان "الملحد" من باب الجهل والعجز، والقهر والفصام، والذي يريد أن يرى الله واقفًا متجسدًا أمامه حتى يؤمن به.. ليس في قدرة هذا العاجز، الدعي، أن ينظم بإرادته "الممزقة" هذا الكون الدائر فيه، ومن حوله، وعلى امتداد بعيد وراء حواسه وعقله.. لا يدركه!

ما هو فضل هذا الإنسان المقهور بشعوره وعقله بانغلاق الكون أمام بصره في أن تكون له الإرادة الفريدة في هذا الكون.. ليصارع جهله، وشهواته، وإرادات الآخرين التي تسوقه أو تطحنه، في غيبة إيمانه – جهلًا لا علمًا – بإرادة الله التي ينتظم بها كون منتظم.. إرادته التي تحميه من الجهل، وتدفعه إلى مزيد من العلم، وتملأه بما هو في أشد الحاجة إليه من السلام.. وحب السلام.. والعمل بين الناس لسيادة هذا السلام!

هل هذا الأوروبي بإرادته التي يزعم أنها لا تؤمن بإرادة إله حق، قادر وعادل، ومسيطر – أصبح يصنع الدراما.. بينما العربي المسلم لا يستطيعها؟ فليتدرم كما شاء هو وقبيله.. حتى يصحو.. ويصحو جميع الغافلين معه على هوان إرادتهم.. وخيبة صراعهم!!

وربما كان أنسب ما نقدمه على عجز هذه الإرادة الأوربية اليونانية الدرامية التي لم يملكوا بها الضوابط الإنسانية أمام موبقات الخمر والجنس والابتزاز والعدوان فقرة من كلمات أحد العنصريين الأوربيين حول أهم شروط الفن الدرامي في نظره.. كلمات قليلة يتجلى فيها على

لسان الفيلسوف المجنون "نيتشه" لون من ألوان إرادة الجنون في إرادة سكران لا إله له.. إلا سكره وجنونه.. وإرادته!

يقول نيتشه وهو يفترض في الدراما أن تحارب "العدم" الساكن في أعماق الإنسان.. الأوروبي بالطبع.. ومع الإحساس بالعدم يكون الإحساس بالرعب.. وهذا أول انبثاق الصراع.. يقول نيتشه: "إن الاستحواذ هو الشرط الأساسي لكل فن درامي، والثمل الديونيسوسي – أي النابع من طاعة إله الخصب ديونيسيوس إلى حد الثمالة – يزهر كريح الربيع بقوة لا تقاوم، كالعاصفة، أو كجنون تختلط فيه عواطف شتى، هذا الدفع الربيعي هو تغير نشوان يعبرّ عن عرض الإرادة".. هل فهمتم شيئًا!؟

ومرحبًا.. فهذه هي حرية إرادة الأوروبي في طاعة السكر الوثني بالاه خرافي.. إلى حد الجنون.. وهنيئًا لأوروبا وحدها هذا الثمل "الدرامي".. الجنوني.. إلى الأبد.. وإلى ما شاء الله.

مستشرق عربي:

وحتى لا يفوتنا تقديم صورة لآراء رجل تم استهواؤه تمامًا بثقافة الغرب مع سابق انتمائه للعرب فتجنس بجنسية أجنبية، واحترف حرفة الاستشراق بعد أن تغرب عن قومه وأصبح مستعربًا وقد كان من قبل عربيًا – نذكر كلامًا عن العرب من كتاب "فيليب حتى" تاريخ العرب.. و"حتى".. هو المستعرب اللبناني الأصل، والأمريكي الجنسية، وأستاذ اللغات الشرقية ببعض الجامعات الأمريكية. ففي كلمات "حتى" يمكن أن نراقب في الحديث عن العرب ظاهرة الدوامة التي تكثر عند مصاب الأنهار، حيث تدور موجات الماء العذب في حلقات تبتلعها في النهاية، وبغير مقابل، أمواج البحر الأجاج..!

ففي مقابل الفن الروائي والمسرحي الأوروبي يشير فيليب حتى من بقايا ذاكرته العربية إلى ما كان، ولا يزال يملكه العرب، في مصر والشام والعراق والجزيرة العربية وبقية الوطن العربي، من فن الكلام المباشر بأنواعه في الأدب العربي، بلغته الإيقاعية الفصحى، ذات التأثير البالغ عليهم فوق تأثير أية خشبة مسرحية، وهو تأثير باللغة المنطوقة والمكتوبة يفوق تأثر أية أمة في الأرض بلغتها في هذا المجال فهو يقول:

"والعرب يفوقون شعوب الأرض بأجمعهم باستحسانهم التعبير اللفظي والكتابي، وإعجابهم به، وما في الكلم بأنواعه من إثارة لنفوسهم، وقد لا تكون هناك لغة تضاهي العربية في تأثيرها في نفوس متكلميها. ففي مجالس بغداد ودمشق والقاهرة يحس السامعون إلى اليوم بانفعالات داخلية شديدة عندما يصغون على قصيدة أو خطبة بالعربية الفصحى، وإن لم يستوعبوا الكثير من معناها، فالوزن والقافية والموسيقى تولد في النفس شعورًا، وتسحرها بما يسمونه السحر الحلال".

ثم يقول: "والعرب كسائر الساميين لم يستنبطوا فنًا جميلًا خاصًا بهم، بل أطلقوا لطبيعتهم الفنية العنان في مجرى واحد، هو فن الكلام. فإذا مجد اليوناني تماثيله وبنيانه مجد العربي قصيدته، والعبراني مزموره، ووجدا فيهما طريقة أسمى للتعبير النفسي. وفي أمثال العرب "جمال المرأة في فصاحة لسانه" وقد عد عرب الجاهلية كمال الرجل في مزايا ثلاث هي: "الفصاحة والرماية والفروسية".

ويضيف "فيليب حتى" في وصفه للعربي أنه ديمقراطي بالطبع. لقد كان بالتأكيد كذلك قبل أن تولد فلول القبائل الهندية الأولى من أسلاف اليونان على طريق هجرتها إلى أوروبا عند بحر قزوين. وكانت ديمقراطية العربي "واقعًا" حيًا، ولم تكن جدلًا حول الديمقراطية في حكومات

الطغاة من ملوك اليونان وأثريائهم. وإذا كان "فيليب حتى" في مغرب عروبته لم يستطع أن يرى الصلة بين كمال اللغة، وكمال التعبير بها، وبين واقع المساواة والسواسية أو الديمقراطية بغير مفهومها الدرامي الأوروبي – فإن القارئ العربي يستطيع أن يتبين هذه الصلة الوثيقة التي أغنت العرب كلما تحققت لهم – عن ثغاء الماعز على المسرح من أجل مساواة لم تتحقق لليونان إلا في صور الصراخ الثمل حول تمثال ديونيسيوس، وفي عب الخمر، وابتذال المرأة.. بينما بقيت "الديمقراطية" بينهم، وكما زعموها، حلمًا في أسطورة، وثمالة في صحوة، وواقعًا للطغيان وضعوا على وجهه قناع أبناء هيلين..!.. يقول فيليب حتى:

"إن العربي إجمالًا والبدوي خاصة ديمقراطي بالطبع والنزعة. فهو يحسب نفسه مساويًا لشيخ القبيلة. وهو ينظر للأمور بعين المساواة. وكان حتى قيام ابن سعود قلما يستعمل كلمة "ملك" إلا إذا أشار إلى الملوك الأجانب".

ثم يقول وهو يشرح أن العربي قد فرغ من قياس نفسه ونوع حياته إلى الآخرين بعد أن امتحن حياتهم ورضي بحياته "غير أن العربي من ناحية أخرى يرى نفسه مثالًا أعلى بين البشر، ويرى الأمة العربية أشرف خلق الله، وعنده أن الرجل المتمدن دونه قدرًا وسعادة، وهو يفاخر بصفاء دمه، وفصاحته، وشعره، وسيفه، وحصانه، وغاية فخره هم أجداده"..

ثم يقول وهو يشير إلى كرامة المرأة العربية في مقابل الهوان الذي كانت تلقاه المرأة اليونانية – في ظل الحضارة المسرحية – ولا تزال تلقاه إلى اليوم.

"أما المرأة البدوية، سواء بعد الإسلام أو في الجاهلية، فقد كان لها نصيب وافر من الحرية تحسدها عليه أختها المتحضرة، فهي حرة في اختيار

زوجها، وفي فراقه إن أساء إليها، كما أن لها فوق ذلك حق التملك الشخصي".

ولكن ماء البحر الأجاج لا يلبث أن يطغى على عقل وإرادة "فيليب حتى" فيكرر خطيئة الظن بأن العرب حين حرروا الوطن العربي في مصر والشام والعراق من أغلال القهر الرومي والفارسي جاؤوا إلى أرضهم هذه التي كانوا يجوسون خلالها للتجارة وللرعي قبل الإسلام فارغين تمامًا من الثقافة والنظر العلمي والتراث.. إنه يستمتع بنفس لعبة رفاقه المستشرقين عندما يؤذي ذكر الحقيقة مصالح أوروبا، التي لا يمكن لها أن تنسى هزيمة الروم الساحقة بعد استقرار ظالم، وعابث، على أرض العرب قرابة ألف سنة.. يقول فيليب حتى منشدًا نفس المزمور:

"لاحظنا أن الغزاة – ولا يقول المحررين – من عرب الصحراء دخلوا الأمصار – ولا يقول العربية – التي فتحوها – ولا يقول – حرروها – خالي الوفاض من كل تقليد علمي أو تراث ثقافي. ولقد حال قرب عهد الأمويين في عصر الجاهلية وحروبهم الكثيرة، وعدم استقرار الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في العالم الإسلامي دون التقدم الفكري في بدء عهدهم. غير أن بذور الفكر الناشئ عن الثقافات السابقة من يونانية وسريانية وفارسية كانت قد زرعت في تربة العهد الأموي. فما جاءت الدولة العباسية حتى نمت هذه البذور لتصبح أشجارًا باسقة ذات أثمار يانعة، فالعصر الأموي كان على الجملة عصر استعداد وحضانة"!

بهذه الأكاذيب يتقرب "فيليب حتى" إلى أهداف سادته ومواطنيه الجدد، وهو يزعم أن هذه الطفيليات الوثنية من أفكار ومعتقدات الفرس واليونان، والتي ظلت مختمرة بعد مرحلة التحرير والتغيير والتأمين التي جاء بها الحكم العربي الإسلامي في العصر الأول للإسلام، ثم في العصر

الأموي. قد حملت بعد يقظتها في ظل المؤامرات الفارسية، ونشاط الردة الوثنية إلى المعتقدات الأولى، ومع نشاط مواز له في قراءة فلسفية جديدة للقرآن بالعقل اليوناني – ما يسميه فيليب حتى "أثمارًا يانعة".. وهو يعني بالضبط ثمار "الزندقة" في أعمال وآراء البابكية الخرمية، والقرامطة، والإسماعيلية الباطنية التي هاجمت العرب والإسلام. كما يعني أيضًا ما اعترى الأمة العربية الإسلامية من حمى الخلافات التي مزقتها بهذا الصراع المذهبي الذي نشب بين العرب المعتصمين بالفهم القرآني والسني للإسلام، وبين المرتدين إلى الفكر اليوناني والفارسي في مثل مذاهب القدرية التي قال بها معبد الجهني وغيلان الدمشقي عن سيبويه الفارسي، أو الجبرية التي قال بها الجهم بن درهم عن اليهودي أبان واليهودي ابن أعصم، وكما يعني سفاهات المعتزلة في القول بخلق القرآن، والتفلسف في الجبر والاختيار، وبالتأكيد هو يعني أيضًا باطنيات ودسائس "إخوان الصفا" في مثل كتب الفارابي وابن سينا الخاضعين تمامًا لنظرية غزو الفكر الإسلامي السني بالفكر الفلسفي اليوناني..

على أنه سواء أكان "حتى" يعلم أو لا يعلم أن الانفتاح على الثقافات الوثنية الطبقية الأسطورية بعد ردتها إلى أرض الأمصار هي التي أصابت الحضارة العربية الإسلامية في صميم عناصرها النقية بها من الجزيرة العربية، وهي التي عرضت منهجها العلمي والأخلاقي والإنساني لمحنة الترف والانقسام الطبقي للجماهير التي تساوت بالإسلام، وإلى تجارة الحظ والموبقات، وكلها سلع قديمة وتراث متجدد في حضارة الفرس والروم.. فإن الحقائق التاريخية الملموسة تؤكد أن ما أخذه العرب من الفرس من الترف والمتع الشاذة، وما أخذوه من الروم من الفلسفات السفسطائية، ومن الجدل التجريدي في الظنيات، والافتراضات، كانا

معاول الهدم السريع في أساس المجتمع العربي الإسلامي النمطي.. وأن آخر نقطة لقاء بين العرب المسلمين وبين مقوماتهم العربية الأصلية والنقية التي خرجوا بها تحت رايات القرآن كانت لحظة احتضارهم وهم يستمعون إلى ما قدمه لهم الفرس من كتاب "ألف ليلة وليلة" معربًا.. لقد حمل العرب بهذا الكتاب خلاصة إثم حياة الشرق، وانتسبوا إلى "الشرقيين" في لغة أوروبا المتداولة، أي إلى قتلتهم حضاريًا من "الفرس" وأشباههم من الشعوب القزوينية.. وأصبحت هذه الليالي "الساسانية" والفارسية الأصل هي جذوة النار المجوسية التي دفع بها الفرس حياة العرب في سكرة المؤامرات والفلسفات التي أذهلتهم بعيدًا عن دينهم ولغتهم وقرآنهم ومعروفهم وطهرهم.. وفي هذا المصير يقول "حتى" دون أن ينسب الانحلال العربي إلى بذوره السامة في معتقدات وأنماط حياة الفرس، وألوان ثقافاتهم الاستمتاعية:

"وأما أدب اللغة العربية فقد بلغ أوجه حوالي العام الألف للميلاد، وإذ قد تأثر بالأدب الفارسي مال إلى التعمق والتأنق، وهكذا زال الإيجاز، والاقتصاد اللفظي، وبساطة العبارة التي اتصف بها أدب العصور الأولى.. ومن آداب هذه الحقبة انتقى الغرب كتابًا واحدًا أولاه اهتمامه هو كتاب "ألف ليلة وليلة" وأصله قصص فارسية قديمة نقلها إلى العربية الجهشياري المتوفى سنة 942. إلا أن القصاصين المتعاقبين أضافوا إليه قصصًا أخرى كثيرة.. وعلى تعاقب العصور ألحقت بهذه المجموعة حكايات جديدة من مصادر هندية ويونانية وعبرانية.. وتطرق إليها أيضًا نوادر وفكاهات وغراميات من بلاط هارون الرشيد.. وفي هذا الوقت الذي وضع فيه كتاب "ألف ليلة وليلة" في شكله "العربي" الناجز كان عصر الإسلام الذهبي في العلم والأدب قد انقضى"!!

هكذا مرت الحضارة العربية الإسلامية في أطوار التراجع عن طبيعتها المميزة لها، وأصالتها الفعالة في لغتها ودينها وأعرافها، وهي تتعرض للتناقص والذبول والمسخ داخل أشكال "شرقية" تحت الهجمات الفارسية المستمرة بالمتعة والزندقة والفلسفة والابتداع حتى تحولت إلى هذا الرفات الشرقي الذي لا يزال يحمل في ميراث قتلته اسم الحضارة العربية الإسلامية، والتي يحسب المستشرقون من بينها إلى اليوم أشهر كتاب لحياة "الانحلال الجنسي" الذي تعلق الأوربيون من بقايا تلك الحضارة الشرقية غير العربية.. وهو "ألف ليلة وليلة: "..!

وفي مقابل ذلك تمامًا كان إشراق الحضارة العربية بمقوماتها التعبيرية في اللغة، والمنهجية في العلم، على الشعوب الأوروبية في عصورها الوسطى — هو أثر من يجود بدمه الزكي لإحياء الميت المخدر فوق الجليد، وإن كان هو عدوه التاريخي.. الذي استباح أرضه وحقوله وكرومه ألف سنة قبل الإسلام.!

كان ملوك أوروبا قبل العرب لا يحسنون كتابة أسمائهم، وعاش الأوربيون إلى فترة طويلة يكتبون الحساب على الطريقة الرومانية الهجائية قبل أن ينقل إليهم العرب الأرقام الهندية بعد التعديلات الإسلامية التي أدخلها العرب عليها، ومنها اختراعهم "الصفر" الذي لا يزال يحمل اسمه العربي في لغات أوروبا المعاصرة، بينما كانت الفلسفة اليونانية تتخبط في التيه التجريدي حيث كان الفلاسفة الكبار بسذاجة القروي الذي لا يقرأ الكتب حين يقرأها إلا بالمقلوب — يفكرون في هذا العالم من نقطة يفترضونها خارج هذا العالم. لقد كانوا منذ العشرة قبل سقراط، ثم سقراط وأفلاطون وأرسطو ومن بعدهم — يهرفون بظنونهم حول تصور الحقيقة، بعيدًا عن تصور أنفسهم متحركين في واقع متحرك.. لقد كانوا

يبتلعون مشاهد العالم المتحرك من حولهم ليفكروا فيها داخل الوجود الساكن في أنفسهم.. وهكذا ظل أرسطو أسطورة.. حتى جاء المنهج العلمي العربي الإسلامي فظهرت الأسطورة في ضوئه أكذوبة.. وعندما تحررت أوروبا من الأسطورة والأكذوبة الأرسطية وأشباهها بالضخ العلمي العربي.. عندما تحررت من أمثال توما الأكويني والقديس أوغسطينوس الذي كان يقول مفاخرًا "لا أعقله.. إذن فأنا أومن به" – استطاعت حتى وإن لم تستطع أن تلتفت إلى الدين الذي حمله العرب وتفهمه – أن تحقق هذا التغير الذي تجاوزت به عبر ثورات ثلاث – العلمية والصناعية والتكنولوجية – أقصى ما كانت تحلم به من القوة وإن كانت بغير الإيمان أصبحت بهذه القوة التي يقودها العدوان، كما تقودها الأسطورة العلمية الحديثة.. مهددة بالانهيار بالحرب، أو بالنفوق الحضاري الانحلالي المحتوم، في حياة مُجتمعاتها المنهارة نفسانيًا، والتي أصبحت تتمزق في اغتراب جرائم كل يوم تحت سلطان المال الخمر والجنس.. وفقدان المستقبل!

وفي المؤثرات الحضارية العربية على أوروبا التي عاشت "مثلجة" في الظلمات تنتظر بصيص النور العلمي، ودفء العطاء الحضاري من أمة مؤمنة مهتدية يقول "حتى" عن مشاعل العرب التي اخترقت ظلمات أوروبا حتى في ساعات الاحتضار لحضارتهم الإسلامية، وعن نطف الحياة الجديدة التي دفعتها هذه الحضارة العربية في أحشاء وترائب تلك الشعوب الأوربية المكبلة تحت أقدام الملوك وبائعي صكوك الغفران.. بكماء لا تنطق.. وصماء لا تفهم:

"وفي ختام القرن الثالث عشر كان قد تم نقل العلوم العربية إلى أوروبا، بعد أن شقت التيارات الفكرية الممتدة من أبواب طليطلة طريقها عبر جبال البرانس، وعرجت حتى بلغت بروفانس، ومضايق الألب، ثم

اجتازتها إلى اللورين فألمانيا وأوروبا الوسطى، وعبرت الخليج إلى انجلترا. وأصبحت مرسيليا وتولوز وأربونة ومونبلييه من مدن فرنسا الجنوبية مراكز هامة للفكر العربي. أما في شرق فرنسا فإن بلدة كلوتي التي آوت في ديرها الشهير عددًا من الرهبان الأسبان كانت في القرن الثاني عشر مركزًا هامًا لنشر العلوم العربية. وباتصال العلم العربي باللورين في القرن العاشر أصبحت تلك الناحية مركزًا علميًا طوال القرنين اللاحقين. وغدت لياج وجورز وكولون وسواها من مدن اللورين أخصب تربة لنمو العلوم العربية. ومن اللورين سرت موجة الدراسات العربية إلى سائر أنحاء ألمانيا، ومنها انتقلت إلى انجلترا النور مندية بواسطة علماء ولدوا وتثقفوا عربيًا في اللورين.. وهكذا تخللت العلوم العربية الأندلسية سائر أنحاء أوروبا الغربية..".

وهذا فقط هو تصور لواحد من عشرات الطرق التي دخلت بها الثقافة العربية العالمية الأخلاقية إلى أوروبا من جميع الجهات شرقية وجنوبية وغربية.

ولكن "فيليب حتى" لا يكتب تاريخ العرب في قيد استشراقه في الضوء الصحيح.. ولا يفهم.. أو لا يجرؤ أن يفهم ويتكلم في هذه الحقائق البديهية التي نرى بها احتضار الحضارة العربية الإسلامية عند نهاية ظهور اسمها على كتاب الجنس الفارسي "ألف ليلة وليلة" كأنه حياتها ورفاهتها ومجدها.. والتي نرى بها حياة أوروبا الميتة تحت جليدها، ومظالمها، وقذر حياتها، التي لم تعرف الحمامات قط قبل العرب.. نرى بها الحياة تعود، والدماء تجري في الجسد الأوروبي المتورم والباهت، بعد حقنه بالمعقولات والعلوم العربية، ونماذج الحياة الآدمية الإنسانية، ومشاعر النبل الفعلي، واحترام المرأة، والرحمة بالضعيف، وإنشاء الجامعات، وانتشار الثقافة

ومعها صناعة الورق التي كان أول ظهورها في أوروبا في الأندلس – وذلك بعد القرون القصيرة التي تخللت فيها الحضارة العربية بفيض حيويتها، وهدايتها العلمية، وكنوزها التراثية الحضارية، وآدابها الإسلامية، إلى أرض الظلام والجليد والعدوان.. فتمضي من عصر النهضة متطورة بوسائل القوة المادية وحدها – ومعها العدوان الأوروبي والاستعمار – حتى العصر الحديث..!

إن الفارق كبير ومذهل بين تخريب الفرس والروم لحياة العرب.. وبين بناء العرب لحياة الفرس والروم وأوروبا بأجمعها، وعطائهم الحضاري العلمي غير المحدود لهذه الشعوب..

ومع ذلك فإنه يوجد بيننا اليوم من المتأدبين الصغار والكبار من يصدقون أقوال أولئك المستشرقين المأجورين على الكذب مثل المستشرق الإنجليزي إدوارد لين الذي يرى أن كتاب "ألف ليلة وليلة" بكل ابتذاله الجنسي، وسفهه الشرقي، وشذوذه الساساني، وتخريبه الجهشياري كتاب عربي.. بل كما يقول هذا المغيب عن وعيه أن ما فيه من قصص يمثل عادات العرب.. وطبائعهم!!.. ثم يزف البشرى للعرب المعاصرين – وهو يلبس سراويل الكذب الشرقية – بأن ما في هذا الكتاب "العربي" يحمل بعناصر قصصه وحوارها كل مقومات المسرح بالمعنى القديم والحديث!!

وهذا المستشرق المهزوم الذي ترجم إلى الإنجليزية بالفعل هذا الكتاب الفارسي إلى الإنجليزية، والذي نشر مناخ الاتهام للعرب في أوروبا ولحساب الصهيونية بأن ما في هذا الكتاب من – مباذل لا تقع إلا في المواخير ودور سينما الجنس الأوروبية – هو مرآة حياة وطباع وعادات العرب، ولهذا فإنه بعد أن عاش في مصر فترة درس فيها الآثار، أصابته هذه اللوثة فتخصص فيها، وكتب للمصريين كتابًا مهينًا جزاء إكرامهم

لـه مـلأه بمثـل هـذه الاتهامـات الجزافيـة المثيرة وهـو يترجـم دائمًـا كلمـة "شـرقي" أي "فارسـي" إلى "عربـي" وسمـى كتابـه هـذا "أخـلاق وعـادات المصريين المعاصرين" أي المصريين الذين عاصروا حياته الطفيلية المأجورة ما بين سنة 1801 حتى سنة 1876.. أي قبل الاحتلال الإنجليزي لمصر سنة 1882 بست سنوات!

وهذا أيضًا يحتمله الأدباء الصغار والكبار مع الأسف في بلادنا.. من أجل أن يستدلوا من أفواه أعدائهم، وجواسيس هؤلاء الأعداء – على أن مقومات المسرح والدراما موجودة في قصص مكتوبة منذ قرون سابقة باللغة العربية.. حتى وإن كانت أساطير مترجمة عن هوية وخصائص أمة أخرى.. وحتى إن كانت هي نفثة الاحتضار الأخيرة للحضارة العربية التي أثخنتها أمثال هذه الأساطير عن حياة مستباحة أريد مثلها للعرب.. حتى جاء الطوفان المغولي فاقتلع صروح هذه الحياة..

فماذا يريدون بعد.. وقد صحا العرب من جديد.. تحت شمس الإيمان والقرآن!؟

القسم الثاني

العرب في واقع حياتهم
ودينهم ولغتهم

الفصل الأول

العربي عاش بالحرية واقعًا حيًا
هو بطله المغتربون في وطنهم

المغتربون في وطنهم :

لأسباب كثيرة يجري بيانها تباعًا في هذا الكتاب ظلت حياة البداوة العربية الأولى وهي تبدو في أعين الشرق المترف، والغرب الطامع، كأنها "أسطورة" غير متكاملة الأجزاء لحياة شديدة القسوة والجفاف والتكرار الممل. لقد كانت عزلة العرب قبل الإسلام وراء أسوار حريتهم، واستقلالهم بحياتهم الغنية بالحياة، مع ضعف وسائل الاتصال بهم، أو بلغتهم الفصحى، مع أنهم عاشوا سادة طرق التجارة العالمية أزمانًا طويلة – من أهم الأسباب التي أوقعت أكثر المتحدثين عنهم من قرب أو بعد، في حلقات مفرغة من الوهم، والتشكيك، والزراية، بل واختلاق المثالب والمطاعن عنهم، وبخاصة وأن حكم هؤلاء المتحضرين على حياة البداوة لا يملك إلى اليوم إلا هذا المعيار الخاطئ الذي يحكمون به على مجتمع ما بحجم ونوع الأشياء والأدوات التي يستخدمها الناس في هذا المجتمع للرفاهية والترف، وليس كما هو عند العربي، وكما هو بلغة الدين وشرائعه: معيارًا يقيس نوع العلاقات التي تحكم الناس باتجاه السواسية والعدل والرخاء في استخدامهم للأشياء والأدوات، التي مهما كانت ندرتها فليس فيها أدوات أو أشياء مستخدمة ضد السواسية، أو ضد العدل، أو ضد الرخاء.. أو ضد إنسانية الإنسان:

لقد كان سؤال البدوي لنفسه في قضية "الأشياء" هو لماذا الأشياء؟ ثم هو "لمن الأشياء؟.. فعلى الشق الأول لزم أن تكون الأشياء مستخدمة باتجاه أخلاقي وديني. وعلى الشق الآخر أصبحت منافع الأشياء التي تقرر علاقات السواسية والعدل والرخاء في المجتمع هي "للجميع".. وليس إلى طبقة تسخر الجميع.. وتخادع الجميع!

ولهذا فإنه في الوقت الذي كان البدوي العربي يعيش حرًا في جزيرته الحرة بغير ملوك ولا كهان ولا أساطير، وحيث كان يملك فيه طرق

التجارة العالمية بين أوربا والهند برًا وبحرًا فلم يبدله الغنى بالتجارة عن نهجه، ولم يصرفه اختلاطه بأهل الحضارات الوثنية عن دينه وربه، ومسجده المحرم والحج إليه – فإن أخلاق العربي، وحريته، وقدرته على التعبير عن رأيه، والتحقيق لإرادته، بل إن دينه النقي من التبعية للملوك والكهان، والمضيء بالحقائق الجلية بعيدًا عن غياهب الأوهام والأساطير – لم يلفت إليه بالاهتمام إلا في بعض المناسبات – أحدًا من الفرس الغارقين في المذلة والخرافة تحت جبروت أكاسرتهم، ولا أحدًا من الروم الذين بدورهم عاشوا يسرقون العرب، ويهذرون بإدعاء الحكمة، ويتذابحون وهم غرقى في الخمر والمنكر على خلافاتهم الوثنية، أو حول طبيعة المسيح، وحول كيفية وقوع هذا الأمر الذي اختلقوه من حلول اللاهوت في الناسوت!

بل إن كسرى المتأله على عبيده ورعاياه من الفرس رغم أنهم يزعمون أنهم "الآريون" أي السادة – كان يسمي العرب زراية بقلة الأشياء التي في حوزتهم، وبالحرمان الذي يعانونه من الثياب الفاخرة والمطاعم المسبكة. كان يسميهم: رعاة الإبل والغنم.. فماذا في نظره كان يملك هؤلاء الرعاة الفقراء من "أشياء" يستحقون بها الاحترام؟ بينما كان شبيهه في السلطان الغشوم وهو قيصر الروم يسمي هؤلاء العرب على نفس القياس إلى الترف وتملك الأشياء بأنهم "الحفاة العراة الجياع"!

ولكن خلال عشرات القرون منذ فجر التاريخ، وحيث لم تخضع جزيرة العرب لقاهر أجنبي، ظلت القبائل العربية في بحار الضوء، والأمن، وهذه الحركة الموصولة بين الإنسان العربي والأشياء الجميلة المحيطة به، التي كان يملكها وحده ، ويستثمرها وحده، في وحدة شاملة، وحكمة بالغة، تتخلق فيها مفردات لغته وهي تنمو نمو اللآلئ في هدوء هذا البحر السابغ من أضواء النهار، وأنوار الليل حتى تكاملت في جمالها وجلالها

وآلائها لتصبح هي لغة القرآن المبين، والإنسان المؤمن؛ والمجتمع الصادق، والحضارة الإنسانية العالمية العلمية المشرقة.. وعندئذ ظهر الإسلام.

لقد ظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي لتتجمع فيه قوة الدين كله، وتسفر به خصائص وطاقات الأجيال العربية كلها، ولتبلغ به الحضارة الدينية العربية أسمى ما يمكن أن تبلغ إليه في هذا العالم، وأسمى ما كانت تسعى إلى إعلانه وإقراره منذ فجر التاريخ..

في هذه المرة لم يعد في الإمكان – رغم استمرار خطط وأشكال وأهداف الزراية القديمة بالعرب – أن تحجب قوة شرقية في الشرق أو استعمارية في الغرب ضياء هذه الشمس التي أشرقت من مركز العالم القديم والحديث.. من أفق الجزيرة العربية، ومركز الحضارات الشامخة الأولى في مصر والشام والعراق، ساطعة بهذا الإشراق وهي تشكل فكر العالم الجديد – بعد الإسلام وتقود متغيراته، وتفك ألغازه وطلسماته، وتذيب وتبدد سحب أوهامه وأساطيره وخرافاته، حتى أعماق الظلمة في غابات آسية وأفريقية، وفوق سطوح الجليد المتراكم على وجه وعقل وفلسفات وجاهليات أوربا من الجنوب على الشمال، ومن الشرق إلى الغرب!

في هذه المرة أصبح القرآن المبين الذي يتلوه المسلمون إلى اليوم، ومهما اختلفوا على فهمه: عربًا خلّصًا.. أو عربًا شرقيين، أو شرقيين مستعربين أو شرقيين مستعربين متفرنجين – هو الإطار الجامع نحو الاتفاق لكل هؤلاء المتباعدين، وهو نقطة المركز لأي وجود حضاري، وجذور للتراث وحقائق للأصالة في وجدان هؤلاء المتدافعين بأيديهم، والمتقاربين بوحدة ألسنتهم وصفوفهم ومصائرهم. بعد أن انتظم وجودهم بالقرآن ولغته وشريعته زمانًا لا يمكن إسقاطه في حياتهم المعاصرة إلا إلى بديل واحد هو الهباء والعدم..!

في هذه المرة، وبعد ظهور الإسلام، لم يعد العرب الأولون رغم كل شيء مغتربين في وطنهم عن مواطني أرضهم وحفدتهم. لقد أصبح المصري والسوري والعراقي والليبي والجزائري والسوداني أقرب إلى تصور العربي والبدوي الأول تصورًا صحيحًا من ذلك التصور الذي كان للمصري القديم في مصر، والآرامي والسرياني في سورية، وللبابلي والأشوري في العراق منذ آلاف السنين.. وبالضرورة فإنه مع استقبال المسجد الحرام في الصلاة، والحج إليه كل عام، وقراءة حياة العرب الأولى بمقوماتها الأساسية، ونعمها الكثيرة، في القرآن الكريم.. كل يوم.. يصبح من اليسير، ومن الواجب، أن تصحح الأجيال العربية المعاصرة تصورها لأسلافها من العرب الأوائل.. وأن تكون أقدر على مقاومة الغزو الأوربي الفكري ضدهم، وأن تكون أنشط في نفس الوقت على استعادة مقومات الوجود العربي المعاصر من مصادرها الصحيحة في الدين واللغة والتاريخ، لتدفع بهذه المقومات في ضوء العصر، ولغة العصر، في حركة واعية ومستهدية نحو التقدم بالأمة العربية، تقدمًا ترجع فيه إلى أصالتها.. وليس إلى التبعية أو المحاكاة والتقليد لأعدائها!!.

الحرية والدين:

في جزيرة العرب التي جعلها الله مسكن العربي ومسرحه وحصنه في قلب العالم القديم والحديث بنى هذا الإنسان صرح حريته، الذي هو صرح أخلاقه، من خلاصة ما أنعم الله به عليه في جزيرته التي امتحنه فيها بالآلاء والشدائد وهو يؤويه وينميه، ويعرب لسانه ويجتبيه.. هذه النعم التي تمثلت في قدرته على تملك منافع هذه الأشياء الجميلة المحيطة به في عناصر الطبيعة.

وما كانت هذه النعمة بالحرية لتنتهي إلى هذا الذي تبدى بعيدًا عن الأنهار والحصون والمدن في صحاريه وبواديه من غير أسوار أو قلاع إلا بنعمة هذا الترحل نفسه فوق البداء والعراء، الذي أفاض عليه بالحركة، والسمع، والبصر، وبالحوار الصادق بينه وبين نفسه، وبينه وبين ذويه، وبينه وبين الآيات المحيطة به، والمتعاملة بالأمانة معه - هذا العلم الذي يفوز به الراحل على القاعد، والمتحرك على الساكن، والمتفكر في قضية الخلق داخل حركته مع الخلق - على المستغشي على فكره في أغوار نفسه منفصمًا عن الحياة والخلق..

وكان لابد في مجرى الزمان الطويل، ومع التحصيل لعلم الوجود، من خلال الوجود في الوجود، والحركة المتسقة مع الوجود، ومن خلال هذا التثقيف المستمر للسمع والبصر، والعقل والقلب، والإرادة والنفس، أن تنشأ من الإشارة، والصوت العفوي، والحوار العملي مع الأشياء بأصواتها وصورها وقوانينها - هذه اللغة البالغة حد الكمال في بيانها وإعرابها، وأصواتها وصورها، وإيقاعها وأفكارها، لتكون له أنس بدائه، وهدى متاهاته، وإيقاع إنسانيته، وسط هذه الأشياء التي تحمل له الخيار بين الحياة والموت، والهدى والضلال، والتي لا يعني الضلال فيها إلا العجز والموت، ولا يعني الهدى بها إلا الأمن والحياة..

بهذه اللغة التي امتد بيانها للإنسان العربي البدوي أفقيًا باتساع ما بين الآفاق وعموديًا بارتفاع ما بين الأرض والسماء - أصبح هداه بين السماوات والأرض علمًا، وأصبح علمه بهذا الهدى دينًا يقوده إلى من أنعم عليه.. يقوده إلى الله الحق.. الذي هو كما عرفه بلغته ودينه، وعمله، فوق الآلهة البشرية، أو التي على صورة البشر، في ديانات وأساطير الشعوب الأخرى..

بهذا الدين الذي أرسى عليه إبراهيم وإسماعيل قواعد بيت الله في مكة؛ وهما يرفعانها بتجديد دعوة الإسلام، ودعوة الحج إلى هذا البيت، ووحدة العرب بالإسلام والحج – تحدد العامل الأساسي في تشكيل خصائص العرب قبل ظهور الإسلام، كما تحدد أنه بعد ظهور الإسلام هو العلم المرشد، والحاكم الموجه لهذه الأمة في تعاقب أجيالها، وعلى كل ساحات نشاطها الفردي والجماعي، في الرأي والسياسة، والاجتماع والاقتصاد، والأدب والتعبير..

وبهذا الدين الذي أصبح هو النهر الدائب الجريان في ظاهر وباطن حياتهم أصبح "الصدق" بالدين هو الظاهرة المميزة لكل جوانب هذه الحياة، والساطعة بطابع الإخلاص والأمانة والإيجاز في كل هذه الجوانب..

لقد كان أول الصدق هو معرفتهم "الله" بأسمائه الحسنى وصفاته، وليس بذاته التي لا تحد ولا تدرك، والتي أشاروا إليها أبلغ الإشارة في دلالة "هاء" الغائب عليه تعالى، والتي تصبح بعد أل التعريف، وأل التعظيم.. "الله".

كما لم ترتق إلى النطق باسمه تعالى هكذا منزهًا عن التجسيد والتشبيه أية لغة أخرى من لغات العجم في الشرق والغرب.. هكذا هو "الله" الغائب عن الحواس والأبصار، والحاضر بمشيئته وأمره في كل شيء، وكل نفس، ملء السماوات والأرض، مما تدركه ولا تدركه الحواس والأبصار.

ولقد كان الصدق بعد ذلك هو القرآن والإسلام في قوله تعالى "والذي جاء بالصدق وصدق به" وهذا هو علم الدين..

ثم كان الصدق بعد ذلك هو صدق الواقع، وعلم التاريخ، في قصص القرآن الحق، الذي يحكي من الواقع البشري في الأمم المتعاقبة سنن الله في هذا الواقع وهو يقص بها قوانين علم الإنسان في تجارب التاريخ وأحداثه التي لا تتغير أحكامه جيلًا بعد جيل..

في جو هذا الصدق في الإيمان بالله، والصدق في شرائع الله، والصدق في سنن علم الإنسان المستقاة من "القصص الحق" عاش العرب بالحرية والدين واللغة واقعًا حيًا كاملًا متكاملًا كانوا هم "أبطاله" في كل الأحوال، أي كانوا أبطاله إذا تحدثوا عن أنفسهم وما فعلوه، أو إذا ما تحدث عنهمْ غيرهم وهو يقص أخبارهم وأعمالهم، أو إذا تحدث التاريخ عنهم بالحق والصدق وهو يتتبع أخبار هذه الأفعال والأقوال..

في جو هذا الصدق، والإيمان بالله، والالتزام بوصاياه في حركة الحياة تجاوز العرب قبل الإسلام وبعده كل ظنون الوثنية وفلسفاتها شرقًا وغربًا، وذموا الخمر، وترفعوا عن سقطات الجنس، وابتذال الجسد، وارتفعوا بالصدق والإيمان إلى رؤية شاملة للحياة تبدو فيها الدنيا طريقًا وجسرًا إلى حياة أجدى وأبقى بعد الموت، فلم تعد الدنيا عندهم إلا في الغفلات العارضة لهوًا ولعبًا، وزينة وتفاخرًا، وأصبح أعظم ما يطربهم فيما استأثروا به من عيشهم، عطاء يخلطون به الفقير بالغني، وحرية ومروءة يبذلون عنهما النفس والمال، ونشيدًا بالشعر يسمعون إليه، أو يتنفسون به، وهم يتذكرون الدين والمعروف والآباء، ليظل الطريق إلى الله ونعمته، والجهاد في سبيله، مفتوحًا لهم.. ولأبنائهم من بعدهم.. وحيث لا مكان للظن بعد اليقين، أو للوهم بعد الصدق، أو للأسطورة والمسرح بعد انتصار "البطل" في واقعه الحي، وقصصه الحق، وخبره الصادق..

الأمية والوثنية:

ولكن جوقة الأدباء والمتأدبين من عشاق المسرح وغيبوبته قد قرأوا كثيرًا من كتب المستشرقين التي تتهم العرب الأولين بالأمية بمعنى "الجهل بالقراءة والكتابة" وتتهمهم كذلك بالوثنية، أو بأشكال بدائية منها تجعلهم أدنى وأقل من الوثنيين "الأقحاح"!!

إن مثل هذه الحقائق التي نقدمها عن العرب الأولين، وهي أقل القليل الذي وصلنا عنهم في القرآن الكريم، وفي التاريخ المدون بأيدي الشعوبية، وفي كتب الأدب التي دونوها أيضًا بأمزجتهم – تبدو غريبة جدًا وغير مصدقة بالنسبة لأكثر هؤلاء الأدباء المتأدبين بأدب الغرب أو الشرق. وإن كانوا عربًا بالأسماء والوطن، وأول ما يتبادر إليهم هو أن يقذفوا العرب بما تحت أيديهم من تهمة "الأمية".. والتهمة الأخرى القريبة منها وهي "الوثنية".. نعني ما فهموه عن المستشرقين من أن العرب وثنيون من الدرجة الثالثة البدائية.. فكانت وثنيتهم تافهة فقيرة.. ليس لها معابد.. ولا كهنة ولا أساطير.. ولا صور وتماثيل!

أما الأمية فهي في حقيقتها تهمة استند مروجوها إلى كلمة "الجاهلية" التي وردت بالقرآن عن عصر ما قبل الإسلام.. وهم في استنادهم إلى كلمة "الجاهلية" فسروها بجهلهم أو بتعمدهم الجهل على أنها الجهل المقابل للعلم، وليس كما هو في لغة القرآن ولغة العرب أن الجهل الذي تعنيه الجاهلية هو "الإسراف" الذي هو ضد الاعتدال، و"الغضب" الذي هو ضد "الحلم" وفي هذا المعنى يقول القرآن في الجاهلية بمعنى الغضب لغير الحق: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح:26]

ويقـول عـن الجاهليـة بمعنـى الإسـراف في الزينـة عنـد النـساء ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب:33].

إلا في سياق الحديث عن الكتاب المنزل أو مقرونا به. كما نرجح أن هذا الاصطلاح عن "النبي الأمي" الذي ينزل عليه كتاب بين "الأميين" الذين لم ينـزل عليهم كتـاب، كـان مـن المـصطلحات التي تـداولها اليهـود فيمـا بينهم وهـم يتمنـون أن يكـون هـذا النبي مـن بينهم، وهـذا الكتـاب إليهم" انتهى.

وأضيف إلى هـذه الحقـائق الـتي نبـه إليهـا كـل مـن الـدكتور ناصـر الـدين الأسـد بجامعـة الـدول العربيـة والـدكتور رشـاد محمـد خليـل الأسـتاذ بجامعـة الريـاض أن معـاني كلمـة "الأمـة" كمـا اسـتعملها العـرب ووردت في القرآن تشمل ما يفيد الدين، والشريعة، والطريقة، والقصد. وتشمل أيضا معنى الجيل من الناس، أو طليعتهم المهتدية إلى الحق المخالف لسائر الأديان المحرفـة، وهـو معنـى يتفـق ومـا كـان عليـه أبنـاء إسماعيـل الـذين أنتهـت صـفوتهم إلى "قـريش" مـن حفـاظهم علـى "حنيفيـة إبـراهيم" وهـي في معنـى الإسـلام الخـالص ديـن يخـالفون بـه سـائر الأديـان الكتابيـة والوضـعية الـتي كانت شائعة حولهم..

هذا جزء من المعنى الخاص الذي حملته في تاريخ الدين الإلهي كلمـة "الأميين" والجزء الذي يتممـه ليظهـر معنـى الكلمـة تامـا وجليـا هـو أن أبنـاء إسماعيل كانوا يتذاكرون بالضرورة عند إجماعهم في مواسم الحـج وعنـد سعيهم لسكني مكة ليكونوا هم أهل بيت الله الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيـل- ذلـك الوعـد الـذي أحتفظ بـه مـن تـراث إسماعيـل ووصـاياه.. الوعـد الإلهـي بـأن سـيكون فـيهم الرسـول الـذي ينـزل عليـه كتـاب إلـيهم ليعلمهم ويزكيهم ويجعل منهم في الـدين "خير أمـة أخرجت للنـاس" أي خير

أمة آمنت بالله، وصدقت الرسول، واهتدت بالكتاب.. وهو هذا الوعد الذي سجله القرآن الكريم في قصة إبراهيم وإسماعيل ودعائهما لله بعد إقامة البيت "ربنا وأجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم".

بهذا يصبح معنى "الأميين" فيما اختص به ابناء إسماعيل من هذا الوعد الذي تحقق أنهم: الأمة القائمة على حنيفية إبراهيم والتي تنتظر جميلا بعد جيل، رسولا منها إليها، وكتابا من الله يهديها به إلى الدين الحق على ملة أبيها إبراهيم.

ولقد ظل هذا الانتظار طويلا، تدور به الأجيال في شعوب العرب وقبائلها من أبناء إسماعيل أمة بعد أمة، وجيلا بعد جيل، وهم يتذكرون الوعد تارة، ويغفلون عنه أخرى، بينما كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعرفون ويتوارثون الوعد، ويطمعون أن يكون الرسول منهم، والكتاب لهم، مع علمهم بأنه لهؤلاء العرب الذي تلقوا الوعد عند بيت الله، والذين لم ينزل إليهم الكتاب، والذين أعدهم الله عبر العصور الطويلة لهذه اللغة المبينة التي يخلد بها كتاب الله إليهم، وتحيا هي بهذا الكتاب الذي يحفظ من التحريف دين الله الحق في الارض.

ولقد علم اليهود بهذا الوعد لأبناء إسماعيل الذين ينتظرونه أمة بعد أمة وهم على شرعة لا يقبلون بها دينا غيرها من الأديان المحيطة بهم، وفي هذا العلم يقول الله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة:89] ويقول على لسان المسيح ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ [الصف:6]،

ويقول عن انتظار أهل الكتاب جميعًا له، ويقيهم بتمام الوعد لأبناء إسماعيل مهما طال الانتظار أمة بعد أمة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ كَفَرُوا جَآءَهُم﴾

لم يكن العرب إذن "أميين"[1] بمعنى أنهم " لا يقرأون ويكتبون"، وكيف يكونون ذلك وقد كانوا أهدى سبيلا، وأرجح عقلا، ممن كانوا حولهم من الروم والفرس لا يكتبون إلا الأوهام لأنفسهم وعبيدهم، وكيف وقد كانت الكتابة نفسها بهذه الحروف الأبجدية معروفة لهم: بل كانت من اختراع العرب أنفسهم في أكثر من موقع على أرضهم سواء في اليمن أو في سيناء بين النبطين، أو على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض بين الكنعانيين والثابت في التحقيقات التاريخية الحديثة[2] وكتب علماء الآثار أن أسلاف المصريين القدماء من العرب عندما قدموا إلى مصر عبر برزخ السويس قبل الملك مينا حملوا معهم من عناصر حضارتهم الأرقى فن التحنيط والكتابة الهيروغليفية.. لقد كانت الكتابة اختراعا إنسانيا عربيا أضاء به العقل العربي عن طريق ما مر على أرضه الرحيبة المشمسة من دعوات الهداية والعلم والضبط والشمول في رسالة الدين الحق.. وهكذا تعلم اليونان والفرس في طفولة تحضرهم على أيدي العرب المصريين والبابليين هذه الأبجدية التي لا يزال اسمها في اللغات الأوروبية إلى اليوم "ألفابيتا" وهي من ألف باء العربية التي صوروها بحسب حياتهم اليدوية

---

(1) تناول المؤلف هذا الموضوع بشئ أكثر من التفصيل في كتابه "لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب".

(2) اقرأ كتاب "تاريخ مصر حتى الفتح العثماني" للمؤرخين سفيدج والإسكندري، واقرأ كتاب "قصة الجنس البشري" لمؤلفه هندريك فان لون، وفيهما أن العرب جاءوا إلى مصر وأسسوا حضارتها الأولى منذ مينا ومعهم الكتابة واللغة والدين ونظام المجتمع

العملية وعالمية فكانت "الألف" في صورة الإنسان، والباء على صورة البيت، وهكذا عندما تعلم أساتذة المسرح الحرافي أول حروف الكتابة سموا الحرف الأول على نهج مثقفيهم من العرب: ألفا Alpha.. تذكارا من آلاف التذكارات التي انتقلت بالعلم العربي والحضارة العربية إلى أوروبا لتضيع في غرورها وشراهتها وعدوانها بغير وفاء..!

لم يكن العرب "أميين" إذن بمعنى الجهل العلمي، أو الجهل بالكتابة، أو الجهل بالدين، ومن هنا يتطرق كلامنا إلى نفي الوثيقة عنهم بمعنى أنهم كانوا أهل دين إلهي عن إبراهيم وإسماعيل، وكانوا وهم حول بيت الله يقومون بشأنه، أو قريبا منه يحجون إليه- لا يمكن أن يكون "الله بصفاته مجهولا منهم.. فالحقيقة أنهم آمنوا بالله الحق في كل عصورهم، أي آمنوا بآله إبراهيم وإسماعيل كما هو فوق كل الآلهة الكاذبة، أو الآلهة البشرية، أو آلهة الكواكب والنجوم والشمس والقمر، وإن كانوا في بعض غفلات الترف، وطول الأمد، أو فتنة اليهود، أو تحت مهاب الرياح بالوثنية من أرض الروم والفرس- قد تزلفوا ببعض الأسماء الغريبة إلى الله.. واتجهوا بالرجاء إلى أسماء تعددت فيها الآراء مثل اللات والعزى ومناة.. أسماء لها أحجار غشيمة في العراء، مثل الرجوم التي يتذكر عندها العرب بعض الأحداث التاريخية.. وأسماء تماثيل يونانية نقلها عمرو بن لحي من الشام ووضعها في الكعبة كما جاء في كتاب "الأصنام" لابن الكلبي.. أسماء نستطيع اليوم أن نكشف القناع عن طبيعتها اليونانية مثل "هبل" الذي هو بالتأكيد "أبولو" آله الشمس عند اليونان، وله معبد في دلفى إلى الشمال الغربي من أثينا، ومعبد في جزيرة ديلوس اليونانية من جزر بحر ايجه، وقد كان في الكعبة على شكلى تمثال لإنسان أوروبي عار من عقيق أحمر قبل أن يتحطم مع غيره من الخرافات "المستوردة"..

وكـذلك صـنم ذو الـشرى وهـو أيـضا أحـد آلهـة اليونـان وصـاحب دور في مسرحيتهم السماوية الخرافية واسمه دوسارس!.

إذن فالعرب "الحنيفيون" على ملة إبراهيم، و "الأميون" الذين كانوا ينتظرون وهم متمسكون بحنيفهم وعد الله لهم بالكتاب والرسول في دعاء إبراهيم وإسماعيل، والذين كانوا ينتظرون هـذا الوعـد أمـة بعد أمـة حول بيت الله الذي يصلون لـه، ويحجـون إليـه، ويحرمـون القتـال فيـه في الأشهر الحـرم كمـا أمـر الله منـذ إبـراهيم وإسماعيـل- لم يكونـوا قـط "وثـنيين" بمفهـوم وثنيـة الفـرس الـذين لم يعرفـوا مـن الآلهـة إلا بـشرا في صـورة أهورامـازدا وأهريمـان، ولم يعبـدوا إلا "نـارًا" لهـا معابـد وطقـوس وكهنـة، وكـانوا تـدعيما وتعميـدا لهـذه الوثنيـة يعبـدون ملـوكهم، ويـصدقون كهـانهم.. ولم يكـن العـرب وثـنين كوثنيـة براهمـة الهنـد، أو البـوذيين في وسط وشرقي آسية، أو كوثنية اليونـان الـذين صنعوا آلهتهم على هـواهم، وفرضوا على هذه الآلهة عبثهم، فأقاموا لها المعابد للتراقيم، والمسارح للهو والعربدة، وهم في كل ذلك ضالوان عـابثون، لا يعرفـون الاهـا، ولا يرجـون حسابا..

لم يكـن العرب الذين يؤمنون بالله، ويستغفرون الله، وينتظرون على حنيفية إبراهيم ووصاياه- كتابا من الله لهم، ورسـولا منـه إليهم- وثـنيين يفـسرون الوجـود والحيـاة والإنـسان تفـسيرًا "وثنيًـا" يـربط الخلـق والحيـاة ومصير الإنسان بـالأرواح الخفيـة، أو بالعناصـر الطبيعيـة، أو بأسمـاء بشرية تجسيدية لآلهـة مزعومـة.. وإلا فـأين هـذه الأسـطورة الـتي تقـول بلغـة العـرب واملاء كهنتهم أن الذي خلق الخلق هو يعوق أو نسر، وهو آلـه عربي اسمه شميسان أو قميران.. أو تقول إنه قد اشتركت مع هـذه الآلهـة آلهـة أخـرى في الخلـق والتـدبير مثـل الـلات والعـزى ومنـاة الثالثـة الأخـرى؛ وأن يعـرب أو

قحطان أو عدنان من أسلاف العرب هم بالضرورة في هذه الاسطورة من أبناء هذه الآلهة.. كما زعم ذلك اليونان والرومان عن هيلين ومانوا!!

هذه الأسطورة التي هي شرط وثنية العرب المزعومة لا وجود لها..

كما أنه لا وجود لأية معابد لأي صنم من الأصنام المنبوذة في عراء البادية، أو اللائذة كالأماء في سوق النخاسة وعصور الغفلة بظلال الكعبة في بيت الله الحرام.. وليس بيت النار، أو معبد دلفى، أو بيت الأصنام.. وحيث لا وجود للأسطورة ولا للمعابد فلا وجود للكهنة ومراتبهم وطقوسهم..

هذه الأسطورة التي لا غنى عنها حتى اليوم في كل شعب أو مجتمع يغيب عن اسم الحق لا وجود لها في حياة العرب بطولها وعرضها منذ إبراهيم وإسماعيل. لا وجود لها لأن معبودهم بحق هو الله، ولأن تفسير الخلق والحياة والإنسان مستقر في حياة هذه الأمة منذ آدم على أن "الله" هو الخالق للسماوات والأرض. وهو الخالق للإنسان ليبتليه بعمله، وليجز به عن هذا العمل.. ثم لأن التقريب إلى الله بالأصنام العارضة والزائلة، والظاهرة العجز والهوان بغير معابد ولا كهنة ولا أساطير لا يسمى إلا من باب الإتهام الكاذب والتشويش الدعائي "وثنية العرب".. وإنما نسميه كما سماه الله "شركًا" أي إشراك من لا قدرة لهم على شئ مع "الله" في حقوق الدعاء والرجاء وهذا "كفر" بكمال حق الله في العبادة والاستعانة، والكفر كان بمعناه عند العرب غطاء يزول بالصحوة بعد الغفوة، والتذكر بعد النسيان. ولهذا كان اسم القرآن الكريم "ذكرا" وكان النبي بدعوته داعيا إلى هذا التذكر للدين الحق في كماله لله بغير شرك به، أو تقرب إليه بغيره، وفي هذا يقول الله تعالى له "فذكر إنما أنت مذكر".

وأما عن إيمان العرب بالله إيمانا يفسرون به الخلق والحياة ومفهوم الحياة ومفهوم الإنسان تفسيرا يلغي الأسطورة الوثنية والكهانة من جذورها، وينزههم عنها في سلوكهم وغاياتهم وآدابهم وإنما تعبيرهم فذلك ما تكفي فيه شهادة الله لهم في القرآن الذي نزل على رسول الله لتذكيرهم.

يقول الله لمحمد عن علم العرب بأن الله هو خالق هذا الوجود ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: 25]

ويقول في علمهم بأسمائه أيضًا وأن العزة له والعلم له ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[الزخرف:9].

ويقول في علمهم بأن خالق الإنسان هو "الله" وليس برهمت أوزيوس أو صنما من أصنامهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف:87].

ويقول عن دعائهم لله في الشدائد حيث يتركون الزلقى إلأيه بالاصنام ويسألونه هو ضارعين إليه: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[الفرقان: 77]

ويقول أيضا ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال:33]

التدافع والصرع:

بهذا الدين الحق، مهما غشيته الغواشي بانتظار الصحوة، وبهذه اللغة المبينة التي عاشها العرب منطوقة ومكتوبة، وسجلوها باعمالهم وصدقهم محررة إلى الله ومطهرة- كان العرب على هذه الأرض أول من أطلق الكلمة المضيئة إلى أعظم الأهداف، وأول من حقق بالكلمة هذه

الأهداف الإنسانية الشاملة التي لم تتحقق لغير كلماتهم.. هذه الكلمات المجندة بإيقاعها ونظمها وقصدها وبلاغها ومعروفها ودينها لتسير إلى أهدافها كما اختارها الله. فكيف يجيئون اليوم وهم أحوج ما يكونون إلى تصحيح المسيرة، واستحياء اللغة. واستبانة التاريخ. فيبيعوا مدركاتهم ومعتقداتهم وأصالات تراثهم. ولغتهم إلى كلمات الغرب المخمورة، وثقافته وفنونه اللاغية، واللاهية، عندما يتكلم دعائها عن مسرحهم وعبثياتهم وفلسفاتهم؟.

كيف والعرب حين جعلوا لهم نسبا في مجتمع البشر والأمم لم ينتسبوا إلى آلهة مصنوعة كما انتسب اليونان إلى هيلين بن ديو كالتون وبراها الآلهين عندهم. ولم يزعموا أنهم السادة على النوع البشري كما تعني كلمة "آرى" بالسنسكريتية في زعم الفرس والهند بأنهم "الآريون" ولم يرجعوا إلى نسبة الشمس والسماء كما يدعى اليابانيون في قصتهم الخرافية عن تناسل الآلهة.

لبلدا "إيزاناجي" "وايزانامي" ويكلا إليهم خلق الأرض والبشر.. ذلك أن العرب وهم منذ فجر التاريخ، وفي قلب العالم، منطلق الحضارة الدينية العالمية والعلمية والواقعية والأخروية يعلمون أن الحق الذي لا ينتمي الإنسان المخلوق إلى ما هو أفضل منه- إنما هو بيان باللسان يبدأ به العمل وينتهي إليه.. والبيان إعراب بالكلمة، والكلمة العربية المغربة هي الكلمة الصادقة الدالة على الحق: والمبينة عنه، ولذلك فالإنسان الصادق بالحق هو الإنسان "العربي" المتكلم بالكلمة العربية، والعامل بها، والمؤمن بعلمها. وهكذا كان انتساب العرب في شجرة المجتمع البشري وقيل غيرهم من الشعوب، إلى "الكلمة الصادقة".. لقد سموا أنفسهم "العرب" أي المبينين للكلام، والعاقلين للإدراك، والعاملين بما بان لهم مما أدركوه وعقلوه..

فلم يسموا أنفسهم السادة أو أبناء الآلهة.. ولم يستأثروا وهم أهل السبق إلى هذا الفضل بالبيان والعربية.. بل جعلوا لغيرهم من غير المبينين الذين سموهم "عجما" حتى مشاركتهم في هذه التسمية الأكرم إلى البيان والأعراب والصدق بقدر ما يتعلمون العربية، وما يؤمنون بإيمانها، وما يصدقون الله عملهم بها.. وهكذا كانت رسالة المسلمين العرب بالإسلام إلى كل البشر في الأرض.. كانت رحمة للعالمين.

من أجل هذا الفضل بحقه في الكلمة الصادقة، والكلمة العربية المبينة، تراضي العرب واتفقوا أن يدبروا فيما بينهم سباقًا علميا عمليا لتنمية خصائص الإنسان الأسبق إلى الخير.. الإنسان الأقرب إلى المعروف، والأبعد عن المنكر والإنسان الذي يبلغ أن يكون في حياته التقدمية ندا للدهر، وسيدا للطبيعة، وأخا لأخيه، فيبلغ بذلك أقصى ما يستطيع من تجاوز المدى القياسي في مكارم الأخلاق، والأعمال الجماعية التي تبني وحدة الأمة على دينها ولسانها ومعروفها الذي لا بديل له.

على طريق هذا السباق عرف الإنسان العربي المؤمن "التدافع" بين شعوبه وقبائله بدلا من الصراع". فالتدافع الذي قد يبلغ مبلغ الحرب و تنافس على الفضل والمعروف، ودفاع عنه، وتسابق فيه، وردع لمن يتخطاه.. وأما الصراع فهو وليد التناقض في المصالح، والتناقض في تفسير شكل المجتمع على الأساس الطبقي. وثماره هي الحروب المتعددة الأسلحة، والتي تستهدف العدوان على المبادئ والحقوق، والتي يكون هدف أحد الأطراف فيها إبادة الطرف الآخر.. ومحو مبادئه ونظمه، ليستبدل بها غيرها نظمًا أخرى ظالمة.

التدافع إذن بالسلم أو الحرب، مع الأقسام بالبقيا والرحمة وليس الإبادة والتمثيل كان بديل "الصراع" التقدم حياة العرب، وتنمية ذاتهم

ولغتهم. منذ أن زال مفهوم الصراع في أنفسهم وتراثهم بالإيمان، ومنذ أن نظروا إلى الخلافات الجذرية بينهم وبين جيرانهم من الفرس والروم نظرة علمية إنسانية لا تضيق بخلافات البشر، المختلفين بالضرورة، ما لم يقع عدوان على حق لا يحتمل الصبر عليه أو التجاوز عنه.. وهكذا عاش العرب يدافعون جيرانهم الأقوياء بقوة الحق الظاهر إلى أن جاء الإسلام فدفعوهم بوحدة الإيمان عن أرضهم، ودونما حقد أو استعلاء أو انتقام منهم.. وهكذا عاش العرب بينهم وبين أنفسهم يتدافعون حول الدين والمعروف والفضل كما استقرت القواعد في حياتهم وحياة آبائهم، فكانت حروبهم كلها للدفاع عن مبادئ المعروف، ونصرة الجار والضعيف، ومساندة أصحاب الحق، ورد الحقوق الأيهم، وتأديب من تبطرهم كثرة العدد أو الأموال فيستكبرون ويفسدون.. فكانت من ذلك حرب البسوس غيرة على حق الجار، وإباء لأي شكل من أشكال البغي والتسلط فيما جرى من معارك التقويم على السواسية بين الناس بين بكر وتغلب، تلك الحرب التي استمرت أربعين عامًا كانت كلها دروسًا للأمم التي تتصاغر لطغاتها حتى تفقد أخص الخصائص في حرياتها الشخصية والعامة، ومن ثم تستكين لتراكمات العبودية ومضاعفاتها حتى تنسى طعم الحرية وإن بقي لها لفظها.. وطقوسها.. والأحزاب التي تتاجر بالبحث عنها!

بهذا التدافع الطويل، والسباق به إلى المكارم العملية، حيث تتمكن الخصائص العربية وتزدهر، وحيث تتدفق بها المعاني الكريمة في الألسنة، وتتحدد بها المعالم على الطرق- ظهر الإسلام بين هؤلاء "الأميين" الموعودين بالكتاب وبالرسول، وظهر الرسول "الأمي" المصطفى باختيار الله من أبناء إسماعيل: ومن قريش، ومن بني هاشم، خلال نحو خمسة وعشرين قرنا كانت فيها العروبة والعربية بمعنى اللسان المبين تعني

الخصائص الكريمة المبنية وهي تتحدر في سباقها بين الأصلاب والترائب، أمة بعد أمة، وجيلا بعد جيل، ولم تكن بمعنى محض "العرق" كما عاش هذا المعاش في مفهوم بني إسرائيل: فكان ظهور الرسول: ونزول الكتاب. وانتصار الإسلام هو جائزة هذا الاصطفاء الطويل المنى وقومه.. الاصطفاء الذي أكده النبي عن نفسه في قوله "أنا خيار من خيار" وأكد فقانونه في قوله "تخيروا لتطفكم فإن العرق دساس".. وهو الاصطفاء الذي أكده الله باختيار العرب ليكونوا أمة الدعوة التس استجابت المنى في قوله تعالى ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وكما أكد القرآن قانونه الثابت في قوله تعالى ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ وفي قوله ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾.

بهذا القانون الحاكم على وحدة الأخلاق. وانتخاب الخصائص قبل الإسلام وبعده أصبح أفراد الأمة العربية الواحدة: المتجدده بشعوبها وقبائلها في مسار السنن الطبيعية حولها.. والعلمية في نموها، أخلاقها حية، وكلمات واعية، هادفة بالتجانس إلى هدف واحد له أمام أعينها وضوح الشمس، وهي تتحرك إليه بقوة جماعية لها حكم القانون، وشرعية العلم، ومضاء الإرادة، فكيف يراد. وكيف يمكن أن تتشغل هذه الأمة في صحوتها المعاصرة باللهو واللعب والتخييل منصرفة بذلك عن أصالتها، وعن عناصر انتصارها، وعن سباقها المستديم فوق أرضها الرحيبة المشمسة التي قارعت عليها الدهر فانتصرت عليه وكانت ببقائها إلى اليوم ندًا له، ماضية بهذا السباق إلى هدفها الواضح.. كيف يمكن أن تنسى مع ارتفاع أصوات بعض المتادبين من أبنائها من دعاة الثقافة اليونانية-. الشرقية

والغربية- هذا الهدف لإنساني التقدمي والعلمي الواضح في تاريخها الطويل، كأنها أمة حديثة الولادة، جاهلة مما تريد، غافلة عما يجرى، عاجزة عما تعمل..؟!

المجتمع الفاضل:

على هذه الصحراء الواسعة، وفي حياة الرعى المترحلة، مع تجارة القوافل فوق تلك الطرق البرية والبحرية التي تمتد من قلب العالم إلى أطرافه، وحول بيت الله الأول في هذه الأرض، حيث ترتبط الأقوال والأعمال بالدين والمعروف، وتقوم العهود والمواثيق، ويجرى العدل والقضاء باسم الله الواحد، الذي لم يتجسد في تمثال، ولم يظهر في صورة، ولم يختلط به في ذاته غيره، بل هو الفرد الصمد، الأعلى والمتعال، رغم الشركاء الذين يظهرون كالكدر ثم يذوبون بنزول المطر- على هذه الصحراء الواسعة التي لم تفقد إلى اليوم بدائها وبهاءها برغم السيارات والطائرات والرفاهية والمدن قام ذلك المجتمع الفاضل، مجتمع السواسية والمعروف، مجتمع عبادة الله وسلام النفس، وإيثار الأخوة، وسيادة بالحياة.. قام طويلا قبل أن يحاول أفلاطون أن يسقط أخلاط عقله الطبقي الوثني على مجموعة من الأطلال والخرائب التي تصورها فلسفيا ويونانيا وهو يرسم "مدينته الفاضلة".. وقبل توماس مور وسان سيمون وكارل ماركس في تصورهم بين الظلام والجليد، وتحت القهر والاستغلال- مجتمعات فاضلة، أو أفضل لشعوبهم من ديمقراطية اليونان..!

قام هذ المجتمع الفاضل على أرض العرب منذ فجر التاريخ على محور حياة الرعى وحياة التجارة، وهي الحياة التي قوامها الحركة الأفقية مع الطبيعة وعناصرها في الأرض والسماء، حوارًا معها، وتملكا لمنافعها.. ثم الحرمة العمودية مع الله خالق الإنسان والطبيعة بين السماء والأرض، من

حصيلة ما يجتمعون من رزقه، وما يتعلمون من علمه، وما ينطقون ببيان لسانهم إليه، مجددين العهد معه كل عام- شكرا وذكرا. حول نقطة مركزية يحتشدون من أطراف بدائهم حولها، ويتعارفون على دينهم ولسانهم ومعروفهم عندها، وهي الكعبة والمسجد الحرام في مكة التي هي الإيجاز للأسم العربي القديم "مكوراب" أي مكان بيت الرب..

حول بيت الشّعر المترحل إذن بكل ما يعنيه من حصيلة السعي والعلم، وقوة الإرادة وانتصار النفس، وحول بيت الله المستقر آلاف السنين في موضعه من جبال الحجاز بواد "غير ذي زرع" بكل ما تهيأ له- بعيدا عن الملوك والكهنة- من معنى المرجع إلى الله، والمثابة إليه، والأمن في حرمه الذي حرمه أهله، وحرمه البادون عنه، بأمر الله، وحتى تذوب خصوماتهم وثاراتهم ونزواتهم بين يدي الله- جول مركزي الحركة والقرار.. حول الأفقي مع بيت السعي المترحل والمتخفف، والعمودي عند بيت الله المستقر والجامع.. قام هذا المجتمع العربي العف بالمعروف، والقادر بالحرية، والآمن بالإيمان.. قام هذا "المجتمع الفاضل" بمفهوم التجدد والتعاقب بين الغفلة والذكر، حتى ظهر الإسلام في صورة الرسالة الخاتمة، المتضمنة للكتاب الخالد، وكان ظهوره بمناصرة هذه القبائل التي آمنت به بعد أن تعاقبت عليها حياة الآباء بالإيمان والمعروف أمة بعد أمة، وجيلا بعد جيل تنتظر الرسول والكتاب- هو الآية العظمى لهم ولجميع الشعوب، في جميع عصور التاريخ، وهو الآية التي لا تزال في صورة الأعمال والتطبيقات التي تركها عصر الرسول والخلفاء الراشدين تفسيرا عمليا للقرآن- أعظم الحقائق الملزمة للعرب في حاضرهم ومستقبلهم، الزاما يحملون به الأمانة المباشرة عن أنفسهم، والأمانة بالقدوة عن الشعوب المجاورة لهم..

وبالتأكيد فإن أول ظواهر الإلزام والإلتزام في أمانة كل عربي أن لا يتخلى عن مقومات وجوده في الدين القويم، واللغة المبينة، والتاريخ الذي عاشه بالسلام النفسي والسلام الاجتماعي، أي أن عليه أن لا يضل فيبدأ اليوم من حيث بدأت وانتهت وانقرضت تلك الشعوب الأوربية الصغيرة التي طرأت على التاريخ، وانقرضت بانقراض عقائدها، وتآكل أخلاقها، مثل اليونان والرومان.. هذه البداية التي ينفخون بها للعرب منذ الحملة الفرنسية في البوق اليوناني لتستنفرهم- في لحظات الصحو الجديد- إلى فنون المسرح والرواية الخيالية التي نشأت مع الأطوال الأوروبية من ذات المصادر الوثنية، والمفاهيم الصراعية والعدوانية التي نشأت وانقرضت بها قبائل اليونان الأوائل! إن هؤلاء النافخين في نفير ديونيسيوس الهندي اليوناني البدائي من تجار الكلام، ودعاة الغرب، والذين سلفا قد استهانوا بهويتهم وأصالتهم ففكوا حزامهم العربي، وتعوجوا بألسنتهم وأفكارهم، وتجردوا بالإلحاد الشرقي أو الغربي من سلطان الحق على قلوبهم وعقولهم إنما يحاربون سنن التاريخ، وقوانين الله في الطبيعة، أو قوانين البيعة التي تتأكد لهم في علوم الإنسان كما بدأ الأوروبيون حديثًا فقط في الاهتمام بها.. هذه السنن والقوانين التي تجعل من الضوء والظلمة في مناخ واجواء الشعوب، ومن الحر والبرد، ومن السعة والضيق، ومن الوضوح والعتام، ومن الإبانة والعجمة حافظًا لخصائص البشر كما استخلصوها من حركتهم وسط الطبيعة، أو من استقرارهم تحتها.. وهكذا فإن خصائص العرب وهي تتردد بين الفتور والنشاط باقية لهم.. هذه الخصائص التي جمعتهم فوق أرضهم المبسوطة الآفاق بالحرارة والضوء، والمتواصلة بالتدافع والتماثل، والحية بتنوع الموارد والأسباب، والواعية للذات بتميزها في قلب العالم عمن حولها، وعما حولها.. هذه الخصائص التي جمعتهم فوق أرضهم على الدين الحق.. الدين الآلهي.. ستظل مالم تتغير الأرض، أو تتبدل

السماء: هي خصائصهم التي تأبى لهم ولا تعقل أن ينجح الأعمى في أن يخدع المبصر ليغلق عينيه، أو أن يتقبل الناطق المبين منهج الأبكم الأصم فيتكلم بيديه.. أو أن يلقي المؤمن بسلام قلبه ونفسه - افتعالا وسفها - إلى مثل ما ينهمش قلب الوثني القديم والملحد المعاصر من مخالب الصراع وأنيابه، لكي يستمتع على صراخ أفكاره، وتحيب مشاعره، أو داخل عمايات نفسه، بأحداث متصارعة على المسرح، أو متنازعة بالإختراع والتوهم داخل رواية طويلة أو قصة قصيرة..!

بهذه الحقائق التي تبني سلام المجتمع المتقدم سيبقى الإنسان العربي في تسلسل لا انقطاع له بين آبائه وأسلافه هو بالحرية والإيمان والبيان بطل واقعه. البطل الذي مهما كان أثره في مجتمعه صغيرا أو كبيرا فهو بهذا الأثر حق لا وهم، وصدق لا اختلاق، وجد وقدر في مشيئة الله وفضله وحكمته باتساع آفاق الحياة والواقع والتاريخ، وليس لهوا ولعبا، وعبثا في "أدوار" يلفقها عن نفسه، أو يلفقها عنه غيره، تدور بها تجارة الكلمات، أو سوق الموبقات، ومتاحة الروايات الخيالية والمسرحيات!

على أن هذا الكلام الوصفي لمجتمع العرب الفاضل كما حققوه أطوارًا متعاقبة في إطار الصدق في التعبير قولا وعملا - عن واقعهم ودينهم وعلاقاتهم - ليس نثرا فنيا تصوغه العاطفة القومية، والعاطفة الدينية، مجردا من البناء العلمي والبرهان العقلي، والسند التاريخي.. إنه ليس كلاما خطابيا يقال في جانب هذا الصدق التعبيري في آداب وأشعار العرب ضد الوهم والتخييل والالتباس المسرحي عند اليونان - من غير حجة أو دليل.. فالدليل أقدمه في الفصل القادم من واقع القوانين التي تحكم بطبيعتها نظام اللغة العربية في تركيبها الحي المميز لها، والذي أصبحت به دون غيرها من اللغات هي لغة الدين، والصدق البياني والعلمي، ولغة

مجتمع الحرية والمساواة والسلم الإنساني.. كما أقدمه في الفصل الذي يليه من هذه الدلالات الحضارية التي يقدمها الشعر الجاهلي قبل الإسلام على قيام حياة الدين والصدق، والحرية والمساواة، حقبة بعد أخرى، في ذلك المجتمع الفاضل الذي أقامه العرب على الحرية والصدق والدين، وهم يتجهون بالنمو التعبيري والغنساني نحو عصر ظهور الإسلام.. الذي تغيرت به وعلى صورته صورة المجتمع الإنساني تغييرا جذريا وإلى مدى طويل.. محو الأصدق والأفضل.

الفصل الثاني

الوجود بالإيمان والصدق والمساواة
في تركيب اللغة العربية

الوجود بالفعل:

عندما شك رينيه ديكارت الفيلسوف الفرنسي في القرن السابع عشر كان شكه المنهجي تعريه للفلسفة الأوربية منذ سقراط وما قبله من كل أصالة أو ثبات. لقد أراد منذ البداية أن يتحرر من كل خداع تجلبه له الحواس في صور معلومات خاطئة، وكانت البداية الوحيدة التي استقر عليها تلمسه للصدق في نفسه، والصدق المحيط به، هي الشك في وجوده الذي يقاومه الشك في هذا الشك. الشك إذن كان البداية.. ومن هذا الشك الذي سقطت به كل الصروح من حوله بدأ يتبين أن الشك عملية تفكير، إذن فقد تحقق له الشيء الوحيد الذي يمكن أن يكون فيه هو برهان وجوده، فهو يفكر.. إذن فهو موجود ..!

بهذه الصورة التي أزاح بها ديكارت كل الفلسفات السابقة، وكشف بها في تعريف الوجود بالتفكير عن الانفصام المأساوي بين الإنسان الأوربي ووجوده المحيط به، وأكد في انطلاقه من إثبات الوجود لنفسه بالتفكير أن أقصى ما يستطيع أن يفعله هو نفس ما فعله من قبل سقراط وأفلاطون وأرسطو ومن بعدهم إلى اليوم، أي أن يفكر في الوجود من نقطة خارج الوجود، وليس من نقطة هي في واقعه وفعله وإيمانه داخل هذا الوجود، وفعالة في هذا الوجود، وغير متناقضة مع هذا الوجود!

من هذه النقطة يختلف الإنسان العربي عن الإنسان الأوربي منذ عاش الأول متحركًا وسط الطبيعة المضيئة ينقل إيقاع حركته متوازنًا بانتصار وجوده مع إيقاع حركتها، وهو يعلم – كما تبين له من ارتفاع نظره رأسيًا في السماء إلى أعلى سماء، وامتداد بصره أفقيًا إلى أبعد أفق - أن الله الذي خلق هذا الوجود قد خلق فيه الإنسان ميسرًا للإيمان به، وللعلم

بسنته، وللعمل في موارد هذا الوجود بدين السماء والأرض – كما سخرها له، ليمتحنه بعمله، وليعده – إذا لم يشك ولم ينكص- لحياة أفضل من حياته.. بعد حياته.

فالإنسان العربي إذن وقد آمن بأنه مخلوق داخل هذا الوجود، المخلوق مثله، وله، لم يشك لحظة بقوة هذا الإيمان في وجوده.. إنه موجود بالفعل، وقد صنع لغته وهو يتلقاها لتؤكد وجوده بنفسه بغير دلالة فعل الوجود.. أي فعل الكينونة الذي اختصت به جميع اللغات الأوربية، واللغات الآرية في آسية وتحررت منه اللغة العربية لهجاتها وحدها.

الإنسان العربي بشهادة لغته في عقيدتها الصوتية موجود بالفعل.. إنه "موجود" .. إذن يتفكر وينطق ويعمل.. إنه موجود بالفعل لأن إيمانه بالخالق أثبت وجوده بالخلق، ومد فكره مع الوجود وبالوجود ليقول ما يفعل، وليفعل ما يقول..

إن الإنسان العربي منذ اهتدى، واستوعب بحركته الحرة وسط آيات السماوات والأرض – لغته المبينة، ومنذ تلقاها على صورة نفسه، وتعبير وجوده، وشهادة واقعة، ودلالة إيمانه، لم يكن محتاجًا قط لكي يقول كما قال اليونان والرومان بالأمس، وكما يقول الإنجليز والألمان والفرنسيون والإيطاليون اليوم "أنا أكون" .. إن كلمة "أنا.." في لغة هذا الإنسان العربي تعني أنه كائن فعلا.. تعني أنه كائن فعلًا.. تعني أنه موجود ليفكر ويختار، وليقول ويعمل.. بينما الإنسان الأوروبي منذ جذوره اليونانية والرومانية، ومع انقراض اللغتين، لا يزال وهو يجدد لغته يعبر عن شعوره الملازم له.. شعوره بأنه موجود داخل نفسه لكي "يكون" في هذا الوجود المحيط به كلما أراد.. وهذا الجدار العازل بين نفس الإنسان الأوروبي وبين الواقع الصقيعي المعتم المحيط به.. هو صانع البؤرة التي تتخلق فيها أفكار

الصراع الدرامي في خياله المعزول في نفسه، رغم أنه الإنسان الذي اكتشف الكثير من قوانين المادة، ولكنه لم يستطع بعد أن يكتشف دلالة هذه القوانين على الله..

في اللغة العربية تعبر الأسماء والضمائر مجردة عن أفعال الكينونة عن وجود ذاتي لأصحابها، ولهذا تتميز اللغة العربية بوجود الجملة كاملة المعنى من غير فعل يؤكد وجود وكينونة الفاعل، كما أنه في مقابل ذلك يمكن أن توجد جملة فعلية كاملة المعنى يعني فيها الفعل وحده عن اسم الفاعل، أو يغني الحرف الدال عليه، وبهذا تؤكد اللغة العربية في تركيبها أن الإنسان موجود بالفعل. كما انه بهذا يتحقق أن الإنسان هو الفعل، وأن الاسم أو الفعل أحدهما كاف وحده للدلالة على الوجود بالفعل، لهذا الإنسان الحاضر بكمال عقيدته ولغته ومسئوليته في هذا الوجود.

في الجدول الآتي نقدم أفعال الكينونة الحتمية في اللغات الأوربية القديمة والحديثة للدلالة على الوجود المشكوك فيه عند الأوربي إلا بهذا الفعل اللازم له في كل جمل تخلو من الفعل الذي يحل محله في الدلالة على الوجود.

أفعال الكينونة في اللغتين اليونانية واللاتينية المنقرضتين، ثم في اليونانية والإيطالية المعاصرة:

ضمير المتكلم	باليونانية القديمة	باليونانية المعاصرة	باللاتينية المنقرضة	بالإيطالية المعاصرة
أنا أكون	Egho imy	Egio ime	Ego sum	Io sono

أفعال الكينونة في اللغات الأوروبية المعاصرة واللغة الفارسية:

ضمير المتكلم	في الإنجليزية	في الفرنسية	في الألمانية	في الفارسية
أنا أكون أنا رجل أكون	I am	Je suis	Leh bim	من مرد "هستم"

هكذا يتقرر في أول قوانين اللغة العربية التي تحدد علاقة الأسماء بالأفعال على أساس الوجود بالفعل – أن هذا الوجود المتحقق يعني الفعل، وأنه وجود متحقق أساسًا بالإيمان بالخالق والموجد، وأن معادلة ديكارت الشكية تنقل من "أنا أفكر فأنا موجود" لتكون في صورتها العربية بكمال الوجود واليقين بالخلق "أنا موجود فأنا أفكر وأقول وأعمل" .. وهكذا يسقط ويتلاشى عالم الدراما الوهمي في حياة الإنسان العربي، وينفتح الطريق فوق أخدود "انفصام الوجودي" في نفس الإنسان الأوروبي فيحمل الإنسان العربي عبء مقارعة الدهر، ومسابقة الزمن، حتى يفي بحياته بما عليه، كما عقل ذلك في كل ما حوله، وكما آمن به..

الفاعلية والإعراب:

ولما كان من المحقق أن هذه اللغة العربية هي بكلماتها ومعانيها مستخلصات وملخصات الطبيعة الحية في ألسنة العرب ومدركاتهم، ولما كانت هذه اللغة هي عند العرب برهان وجودهم الفعال فتسموا بها "عربًا" وأصبحت في دلالتها على "الحق" في الوجود المحيط بهم برهانًا لهم على كل حق، كما جعلها الله كذلك عندما أنزل بها القرآن، وعندما جعلها في

قسمة على صدق ما دعاهم إليه مثالًا لهذا الصدق في قوله تعالى "فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما إنكم تنطقون".. فقد كان طبيعيًا أن تتميز اللغة العربية بقوانين حياتها وبيانها في ألسنة أهلها الناطقين بها، ومن ذلك قانون "الإعراب" الذي تتغير حركات أواخر الكلمات وهي "الضمة والكسرة والفتحة".. وفقًا لنظام دقيق يخضع لدرجة "الفعالية" في الكلمة، وهي درجة يفطن إليها المتكلم بشعوره وفطرته فهو ينطق بالصواب – قبل وضع قواعد النحو – كما لو كان يعزف كل كلامه على مشهد من الطبيعة وتوافقيًا معها.

هذا القانون الذي صنعته الفطرة في لغة وأصوات الإنسان العربي وفقاً لمدركاته التي استخلصها من الطبيعة الحية في جواره الطويل معها آلاف السنين، وهو قانون" الإعراب والفعالية" لم يستطع النحاة من العرب الذين بدأوا من أجل الحفاظ على القرآن الكريم في تقنين فطرة اللسان العربي، أي في محاولة الكشف عما وراء بيان اللغة العربية في الإعراب من قواعد يربطها قانون – لم يفطن النحاة العرب من أول أبو الأسود الدولي ثم الخليل ابن أحمد الفراهيدي ثم أبو عمرو بن العلاء إلى تسجيله والإشارة إليه كمؤثر أصيل في اختلاف المواقفي، كما أنه كان من الطبيعي أن يغرق من جاء بعدهم من العلماء الفرس المتعربين من أمثال سيبويه والكسائي وتلامذتهما في شتات الفهم، وإبهام الرؤية، وهم يدورون بالقوالب الجامدة والغامضة، والخلافات الفرعية اللفظية، حول الأسس الأولى التي وضعها أبو الأسود والخليل بن أحمد وأبو عمرو بن العلاء..

ومن الغريب أن تجيء صحوة العرب في هذا العصر بأفكار أكثر تحررًا من القيد الأعجمي في فهم النحو العربي، وأكثر اقترابًا إلى الكشف عن هذا القانون الطبيعي الذي حكم قواعد الإعراب في اللغة

العربية على أساس من تدرج "الفعالية"، أي على أساس من اقتران حركات الضم والكسر والفتح في آخر الكلمة بالدلالة على درجة هذه الكلمة من قوة "الفعل" في المعنى الذي تعبر عنه كل جملة بذاتها..

لقد ظهر من علماء اللغة العربية ومحبيها – رغم تكاثر أعدائها والنشطين في مشروعات هدمها – من أدركوا أن بيان اللغة العربية ليس في معاني كلماتها وحدها، وإنما هو البيان الصوتي، الذي يمثله القرآن الكريم في أعلى مراتبه. ومن ذلك فإن حركة الضم مثلًا والتي تحصل من تدافع الصوت والضغط به للدلالة على الإرادة والاستمرار هي التي تهيئ أذن السامع وذهنه للمشاركة في تصور التوافق بين رفع "الفاعل" وبين أنه هو الذي قام بالفعل، وتركزت فيه ذروة الفعالية في المعنى، وكذلك في ضم المضارع الذي يشير فيه الصوت الضاغط إلى حقيقة ما يعنيه الفعل المضارع من الثبات والاستمرار..

وأنقل من الكتاب الذي سيصدر قريبًا إن شاء الله للصديق العالم محمد الكسار – دمشق- بعنوان "المفتاح لتعريب النحو" بعض كلمات له في هذا المجال الذي يساعد على فهم القوانين التي تحكم اللغة العربية، وفي مقدمها قانون "الفعالية" الموجه لحركات الإعراب.

يقول محمد الكسار : "ما من شك في أنه قد تم لتلك الأجيال من العرب الرعاة إخضاع لسانهم لضوابط دقيقة اهتدوا إليها بحسهم السليم، وذوقهم المرهف، نتيجة لكشفهم مما حولهم سر الحركة وقوانينها، وانعكاس هذا الوعي لقوانين الحركة في لغتهم ومفرداتها، وقد اعتمدوا في ذلك على حركات ثلاث هي التي سماها النحاة تقليداً للخليل بن أحمد "الضمة والكسرة والفتحة" وسموا انقطاعها "الوقف" أو السكون وتبعًا لاختلاف مخارج تلك الحركات، واختلاف الجهد الفعلي اللازم للنطق بها

فقد صنفوها إلى حركة قوية هي "الضمة" وحركة متوسطة القوة هي "الكسرة" وحركة ضعيفة هي "الفتحة"، ولم يروا في السكون أكثر من انعدام الحركة أو وقفها، ومع ذلك فهذا الوقف عن الحركة- مثل الصفر في الحساب – له نشاطه في تهيئته ذهن السامع لما يراد من معنى السكون ودلالاته المتنوعة".

ثم يقول محمد الكسار وهو يرجع بنشأة اللغة إلى حياة البدوي المترحل في بدائه، موجودًا بالفعل، وموجودًا بالخلق، ويكشف عن الصورة الحسية المادية المتحركة في حياة البداوة والوعي والتجارة على طرق الصحراء، والتي تتخذ منها الإنسان العربي أساسًا لبناء جملته الحية: "إن الإنسان العربي قد بني جملته التي صاغها من كلامه على نفس النسق الذي بني به بيته الذي يسكنه، والذي صنعه من أشعار الأنعام وأصوافها وأوبارها. ففي كل من هذا البيت المتحرك، والجملة التي يتكلم بها "عماد" لا يقوم أحدهما إلا به، عماد رفع به العربي سقف خيمته أو بيته رفعًا حسيًا، كما رفع به معنى جملته رفعًا معنويًا، وكما استعان في البيت والجملة بروافع وضوابط أقل أهمية من "العماد " في مثل حركات الكسر والفتح والسكون.."

إن معنى هذا أن اللغة العربية تحمل من قوانين المجتمع الفاضل، مجتمع السواسية، هذا القانون الذي لم تستطع جميع الاشتراكيات بأنواعها في أوروبا أن نقيمه في أي عصر وحتى اليوم، وهو القانون الذي تقيم به الإعراب وتوزيع الحركات على أساس أن "لكل كلمة من حركة الإعراب بحسب جهدها وفعاليتها في إظهار المعنى".. وهذا هو القانون الذي طبقه الإسلام في ربط الثواب بالعمل والجهد فيه، والإيمان الموجه له..

وهنا نتساءل وتسأل الدعاة والمروجين للقصة الخيالية والمسرحية فنقول إذا كان هذا هو مدى الالتزام بالعدل البياني في توزيع حركات الإعراب في لغة العرب المؤمنين حتى يقع التوافق بين الجهد الصوتي وبين درجة الفعالية أو الجهد المادي في طبيعة المعنى المراد التعبير عنه – فكيف يمكن وهذه هي موازينهم بالعدل والصدق لدلالات كلماتهم على ما فيها من الجهد بدلالة الصوت – أن يقبلوا هدم السنن التي تحكم الإنسان وتحكم الطبيعة من طريق ابتداع خيالي لأحداث لم تقع ولا يمكن أن تقع، وهي لا تقع في الروايات أو على المسرح إلا تناقضًا مع السنن والقوانين الصحيحة للحياة من خلال أقنعة الوثنية على عقول ومشاعر الرواة والشعراء الأوربيين، وتحت تأثير مرض الفصام بين وجود هذا الإنسان الأوروبي في نفسه ووجوده في وجوده، وبسبب ما ترتب على ذلك من مرض "الصراع" الذي تتخلق فيه ضد الطبيعة وضد الحياة وضد الإنسان أشباح وعقد وانقلابات الدراما في جميع أطوارها الوهمية !؟

من أجل هذا أصبحت الأخطاء والخطايا في تاريخ الدول الأوروبية، وفي حياة كل يوم بين شعوبها لا تكاد مهما تعاظمت إلى حد العدوان بالاستغلال والاستعمار، وإلى هوة الانحراف بالخمر والابتذال – تثير انزعاجًا بينهم أو تبرمًا، ما لم تتعلق هذه الأخطاء بمقادير الطعام والتملك والرفاهية.. بينما لا يكاد يتحمل العربي أن يقع مجرد اللحن في لغته.. إنه يحسن ويؤمن أن إنسانيته وعبقريته وكماله في لغته التي تدور متزنة ومتسقة بأنغامها في نفسه، لتعطيه نفس الإحساس الذي تعطيه له الطبيعة وهي تدور بأفلاكها وسننها ونواميسها في وجوده.. وبهذا فهو كذلك كان لا يحتمل بل يقاوم أي انكسار لقوانين العدل والتواصل والمقاسمة في مجتمعه السليم..

وكذلك فإن العربي يعلم بفطرته أن اللحن خطيئة مثل الكفر والظلم، وإخسار المكيال والميزان.. وهو يحس بفطرته إحساسًا قويًا بغير قواعد مكتوبة بهذا الملكوت الصوتي الذي يعيش به في لغته داخل وحدة مع وجوده المادي.. وحدة مع الملكوت المشهود المحيط به، يتجدد إحساسه بها كلما تكلم ومار قانون "الفعالية" في هذه اللغة التي نزل بها القرآن، والتي أضاءت بها شريعته وهي تؤكد الصدق في الإيمان، والأمانة في الفعل، وتنادي بأنه : "ليس للإنسان إلى ما سعى، وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى"..

في البيان والتبيين للجاحظ أن ابن ضحيان الأزدي من أشراف الأزد كان يلحن فيقرأ "قل يأيها الكافرون" فيقول " قل يا أيها الكافرين" فلما سألوه قال " قد عرفت القراءة الصحيحة في ذلك ولكني لا أجل أمر الكفرة!".. واضح أنه يقصد مباشرة إلى قانون "الفعالية" الذي لم تخطئه فطرته وإن لم يتحدث عنه.. فهو في لحنه الذي تعمده أراد أن يقول إن كلمة "الكافرون" الصحيحة تعطي بمفهوم الفعالية في الرفع قوة الفعل، ومعنى المسئولية والثبات، وهي صفات لا يستحقها الكفرة الذين لا يحترمهم فقال: "الكافرين" بالجر.. لأنهم لا يستحقون الرفع!!

الكلام والفعل :

ومن ظواهر قانون الفعالية في اللغة الغربية أيضًا أن يقترب القول من الفعل حتى يوشكا أن يتحدا معًا ، فالقول فعل وشيك، والفعل قول تجسد..

إن كلمة "الحديث" بمعنى الكلام تحمل في نفس الوقت دلالة "الحدث" الذي يدور عنه الحديث. فالحديث والحدث يرجعان إلى فعل ثلاثي واحد. وعندما نتبين أن "الحدوث" هو ضد القدم نكتشف أن الحدث

أي الفعل هو وقوع "الحدوث" أي البدايات لأخبار جديدة يدور حولها "الحديث".. وهكذا يظهر معنى الاتحاد بين القول والفعل في قانون الفعالية في اللغة العربية بقدر ما نجد هذا الاقتراب الشديد بين حدوث الفعل والتحدث عنه.. أو بين الحدث والحديث، والقرآن يجمع معنى الفعل والقول والحداثة في مادة "حدث" في قوله تعالى " أو يحدث بعد ذلك أمرا".. أي يبدأ بأمر جديد هو "فعل" يكون به خبر جديد، وحديث جديد..

ولا تزال بعض القبائل العربية في سيناء كما سمعت من أهلها تستعمل كلمة "قال" بنفس معنى " فعل" للدلالة على الحركة.. فالبدوي أحيانًا يتحدث عن رجل ليصف غضبه لسماع خبر، أو مهارته في أداء عمل فيقول "وقال بيده هكذا ثم قال بيده هكذا "وهو يعني أنه فعل بيده هكذا وهكذا.. لأن اليد لا تقول ولكنها تفعل.. وهنا يتبين الإحساس بأن القول – كما ذكرنا – فعل وشيك، وأن الفعل قول متجسد.. وأن فعل الأيدي هو كلامها وقولها.. والشاعر العربي معبد بن علقمة يقول في مثل هذا المعنى قبل الإسلام:

وتجهل أيدينا ويحلم رأينا ونشتم بالأفعال لا بالتكلم

ويقول المتلمس:

وما الناس إلا ما رأوا وتحدثوا وما العجز إلا أن يضاموا فيجلسوا

أي أن الحديث هو عن فعل يقع ويشهده الناس، والعاجزون عن الفعل هم المقهورون الذين لا فعل لهم.. ولا حديث عنهم!

كذلك جاء القرآن الكريم في حكمة بيانه الإلهي بهذا اللسان العربي دلالة على وحدة الكلام والفعل، فكانت "الكلمة" تأتي في بعض الآيات بمعنى "الفعل" سواء فعل الله المقصود به النصر في مثل قوله تعالى "

وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكماته وهو السميع العليم" في خطابه للنبي عليه الصلاة والسلام، أو فعل العقاب في مثل قوله تعالى "قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين"..

وكذلك تأتي " الكلمة" في القرآن الكريم بمعنى الخلق المتجسد في آية وهو فعل كامل من الله، كما كانت آيته بخلق المسيح من غير أب وذلك في قوله "إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته..." أي آيته المخلوقة بفعل قدرته تعالى.

وكذلك تأتي الكلمة مجموعة في "كلمات" دالة على أفعال الله وآياته التي لا تحد في خلقه وحكمته ورحمته. وذلك في مثل قوله تعالى " قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدادًا" فهذه الكلمات التي لا تحد هي فعله الدائم، وآياته التي لا تنتهي، والتي بها يحق الحق، وينصر الرسل، وذلك في مثل قوله تعالى "ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ولو كره الكافرون"..

اللغة الدينية

وسط هذا البرهان الإيقاعي المتحرك بالدلالة المتجددة على الله، في الطبيعة المتكاملة بوحدة السماء والأرض، واتساعهما المضيء والفريد نشأت لغة العرب مهتدية حول عمودها وصدقها وهو الإيمان، عبر فعل ناجز، متلاحق تلاحق النهار والليل، أو فعل وشيك.. وهكذا كانت بكمالها وصدقها هي اللغة الدينية فوق هذه الأرض بمعنى الدين الحق ودلالاته.. كما ملكت بهذا الكمال والصدق أن تعيش وتظهر وتبقى في هذا الوجود البشري "بغير طفولة ولا شيخوخة تعتريها" كما يقول رينان "منذ ظهرت على الملأ وحققت انتصاراتها التي لا مثيل لها"..

وحول هذه الحقيقة التي نطق بها التاريخ ولا يزال ينطق تختلف آراء المستشرقين أو المستعربين، فبينما يرى رينان وفريق معه "أن دين الصحراء الطبيعي هو التوحيد" فإن رجلاً مشبعًا بأحقاد وأوهام المبشر المأجور مثل هاملتون جيب — وفريقًا معه — يرى عكس رأي رينان — الذي كتب رغم تعصبه المسيحي الشديد ينصف اللغة العربية، ويشيد بها، وتأخذه الدهشة مما اكتشفه من "كمالها ومرونتها" كما كتب ينصف نفسه بتسجيل ما هدته إليه ملاحظته من هذا الرابط الوثيق بين طبيعة الصحراء وبين الإسلام الذي هو دعوة جميع الرسل الذين رعوا الغنم، وعاشوا الحياة البدوية — فيما عدا قلة من الملوك الأنبياء من بني إسرائيل- مع انتسابهم بالتوراة وبجذورهم إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أي إلى الحياة البدوية نفسها..

يقول جيب في دعايته المسمومة ضد العرب والإسلام في كتابه الذي نشره تحت عنوان مضلل عن الإسلام وهو "المحمدية" : "قرر رينان أن دين الصحراء الطبيعي هو التوحيد، وكان رأي رينان هذا هو السبب في اعتبار الإسلام الذي يعطي صورة الإله الأحد العظيم الذي لا تدرك طبيعته العقول انعكاسًا لطبيعة الصحراء العربية اللانهائية الامتداد.." ثم يقول في الطعن على هذا الرأي بغير حجة" ولكن الأبحاث الحديثة أثبتت خطأ هذه النظرية.. فالإسلام تأثر بالقرآن العربي، وتأثيره العقلي على الثقافة الإسلامية أكثر من تأثره بالمؤثرات الاجتماعية المباشرة الموجودة حوله في البيئة العربية وفي أنصاره من العرب".

ونلاحظ مع ركاكة مفهومات جيب أنه يخلط بين الإسلام والمسلمين، فالإسلام الذي هو من الله لا يتأثر بشيء أو بأحد، ولكن المسلمين عندما ظهرت فيهم، وبلسانهم، وعلى رجل منهم، دعوة القرآن

تأثروا بداهة بالقرآن، لأنه تكلم إليهم عن الذي يعرفونه، وعن إبراهيم وإسماعيل اللذين يدينون بدينهما، وعن بيت الله الذي يعيشون من حوله، ويعظمونه ويحرمونه، وينسكون ويصلون فيه، ويهرعون إليه للحج من كل فج عميق.. ثم كان كلامه إليهم عنهم، وبلغتهم.

لقد تكلم القرآن عن شعب بدوي يرعى الأنعام، ويعمل بالتجارة. وكانت كلمات القرآن العربية قد عاشت كلها فيهم من قبله، تبحث عن مستقر لمعانيها في شريعة وكتاب، حتى نزل الكتاب، وجاء الرسول، وتكاملت الشريعة.. فما هو العجب في أن تكون هذه الصحراء – في أمر الله وحكمته الظاهرة غير الخفية، قد أعدت من أجل كل العالم – هذا الشعب فوق صحرائه التي تتوسط العالم، لتكون العربية لغته، والإسلام دينه، والحضارة العربية الإسلامية عطاؤه.. هذا العطاء الذي رفع من قدر أوروبا، وهو ينقلها بأسباب العلم ومنهجه من مستوى دون البشر إلى مستوى البشر .. ولو أمام أنفسهم.. ونتيجة لهذا بالضرورة كانت قدرة هاملتون جيب وأمثاله على الطعن في الإسلام ونبي المسلمين.. في هذا العصر..!

ثم نستعرض بإيجاز معاني بعض الكلمات التي تتفرد بها اللغة العربية في أدائها للمعنى الديني الكامل، على أساس أنه الدين الحق، والتي يتأكد بها، وبتكاملها في التعبير عن حقائق هذا الدين أن اللغة العربية إلى جانب أنها لغة الأدب الرفيع، والحكمة البالغة، وأنها اللغة الجميلة، واللغة الشاعرة، واللغة الموزونة.. هي اللغة الدينية قبل وبعد كل شيء..

تحدثنا من قبل عن كلمة " الله " التي لخصت في أبلغ البيان المنزه عن التشبيه والتجسيد هذه الإشارة إلى الله، وبالإشارة إليه "هو" .. الغائب عن الحس، الحاضر بالمشيئة والفعل.. وهكذا أصبح اسم الله في إبهام

اللهجة العبرية "يا هو" وهو نداء للغائب الحاضر.. بينما ظهر في كمال العربية الفصحى تعريفاً وتعظيماً لهاء الغائب يغني بالإشارة في أل التعريف وأل التعظيم مع الهاء.. عن النداء، فكان اسمه العظيم "الله". .

وننتقل إلى كلمة "الدين" وهي تختص بعدد من المعاني المحددة في عقيدة التوحيد، وليس للتجسيد، لم تتسع لها لغة أخرى غير العربية..

وقبل أن نشير إلى هذه المعاني نذكر الكلمة المقابلة لها في أشهر اللغات الأوروبية وهي كلمة religion، وتحاول بتقصي جذورها أن نحدد معناها المقابل لكلمة الدين العربية.

هذه الكلمة religion التي تدل على " الدين" في الإنجليزية والفرنسية متطورة من أصلها في اللاتينية وهو كلمة religio المنحوتة من المصدر religare وهذا المصدر يتكون كما هو ظاهر من مقطعين (1) re ومعناه "الإيثار" أو "التفضيل" و (2) ligare ومعناه "توثيق الارتباط".. وبذلك يكون المعنى المستفاد من الكلمة بتوحيد معنى المقطعين هو "إيثار توثيق الارتباط بالمعبود"..

وعلى هذا فإن كلمة religion لم تكن تعني، ولا تزال لا تعني إلا عبادة البشر، أو الأرواح، في معتقدات الأوربيين الدينية على اختلاف مذاهبهم من أيام الوثنية اليونانية والرومانية إلى عصر التثليث الحديث الذي انشقت تحته أوروبا بين الإلحاد الشيوعي، والانسلاخ العقلاني الغربي، وعبادة المسيح داخل الكنائس بالتجسيد المسيحي..

إن هذه الكلمة التي تعني الدين باللغات الأوروبية لا تدل على أكثر من "إيثار الارتباط بالمعبود" البشري، أو المتجسد في صورة البشر للدلالة على تأليه أحد عناصر الطبيعة، مثل تأليه زيوسzeus ومعناه "النهار"

باليونانية، والذي أصبح عند الفرنسيين Dieu، أو مثل تاليه God وهو عند الإنجليز إله قديم متجسد عن روح الغابات في صورة بشرية متميزة مثل آلهة اليونان.. فهو كائن أعلى بصفة عامة، ثم أصبح المعبود في المسيحية بوجه خاص..

وهكذا أصبح معنى الدين عند هذه الشعوب الأوروبية المتخلفة دينيًا إلى اليوم لا يتجاوز في فهمها وهي تنقل بدياناتها من الوثنية إلى المسيحية ثم من المسيحية إلى ما هو أقرب إلى الوثنية – يساوي مفهوم العبادة بالطقوس والقرابين لكائن أعلى كما يدل معنى الدين في اللاتينية وهو "الارتباط بالمعبود المتجسد في صورة بشرية" كما في تمثال أو أيقونة، وذلك من طريق الطقوس التي يتولاها الكهنة، والقرابين التي يحددون مقاديرها ومناسباتها وفوائدها، والتي لا تتجاوز أهدافها شفاء المرضى، وطلب الثراء، وإنقاذ المعرضين للهلاك، وتحقيق أماني العاشقين المهجورين !!

أما كلمة الدين في لغة العرب، وكما تم لها الوضوح التطبيقي في بيان القرآن الكريم، فهي في مجالها الواسع، والمستقر على الصدق والعلم، والهادف إلى بناء الفرد المؤمن الذي يبني المجتمع المؤمن تخرج من المعنى المجرد إلى المعنى الاصطلاحي من الفعل "دان – يدين" بمعنى "خضع – يخضع" من هذا المعنى الدال على مطلق الخضوع تظهر كلمة الدين بمفهومها العام الذي تعبر به عن جميع دلالاتها الاصطلاحية في طبيعة هذه اللغة العربية الدينية .. وذلك على الوجه الآتي من المعاني المتكاملة في مفهوم الدين الحق:

أولاً: جاءت كلمة الدين بمعناها الأساسي وهو الخضوع الخالص لله الواحد الحق، والعبودية التامة له بمفهوم الإيمان الصادق به، وبرسله، وشرائعه، قلبًا وقولاً وعملاً.. وفي هذا المعنى الأساسي يقول الله "ألا لله

الدين الخالص" أي العبودية الخاصة من أي شرك، والتي تتأسس بها عزة المؤمن بالله على غير الله، فلا طاعة منه إلا لله، ولا طاعة منه لأحد من البشر إلا في طاعة الله. ويقول الله أيضاً "قل الله أعبد مخلصًا له ديني" أي متمًا له بغير شبهة أو غفلة أو تردد خضوعي وعبوديتي، وحبي له فوق كل شيء وطاعتي..

ثانياً: ولما كان هذا الخضوع الخالص والمخلص إلى الله لا يستقيم الجدية، والصدق فيه، في حياة الفرد والمجتمع بغير "نظام اجتماعي" يقوم على نهج واضح، وبغير منهج واضح تحدده شريعة تامة، تنظم العبادة والطاعة، والتنافس فيها إلى الله، في حياة كل يوم، وعمل كل يوم، وفي علاقة المؤمن في ضوء هذا الإيمان بنفسه مع الله، وبنفسه مع الآخرين.. فقد جاء من معاني الدين بعد معني "الخضوع الخالص" معنى مكمل ومنبثق من هذا الخضوع هو "الشريعة" أي المنهج والحدود والنظام الذي يستوعب حياة المؤمن، ويقدم له ضوابط حياته كلها، وحوافزها، إلى أهدافها القريبة والبعيدة.. وفي هذا المعنى يقول الله "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك" ويقول أيضًا "أم لهم شركاء رعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله".

ثالثًا: ثم يعرض القرآن الكريم معنى الدين بعد ذلك على أنه في سياق معانيه المتكاملة — هو "يوم الحساب" على هذه الأعمال التي يقوم بها الناس وفق منهج الدين وشريعته وحدوده وأحكامه، أو بخلاف هذا المنهج.. فالدين هو يوم الحساب للناس جميعًا على أعمالهم مؤمنين وغير مؤمنين.. وهو يوم لا يتم إيمان المؤمن بالله إلا بأن يؤمن به، وبالبعث، حيث يستوثق البشر أنهم لم يخلقوا سدى، وحيث يجري الحساب باتجاه الحياة الأخرى الخالدة على كل عمل، وإن كان مثقال ذرة من خير أو شر.. وفي هذا

المعنى يقول الله "مالك يوم اليدن" .. ويقول " إنما توعدون لصادق، وإن الدين لواقع" أي إن البعث حق.. والحساب حق..

رابعًا: كذلك تأتي كلمة الدين شاملة لهذه المعاني كلها بمعنى أن الدين بإخلاص العبودية لله، والتزام الطاعة له بشريعته، والإيمان بيوم البعث والحساب إنما هو الإسلام، وذلك حيث يقول تعالى "إن الدين عند الله الإسلام"..

خامسًا: ولما كان من سنن الله أن الله لم يخلق الناس في تدافعهم إليه، أو صراعهم بعيداً عنه على دين واحد، وأمة واحدة، فهم كما يقول "ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم" فقد كان كمال معاني كلمة الدين في كمال القرآن أن تدل أيضًا في أحد معانيها على انه "عقيدة ما.. تفسر الحياة والإنسان والوجود لمن يعتقدونها" سواء أكانت الدين الحق الذي يفسر الحياة والإنسان بأنهما خلق الله، أو كانت دينًا أسطوريًا يتعبد للبشر أو عناصر الطبيعة، أو كانت مذهبًا فلسفيًا ماديًا أو مثاليًا يخضع له بعض الناس، ويخرون على ما فيه من الشطط والوهم صمًا وعميانًا.. وفي هذا المعنى لكلمة "دين " المطلقة بغير تعريف يقول الله "لكم دينكم ولي دين" وهما بالتأكيد دينان مختلفان .. وكما يقول في قصة يوسف "ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك" أي في عقيدة الملك الوثنية التي هي دينه ، الموجب الخضوع له من دون الله.. وهي إن لم تكن دينًا حقًا فهي دين بمعنى "تفسير ما للحياة والإنسان والوجود"..

ونلحق بكلمة الدين في جلاء اللغة العربية لمعانيها في ضوء الوحدانية الخالصة من الخرافة والقهر كلمة "الإيمان" .. فالإيمان الذي هو في معناه العام "التصديق" حمل في مفهوم اللغة العربية ما يشير في طابع الفعل الثلاثي

الذي يرجع إليه وهو "آمن" ما يشير إلى التصديق بالدين الحق.. الدين الذي نزلت كتبه وشرائعه من عند الله على أرض العرب.

فالإيمان يحمل من "الأمانة" عنصر الاختيار للحق دون الباطل، ولله دون الشركاء، أو الآلهة المجسدة.. نعم إذا كانت الأمانة في قول الله "إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان" إنما هي إرادته واختياره لأحد الطريقين: الهدى أو الضلال.. فإن الإيمان في اللغة العربية لا يعني إلا الإرادة المبصرة في اختيار الهدى إلى الله في مقابل الإرادة الكافة، أو المحجوبة بالأهواء، في اختيارها للضلال والإلحاد..

هذا الإيمان الذي يحمل به المؤمن أمانة الله يحمل أيضاً بهذه الأمانة جزاء هذه الأمانة، وهو الأمن الخالص.. الأمن الكامل.. الأمن الذي يتحقق به فوق كل عقبه، وأمام أية قوة، سلام النفس مع الله .. سلامها الذي لا يتزعزع في قلبها .. وفي عقلها .. وفي بصيرتها. وفي قيام كلمة "الإيمان" في اللغة العربية بدلالة الأمن بعد الأمانة في تركيب حروفها، وبنية مادتها، إشارة قوية إلى ما تميزت به هذه اللغة العلمية بالدين، والدينية بالعلم، من ربطها بين القلب والعقل في معنى العقل، كما جاء في قوله تعالى "أو لم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها" .. فكيف يعقل الإنسان بقلبه، بينما عقله في رأسه، وقلبه ليس إلا مضخة لدمه في جسده؟!

هنا نفسر حقيقة الإيمان المرتبطة بالأمانة والصدق والأمن هذا الربط بين العقل والقلب في اللغة العربية، وفي لغة القرآن، وبين قيام الإيمان في اللغة العربية في بنائها البياني والعلمي على امتلاك "الصدق" في رؤية الوجود، والتفاعل معه، هذا الصدق الذي اتجه به الإيمان والتصديق إلى الله، تعبيرًا عن الصدق العقلي وعن صحة عمل الحواس، وهو الصدق أي

لا يمكن الاستدلال على وقوعه بسؤال العقل، أو الفكر، أو السمع والبصر.. ولكن يمكن الاستدلال عليه، والتحقق منه، بسؤال القلب.. الذي هو في كيان كل إنسان "جهاز " الكشف عن الصدق والكذب بمقياس حسي لا يشك فيه أحد وهو الأمن أو الخوف.. فمع الصدق يكون الأمن، ومع الأمن يدق القلب دقًا طبيعيًا منتظمًا أمنًا مهما كان التخويف أو التهديد له.. كما دق قلب إبراهيم دقًا منتظمًا وهو يجادل الملك الجبار عن إيمانه حتى قهره بالحجة، وبهته بالدليل.. وكذلك فمع الكذب الخوف.. ومع الخوف يتسارع النبض، ويضطرب الفكر، ويزيغ البصر، وتقع الهزيمة..

هكذا أقامت اللغة العربية الصادقة بناء كلمة الإيمان على الرؤية الشاملة لحركة الصدق ودلالاتها الحسبة بالأمن في حياة الإنسان، هذه الرؤية التي كشفت عن هذه العلاقة العضوية بين عملية العقل العاقل الذي يحمل أمانة لاختيار للهدى والحق، وبين انتظام نبض القلب الدال على الأمن، عبيرًا حسيًا يلمس بالأصابع، ويقاس بالأجهزة الحديثة عما بلغ من صدق العقل بالإيمان الحق.. وهكذا تعلمن اللغة العربية اليوم بتفسير ما لم يسبق إليه مفسرو عصور الانحلال أن الله قد خلق تحت الصدر هذا الجهاز الذي يعلن لصاحبه عن وجهة عقله بين دلالتي الإيمان والكفر.. إنه يعلنه له ليسمعه أمنًا وسكينة.. أو خفًا وقلقًا.. وفي هذا المعنى يقول الله عن إبراهيم "إذا جاء ربه بقلب سليم" أي سليم من الخوف لأنه أمن إلى اختيار عقله للهدى والإيمان..

ويقول الله وهو يكشف عن هذه العلاقة بين الإيمان والأمن "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون" أي إن الأمن هو لأهل الإيمان الصادق الذي لا تشوبه إلتواءات التفكير، أو اضطرابات

العقل والنفس بما ينتهي إلى إظهار الإيمان وإبطان للكفر، وهو ما يسمى بالنفاق..

هذا هو الإيمان الدال في مفهوم الكلمة العربية القرآنية على قيام الحياة العربية الأولى على الصدق. وهي دلالة تنبهنا إلى سبب فقدان الأمن في حياة المجتمعات الوثنية، واستفحال ذلك في الحياة المعاصرة التي تقودها الحضارة الأوربية الحديثة تحت أعلام الإلحاد واللادينية في اتجاه التخيل والروايات المختلفة، وأكاذيب المسرح والسينما.. ووراءها مخططات التوسع والعدوان، مع تجارة الترف والموبقات وعقارات الهلوسة والخمر..

إن الإيمان بهذا المعنى الذي تكشف عنه اللغة العربية الدينية يفسر لنا جميع هذه الآيات التي جرت على أيدي المؤمنين الأوائل، والتي كانت ولا تزال تبدو لمن هم دونهم إيمانًا كأنها من الخوارق أو الخيالات. كما ينبهنا مرة أخرى إلى أن الإيمان الكامل هو الذي ينبع من الصدق الكامل وأنه بذلك يمنح المؤمن هذا الأمن الكامل الذي يجعله على كل ساحات جهاده أثبت قدمًا، وأرهف سمعًا، وأحد بصرًا، وأسرع إلى أهدافه الإنسانية المشروعة تقدمًا وبلاغًا..

وإذا كنا في هذا الحيز لا نملك متابعة الكلام عن الكثير من الكلمات العربية الحية التي تحمل بالصدق والإيمان في بناء اللغة العربية الدينية ما لا تحمله الكلمات المقابلة لها في اللغات الأخرى، وهي كلمات كثيرة لا تقع تحت حصر فإننا نكتفي بالإشارة إلى برهان قاطع حول هذه الكلمات التي دخلت بصدقها وثروتها دخول الفاتحين إلى لغات الشعوب الآرية عند دخولها إلى الإسلام مثل إيران وتركيا.. في لغات هذه الشعوب، ورغم تعصبها الشديد لقوميتها، وتهاونها في الإسلام الذي فهمته في ضوء مذاهبها القديمة – لا تزال هذه اللغات شديدة التشبث بما نقلته من اللغة

العربية، من تلك الكلمات المتصلة بالاعتقاد والدين والأخلاق مما لم يكن لمثله وجود سابق في الفارسية أو التركية..! نعم لا تزال الكلمات العربية، حتى وإن كان الإيرانيون والأتراك ينطقونها إلى اليوم برطانة أعجمية، تحمل الدلالة على فضل الله بهذه اللغة التي لا قدرة حتى لأعدائها إلا على تقديسها واحترامها.. ولم يكن لهذه اللغة العربية الحية، الكريمة، من سلطان في كل جهادها داخل وطنها وخارجه إلا الصدق.. الصدق البياني.. والصدق العلمي.. والصدق الديني.. في الدلالة الدائمة على الله.

المساواة في اللغة:

واللغة العربية في صدقها الديني لا تعبر فقط عن هذا الصدق في معاني وبنية الكلمات الأساسية بناء صرح الوحدانية والإيمان، وإنما تقدم بكل حركتها وإشاراتها دليل هذا الصدق في ضبطها للعلاقات بين الناطقين بها على أساس الوضوح والمساواة الإنسانية التي أكدتها الشريعة الإسلامية بعد أن كانت هذه المساواة إحدى حقائق الدين والإيمان في الجزيرة العربية منذ إبراهيم وإسماعيل..

إن اللغة العربية بالقياس إلى اللغات الآرية والأوربية تحدد الضمائر تحديدًا كاملاً. إنها لا تحمل هذا الطابع الطبقي الظاهر في اللغات الأوربية التي تفرض هذا التعظيم بإهمال استعمال كلمة "أنت" وتعميم استعمال كلمة "أنتم" للمخاطب الفرد، كما في الفرنسية "vous" وهي تفرضه أشد من ذلك في اللغة الإنجليزية التي تجعل للخطاب كلمة واحدة تعني " أنتم " سواء أكان الخطاب للمفرد أو للمثنى أو الجمع فالكل "أنتم" أو "you" للتعظيم الطبقي حتى وإن دخل العامة في جملته .. فلا بأس حتى لا يحدث أبدًا أن يقال للسيد العظيم، حامل اللقب الوهمي "أنت" .. فيتساوى – ويا للعار– مع الدهماء !!

ففي اللغة العربية لا يقال قط للمفرد حتى وإن كان نبيًا "أنتم"، فاللغة العربية تعي – وهي تحكي سرائر الناطقين بها – أن التمييز للفرد لا يكون بالأشكال والصيغ بل بالأعمال والمآثر، وأن سيادة الفرد في قومه أو مجتمعه لا تكون بالقهر على احترامه، وإنما تكون بحمدهم له على فضله وخلائقه وإيثاره لغيره على نفسه .. ومن الاحترام ينبع الحب، وتقوي الأواصر المتساوية..

وهكذا لم يكن يخطر على بال الناطقين الأوائل باللغة العربية أن رجلاً فردًا أو قلة من الأفراد يقهرون شعبًا على أن يكذب ضد حواسه، وأن يسخر من الواقع، وهو يقول للواحد "أنتم" لأن هذه الطبقة قهرت الجميع على خشيتها، وجعلت من طواغيت الملوك والأمراء ومن سموا أنفسهم بالنبلاء والأشراف جنسًا قائمًا بذاته، قاهرًا للشعب الذي يسوده بالخوف ووسائل "الصراع" !. وأن تخضع أيضًا لغة هذا الشعب لتجسيد هذا القهر الطبقي في صياغة الضمائر فيكون ضمير المخاطب الوحيد هو "أنتم"!!

كذلك لم يكن يخطر ببال الناطقين الأوائل باللغة العربية أن تمتهن هذه اللغة الصادقة الأمنية الشريفة، لغة القرآن الكريم، على لسان من تكلموا بها من الفرس والترك، وفي إبان فوضى الزندقة التي أشاعتها الفرق الباطنية الشعوبية، والمظالم التي فرضتها العنجهية الابتزازية التركية – فيظهر فيها من هذه الأكاذيب الطبقية القهرية كلمات "حضرتكم" للفرد .وعزتكم .. وسعادتكم .. وفخامتكم .. أيضًا بحسب درجات الهرم البشري !!

لقد كان خطاب الفرد بلسان الجمع " خوفًا وذلاً: أمرًا تنزهت عنه لغة الدين الحق، الذي يتساوى بلسانها البشر إنسانيًا أمام الله، بنفس الدقة والوضوح الذي يتساوون به من حيث المسافة التي تفصل بينهم. وهم المخلقون – وبين الله الذي هو الخالق، فلا يكون تمايز بعد ذلك إلا بالعمل الصالح، وهو تمايز لا يعطي امتيازًا طبقيًا للمحسن، وإنما يعطيه مع حق عمله حمدًا وإيثارًا لصالح الآخرين، وبالتساوي الإنساني الكامل مع الآخرين، كما كان الأنبياء وصحابتهم بين أقوامهم، يتجملون بأعمالهم، ويتنزهون عن ألقاب الأمم المتظالمة بطبقاتها ولغاتها من حولهم..

لقد بقى هذا الدليل الدافع على أن اللغة العربية هي لغة "المجتمع الفاضل" بمقياس السواسية بين البشر مجهولاً في تفاسير علم اللغة العربية، وهو التفسير الأجدر بالظهور والوضوح في هذا العصر الذي تتصدى فيه المذاهب الاجتماعية على حساب الإسلام للادعاء "الصوري" أو "الخيالي" بالعدل والمساواة.. بينما نبتت من بذور كلمات "أنتم" بدل "أنت"، "نحن" بدل "أنا" في اللغات الأوربية المختلفة، والآرية الموازية لها، شجرة الألقاب الكريهة السامة التي تذبل تحت ظلها المحرق جماهير المحكومين بالمراتب الطبقية، والماسونية، والحزبية، في جميع المذاهب والأيديولوجيات الأوربية السائدة في عصرنا الحديث..

من البداية، ومنذ اختار إبراهيم أن يسكن بولده في جزيرة العرب "بواد غير ذي زرع" حيث لا ملوك ولا كهنة، أي لا قهر ولا أكاذيب، كانت الألقاب مرفوضة، ومستنكرة، بين العرب وبخاصة من أبناء إسماعيل الذين لم يتأثروا بالفرس واليهود في اليمن والعراق، أو اليونان والرومان في الشام ومصر.

لم تكن هناك من صور التكريم إلا الكنية وهو أن ينادي الرجل أو المرأة باسم ذي دلالة عامة على كل منهما، وذلك كنسبة الرجل والمرأة إلى الأب مثل "أبو الخطاب" لعمر بن الخطاب، و"أبو الوليد" لخالد بن الوليد. أو بإطلاق صفة حسنة ملازمة للموصوف مثل "الفاروق" لعمر و "سيف الله" لخالد، وفي النساء مثل "أم المؤمنين" لعائشة أو "أم الكملة" وهي سيدة منجبة في الجاهلية لأربعة أبناء بلغوا كمال الفضل بأخلاقهم وعملهم وأما "الألقاب" التي حملها الملوك والكهنة والجبابرة والغزاة في الحضارات الآرية القديمة والحديثة، وفي البلاد العربية التي تأثرت بغزو هذه الحضارات حول الجزيرة، فقد أخذت في اللغة العربية، وفي القرآن الكريم، معنى عكسيًا تمامًا، إذا كانت هي الأسماء التي تصاغ للسخرية من بعض الأفراد بسبب عيب خلقي. أو حادث يثير السخرية بهم، مثل "الأعشى" الشاعر الجاهلي الذي كان لا يبصر بالليل، ومثل "تأبط شرا" ومثل "أبو جهل" و"أبو لهب" كما ورد اسم الأخير في القرآن الكريم..

فاللقب في اللغة العربية التي تبني السواسية بين الأفراد لا يعني إلا "النبز" والنبز هو اللمز باللقب الساخر.. وفي القرآن الكريم بنهي الله المؤمنين عن التنابز بالألقاب، أي وضع الأسماء الساخرة التي تلصق بأصحابها وهو في هذا يقول "ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب".. على إن هذا النهي قاصر على المؤمنين فيما بينهم، ومن الجائز أن يضع المؤمنون ألقابًا لأعدائهم وأعداء الله كما وضعوا لقب "أبو جهل" لعمرو بن هشام بن المغيرة الذي كان يكنى قبل الإسلام "أبو الحكم" فلما عادى النبي والإسلام لقبه المؤمنون بأبي جهل.. فلقد كان الكفر ولا يزال أعظم الجهل.

ولم تكن إذن في طبيعة العرب ولا في طابع لغتهم هذه النزعة إلى الإبهام والتخويف لكسر فطرة الله في سواسية البشر الإنسانية، فرفضوا "عملة" الألقاب التي كانت "تصكها" بالسلطة، وتمنحها في المراتب الطبقية لعملائها وخدمها، وتحرم منها المقصودين بالضغط الطبقي، والابتزاز الاجتماعي، وسخرة العمل من المستضعفين من الفلاحين والحرفيين والعمال. واحتفظ العرب بالصفات والنعوت الحسنة لأصحابها بحسب مجال تفوقهم، وهي صفات يطلقها الناس باختيارهم، وتصبح هذه الأسماء مشهورة بقابليتهم لها، وتصديقهم لطبيعتها بغير غواية أو قهر.

وأما مراتب العمل فلم تتخذ شكلاً طبقيًا، واحتفظت باسم العمل مجردًا من التميز أو المزايا، بل مسخرًا للخدمة العامة والإيثار، ومحكومًا بحق النقد واللوم والعزل من الناس المتساوين، وذلك مثل أعمال النيابة عن الناس بإجراء الأحكام مثل أمير المؤمنين، وأمير الجند، والقاضي، والفقيه، والكاتب، والمعلم..الخ، فهي ليست صكوكًا لعملة الألقاب ومراتبها، وإنما هي صفات للعمل لا تعطي صاحبها إلا حق الحمد على عمله، ومسئولية الإحسان فيه أمام من يعمل ابتغاء الله في مصلحتهم، ليحمدوه أو يقوموه..

وهكذا كان المجتمع العربي بوحي عقيدته، وطبيعة لغته، قبل وبعد الإسلام، يعيش في السوق، والمنتدى، كما في المسجد والدرس، وساحة الجهاد والقتال، صفوفًا متجانسة، متساوية، ليس فيها فئة كبيرة وأخرى صغيرة، تمامًا كما قام برسم حروف كتابته التي علمها للبشر على طبيعة لغته وعقيدته، فليس فيها – كما انعكست طبقية أوروبا على كتابتها - حروف كبيرة Capital، وحروف أخرى صغيرة Small

فالجميع واحد لا يميزهم إلا جهد العمل، وصدق النية فيه، وتوجيه الإيمان له..

الرجال والنساء:

وفي مجال الكلام عن المساواة في تركيب اللغة العربية لا يمكن أن نغفل دلالات هذه اللغة في علم أصواتها واستعمالاتها على هذه المساواة بين الرجال والنساء بوحدة الأصل الإنساني، والتكامل الوظيفي.. مساواة تجمعهما في حق الحياة، والعلم، والعمل، والتصرف في النفس والمال، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما خلاصة الحقوق السياسية والاجتماعية، التي لم تنلها أكثر نساء العالم إلى اليوم..

إن الرجل العربي كان ولا يزال بلغة دينه ومعروفه ولسانه أن الرجل والمرأة شطران يتساويان عند اتحادهما في صنع إنسان كامل، وأن هذا الاتحاد لا يحقق مفهوم المساواة عند بناء الأسرة إلا على أساسه المستقر في بناء المجتمع بالإيمان والطهر والصدق، وبالتسابق بالحق لحضانة وتنمية الذرية الصالحة في مناخ هذا الإيمان..

إن الرجل العربي لذلك لم يبتذل امرأته، بل تباري في تكريمها وحصانتها، واعتبرها بالتكريم برهان كرامته، وشعار إبائه، وحافز سعيه وطموحه، وقد عبرت لغته عن كل هذه المعاني في اشتقاق اسم "النساء" من صميم المعنى الإنساني في كلمة "الإنس " أي البشر، وليس من "النسيان" .. فمن "الأنس" بضم الألف والذي معناه وقوع الألفة بالحياة الاجتماعية كما يتميز النوع البشري أخذ "النساء" اسمهن الدال عليهن، كما أخذ اسم النوع دلالته من هذا الأنس الاجتماعي فقيل "الأنس" و "الإنسان"..

فاللغة العربية أعطت النساء طابع الإنسان المميز وهو "الأنسية" ، ومن ذلك ما ردده الشعر العربي القديم من تقديم صفة "الإيناس" بالحديث، والأنسية في الخلق، على كل صفة أخرى من صفات جمال المرأة.. فمن ذلك ما يقول امرؤ القيس يصف دار من يحب:

دار لآنسة غضيض طرفها طوع العناق لذيذة المتبسم

ويقول آخر:

بيضاء آنسة الحديث كأنها قمر توسط جنح ليل مبرد

ومن هذه الأنسية والإيناس أصبح النساء الآنسات" سكنًا" لأزواجهن، تماسكت بهن في المجتمع أواصر "الإنسانية" في المودة والرحمة ومن ذلك قوله تعالى **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها﴾**...

هذا بينما حمل الرجل اسمهم في اللغة العربية من معنى مساواتهم للمرأة بالحركة والسعي في الأرض، وذلك حتى يبقى اختصاص المرأة الأول هو شرف "الأمومة" وضبط إيقاع الأسرة، مع بعض الأعمال عند الضرورة، وهكذا كان الرجل والراجل ساعيًا على قدميه من أجل الأسرة، ومع المجتمع، حاملاً مع من سكن إليها أمانة الماضي إلى أمل المستقبل..

هذا الإنسان العربي عامل امرأته بالتساوي معه، فهي حرة مثله، وهي بهذه الحرية كما يفهمها حرة – لا في أنها تملك نفسها فقط، وإنما في أخلاقها، وحياتها، وبعدها عن العيب، واللغو، والصغار، واعتزازها بخصائصها النفسية والأخلاقية عن أن تنزل بها في أي موقف، وبخاصة عندما تختار الرجل الذي تتزوجه، وتلد أولادها منه ليكونوا مثلها ومثله

أحـرارًا بمفهـوم يتجـاوز حريـة الإرادة، إلى الحريـة الأخلاقيـة، أي بمعنـى ضبط الإرادة الحرة عن كل ما يشين من الابتذال، أو الأثرة، أو اللغو، أو هدم الأسرة والعشيرة والجماعة..

مـن هـذه الحريـة رغبت المـرأة العربيـة دون تسلط مـن الرجـل في أن تحجب عن غير المحارم محاسنها، وأن تسبغ وتدني من ثوبها، وان تغض مـن طرفها وصوتها حتى لا تفتن أحدًا، ولا تفتتن بأحد، في مجتمع ينظر إلى كل شيء بالجد والوضوح، وليس بسن ضوابطه الأخلاقية والطهرية مجال لشيوع الجنس، وابتذال الأجسام، وخيانة الأزواج، وضياع الأنساب..!

اعتبرت المرأة العربية أن الحجاب من سمات حريتها الأخلاقية، وصفة تعني الالتزام بالطهر حتى من فتنة النظرة العابرة. وهي ترى أنها بهذه الحصانة تميز نفسها بين الحرات عن "الإماء" اللائي قضى عليهن تظالم البشر بالبيع في أسواق الرقيق، مجلوبات من ضحايا "الصراع الطاغي" على أرض الروم والفرس، ومنقولات إلى الأرض العربية في بضاعة التجار من اليهود الذين كانوا في عملهم لتخريب الجزيرة قبيل الدعوة الإسلامية يبيعون للعرب المال بالربا، والإماء للخدمة، والقيان للمتعة، والخمر للفتنة، والأسلحة للحرب التي لا تكاد تتوقف رحاها بينهم تحت تأثير هذه العوامل كلها من الربا والقيان والخمر والأسلحة في بضاعة وخطط اليهود لتعويق صحوة العرب المرتقبة..

كانت المرأة العربية تحتجب باختيارها، وترى الحجاب زينتها، ماعدا ساعات المواجهة بالحرب التي كان يشهدها الرجال والنساء معًا بالضرورة ففي معترك القتال وهوله تضع المخاطر حجابًا على كل الوجوه، وتشارك المرأة بكل جهدها في الحرب. كذلك يحل سفور الوجه للمرأة عندما يشتد حزنها على فقيد من أهلها أو عشيرتها..

تقول هند بن النعمان وهي تصف صاحبتها صفية الشيبانية وقد سفرت في الحرب بين العرب والروم والتي انهزم فيها الفرس في موقعة ذي قار، وكان سفورها لتحرض فرسان قومها على العدو:

المجد والشرف الرفيع الأرفع ... لصفية في قومها يتوقع
ذات الحجاب لغير يوم كريهة ... ولدى القتال يحل عنها البرقع

وفي فقدان الأعزاء يقول الربيع بن الزياد في وصف حزن النساء وهن يبكين سافرات بعد مقتل مالك بن زهير:

قد كن يخبأن الوجوه تسترًا ... فاليوم حين برزن للنظار
يضربن حر وجوهن على فتى ... عف الشمائل طيب الأخبار

هل هذه المرأة الحرة، والمطهرة، والصادقة، والتي لم تكن قوامة الرجل عليها في الحياة العربية الأولى وفي الإسلام إلا في حدود الدين الذي يحكمها، والطهر الذي يصون في الابتذال حياءهما.. هل هذه المرأة العربية وهي نصف الشعب ونصف المجتمع لها "دور" في حياتها الواضحة يصنع "عقدة" لا تجد الحل إلا في القصة الخيالية أو المسرح؟!

هل هذه المرأة الحرة، المتساوية مع الرجل، بالمشاركة، والتكامل، والتي هي وهو متساويان مع الآخرين جميعًا في حقوق الإنسان التي ملكوها بالفعل لا بالخيال كما تتساوى حروف كتابتهم العربية، في لغتهم العربية، فليس فيها حروف كبيرة وأخرى صغيرة.. هل هذه المرأة والرجل في مجتمعها الفاضل.. مجتمع السواسية .. مجتمع الأخوة، بغير طبقات، ولا ألقاب، ولا كهانات، ولا مظالم، ولا أكاذيب – يمكن أن ينزلا عن مكانتهما الإنسانية، ومآثرهما العملية، ولغتهما الدينية البيانية، ليقبلا المسخ.. وليطلبا المسخ لنفسهما داخل فكر متخمر بالصراع،

وتخلقات الخوفوهذيان الطمع، ورطانة العجمة، في رواية خيالية، أو قصة مسرحية، يضحك منها أو يبكي المقهورون، تحت رعاية السلطة الطبقية، التي كانت منذ نشأة هذه الفنون العزائية هي التي ترعاها، وتشجع عليها، وتجزل العطاء لمن يعتقون خمرها، ويحملون وزرها..!!؟

القصص علم:

وأخيرًا نصل في رحلتنا مع اللغة العربية الدينية إلى كلمة القصة، والقصص، لنستكمل تصور واستحضار ووعي هذه الحقائق والخصائص التي تميز الأدب العربي بالديانة واللغة والطابع الاجتماعي السلمي وبالقصص الصادق الذي يحكي الواقع ، ويقدمه للسامع، وللأجيال، حيًا بمشاهده، ومعبرًا عما فيه من طبائع الحياة وسننها، وسمائها وأرضها، وتدافعها وتغيرها، وبدئها وإعادتها، تحت حكم واحد، واتساق متجدد كأنما يشهده الشاهد بنفسه، ويعيش فيه بحسه وخياله وعقله..

وكلمة قصة وقصص أصلها من فعل قص: يقص، بمعنى تتبع الأثر، وبهذا تجرد معنى "القصص" من أعمق جذوره في الفعل العربي، وفي جميع استعمالاته الاصطلاحية من أي تخيل أو تلفيق، أو تصور لما يقع، فالقص الذي هو تتبع للأثر هو "عمل قياسي" كالقياس بالموازين والمكاييل والاجهزة المماثلة، كما أنه في نفس الوقت عمل "تسجيلي" علمي لنتيجة القياس، وهو لا يحتمل في النتيجة أي زيغ عن الحقيقة العملية المجردة، وإلا خرج من معناه وهدفه.

ومن كلمة قص يقص بمعنى تتبع الأثر بأشكاله المتوعة على الأرض لقراءة الأحداث بآثارها، والكشف عن الأخبار المهمة في الأرض بقراءة ما تتركه انطباعات الأقدام وخفاف الإبل وحوافر الخيل، وامتحان

ما يسقط من القافلة، أو كتيبة الحرب، أو آثار ما أكلوا وما شربوا، وما ناموا وما هبوا، مما لم يكن عنه غناء في حياة لا تتوفر فيها الحرية إلا للساهرين على صهوات خيولهم – خرج المعنى الاصطلاحي قص: يقص أي تتبع الصحيح وأعلم عنه ، بنفس الدقة والتحري والأمانة العلمية في قص الآثار على الأرض، أو في السماء لتمسًا للغيث، واستعلامًا عن الأنواء وحركة الرياح.. وفي جلاء هذا المعنى من تتبع الخبر بالصدق والإعلام عنه يقول الله "نحن نقص عليك أحسن القصص" أي أصدق الأخبار عن الأفراد والأمم..

ومن هذا المعنى يأتي :القص" بمعنى القطع قطعًا ماديًا حسيًا مثل القطع بالمقراص، أو قطعًا معنويًا بمفهوم الحكم القاطع، ومنه كلمة "القصة" التي تعني الأمر، ومنه "القصاص" بمعنى تتبع الذنب بالحكم القاطع لأثره، والرادع لصاحبه عنه، وللناس أيضًا بالتحقق من صدق القصص أي التتبع بالعقوبة للمذنب.

ومن القصص بمعنى الأخبار تأتي أيضًا كلمة "القصة" بمعنى الظلامة أو الشكوى يرفعها صاحب الحق إلى الأمير، فيأمر عليها بما يرد إليه الحق، أو يرفع عنه الحيف، وفي العقد الفريد أن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وقع في قصة رجل شكا فقرأ فقال:" قد أمرنا لك بما يقيمك، وليس من مال الله فضل لمسرف".. أي قضي له من مال الله بالكفاية التي لا تتجاوز ماله من الحق في هذا المال.

"القصص" إذن عند العرب لا يعني أكثر من تتبع الصدق الذي يكمل به الأعلام عن خبر صادق، تتجلى به حقيقة نافعة، وسنة من سنن الله سائرة، وعظة وذكرى لمن ألقى السمع، وهي بذلك تدخل مع كونها أدبًا ودينًا في باب علم التاريخ.. وما أعظم هذا في فضل القصص الحق.

وعندما نبحث عن معنى كلمة "قصص" في الشعر العربي قبل الإسلام وبعده لا نجده يدل على معنى غير الذي أوردناه وأشارت إليه معاجم اللغة التي في أيدينا اليوم.

فمن ديوان عبيد بن الأبرص نسمع له يقول في استعمال واضح لكلمة القص:

ولا تتبعن رأي امرئ لم تقصه ولكن برأي المرء ذي اللب تقتدي

أي لا تسمع لرأي رجل لم تتبع أخباره فتتحقق من رجحان عقله، فإن الإتباع والإقتداء يكون لذوي الألباب.. فالقص هنا هو تتبع الدلالات على العقل والخلق.

ويقول زرعة بن عمرو يصف حال امرأة مريضة ناء عليها الدهر:

وأرملة تنوء على يديها من الضراء أو قصص الهزال

وواضح أن قصص الهزال معناه آثاره ودلالاته الدالة بتتبع النظر عليه، كذلك فمن استخدامات الشعراء المسلمين لكلمة "قص" قول عمر بن أبي ربيعة :

فقلت شكا إليّ أخ محب كبعض زماننا لو تعلمينا
وقص ما يلقي بهند فنذكر بعض ما كنا نسينا

وقص ها بمعنى روي أخبار ما يلقى من صاحبته، متبعًا لهذه الأخبار أمرًا بعد أمر..

وإذا كان في ذلك ما يحقق أن القصص في كل ما يدور به في لغة العرب، وفي حياتهم، وفيما أورده القرآن الكريم، هو أخبار صادقة التتبع العلمي للحقائق، حتى وإن يكن في ثوب الأدب والبيان بحيث تكون أمام

من غاب كمن حضر، وعند من سمع كمن رأى – فإننا نضيف ما يؤكد هذا المعنى وهو أن "الخبر" نفسه في لغة العرب، وفي حياتهم، وفي دينهم، لا يمكن إلا أن يكون صادقًا صدق العلم والمعرفة اليقينية..

الخبر في لغة العرب معناه النبأ، والنبأ الصادق في لغتهم علم، والعلم يترادف مع المعرفة في مفهومها عن العلم الأخلاقي.

وبالتقصي عن جذور كلمة "النبأ" نجد أصلها من النبئ ومعناها الطريق الواضح، والمكان المرتفع، والنبأ بسكون الباء هو الارتفاع ومنه النبي أي المخبر عن الله..

وبالتقصي عن جذور كلمة "العلم" تجد أنها من العلم بفتح العين وفتح اللام، ومعناه الجبل كما يدل المثل المشهور عن الرجل المشهور "كأنه علم في رأسه نار" أي هو ظاهر ظهور النار على رأس جبل، وإذن فكلمة العلم تتفق مع كلمة النبأ في الدلالة الجذرية على المكان المرتفع الظاهر.

وهكذا تمامًا تجد معنى كلمة " المعرفة" من " العرف" بضم العين وجمعها " الأعراف" وهي رؤوس الجبال الظاهرة لمن يبصرها من بعد ظهور الحقائق المؤكدة على ساحة الكلام والحديث.

يدل هذا كله في أصول اللغة العربية الراشدة على ان كلمات "النبأ والعلم والمعرفة" تتفق في دلالاتها على كل ما يكون وضوحه في الحس والإدراك "يقينًا" كرؤية الجبال الراسخة.." والقمم الشامخة بالعين المجردة دونما ريب أو ظن.

ولما كان الخبر الصادق نبأ صادقًا، فالخبر الصادق نتيجة لهذا هو علم أيضًا ومعرفة، كما تجري بذلك لغة العرب إلى اليوم. ولما كان "القصص" خبرًا صادقًا يتتبعه القاص بالصدق ليعلم عنه، فقد أصبح حقًا

أن يوصف القصص الصادق الذي هو خبر صادق بأنه نبأ صادق، وعلم موثوق ، ومعرفة لا ريب فيها. .

وإذا عدنا بعد ذلك إلى مفهوم "العلم في القرآن الكريم نجد أنه ثلاثة علوم متكاملة في وحدة أساسها النبأ الصادق، أو الخبر الصادق.

فأولاً : علم الدين، وهو النبأ الصادق عن الله.. يقول الله مخاطبًا رسول الله "ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم" أي من علم الدين ومنه علم الغيب والشرع..

ثانيًا: علم التاريخ ، وهو النبأ الصادق من الله عن السنن التي تحكم الإنسان والأمم في مسار الحياة والتاريخ.. وفي ذلك يقول الله "ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود....." .. ومن هذا النبأ قصص الله الحق عن هذه الأمم.

ثالثًا: علم الأشياء، وهو النبأ الصادق عن المادة والطبيعة وقوانينها.. يقول الله عن العلم بهذا المعنى "يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا......" ويقول من قوانين هذا العالم "وجعلنا من الماء كل شيء حي"..

من كل هذا يستقر لدينا اليوم —كما مستقرًا عند العرب الأوائل من قبل — أن معنى القصص هو تتبع للواقع بالصدق، والبيان عنه بالحق مقدمًا أخباره وأنباءه وعظاته في مجال ضوابطه التي لا يخطئها الحسي العلمي، واليقين الديني، وتأكيد الثبات مع التغير والاستحداث لحقائق الحياة والإيمان..

على العكس من ذلك، وبالرجوع إلى جذور أنواع القصص الأوربية في اليونانية واللاتينية القديمتين نجد أن الجذر الأصل لجميع القصص والحكايات وحتى الأخبار التاريخية المفروض فيها الصدق ترجع إلى

الكلمة اليونانية Hisyotia ومعناه "خرافة" ، فالجذر اللغوي لجميع أنواع القصص وحتى كتابة التاريخ هو جذر واحد أساسه "الخرافة" ومعنى ذلك أنه سواء أكان القصاص ينحو البداية نحوًا خرافيًا مثل هوميروس أو نحوًا عمليًا في قص التاريخ مثل هيرودوت فالأمران عندهما عمل خرافي، كما يثبته واقع ما كتباه إلى اليوم..

وهكذا من كلمة Historia بمعنى الخرافة خرجت كلمة Story بالإنجليزية بمعنى قصة – خرافية بالطبع- وخرجت كلمة History بمعنى تاريخ.. وهو إلى اليوم كما يكتبه الأوربيون سواء على أنفسهم بالمبالغة في تعظيم الشأن، وإخفاء الجرائم، أو عن الشعوب الأخرى مثل العرب بالتلفيق والطعن والطمس.. هو تاريخ خرافة .. هذا بينما اختصر الفرنسيون المشكلة فأخذوا من كلمة Historia كلمتهم Histoire بمعنى التاريخ والقصة الخرافية معًا، وبذلك يثبت تعادلهما في الخرافة والتلفيق..

ومن كلمة Historia التي تدل في اليونانية على نوع من الخرافات المخمرة والمعقدة والتهويليه مما لا يستطيع أن يصاب بمثله العقل العربي – وضع العرب الدلالة في لغتهم على مثل هذه التهاويل والأكذوبات المعقدة بتعريب نفس الكلمة اليونانية وهي كلمة "الأساطير" التي أصبحت في اللغة العربية، وفي القرآن الكريم، دلالة على ما لا يمكن تصديقه لفقدان الصواب والقصد في روايته..

والأساطير هنا كما عربها العرب، ولم يعرفوها، ليست من مادة "سطر وتسطير" فهذه الكلمة "سطر" كلمة عربية أصيلة تعني "التنظيم" ومنها كلمة السيطرة ، ومنها أيضًا والسطر والسطور في نظام الكتابة

التي عرفها العرب بشكلها الذي وصل إلينا بعد تحسينه قبل الإسلام ببضعة قرون على الأقل..

ومن أمثال الجذور لمعاني الخرافة والتلفيق في اللغات الأوربية نجد أن كلمة Fiction ومعناها بالإنجليزية قصة خيالية أو رواية وهمية ترجع أصلها في اللغة اللاتينية القديمة Fingo ومعناها يخترع أو يلفق. وإن كلمة Novel ومعناها رواية مستطرقة ترجع إلى اللاتينية القديمة في كلمة Novum ومعناها النادر والمثير، ثم نجد أخيراً كلمة Play التي تعني التمثيل والتشخيص والعزف.. كما تعني "اللعب" الذي يشير بكل دلالاته في مفهوم الفن المسرحي إلى عبث ولهو اليونان في ليالي العربدة والخمر والانطلاق الجنسي احتفالاً بإلههم الوثني .. إله الخمر والربيع والخصب والعبث ديونيسيوس أوباخوس – الذي زرع لهم مع الكروم- كما زرع لأوروبا معهم – غابة المسرح الشبحية الأسطورية، التي استهوتهم تهاويلها، وأظلمهم ظلامها، طوال عصورهم الأولى المظلمة، والوسطى الأشد ظلامًا، حتى أدركتهم شمس العرب بالإسلام، فخرجوا به يهرعون نحو حياة جديدة يلتمسونها بقدر من الحس العلمي – إن استطاعوا – في عصرهم الحديث...!

الفصل الثالث

الدلالة الحضارية للشعر الجاهلي
في حياة وتاريخ العرب

شباب الأمم:

لم يكن ظهور الإسلام الذي اعتبره العالم الأوروبي حدثًا مفاجئًا- إلا ثمرة انتصار الخصائص الإنسانية والأخلاقية التي أعدت لظهوره في سلوك ومعتقدات وآداب وتراث الأمة العربية التي نهضت به في قلب الجزيرة، في هذه الأمة التي دار محور وجودها حول حركة حياتها الطبيعية الأفقية عبر المساحات الشاسعة في معسكرات ظعنها وإقامتها، ثم باتجاه هذه الإنابة السنوية إلى بيت الله في مكة حيث يصدع دعاؤها من خلال مناسك الحج عموديًا إلى الله، ليبقى ويتحدد أملها بعد وصايا إبراهيم وإسماعيل في رسول يظهر من بينها بكتاب وشريعة إليها..

ولم يكن هذا الدين الحق الذي انبثق به الإسلام، وأشرقت به اللغة العربية على أفق العالم، بكل كمالها ومرونتها وثروتها في القرآن – دينًا بسيطًا يتعلق ظهوره فقط بشخصية النبي القوية الكاملة وسط أخلاط من البدائيين والنهابين والجهلة الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، كما حاولت الشعوبية والمستشرقة أن يختلفوا ويؤكدوا هذه الفرية بكثير من المغالطات والتدليسات – ذلك أن الإسلام بالنظرة الشاملة للتاريخ الديني هو ذروة النضج والكمال لجميع مقومات الدين الحق في جميع رسالات الرسل السابقين، وهي المقومات التي تهيأ لها هذا النضج والإعداد في وطن هذا الدين، وحول مركز القبلة فيه وهو بيت الله، سواء في البشر، أو اللغة، أو التراث، أو حضور الزمان الملائم محليًا وعالميًا لتقبل هذا الانتصار المنتظر للإسلام..

بتوفر هذه المقومات ظهر النبي المصطفى في موعده، وبين قومه الذين دانوا بعد أعوام بدعوته، وآمنوا معه بما جاء به، وآزروه ونصروه وعزروه

ليقوم بهم حول جهاده بالقرآن مجتمع المؤمنين الأول .. المجتمع الكامل التماسك بالإيمان، والصادق العمل بالشريعة، والحر الإرادة بالسواسية، والواضح الطرق إلى العمران والحضارة بالأمانة والعلم، وبالنظرة الإنسانية والسلام..

لقد كان ظهور الإسلام في موعد الترقب لهذه الدعوة الخاتمة للدعوات، وبعد الإعداد الطويل والمتصاعد في معترك حياة الشعوب العدنانية والقحطانية وقبائلها، سلمًا وحربًا، وخصبًا وجدبًا، وتدافعًا بالكلمة، وتنمية للحقيقة، هو إشراقة الرشد والتمام في تاريخ هذه الأمة العربية، وقمة الانتصار والتحقق لهجرة ودعاء وجهاد إبراهيم وإسماعيل فيما وضعاه منذ نحو 2000ق.م مع بذور هذه الدعوة وقواعدها "بواد غير ذي زرع" عند مكة، وحول بيت الله الأول، الذي يسيطر على جميع الطرق الحاكمة والمستقبلة لبوادي الجزيرة وأطرافها وما وراءها، وحيث لا يمكن أن يظهر الملوك والكهنة أو تتخلق الأساطير والخرافة..

لقد كان ظهور الإسلام، وانبثاق رشد اللغة العربية في بيان القرآن الذي أوحاه الله بلسانها، هو لحظة الكمال في نمو هذه الخصائص الإنسانية والدينية التي استوعبتها اللغة العربية في عبابها الزاخر، مرحلة بعد مرحلة، وأمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، وهي تعرض نفسها في تطورها وتدافعها وتسابقها على مدى الزمان الطول من إبراهيم، وقبل إبراهيم، باتجاه هذه الغاية العظمة، والآية الكبرى، بظهور الإسلام، ونزول القرآن، وتحقق مثال الإنسان الكامل، والأسرة في حياة وسلوك النبي محمد الذي يحمل اسمه قبل مولده، ومنذ مولده، وبعد مولده، هذا المعنى الفريد بالحمد في اسم بشر، هو في نفس الوقت رمز المجتمع المنتظر المحمود..

لم يكن هناك انقطاع إذن في هذه المسيرة العربية الطويلة نحو الإسلام في المراحل المتواصلة والمتنامية التي نمت بها اللغة العربية من خلال الواقع وأحداثه الجادة المبينة من فم لفم، ومن عقل لعقل، والتي كان نماؤها وتدفقها هو التعبير الحي والأبقى لنماء واصطفاء الناطقين بها بين أكرم الأصلاب وأطهر الأرحام، ليظهر في نهاية المسيرة، وحول بيت الله، وفي طليعة هذا الحج الأكبر بظهور الدين وإشراق القرآن – جيل النبي المحمود، وفي طليعته هذا النبي المحمد، المصطفى بين أصحابه من أكرم أكرم الأصلاب، وأطهر اطهر الأرحام..

ومنذ ذلك التاريخ، ومع بلوغ الغاية بالإسلام، لم يظهر بين المسلمين الأوائل، ولا فيمن بعدهم حتى العصر الأموي، من لم يحفظ بالفخر تاريخ هذه المراحل الطويلة من كفاح الأمة العربية قبل الإسلام، أو نهى عن ديوان آدابها في شعرها الخالد الذي يعكس بكل فطرة اللسان العربي وشمول نظرته تلك الحياة الحافلة بالمآثر، والمنطلقة حول المعروف، والمذعنة في أموالها ومآثرها بالحقوق لأهل الحقوق، والمؤمنة فيما فوق الغفلات بالله الحق، إلهًا واحدًا خالقًا، عزيزًا عليمًا، يحج إلى بيته، ويضرع إليه، ولا تنعقد اليمين البارة إلا قسمًا باسمه العظيم..

فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يمنع من رواية الشعر إلى ما دعا إلى عصبية، أو نبه إلى ثارات قديمة قبل الإسلام، الأمر الذي كان اليهود في المدينة حريصين عليه لفك الوحدة التي جاء بها الإسلام، وزعزعة الألفة التي ألف بها بالإيمان والقرآن قلوب العرب. بل لقد كان النبي يتمثل بالشعر الحسن، وكان يستمع إليه، ولم يمنع أن يكون له شعراء يردون عنه مثل حسان بن ثابت.

ففي غزوة الخندق تمثل عليه الصلاة والسلام بشعر الحصين بن الحمام المرى في حكمه قوله عن تقدميه الإنسان الحر المؤمن، بينما كان يشارك أصحابه حفر الخندق لتحصين المدينة، وذلك حيث يقول:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد   لنفسي حياة غير أن أتقدما
فليس على الأعقاب تدمى كلومنا   ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ومن الثابت المعروف أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يحسن قول الشعر، وأن النبي لم يحب له أن يهجو قريشًا ويرد على من يهجو النبي من شعرائهم حتى يستبقى إنابة أهل الرأي من قومه، ولكن عليًا رضي الله عنه قال قصيدته بعد يوم بدر يمدح النبي، ويحمد بلاء المسلمين الغضاب للحق، وذلك حيث يقول:

فأمسى رسول الله قد عز نصره   وكان رسول الله أرسل بالعدل

وفي هذا الشعر الذي هجا فيه المشركين لم ينس أن يرثى قتلاهم أيضًا، وهو أعلم بمآثرهم، فقال وهو ينسب إليهم أشرف ما يوصف به الإنسان العربي من الشجاعة والكرم:

ثوى منهم في بئر بدر عصابة   ذوي نجدات في الحروب وفي المحل

فلم يعاتبه النبي في شيء من ذلك وهو الذي يقول عن الشعر "هو ديوان العرب" ويقول "إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحرًا"..

ويكفي أن نذكر هنا أن النبي عليه الصلاة والسلام قد جرى على لسانه رجز من الشعر في مثل قوله يوم أحد:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وقوله وقد دميت أصبعه:

هــل أنــت إلا أصــبع دميــت ... وفي ســبيل الله مــا لقيــت

وحسبنا كذلك أن نذكر أن أبا بكر رضي الله عنه كان أحفظ الناس للأنساب، وأن عمر رضي الله عنه كان يحسن الاستماع إلى الشعر الحسن، وكان يقول في وصاياه " رووا أولادكم ما سار من المثل وحسن من الشعر" وأن المهاجرين والأنصار كانوا في مجلس عثمان بن عفان في المدينة يتذكرون مآثر العرب في أشعارها وآثرها لا في عصبيتها وثاراتها..

ولهذا فقد ظل الشعر الجاهلي – كما يسمى- هو موضع الدراسة الطويلة والعناية البالغة في العصر الإسلامي الأول، من أجل فهم أسرار اللغة العربية، وتوصلا إلى فهم القرآن وتفسيره بالنسبة للشعوب المستعربة التي دخلت في الإسلام.. كما أنه كان وسيبقى بعد القرآن والحديث أفضل ما تدارسه المسلمون لتعزيز فهمهم وتدبرهم للقرآن والحديث، وردًا على مطاعن وتشويهات المستشرقين، الذي اتخذوا من هذا الشعر مجالاً لاختراع النظريات الملتوية، أو المقلوبة ، أو القاصرة حول حياة العرب وظهور الإسلام، تأكيداً لتفوق الغرب اليوناني، وانتصاراً لأوروبا الاستعمارية التي تخشى لأكثر من سبب صحوة العرب بإسلامهم ولغتهم ومواردهم.. ومن أجل ذلك زرعوا الكيان الإسرائيلي على أرض العرب..

لقد كان الشعر الجاهلي إذن هو وثيقة الحياة العربية قبل الإسلام، المتضمنة جميع خصائص العرب اللغوية والتقدمية والدينية، التي كانت ولا تزال هي عناصر شباب الأمة العربية الدائم، والتي بلغت ذروة كمالها وقوة برهانها بظهور الإسلام. .

ولسنا نعتقد صواب الذي فصلوا فصلاً معتمداً - من الشعوبية وأعوانهم — بين مراحل الحياة العربية قبل الإسلام، كما أنبأت بذلك لغة الوحي على لسان إبراهيم، وكما تتبئنا إلى اليوم هذه القوانين التي يتاح اكتشافها يوماً بعد يوم — في حكمة الخالق — من علوم الإنسان التي تجعله في أقرب ما تدل عليه لغته ومعتقداته هو ابن بيئته، والحصيلة الحية لتفاعل قوانينه مع قوانين الطبيعة المحيطة به..

كما أننا لا نعتقد صواب من وصلوا بمفهوم وثني بين أسباب ظهور الوحدانية الخالصة في جزيرة العرب وبين حياتهم المفتوحة على الطبيعة الصحراوية ذات المناظر الموحدة، والمتكررة بالصورة التي رسمها مثل رينان في كتابه " تاريخ اللغات السامية" والتي بلغ بها انحرافه رغم ذكاء نظرته — حدًا يرى فيه — أن اليونان من أجداده الوثنيين كانوا أبعد نظرًا، وأوسع خيالاً في النظر إلى " الإلوهية" ولهذا فإنهم عددوها بتأليه كل ما نظروا إليه، وذهلوا في سذاجتهم أمامه، وهم في ذلك قد تجاوزوا عبادة ظواهر الطبيعة من النهار "زيوس" ومن الزمن "كرونوس" إلى عبادة عناصر الطبيعة نفسها تحت عناوين الحكمة والحب والحرب والجمال والخصب والخمر ونسبوها إلى أسماء الكواكب والشمس، ثم مضوا يضمون إلى موسوعة آلهتهم فلم يتركوا شيئًا من عناصر الطبيعة وأرواحها حتى الأزهار والحشرات والديدان!!

فبمثل هذه الغباوة الهيلينية ينتهي رينان إلى تعظيم الكثرة من الآلهة التي يفهمها بتأثير سجوده للتمثال والصورة والأيقونة، ليصل إلى ما هو هدف استشراقه ودراسته للغات السامية، وهو تهوينه من أن العرب، وعقلهم، وإلههم الواحد الأكبر، رغم دلالة لسانهم "على هذا الانبثاق غير المنتظر لوعي جديد في الجنس البشري" كما يقول عن اللغة العربية في

كتابه المشار إليه، ورغم أنهم وهم يرون الواقع بمقياس واحد هو الصدق العلمي، فقد رأوه في ملايين الصور التي أدركوها وسجلوها ولم يدركها غيرهم عندما جعلوا للشيء الواحد مئات الأسماء التي تدل عليه في جميع حالاته المتنوعة..

إن رينان بغبائه الهليني اللاصق بجلده فكره لم يستطع أن يعقد هذه المقارنة البدهية التي تكشف له عن مصدر لغة وفكر الإنسان الاوروبي الهندي اليوناني ومصدر تفكير الإنسان العربي، والتي هي في حدود نظرته إلى أثر الطبيعة على كل من العرب واليونان لابد أن تفرض هذه المقارنة بين إنسان جليدي يجلس أكثر من أشهر السنة مختبئًا وراء الجدران بجوار المدفأة، محاصرًا بالثلوج والبرد والجوع والاكتئاب، ولا سلوى له إلا في طعامه المخزون، وخمر الأقبية، وصناعة الأفكار التي يتخيلها ويلاحقها في أعماقه بطريق غير مباشر.. طريق منفصم عن الوجود الذي يفكر فيه.. الوجود الذي غاب وراء جدرانه، وهو مع ذلك يحاصره، ويطبق عليه، ويتناقض مع حاجته.. وبين إنسان آخر كالذي نعرفه، وتحدثنا عنه.. إنسان عربي شمسي، يعيش بين الآفاق، على أرض هي أوسع الأرض.. وتحت سماء تبدو بالنسبة لأية سماء أخرى أعلى سماء، وأصفى سماء.. إنسان موجود بالفعل في قلب الوجود.. وأمام الوجود .. ومع الوجود .. وإذا سمع قول الله له لينهه من بعض غفلاته "قل سيروا في الأرض فانظروا".. فمن هو الذي يسير غيره.. بل من هو الذي سمع قول الله، وتدبره، ونقله بعد تجربته ونجاحه إلى الآخرين .. غيره؟!

لم يكن عجبًا إلا عند رينان — ورفاقه — أن يؤمن هذا الإنسان العربي الشمسي بالإله الواحد الحق، فيكون إيمان هذا هو دلالة الرشد حيث أنه عبد الله ولم يعبد الشمس، لأنه في حركته وشهوده لقوانين

الحركة في الخلق عرف أن الشمس – كما عرف إبراهيم – تغيب وتأهل .. وأن الله الذي هو الحق الذي يغيب أبدًا ولا يأفل .. هذا بينما تصور ذلك الإنساني اليوناني الروماني – في أقل حماقاته وجهالاته – أن لهذه المدفأة التي يحاصره الشتاء بجوارها إلها يرجى نفعة، بل إلهة رفيقة به من بقايا عبادة أجداده الآريين للنار في فارس، إلهة يلزمه أن يتقرب بالطقوس إليها وهي "فستا" إلهة نار الموقد التي لا تتطفئ، ورمز حياة البيت والأسرة ، داخل حصار الطبيعة، والمهدهدة على مخاوف أصحاب البيت ومن فيه، فترة هذا القبر الشتوي، والاستبطان التأملي، داخل النفس الداخلة في نفسها – على طريقة اليوجا الهندية – متفلتة من قيد العقل، ومستسلمة لا سار الخوف والعزلة والظلام!

فكيف يمكن أن يكون حرًا ورشدًا هذا الإنسان العابد لإلهة المدفأة "فستا".. الإنسان الذي عاش يرى في آلهة النار الشتوية رمزًا وعلمًا على خلود روما – كما يقول تشارلزورث في كتابه "الإمبراطورية الرومانية" لأن روما بغير المدافئ، والطقوس إلى آلهتها، تموت من البرد، ومن أجل ذلك نسى المواطن الروماني الذي عبد الإمبراطور أيضًا، وحمل مذلة مظالمة، وقهر أحكامه وقوانينه ونزواته، أنه بهذه الآلهة التي كان يشجع الأباطرة الأذكياء مثل "ماركوس أوريليوس" على عبادتها – إنما يموت كل يوم من الاغتراب عن الحقيقة، ومن الضياع تحت أقدام الجبابرة، وهو لا يدري في عظمة روما الكاذبة والطاغية أنه في "موقد" مظالمها إنما هو بعض ما يحترق، ليظل الإمبراطور الطاغية رافعًا سيفه، وتبقى روما الظالمة قاهرة العالم!

وكيف يبلغ الغباء الهيليني بعقل رينان أن يسوي في الإدراك بين عابد فستا إلهة المدفأة، المختبئ والمتحجر تحت ووراء الجليد والظلمة – وبين هذا

الإنسان الحر الطليق، الذي واجه أهوال طبيعته فوق البداء، وتحت الشمس، فلم ينكص، ولم يتذمر، ولم ينهزم، ولم يلق سلاح إرادته، أو ينزل عن حق إنسانيته، او يغتصب حق غيره من هذه الحرية الإنسانية ولم يعبد إلا الله .. بغير أباطرة وكهان، أو طقوس وأساطير..

هذا الإنسان الذي قرأ له رينان قوله على لسان زهير:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم   قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

ومع ذلك فقد بقي لرينان من فضل ذكائه وإنصافه تشبثه بملاحظاته الصحيحة حول اللغة العربية فهو الذي يقول في شباب هذه اللغة، وانتظام سمائها بغير شيخوخة تطرأ على حيويتها وقوانينها: "إن التوافق الذي تقيمه خصائص اللغة العربية بين هذه اللغة قبل الإسلام وبين العربية التي يتحدث بها العرب اليوم لهم توافق يدعو إلى العجب حقاً".

ونحن قد عشنا والحمد لله بعد قرن من هذا الكلام لنقول لرينان، وتلامذة رأيه، ونقول لأنفسنا قبل هذا وهؤلاء: "إن حيوية اللغة — التي لم تنقرض منذ آلاف السنين إلى اليوم — هو في توجه هذه الخصائص داخل تركيبها الطبيعي، للدلالة على الله، والإشارة إليه والتذكير به، والعبور بهذه الدلالة مؤصلة في تراث العرب، وسلوكهم، وأنماط حياتهم وشريعة دينهم، وعصمة كتابهم، إلى أقصى ما يتاح للحق والدعوة إليه، أن يعيش في أمة لا تزال باقية على هذه الأرض"..

ومن أجل ذلك، ففي الصفحات القليلة الآتية نقدم مختارات من الشعر الجاهلي للدلالة على قيام هذه الحياة العربية الدينية من جذورها على الصدق العلمي، الذي لا يستند إلى مجرد النصوص المكتوبة، وإنما إلى صحة الرواية، وصحة السند لها، كأساس علمي يجري مجرى نقاء

الأنساب – لنقل حقائق التراث: وعلوم الآباء إلى الأبناء وسنحاول أن نشير في هذه المختارات القليلة إلى اتساع مجال الثقافة الإنسانية والدينية في حياة العرب قبل الإسلام حول نفس الدعائم التي جاء الإسلام فنقاها، وأرساها، وربطها إلى كتاب وشرح لا يبليان أبد الدهر.

ونحن بهذه الدلالات في الشعر الجاهلي على رسوخ الإيمان بالله في حياة العرب الأولى، وعلى تأصل عناصره من الحرية والمساواة ومقاسمة الأموال والصدق والحمد والسلام النفسي – نعيد إلى الأذهان وصية عمر بن الخطاب إلى المسلمين في قوله : لن تعرفوا الإسلام حتى تعرفوا الجاهلية " أي حتى تعرفوا مآثرها التي قامت على لسانها وأخلاقها، وحفاظها حول بيت الله، وتتبينوا أن الإسلام قام بتخليص هذه المآثر ، من العصبية والمثالب والغفلات التي كادت بدلالة حرب أبرهة لحساب – أن تعصف بأي أمل في وحدة العرب على دينها ولغتها وأخلاقها، لولا فضل الله ووعده لإبراهيم ورحمته للعالمين..

الله بصفاته:

عرف العرب الله الحق قبل الإسلام، وفي مرحلة التهيؤ لظهور الإسلام.. عرفوا الله الحق بنفسه وصفاته.. رب البيت .. رب الحل والحرام.. الله بصفاته وقدرته، وخلقه وتدبيره.. رب إبراهيم وإسماعيل.. رب موسى والمسيح والنبيين والمرسلين .. ورب محمد ذي الخلق العظيم..

يقول زيد بن عمرو بن نفيل قبيل البعثة وهو يستعيذ برب إبراهيم ويتعبد له وحده:

عذت بمن عاذ به إبراهيم   مستقبل الكعبة وهو قائم

ويقول ورقة بن نوفل وهو يدين لله الحق لا إله غيره:

أديــن لــرب يــستجيب ولا أرى　　　أدين لمن لم يسمع الدهر داعيا

ويقول أمية بن أبي الصلت:

إلــــه العـــالمين وكـــل أرض　　　ورب الراســيات مــن الجبــال

ويقول لبيد ينكر علم الغيب على غير الله:

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى　　　أدين لمن لم يسمع الدهر داعيا

ويقول امرؤ القيس وهو يذكر الرحمن منزل الغيث:

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها　　　روي بها من محول الأرض أيباس

ويقول عنترة وهو يرد الأمر لله ولا يرى منه مناصًا:

إذا كان أمر الله أمراً يقدر　　　فكيف يفر المرء منه ويحذر

ويقول وهو يرجع بالنواهي والأوامر إلى الله:

وها قد رحلت اليوم عنهم وأمرنا　　　إلى من له في خلقه النهي والأمر

ويقول في أقرب صفات الله إلى الإنسان بالحياة والموت:

قــسماً بالــذي أمــات وأحيــا　　　أدين لمن لم يسمع الدهر داعيا

ويقول حاتم معلناً عن شيوع الإيمان بالبعث:

أما والذي لا يعلم السر غيره　　　ويحيى العظام البيض وهي رميم

ويقول عامر بن الطفيل في التسليم بقضاء الله:

قضى الله في بعض المكاره للفتى　　　برشد وفي بعض الهدى ما يحاذر

ويقول سويد بن أبي كاهل البشكري بحمد الرحمن على ما منح قومه من سعة الأخلاق والفضل:

كتب الرحمن والحمد لله	سعة الأخلاق فينا والضلع
وإباء للدنيات إذا	أعطى المكثور ضيماً فكنع
وبناء للمعالي إنما	يرفع الله ومن شاء وضع
نعم لله فينا ربها	وصنيع الله والله صنع

ويقول ذو الإصبع العدواني في صفة الله بالقابض والباسط وهما من أسمائه الحسنى:

إن الذي يقبض الدنيا ويبسطها	إن كان أغناك عني سوف يغنيني

هذا وفي جميع مجالات الشعر الأخرى تتأكد دلالاته بين العرب على عبادة الله الحق مصدراً لكل المبادئ الأساسية لمجتمع الحرية والمساواة والمقاسمة والمشاركة في الأموال، الذي حاولوا بناءه رغم كل الشوائب كما دعا إليه الإسلام، وكما توقعوا أن يدعوهم إليه، ويطهرهم به، رسول من أنفسهم ، ينزل عليه كتاب إليهم...

المقاسمة في الأموال:

ومقاسمة العرب في الجاهلية إخوانهم في أموالهم، متنافسين فيما بينهم على خلط فقرائهم بأغنيائهم، ومدركين بهذا التنافس أن هذا الإيثار هو عمود الفضل، والصفة المكملة لإنسانية الإنسان بعد الحرية المنتزعة ببذل النفس – هي التي كانت الأرض الصلبة، والعقيدة الاجتماعية الجلية التي أرسى عليها الإسلام صرح حقوق الأموال بالزكاة، والإنفاق المتصل لكل أصحاب الحقوق كما حددهم القرآن الكريم، وهي كما تقدمها دلالات الشعر في الجاهلية أروع ما سجله مجتمع حر من آيات الاشتراكية

الطوعية العملية والعلمية، مصطبغة بصبغة الإيمان والأخلاق والحب، قبل أن يصبح ذلك شريعة بالإسلام.

يقول عمرو بن الإطنابة الخزرجي وفيه ارتباط هذه المقاسمة للأموال بين الأغنياء والفقراء بوازع الإيمان بالله، وباعتقاد أن هذه الحقوق هي حقوق الله لهؤلاء الأخوة المتساوين معهم، وأن هذه المقاسمة هي تصحيح دائم لمعادلة المساواة في الأموال بين من يملك ومن لا يملك، أو بين من يملك الأكثر ومن يملك الأقل، وهي أصدق في التعبير عن المعنى الإنساني الاجتماعي من كلمة الاشتراكية المعاصرة.. يقول عمرو:

إني من القوم الذي إذا انتدوا ... بدأوا بحق الله ثم النائل
المانعين من الخنا جاراتهم ... والحاشدين على طعام النازل
والخالطين غنيهم بفقيرهم ... والباذلين عطاءهم للسائل

ويقول عروة بن الورد وكان يغزو الأغنياء ليقسم ما يناله منهم على الفقراء والضعفاء ويؤثر على نفسه في أروع صور المقاسمة والمشاركة، مع توجيه النقد المر لرجل شحيح لا يشاركه في ماله أحد، ومع تسميته هذه المشاركة باسمها كما عرفها العرب والمسلمون قبل غيرهم بزمن بعيد:

وإني امرؤ عافي انائي شركة ... وأنت امرؤ عافي انائك واحد
أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى ... بجسمي مس الحق والحق جاهد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

ويقول حاتم شيخ الاشتراكيين الطوعيين بنزعة اجتماعية واعية ومستقرة على الإيمان:

إذا كان بعض المال ربا لأهله ... فإني بحمد الله ما لي معبَدُ
يفك به العاني ويؤكل طيبا ... ويعطي إذا ضن البخيل المصرد

ويقول في المخالطة والمقاسمة أيضًا:

الخالطين نحيتهم بنضارهم   وذوي الغنى منهم بذي الفقر

ويقول فيما يجري عليه من الفقر والغنى فهو ليس رأسماليًا وليس مع بذله المال بعيدًا عن شرف القتال عن الحرمات والحقوق:

وإني لعف الفقر مشترك الغنى   وتارك شكل لا يوافقه شكلي
ولي مع بذل المال والمجد صولة   إذا الحرب أبدت عن نواجذها العصل

ويقول وهو يوقد النار على المرتفعات حول بيته في الشتاء ليراها العابر والضال في الظلمة من بعيد فيقبل ليأوي إليه، حتى لا يضيره البرد القارص والجوع.. ويعد غلامه بالعتق إن جلبت ناره ضيفًا يقوم بحقه:

أوقد فإن الليل ليل قر   والريح يا غلام ريح صر
لعل أن يبصرها المعتر   إن جلبت ضيفًا فأنت حر

وتقول أم حاتم في حماسة العطاء وفي تأميم أموالها بيدها لذوي الحاجة إليها، وهي تفسر هذه الاشتراكية الطوعية وترد على لائميها في الإسراف وأولهم أخوها:

لعمري لقدمًا عضني الجوع عضة   فآليت أن لا امنع الدهر جائعاً
وما إن ترون اليوم إلا طبيعة   فكيف بتركي يا ابن أم الطبائعا

ويقول زهير بن أبي سلمى في وصف من يمدهم بالتسابق في البذل قولاً وفعلاً:

وفيهم مقامات حسان وجوهم   وأندية ينتابها القول والفعل
على مكثريهم رزق من يعتفيهم   وعند المقلين السماحة والبذل

وهكذا تصبح هذه المقاسمة دينًا وطبيعة لكل من المكثرين والمقلين.. فالجميع يعطي ويبذل بقدر ما يريده.. وهم بهذا التسابق، مع بشاشة الوجوه، لا يكلفون الذين لا يملكون مشقة السؤال، لأنهم يسبقون إلى عطائهم ما هو حق لهم..

شعر الطبيعة:

هذا الدين العملي، والإيمان بالله الحق، وهذه المقاسمة في الأموال، والمشاركة في المملوكات وهي ظاهرة الدين الحق – هما بدورهما ثمرة هذه الحياة الصحيحة فوق طبيعة غامرة الأضواء، فسيحة الأرجاء، يتدافع عليها الأمن والخوف، والخصب والجذب، والسلم والحرب، ولا سبيل فيها للحياة إلا لم يبذلون حياتهم على طوق المخاطر من أجل الحرية وسعيًا متصلاً من أجل العيش الكريم: آخره كرامًا.. حتى وإن حملوا السيوف يقومون بها المعوج من بينهم، حبالاً حقدًا، ودفعًا للظلم لا صراعًا..

فالطبيعة الكاملة بمشاهدها الكونية .. السماوية والأرضية .. حيث قوام الحياة الرعوية والتجارية يفرض على هذا المتبدى المنتج ثلاث خصال فيهن الدين والعلم والبيان، فهو يتحرك فيرى ويتفكر، وهو يتفكر فيعلم ويؤمن، وهو يؤمن فيتكلم ويبين، وهذه الخصال الأساسية من الحركة والإيمان والبيان فرضتها ثلاث مراحل ثابتة أمام هذا البدوي بين مشاهد الكون العمودية والأفقية والمتكاملة وجعلتها منبع حياته الأساسية.. حياته التي كان يستخف به من أجلها الأكاسرة والقياصرة، فاليوم جاء العلم الحديث ليغبطه عليها، ويضعه بها في قمة من أحسنوا انتقاء غذائهم بالغذاء الذي هو الآن مقياس حضارة الشعوب الغنية.. فمن سقوط المطر من السماء عموديًا ينبت العشب، ومن رعى الأنعام هذا العشب رأسًا قدر الأنعام اللبن "من بين فرث ودم لبنًا سائغًا للشاربين" واللبن كما استطاعوا

أن يفهموا في العصر الحديث هو "الغذاء الكامل" أو هو "هبة السماء".. وللأبقار اليوم قصور دافئة في أوروبا تعيش بها في المدن الشيوعية، أو مراع واسعة تدار بأحدث الطرق العلمية في مناخ أمريكا الدافئ.. ولن نفهم الإسلام – والعصر الحديث أيضًا – حتى نعرف الجاهلية..!

يقول إيا من بن قبيصة الطائي في الرحلة الدائبة واتساع بحالها مهما كانت المشقات:

ألم تر أن الأرض رحب فسيحة   فهل تعجز في بقعة من بقاعها

ويقول عبد يغوث بن صلاءة في كونه يضرب في متاهات الصحراء إلى حيث لا يستطيع حي أن يعيش، ويعتبر ذلك مع الكرم من مفاخره:

وقد كنت نحار الجزور ومعمل المطي   وأمضي حيث لا حي ماضيا

ويقول ربيع بن مقروم في صورة من صور الطبيعة التي ينقذف فيها الإنسان والهلاك معًا:

في مهمة قذف يخشى الهلاك به   أصداؤه ماتني بالليل تغريدا

ويقول تأبط شرًا في أنسه وحيدًا بالأرض الموحشة حيث لا هادي له على طرقها إلا الشمس والنجوم:

يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي   بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

ويقول أعشى بأهله بصف ألفته إلى اقتحام البوادي التي لا حياة فيها لإنسان، ولا أثر بها إلا للجن:

يمشي بيداء لا يمشى بها أحد   ولا يحس خلا الحال في بها أثر

ويقول امرؤ القيس في أشهر المعلقات التي كتبها العرب وعلقوها مع غيرها من أروع الشعر الوصفي على أقدس مكان وهو الكعبة، بما اجتمع في نظمها من صور الطبيعة الفنية بالحركة والعنفوان، وبالجمال والتجدد، دلالة في بيت الله على مصدر ثقافة لسانهم، والهداية إلى عناصر إيمانهم، والسبيل الذي قطعوه إلى معروفهم ومآثرهم.. إنه يقول:

وليل كموج البحر أرخى سدوله   على بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بجوزه   وأردف أعجازًا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل   يصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه   بكل مغار الفتل شدت بيذل
كأن الثريا علقت في مصابها   بأمراس كتان إلى صم جندل

ثم ينتقل ليصف قيامه بالبكور، على صهوة جواده الذي يذكره في حديث مشهور رسم له صورته الحية، وهو يتحرك طوع يده في كل الاتجاهات، فكأنك لازلت تراه منقذفا كصخرة ألقي بها في سيل من أعلى جبل:

وقد أغتدى والطير في وكناتها   بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معًا   كجلمود صخر حطه السيل من عل

وبعد أن يستوفى وصف الجواد ينتقل إلى وصف المطر، وهو أحب منظر في الطبيعة للبدوي، أو هو عنده المشهد الكبير، معانًا بهذا التنقل في الوصف لمن لا يفهمون أن القصيدة العربية كما يتحرك فيها الإنسان الحي داخل حركة واقعة الحي ليست تمثالاً حجريًا أصم ينحته الشاعر، وليست تشييدًا لأجزاء من أكفار مصطنعة لها انعكاس صادق في الواقع، وعلى هذا فالقصيدة العربية هي التي تملك دون القصة الخيالية أو

المسرحية أصدق وحدة لبناء تعبيري يعكس الواقع حيًا كما ينقل صورته، ومعنى هذا أن أي جزء من أجزاء القصيدة العربية يحمل مثل القصيدة كلها دلالته الدائمة على الأصل المنتزع منه، والعائد إليه، وهو السكون والطبيعة والخالق، من خلال المواقف المختلفة للشاعر الذي يقرر هذه الحقيقة بما لا حصر له من الصور التعبيرية المتجددة النابضة بالحياة، والمؤثرة بإيقاعها على حس السامع، وخيال القارئ، وهي تضعه في قلب هذه المواقف كأنه يعيشها..

هذه الوحدة المتحققة للقصيدة العربية، كوحدة أجزاء وأعضاء الكائن الحي في دلالتها عليه، لا تتحقق للأعمال القصصية الخيالية في الأدب الأوربي شعرًا أو نثرًا إلا على أساس وحدة التشييد لبناء كل من أجزاء لا قيمة لها إذا انفصلت عن الكل، وليس لهذا البناء من معنى الوحدة إلا انسجام التركيب بحسب رسم أو تصميم هدفه النهائي في عقل الشاعر أو المؤلف لا يمكن فهمه او كشفه إلا بوجود الأجزاء كلها في مواضعها، كما صممها لبناء القصة أو القصيدة، التي هي تعبيره عن موقف له في مواجهة الطبيعة، وليس تعبيرًا عن وحدة واقعة هو مع واقع الطبيعة، مهما تعددت المواقف.. ولا شك أن هذه نقطة خلاف بين الأدب العربي الديني والأدب الأوروبي الوثني، تبلغ — مع أنهما موقفان متسقان تمامًا في واقع المجتمع البشري — حد التناقض الذي يصل بينهما إلى مستوى المواجهة.

يقول امرؤ القيس في وصف نزول المطر في معلقته:

أصاح ترى برقًا أريك وميضه	كلمع اليدين في حبي مكلل
يضيء سناه أو مصابيح راهب	أهان السليط بالذبال المفتل

أي انتبه صاحبي إلى هذا البرق الذي يومض كاستراق النظر بين سحاب يبرق ويضحك وهو نحو بعضه إلى جوار بعض، فيضيء سناه، كأنما راهب قد ضاعف الزيت لذبالات مصابيحه داخل صومعته فتوهجت مجتمعة توهجًا شديدًا.. هذه الصورة في كلماتها الموجزة جدًا، لا تزال في كمال تعبيرها تنقل إليها ذلك المشهد الذي صوره الشاعر حيًا، ونابضًا بالحياة، وهو يعكس في غير إطالة وبإمتاع شديد حياة عصر بأكمله...

الحرية والمساواة:

داخل هذه الطبيعة الحية، ومتسقًا بحركته وكلمته مع إيقاع حركتها وآياتها عاش الإنسان العربي حرًا بثمن هذه الحرية.. الثمن الذي تمثل هل في دوام الرحلة.. واهبة القتال عند المساس بحرية الرحلة، وحرية الإرادة.. وهو ثمن اقتضى منه داخل هذا الواقع المنسق، والمنضبط، أن تكون حريته وثيقة الارتباط بحرية الآخرين، وليست ثمرة لقهر الآخرين. ولهذا فقد اتسع فهمه ودفاعه عن الحرية فشمل التزامه بحقوق المساواة به، ومقاومة الضيم في كل صورة لنفسه أو لغيره، وقد سمى هذا الرفض للضيم إياه، وسماه عزة، وبذلك أفسحت الحرية بهذا المعنى الجماعي الذي تواثق عليه الجميع، ولم يتردد في أن يقاتل عنه الجميع – طريق التنافس بين الأخوة المتساوين على الفضل المتفق عليه بينهم، في المعروف الذي عرفوه واحتكموا إليه، والمنكر الذي أنكروه وتناهوا عنه..

في معنى إباء الضيم يقول الحارث بن حلزة:

لا يقيم العزيز بالبلد السهل ولا ينفع الذليل النجاء

وهذا القانون النافذ لضمان الحرية بالحركة لا يمكن تطبيقه على معنى الحرية الناقص والمتقلص في أكثر المجتمعات الحضارية القديمة

والحديثة، والذي يتجلى تقلصه في المجتمعات الطبقية المعاصرة التي تعتمد كلمة الحرية فيها على نص الدساتير والقوانين، فإذا تعرض المواطن فيها لمرض "نقص الحرية" كان عليه أن يئن أنينا متواصلاً على أنغام القوانين المتنوعة حتى تلفظ حريته أنفاسها، أو يعمد في سوق الحرية التي يتم فيها تفسير وتأويل القوانين فيقايض على بعض حريته للحصول على البعض الآخر، وبذلك يتكرس الشكل الطبقي، وأما في المجتمعات الشيوعية فقد كان الانتقاص الصريح للحرية بمفهوم ملامة تعبير الإنسان عن نفسه، وعن مصيره، هو المبرر الأيديولوجي لهذه الحرية الوحيدة التي أقامها النظام الشيوعي وهي حرية : اللقمة والمسكن والأجر..؟

ويقول لبيد في نفس المعنى من امتلاك حق الحركة في الأرض الواسعة، وقدرة كسر الرتابة والخنوع والاستقرار في البلد السهل مع الضيم، مما استقرت عليه رفضه الأخلاق العربية الدينية في أبرز علامتين من علامات التاريخ الديني تحققت بها حرية الإرادة من أجل حرية تأكيد الحياة بغير قهر، وحرية إرادة البناء والعطاء، وهما هجرة إبراهيم.. وهجرة محمد.

يقول لبيد:

تراك أمسكنة إذا لم أرضها   أو يرتبط بعض النفوس حمامها

وتقول الخنساء من دلالة كمال المفهوم الصحيح للحرية، والسواسية، ورفض الضيم، في وعي الرجال والنساء، في تلك الحياة التي ساوت بينهما في الحقوق، وتكاملت بهما في وحدة الواجبات:

نهين النفوس وبذل النفوس   يوم الكريهة أبقى لها

ويقول المتلمس وهو يرى أن الحرية الحقيقية للحركة والإرادة والفعل أغلى من الحياة:

ولا تقبلن ضيمًا مخافة ميتة ومـوتن بهـا حـرًا وجلـدك أملـس
ومـا النـاس إلا مـا رأوا وتحـدثوا ومـا العجـز إلا أن يضاموا فيجلسوا

ويقول عبد قيس بن خفاف البرجمي وهو يربط الحرية بالإيمان والتقوى:

والله فائقـة وأوف ينـذره وإن حلفـت مماريـاً فتحلـل
وأترك مكان السوء لا تحلل به وإذا نابـك منـزل فتحـول

ويقول عمرو بن براقة في أسلحة الحرية الفعالة في دفع القهر والظلم:

وكيف ينـام الليـل مـن جل مالـه حسام كلون الملح أبيض صارم
متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفـا حميًـا تجتنبـك المظـالم

التقدمية والتدافع:

والتقدمية بمعناها القديم في حياة الجاهلية العربية لا تزال هي المعنى الأحدث والأصح في العصر الحديث، فهي في تطبيقات حياتهم كانت تعني التقدم الطليعي على رأس حركة التاريخ.. التقدم بالفعل، وليس بالقول، وفي غياب المسار الصحيح لهذه الحركة بمفهوم التأكيد الدائم للحق في حياة الإنسان وهو الإيمان والحرية والمشاركة للآخرين في المال والأمن.. فهذا المسار الذي سماه العربي الأول بالحق هو علم الإنسان الثابت. وقانونه الذي لا يتغير، وإنما يتجدد مع تغيرات العصر، من أجل أن يتأكد ثباته، وأن لا يتغير هدفه..

وأما التدافع فهو المعنى العربي الصحيح كما جاء به القرآن الكريم، لتأكيد حركة الدفاع عن الحق الثابت للإنسان بشرائع تستهدف التقويم، والتصحيح، والسبق العملي بهذا الحق إلى مجالات أبعد وأعظم في الجهد الإنساني، كهذا السبق الفريد الذي جاء به العرب المسلمون بتأكيد هذا الحق الإنساني الذي انتظمته الشريعة الإسلامية في مجالات تقدمت كل ما سبق إليه الجاهليون جماعات وأفرادًا، وتجاوزته على مشهد شمولي أمام العالم الذي أصغى وفتح عينيه على هذا المشهد الذي توحدت به كل هذه القوى العربية وروافدها المشتتة في مجرى واحد عظيم، تدفق من جزيرة العرب ليصب في كل أرجاء الأرض..

هذا التدافع الذي يعني الدفاع عن الحق الإنساني لا يعني "الصراع" من أجل الدفاع عنه بين المؤمنين به، ولكن يعني المجاهدة بين من يؤمنون جميعًا بهذا الحق، لكي يقوموا بهذا الحق على وجه الكمال، بالقول والفعل، فليس هناك "ثورة" على هذا الحق، .. وليست هناك فئة يستعجم عليها الإيمان بالله، وبالمبادئ التي يستقر عليها الإيمان، فتدبر بالصراع ضد "المؤمنين" ثورة تطيح بنظامهم، وتذهب بمبادئهم وأخلاقهم، وتأتي بنظام مضاد يقوم على الإلحاد، وعلى فلسفة تجلس وتتربع وتفتى وتتعالم فوق صخرة هذا الإلحاد..

ليس في مجتمع العرب القديم، ولا في مجتمع المسلمين المؤمنين بالقرآن إيمانًا عربيًا غير ذي عوج، وغير ذي تأويل وباطن ونفاق — من يشعر بالنقص، أو بالقصور، في دين يجمع منذ ما قبل الإسلام، ومنذ ظهوره وانتصاره كل مقومات الحياة التقدمية، التي يحقق فيها الإنسان فرديًا وجماعيًا ذاته الحرة والمتساوية بالآخرين، والمتشاركة مع الآخرين، والبانية للآخرين، بما يجعله فوق وساوس النقص، وأبعد من منال القهر، ومبرءًا

من عقد الخوف والضياع والتجاوز.. فعلى من يثور الفرد؟ .. والمجتمع على صورته، وصورته الملتزمة بالله هي على صورة القوانين المتسقة والمتدافعة غير المتصارعة في الطبيعة المحيطة به..

ليس في المجتمع العربي القديم إذن، ولا في مجتمع المسلمين المتعربين بحقائق القرآن ومحكماته صراع هدفه بين طرفين متناقضين تغيير احدهما عقيدة الطرف الآخر. واستبقاء عقيدته هو، بينما العقيدتان متناظرتان في التعبير الطبقي. وفي الانحراف عن السواء الإنساني في الدين الإلهي.. وإنما هناك التدافع وحروب الردع والتأديب لتأكيد الحق الواحد، المتعارف عليه. كلما غفلت عنه فئة، أو بطرت وطغت فئة أخرى..

كذلك فليس بين المجتمع العربي القديم والمتجمعات غير العربية المتعايشة معها أي صراع، بل هناك التدافع السلمي، والتعايش الإنساني، ما بقيت المجتمعات الأخرى على احترامها لحق العرب في دينهم، مسلمين أو كتابين، دون محاولة للنيل منه، أو لدفعهم عنه، فإن وقع التدخل في العقيدة وقع الصراع الذي يكون دفاعًا بالتناقض بين عقيدتين، وتفسيرين للحياة، وأسلوبين للتفكير، لا يتفقان إلا بزوال واحد منهما، وقد شهدت الحروب الصليبية ضد المسلمين عصرًا من عصور هذا الصراع، كما يشهد العصر الحاضر بين العرب المؤمنين والأيديولوجيات الغربية والشرقية مرحلة أخرى يتجدد فيها بلون العصر، هذا الصراع الذي ليس للعرب منذ تحرك إلا التصميم على مقاومته بأشكاله الفكرية والسياسية والاقتصادية والعسكرية.. غربيا كان أو شرقيا.

في لفظ ومعنى "التقدمية" يقول الحصين بن الحمام المري من قصيدته الشهيرة التي تمثل النبي صلى الله عليه وسلم بأبيات منها في غزوة الخندق وهو يشارك أصحابه أعمال الحفر:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد ... لنفسي حياة غير أن أتقدما
فليس على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما
نفلق هاما من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

فهذه حرب من حروب التأديب، ودفع الظلم، ورد المجتمع إلى عقيدته الصحيحة، ومنهجه السليم..

ويقول زيد الحيل في تقدمه إلى المكرمات بحصبة الموت لحماية حقيقته مجاهرة من خلال القتال:

أنا الفارس الحامي الحقيقة والذي ... له المكرمات واللهي والمآثر
فلست إذا الموت حوذر ورده ... يباعدني عنها من القب ضامر
بوقافة أخشى الحتوف بصعدتي ... يباعدني عنها من القب ضامر
ولكنني أغشى الحتوف بصعدتي ... مجاهرة إن الكريم يجاهر

هو المقصود بالذات:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني ... عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

ويقول بشامة بن حزن في نفس المعنى من التقدم للمخاطر دفاعا عن المبادئ والإرادة والجماعة:

لو كان في الألف منا واحد فدعوا ... من فارس خالهم إياه يعنونا

ويقول عمرو بن معد يكرب في أسلحة التدافع والتقدم ليبقى الحق الإنساني للجميع:

أعددت للحدثان سا ... بغة وعداء علندي
نهدا وذا شطب ... يقد البيض والأبدان قدا
كل امرئ يجري إلى ... يوم الهياج بما استعدا

ويقول عنترة في بشاشة لقاء الموت عن الحقوق:

فتى يخوض غمار الحرب مبتسما   وينثني وسنان الرمح مختضب

ويقول غيره في استعذاب الموت من أجل الحياة:

لا قوم أكرم منهم يوم قال لهم   محرض الموت عن أحسابكم ذودوا

ويقول تأبط شرا في مقارعة الدهر والتدافع مع صعابه ومخاطره حتى يتقدم ولا يدبر أمره:

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده   أضاع وأمسى أمره وهو مدبر

ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلا   به الخطب ألا وهو للقصد مبصرا

فذاك قريع الدهر ما عاش حوّل   إذا سد منه منخر جاش منخر

ويقول غيره في هذا السباق التقدمي دفاعاً عن حقوق الأحرار ومكارمهم:

إن تبتدر غاية يوما لمكرمة   تلق السوابق منا والمصلينا

إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا   ولو نسام بها في الأمن أغلينا

وتقول امرأة تصف فاعلية ابنها وتقدميته فهو نافع لقومه ضاريا أعدائهم:

فتى لا تذر الشمس طالعة   يوما من الدهر إلا ضر أو نفعا

ثورة الصعاليك:

وحتى يتضح مفهوم هذا التدافع نحو غاية الدين والمعروف والفضل، وما يشتمل عليه من حروب التقويم والتأديب تجمعا على دين واحد، وتسابقًا فيه، وليس صراعًا على عقيدتين، وتظالمًا بأحدهما لحساب الغالب – نذكر من حروب التدافع بين العرب الأولين حرب تقويم البخلاء،

وثورة من سموهم بالصعاليك عليهم، وهم ثوار أشراف نبلاء القصد، لكي يستخلصوا من هذه القلة من الحريصين على أموالهم حقوق أخوتهم فيه بحد السيف، لقد كانت ثورة صغيرة على هذه القلة لم تبلغ حد الصراع، فالبخلاء قليلون، والمجتمع يعلم أن هؤلاء البخلاء هم الخارجون على قانون وحكم الدين والمعروف بمقاسمة الأموال، وخلط الفقراء بالأغنياء في هذه الأموال التي لهم حق فيها، ماداموا لم يقصروا في السعي المتاح، ومادام لا يلزمهم أن يذلوا للأغنياء ليأكلوا من أموالهم بالذل بدلا من أن يأكلوا منها مع الكرامة في تقاضي الحقوق، وعلى هذا اعتبر العرب الأولون والمسلمون من بعدهم أن ثورة الصعاليك من مآثر الجاهلية قبل تنظيم الزكاة، وفرض حقوق الأموال لأصحابها داخل نظام المشاركة الطوعية التي أساسها الإيمان، والتي تبيح مع طوعيتها حرب المتنعين كما حدث عند امتناع بعض المسلمين عن دفع الزكاة تأبيا على تقنين المقاسمة، فهي إذن مقاسمة أو مشاركة علمية ليست طوباوية ولا خيالية.

هذا بينما سخرت الشعوبية، ومن استعجم اعتقادهم من الشعوب التي كانت ولا تزال تحمي عدوان رؤوس الأموال بالحرب وبالسلب وبالقوانين التي يضعونها بنفوذهم – من هذه الثورة التأديبية على كل من يرى المال ملكية خاصة لا يحاسب عنها، ولا يرى لمن معه ومن حوله حقا يساوي حقه في هذا الذي يملكه داخل جماعته.

يقول عروة بن الورد لأمرأته:

دعيني أطوف في البلاد لعلني ... أفيد غنى فيه لذي الحق محمل
أليس عظيما أن تلم ملمة ... وليس علينا في الحقوق معول؟
إذا نحن لم نملك دفاعا بحادث ... تلم به الأيام فالموت أجمل

فهذا رجل يقاتل بحياته ليصادر أموال البخلاء، فيدفع بها إلى أصحاب الحقوق الذين شح عنهم هؤلاء البخلاء وهم الشيوخ والمرضى وذوو الحاجة.

ويشرح عروة هذا المعنى في نفس القصيدة فيقول:

لعل ارتيادي في البلاد وبغيتي ... وشدي حبازيم المطية بالرجل

سيدفعني يومًا إلى رب هجمة ... يدافع عنها بالعقوق وبالبخل

أي لعله أن يلقى رجلا صاحب قطيع من الإبل لا يقاسم فيه أحدًا حتى يزيد ماله بالعقوق، وهو أقبح الظلم لأصحاب الحق، فيغزو هذا البخيل مهما كانت عاقبة غزوته طالما أنه لا يريد بذلك إلا رد هذه الحقوق لأصحابها... وهكذا كان يفعل.

ويقول تأبط شرا وهو من أشهر الصعاليك، وأصدقهم تعبيرًا عن الثورة على البخل والبخلاء، هذا البخل الذي لا يبلغ من ذنوب الرأسمالية وأوزارها إلا بمقدار الخطوة الأولى على طريق طويل:

وليل بهيم قد تسربلت هوله ... إذا الليل بالنكس الضعيف تجهما

ولن يكسب الصعلوك حمدًا ولا غنى ... إذا هو لم يركب من الهول معظما

ولم يشهد الخيل المغيرة بالضحى ... يثرن عجاجًا بالسنابك أقتما

لحى الله صعلوكًا مناه وهمسه ... من العيش أن يلقى لبوسًا ومطعما

ولله صعلوك يساور همه ... ويمضي على الأحداث والدهر مقدما

ويقول تأبط شرًا أيضًا من شعره الذي اهتم به دارسو الأدب العربي في الغرب فترجموه إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وقد زادت به عناية الشاعر جوته في ديوانه الشرقي، وفي أبياته هذه من قصيدة طويلة يصف فيه "الصعلوك" أي الثائر الشريف، الخارج على

الأغنياء، وصفًا تظهر به وحدة أخلاقه بالجود والشجاعة والغضب وهو يقاتل وحيدًا جميع أعدائه من البخلاء:

مطرق يشرح سمًا كما أطرق أفعى تنفذ السم صل
غيث مزن غامر حيث يجدى وإذا يسطو فليث أبل
يركب الهول وحيدا وما يصحبه إلا اليماني الأفل

الصدق والحمد:

هذه الحياة التي دارت بها الطبيعة في أفلاكها الصادقة. والتي امتلأت بها أعباء التقدم وأهوال التدافع بحب الأسرة وحب العشرة، وفاضت في الشعر بأصدق الحب وأطهره للصاحبة والأهل والولد – تكشف في القليل الذي تمثلنا به من ديوان العرب قبل الإسلام عن منهج ثابت لهذه الحياة هو "الصدق" بكل ما تدل عليه أبعاده في الدين والأخلاق والفعل والقول، كما تكشف عن غاية ثابتة لهذا المنهج هي "الحمد" الذي هو البرهان الأصدق في رضى الله، وشكر الناس على صدق هذه الحياة عندما أقامها صاحبها ودفعها على الدين والأخلاق والصدق بالأقوال والأفعال.

وربما كان من العجب حقًا، وإن يكن أمرًا لا غرابة فيه، أن يكون خروج نهار الإسلام من ظلام الجاهلية على مآثرها مجتمعًا في رمز حي متجسد في معنى الحمد منذ مولده هو "محمد" المحمد بالفعال والأقوال، والأسوة لمن يقول ويفعل، ورسول الله إلى هؤلاء العرب الذين طلبوا الحمد من كل السبل باجتهادهم فأتاحه الله لهم من أكرم السبل عليهم، بشريعة من الله، تثبت ما أثبتوا من الفضل والحمد، وتمحو ما أحدثوا من الثارات والشرك.

يقول أكثم بن صيفي من حكماء العرب وخطبائهم قبل الإسلام في نثر كالشعر وهو يقدم قانون حياة العرب بالصدق الذي هو ي أصدق صدقه الإسلام:

الصدق منجاة، والكذب مهواة، والباطل لجاجة.

ويقول الشاعر القديم في ارتباط الشعر بالصدق والحكمة:

وإن أشعر بيت أنت قائله   بيت يقال إذا ما أنشدته صدقا

وتقول إحدى حكيمات النساء جمعة بنت الخس:

خير خلال المرء صدق لسانه   وللصدق فضل يستبين ويبرز
وإنجازك الموعود من سبب الغنى   فكن موفيا بالوعد تعطي وتنجز

ويقول المثقب العبدي في أخلاق الصادقين وأدبهم:

لا تقولن إذا ما لم ترد   أن تتم الوعد في شيء نعم
حسن قول نعم من بعد لا   وقبيح قول لا بعد نعم

والصدق في الفعال هو مصدر الحمد في حياة العرب.. يقول زهير في صفة بعض الصادقين الذين استحقوا أعظم الحمد:

لو أن حمداً يخلد الناس أخلدوا   ولكن حمد المرء ليس بمخلد

ويقول عمرو بن الأطنابة الخرزجي:

أبت لي همتي وأبى بلائي   وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشأت وجاشت   مكانك تحمدي أو تستريحي

وتقول الخنساء في الصدق الذي يستحق الحمد:

نعف ونعرف حق القرى   ونتخذ الحمد كنزاً وذخرا

وأكثر ما تظهر به ظواهر الألفة إلى الصدق في حياة العرب، واستقامة حياتهم عليه، وتدفق شباب أمتهم وكلامهم في عروقه ونظامه وغايته أنهم بالتحليل المقابل يستنكرون "الكذب" بكل صوره، ويعتبرونه عجزًا، ولومًا، وذلا. وعلى هذا فقد ظلت اليمين الصادقة خلال آلاف السنين هي في قضاء العرب أحد مقاطعه الثلاثة كما قال زهير في شعره مسجلا هذه الحقيقة:

وإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

أي أن ظهور الحق عند التقاضي عليه يكون من أحد آفاق ثلاثة: يمين صادقة، أو حجة يظهر بها الحق في مجال الاستدلال والإثبات، أو بينة مادية قاطعة مثل الاعتراف أو ما يماثله فلا يحتاج بيان الحق معها إلى يمين أو مرافعة ومنافرة.

ولما كانت اليمين الصادقة قاطعة في جلاء الحق فقد عمد العرب منذ الجاهلية، وحتى اليوم كما رأيت بنفسي بين بدو سيناء، إلى تأكيد صدق اليمين قبل أن يتم الحلف على البراءة من الكبائر مثل قتل النفس، أو العدوان على العرض، أو على الجار، وذلك بعرض الحالف على جهاز كشف الكذب، وهو طاسة محماة في النار حتى تحمر وتتوهج، ولها يد يمسكها بها من يعرضها على الحالف ليلعقها بلسانه، فإن كان بريئًا لم تصبه النار بسوء، وإن كان مذنبًا أكلت النار لسانه، وأضر به، وظهر كذبه.

والعرب منذ القدم يؤمنون أن النار لا تحرق صادقًا، وهم يستندون في ذلك من التاريخ الديني إلى قصة أبيهم إبراهيم الذي لم تحرقه النار لأنه كان صادق الإيمان، وبريئًا بصدقه من الكذب على الله. ولهذا فقد كان الحالفون ولا يزالون في قضاء العرب يقبلون على هذه النار فيمرون

بألسنتهم عليها قبل الحلف إن كانوا صادقين، فلا تنال منهم شيئًا، وبذلك تكون ألسنتهم قد أثبتت براءتها قبل الحلف من الكذب على ما تقسم عليه.

في الجاهلية كان الرجل الذي يعرض النار على الحالفين، والذي كان يخوفهم منها إن كانوا كاذبين، والذي كان تأكيدًا لصدق هذه الدعوى يبدأ هو فيلعقها بلسانه أمام الحالف ليقدم عليها، أو لينصرف عن اليمين، يسمونه "المهول" أي الذي كان يعرض على الحالف أهوال ومخاطر الكذب، وأفدحها خزيه أمام الناس، وقهره ومعابته.. بينما كان ولا يزال نفس الرجل بين بدو سيناء المصرية يسمى "المبشع" أي الذي يقوم بنفس الواجب من حيث أنه يبشع للمتهم مخاطر الكذب، ويؤكد له قانون براءة الصادق، واحتراق الكاذب بآية الله بالنار التي نجا منها إبراهيم.

في وصف الحالف وهو يصد بوجهه تهيبًا من النار عندما يقمها له المهول أو المبشع يقول أوس بن حجر في قصيدة يصف فيها حمارًا وحشيًا:

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صد عن نار المهول حالف

فكيف مع هذه الحياة الصادقة، التي تدور خصائصها وأخلاقها في العرب حول مركز أساسي قوي النظم، شديد الجاذبية، هو الصدق بمعناه العلمي في الدين، وبمعناه الإنساني في سواسية الأحرار، وبمعناه الاجتماعي في مقاسمة الأموال، وبمعناه التطبيقي في التقدمية والتدافع والإقبال على الموت، وبمعناه التسجيلي في صدق الخبر، وصدق الرواية عن الواقع، صدقًا علميًا دينيًا واجتماعيًا وتقدميًا لا تزال شرائعه ودوافعه قائمة في حياتهم إلى اليوم – كيف نغري هؤلاء – على غير ما يصلح لهم، وبلسان وغواية أعدائهم، على أن ينتحلوا فنون الصراع القائمة على التكذيب والتخييل، فينفصلوا انفصال من يموت عن واقعه، بانفصالهم عن هذا

الصدق الذي عاشوا به واقعهم، وتاريخهم، يدافعون به أعداءهم فيتساقط الأعداء، ويستمرون، وينهزم الأعداء يومًا محتومًا بينما هم الذين بالبقاء والتجدد والشباب ينتصرون.

كيف يتقبلون أن ينتزعوا قلوبهم الصحيحة ليزرعوا بدلا من قلوب أعدائهم السقيمة، وفي قلب سقامها عقدة الوثنية، وبؤرة الصراع، وحبال التخييل والتمثيل الواهنة في القصة الملفقة، والمسرح الطبقي، الذي عاش حتى مات في قبضة الطبقة، ورهين الدعاية لأكاذيبها.

كيف وهؤلاء الصادقين عندما أرادوا أن يتخيلوا في المدح خيالا لا يجزيه الصدق والواقع عرضوا خيالهم كأمنية لا تتحقق، وأنفوا أن يطرحوا الصورة الكاذبة على جمالها طرح الحقائق فقالوا "لو... ولكن" وذلك في مثل قول زهير يمدح أكرم ممدوحيه في واقعهم الصحيح:

فلو كان حمدا يخلد الناس لم تمت | ولكن حمد الناس ليس بمخلد

وفي مثل قوله أيضًا:

لو نال حي من الدنيا بمكرمة | أفق السماء لنالت كفه الأفقا

أي إنه — مهما كانت فعال الإنسان بالغة حد الكمال فإنها لا تجعله خالدًا، أو لا تخرق به القوانين، فإن ذلك لا يجوز إلا من باب التمني الذي لا يتحقق.

ولقد عاش بين العرب الأولين قبل الإسلام وبعد الإسلام، أبطال أعظم من أبطال هوميروس، ومن بطله الوهمي أوديسيوس الذي سمي به الأوديسة، مثل زيد الخيل، وبسطام، وعنترة، وسيف بن ذي يزن، وذي القرنين لحميري، ومع ذلك فعندما تكلم أمثال عنترة وزيد الخيل وبسطام وعمرو بن معد يكرب عن أنفسهم، وفي أشعارهم، لم يتجاوزا الصدق،

ولم يفتعلوا الخوارق، وعاشوا بشرًا كرماء بالبطولة الصادقة، فلم يتألهوا، ولم يؤلهم أحد، وظلوا بين جماعتهم من العرب بشرًا حتى إذا ما وصلت فعالهم بعد الإسلام إلى أرض الشرق والترف، والجلوس والأساطير، أصبحوا في الأساطير أبطالا يخترقون الحجب، ويخرقون السنن، كآلهة اليونان وأشد فتكا، بينما لم يتحدث عنترة عن نفسه في أعظم ما فخر به إلا بكلمة "لو" حين قال في وصف بعض وقائعه:

إن المنيـــة لـــو تمثـــل مثلـــت ... مثلـي إذا نزلـوا بـضنك المنـزل

والخيـل سـاهمة الوجـوه كأنمـا ... تسقي فوارسها نقيـع الحنظل

وإذا حملت على الكريهة لم أقل ... بعد الكريهة ليتني لم أفعل!

ثم ظهر بالإسلام بين العرب المسلمين أبطال مقربون إلى الله، أصدق فعالا، وأبعد منالا، وأعظم في حياة الإنسانية أثرا، فبينما ظلت سيرة هؤلاء في وعي المؤمنين الصادقين هي سيرة البشر الذين لا يضاف إليهم بالتخييل، ولا يطمس جلالهم بالتكذيب، لتبقى حياتهم من أول حياة النبي — صلى الله عليه وسلم — أسوة، وقدوة، وحجة على الحق وشهادة — فإن هناك من سبقوا إلى عدد من هؤلاء الأبطال الأبرار فافترقوا عليهم بالأقاويل، وأخرجوهم في أكذب الوهم عن بشريتهم، كاذبين على الله، وعلى الناس، وعلى الأجيال.. ولا تزال الفتنة تمد أذرعها وراء أمل الغزاة لمعتقداتنا من أجل سرقة مواردنا — أن ينقلوا أكاذيبهم عن هؤلاء الأبرار من مرحلة الأسطورة إلى ساحة المسرح والمسرحية تحت عنوان جديد للغواية والتشتيت والاختلاف هو "المسرح الإسلامي"!!

إن هؤلاء الغزاة يحتالون اليوم بكل مخططاتهم، لكي ينتقلوا بالعقل العربي من منطقة الأمن النفسي بالإيمان إلى الإصابة بمثل ما هم فيه من القلق بالإلحاد، والصراع بالتناقض، وتحريك العالم بالتمويه —

والعرب معهم — تحت شعارين يتقابلان عند كارثة محققة للبشر: الشعار الأول للأقوياء العمالقة وهو "الطعام والقول قبل الأخلاق"، والشعار الآخر للأقزام والمتخلفين وهو "المتعة والاستهلاك والهلاك قبل الإنتاج"..!

هذا بينما جذور "السلام النفسي" في عقيدتنا منذ القدم هي التي تثمر "السلام الاجتماعي" في حاضرنا بالجواب الصحيح عن كل الأسئلة.. أسئلة من نحن؟.. وماذا نريد؟.. وكيف نحقق ما نريد؟

في الجاهلية على تفرق روافدها، وأهوال تفرق كلمتها كان السلام النفسي حتى في معمعان القتال الذي كانوا يسمونه "يوم الكريهة" سائدا جميع النفوس.. لم يكن هناك مع الوضوح والصدق والفاعلية قلق، أو خوف، أو اكتئاب.. لم تكن هنا رغبات لم تتحقق، أو آمال بعيدة عن التحقيق.. لم تكن هناك أمراض ضياع أو عصاب أو ذهان أو شيزوفرينيا.. التي هي جميعًا بعض حصاد مجتمعات الرواية الخيالية، وتكذيبات المسرح، ومهيجات السينما للأعصاب، والمطامع والنزوات.

يقول طرفة عن سلام نفسه ووضوح قصده له:

لعمري ما أمري علي بغمة نهاري ولا ليلي علي بسرمد

ويقول قيس بن الخطيم في نقاء نفسه من أي مخزون للرغبات المحطمة:

متى يأت هذا الموت لا تلف حاجة لنفسي إلا قد قضيت قضاءها

ويقول الشاعر القديم في حال السوية الصحية بين نفسه وبدنه وزمنه:

كأنك لم تسبق من الدهر ليلة إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب

ويقول أيضًا:

فإن تأتني الدنيا بيومي فجاءة تجدني وقد قضيت منها مآربي

فإذا حدث مرة أن تردد قرار النفس والقلب بين أمرين متقاربين فإن عبد قيس بن خفاف البرجمي يوصي بقوله:

وإذا تشاجر في فؤادك مرة أمران فاعمد للأعف الأجمل

وقضية الخيار بين أن يأخذ العرب بمنهج دينهم وأصالتهم وآدابهم في الصدق سلوكًا وقولا وتعبيرًا، وبين عزوفهم عن هذا المنهج المتكامل في حياتهم بأبعاد الصدق والأمانة والحمد ليأخذوا بأعراض مرض النفس الوثني، وسقام العقل الصراعي، في القصة والمسرح.. إن قضية هذا الخيار لم تكن واردة قط منذ أول احتكاك بين الحضارة العربية المرشدة والأوهام اليونانية المجردة.. فإذا كانت بظروف الغزو الفكري المعاصرة قد أصبحت شجارًا في نفس بعض المثقفين العرب، أو أشباههم، فلن تكون القصة الخيالية أو المسرحية، بجوار الشوامخ البانية للإنسان الحر الصادق المؤمن في الآداب العربية - هي من الأعف.. أو من الأجمل!!

السلام والحب:

يبقى من دلالات هذا الشعر العربي في الجاهلية، وهو حصيلة ما سبقت الإشارة إليه من معرفة الله بصفاته، ومن حياة المعروف والصدق والحمد في مقاسمة الأموال، والحرية والمساواة، والتقدم والتدافع، وسلام النفس والمجتمع - ما تحتم به الرد من دلالات هذا الشعر على العرب الذين أخطأوا دراسته، أو أساؤوا تأويله، أو تقبلوا في فهمه مفتريات الشعوبية والمستشرقة، وهم يدورون معهم حول "أكذوبة" صارخة تزعم أن المجتمع العربي كان قبل الإسلام مجتمع لصوص ونهابين وسراق، لا يعرفون الله، ولا يقيمون العرف، ولا يحفظون الأعراض.. وهم دون أية مجتمعات عرفتها البشرية فيما اقترفوه من عجائب الموبقات.. وصور العدوان!!.. وإنه لذلك..

ولذلك فقط.. خرج الإسلام من بينهم!!.. أي كما تولد الحمامة من الثعبان.. والرحمة من العدوان!

إنه يبقى أن نرد على أكثر المستشرقين الذين لا يزالون يمضغون لجام لغاتهم الحديدية المفصلية، والذين يتجاهلون أن لغة العرب التي خرج منها "الكتاب" الوحيد في صدقه وعلمه في العالم الذي تعلم عليه هي برهان حياتهم قبل الإسلام بالمستوى العقلي والبياني والعلمي والحضاري الذي يجيز لهم – كما وقع فعلا – أن يتدبروا هذا القرآن المبين .. إنه يبقى أن نشير إلى أن هؤلاء العرب الذين خطوا نحو الإسلام أقرب الخطى إلى كماله كانوا في سلمهم وحربهم "أخوة متحابين" يعرف كل منهم قدر أخيه، حتى وإن كان في غير فريقه أو معسكره.. وأن محور السلم والحرب في حياتهم وقد كان هو الصدق، والمعروف، والوفاء بحق الله. إنما كان يدور بهم في هذه الحياة الصادقة على تقويم حركة جماعاتهم المختلفة، كلما بدر من فرد منها أو جماعة... ما يعد خروجًا على ما تراضوا به دينًا وأخلاقًا من مقاومة الظلم، وأداء الحقوق، ودفع أي ظاهرة لسلطان رجل أو طبقة، حتى تبقى السواسية فيهم هي عصمتهم ليقولوا ما يعتقدون، وليفعلوا ما يقولون.

هكذا كانت كل الحروب والأيام التي شهدها العرب في جاهليتهم أو إسلامهم هي حروب تقويمية على المعروف ودين إبراهيم في الجاهلية، وعلى الإسلام وشريعته الكاملة بعد الإسلام، مهما اختلف الاجتهاد.. وعلى هذا الأساس ظهر حلف الفضول في مكة لرد الظلم عن أي مظلوم قبيل بعثة الرسول، وعليه أيضاً كفل أبو طالب محمدًا ومنع قريشًا منه مع امتناعه عن الإيمان به، وعليه كذلك قام رجال من قادة المشركين في مكة وهم هشام بن عمرو وزهير بن أبي أمية والمطعم بن عدي وأبو البختري

بن هشام وزمعة ابن الأسود فوقفوا في وجه قريش عندما حاصروا المسلمين في أحد شعاب مكة، وتعاهدوا على منع التعامل معهم البيع أو الشراء حتى كادوا أن يهلكوا، فنقضوا صحيفة هذا العهد، وحملوا إليهم الأطعمة من أموالهم، وأخرجوهم من حصارهم... وهم لم يؤمنوا بعد..

لقد كان السلام والحب والتقويم على أخلاق الدين والمعروف، والسواسية والمقاسمة، هي عمود حياة هذه الأمة، ولذلك فقد كانت حروبها على غير صورة تلك الحروب التي عرفتها شعوب الحضارة الوثنية.. والتي لا تزال نعرفها.. كانت حروبًا من أجل الحق بغير افتعال، وإن أخطأوا الاجتهاد.. كانت حروبًا بين الأخوة الذين يصدق كل منهم علمه بأخيه، ويحفظ بشهادته قدر أخيه، وإن قائله عند مس الحقوق، أو التجاوز عن العدل إلى الجور.

من أجل هذا كما لم يحدث قبل وبعد في حروب الجماعات، وصدام الأفراد، أن القاتل كان يبكي قتيله ويرثيه.. ويرى أن ما فعله كان ضريبة دفع الظلم، ومقاومة الطغيان، عند أول بوادره حتى لا يستفحل.. وفي هذا المعنى من السلام والحب حتى تحت غبار الحروب يقول قيس بن زهير يرثي حمل بن بدر بعد قتله في معارك حروب داحس والغبراء.. وهو مع رثائه يبكي على فضله ويتفجع:

تعلم أن خير الناس ميت ... على جفر الهباءة لا يريم
ولولا ظلمه مازلت أبكي ... عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر ... بغى والبغي مرتعه وخيم

ويقول الحصين بن الحمام المري في قصيدته التي أشرنا إليها:

نفلق هاما من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ويقول مثله في مثل هذا السلام والحب تحت غبار الحرب التي خاضوها لمقتضيات السلام بالعدل:

ونبكي حين نقتلهم عليهم ونقتلهم كأنا لا نبالي

ويقول قيس بن الخطيم الأوسي في حرب سمير بن الأوس والخزرج قبيل الإسلام وقد أثارها اليهود بينهم:

لما بدت نحونا جباههم حنت إلينا الأرحام والصحف

وكانت قمة هذا الحب لقومه وهداهم في دعاء النبي لهم وحزنه لعنادهم في قوله تعالى ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ أي قاتل نفسك أسفًا عليهم.

الفصل الرابع

عرب مصر والشام

رفضـــوا المسرح قبل الإسلام

شهادة التاريخ:

ليست هذه هي المرة الأولى التي يواجه فيها الوطن العربي أوروبا المسلحة بأطماعها، وثقافتها التي تعمل بالترويج لها، وزرعها هنا وهناك وسط جاليات أوروبية أو عميلة، لتكون تمهيدًا وسندًا ومخدرًا لغيبوبة تتم خلالها سرقة حقول القمح، والكروم، وطرق التجارة العالمية، والتوسع في حالة من "الدفء" جنوبًا وشرقًا.. على حساب العرب!

وهكذا يمكن أن نتذكر دائمًا ما جرى منذ الغازي المتألة الإسكندر المقدوني، وتلميذ أرسطو، والذي سجد لآلهة المصريين في سيوة، من أجل أن يخضعهم بالسيف لما توهم أنه يستطيع بالقوة العسكرية الخاطفة أن يشيد إمبراطورية الثقافة اليونانية أو الهيلينية على الأرض العربية.

وكان على مصر العربية منذ أيام مينا والملوك القدماء، والتي أسهمت بشكل ظاهر في تحضير شعوب بحر أيجة، ومن بعدهم همج الرعاة الهيلينيين الذين ذبحوا سكان شبه جزيرة اليونان الأصليين من الفلاسفة، ورموا أجسامهم إلى كلابهم المتوحشة، وكانوا كما يقول المؤرخ هندريك فان لون "على جانب كبير من انحطاط الخلق" — كان على المصريين تحت حكم الإسكندر والبطالسة والملكة الغانية: كليوباترا — أن يدافعوا بعد احتلال أرضهم، وتبجح سادتهم الذين تعلموا القراءة والكتابة على أيديهم فلم ينتفعوا بها إلا في كتابة الأوهام وشعر الدجل والتعاظم والخرافة — كان عليهم أن يدافعوا عن ثقافتهم الرفيعة المتمثلة في بقايا ما يتمسكون به من الدين واللغة والعطاء الحضاري.

لقد حاول المصريون أن يقوموا بالعديد من الثورات على غزاتهم، ولكنهم لأسباب كثيرة مع قدرتهم على طرد الأعداء لم ينجحوا في تحقيق هذا الهدف، على أنه رغم كل شيء، وهو ما يهمنا إثباته في هذا الكتاب، فإن حرب الاستهواء والتفكيك الداخلي للهوية المصرية لم تحقق هدف الإغريق في جميع مجالات الفن والثقافة، لقد بقيت الهوية المصرية خالصة للمصريين، واعتزل الإغريق بفنونهم في مستعمراتهم السكنية، وفي الإسكندرية، وأدركوا عقم المحاولات التي يمكن أن يبذلوها في سبيل محو الشخصية المصرية المعبرة عن ذاتها في آدابها وفي فنونها وبخاصة في فن النحت.

وفي كتاب تاريخ الحضارة المصرية — لوزارة الثقافة والإرشاد — يرد هذا النص الذي يؤكد نجاح المصريين تحت حكم البطالمة وخلال أكثر من ثلاثة قرون في أن يحتفظوا بمعتقداتهم ولغتهم وطرازهم الفني، رغم الجهود التي بذلها دعاة التوسع الهليني الثقافي من الإغريق لإذابة الفنون المصرية بمزجها بالطراز الإغريقي، بل محاولتهم مزج الجنسين أيضا. بالتزاوج المختلط، وهي محاولة لم تنجح بالتأكيد.

يقول هذا النص في كتاب "تاريخ الحضارة المصرية":

"ولا ريب في أن الفن البطلمي يعطينا صورة صحيحة عن الحياة الاجتماعية في مصر في عهد البطالمة. لقد شهدنا أن غالبية الفن الإغريقي، وغالبية الفن المصري كانت إغريقية خالصة، أو مصرية خالصة، ولذلك لابد أن أغلب الإغريق وأغلب المصريين قد ظلوا خالصين في جوهرهم"!

وفي ملاحظة أخرى في هذا الكتاب للدكتور إبراهيم نصحي يقول: "ولعل أولئك الفنانين الذين حاولوا في عصر البطالمة مزج الطرازين المصري

والإغريقي في فن النحت يشبهون الموسيقيين المصريين الذين يحاولون اليوم عبثًا مزج الموسيقى الشرقية بالموسيقى الغربية"!

وننتقل مع الدكتور إبراهيم نصحي بعد ذلك إلى صميم القضية التي نناقشها في هذا الكتاب حول الغزوات الأوروبية الصريحة لآداب الوطن العربي ولغته وفنونه، حيث يقدم لنا وجهة نظره الصحيحة بعد تحليل ذلك الصراع اليوناني السابق:

"إنه لم توجد إلا طريقة واحدة ناجحة لمزج هذين الفنين.. يعني فن النحت الإغريقي وفن النحت المصري — اللذين كانا يختلفان عن بعضهما اختلافا بعيد المدى، أما هذه الطريقة فهي أن يفنى أحدهما في الآخر بأن يتغلب أحدهما بحيث يقضي على الآخر قضاء مبرما، لكن ذلك كان عزيزا أن يتعرض له الإغريق باعتبارهم السادة المحتلين، وأصحاب حضارة يفاخرون بها غيرهم. كما كان عزيزا أن يتعرض له المصريون أيضا، فقد كانوا لا يزالون يذكرون مجدهم القديم، ويعتزون بتقاليدهم، ولاسيما أن الفن عندهم كان وثيق الصلة بالديانة، وأنهم كانوا شديدي الاستمساك بديانتهم".

وينتقل نصحي من هذا إلى ما يؤكد قيام المسرح بدوره في فترة الاحتلال الإغريقي، وأنه برغم أن البطالمة الحاكمين قد استخدموه في كل أنواعه الاستعراضية والإضحاكية فإن ثقافة المصريين لم تتأثر به، واعتبروا بصدق أن المسرح هو "معبد" ديانة الغزاة حيث يقف الكهنة والكاهنات في ملابس التمثيل ليقرأوا ما حفظوه نم شرائح وصفحات ديانتهم الاضحاكية والإبكائية التي يفسرون بها الحياة!

يقول الدكتور إبراهيم نصحي في هذا الكتاب "تاريخ الحضارة المصرية" عن هذا الجانب المسرحي: "ويتبين من الوثائق البردية أن الإغريق

بوجه عام كانوا يميلون إلى إشاعة البهجة في نفوسهم بإقامة الحفلات الخاصة بأعياد الميلاد، أو المناسبات الاجتماعية، كما كانوا في الأعياد الدينية، وأعياد جلوس الأباطرة على العرش، وأعياد ميلادهم، كانت تقام حفلات عامة تتخللها الاستعراضات والمهرجانات.. وكانت توجد حتى في عواصم المديريات "مسارح" أو قاعات للموسيقى، كانت تمثل فيها الكوميديات الشعبية، والتمثيليات الهزلية، ومن حين لآخر روايات من التراجيديا الكلاسيكية، ومن الكوميديا الجديدة، وكانت تجوب البلاد أيضا فرق للموسيقى والرقص والألعاب البهلوانية".

هكذا منذ أكثر من ألفين من السنين كانت تسير قوافل الثقافة مجهزة بأسلحتها وبطاريتها من الاستعراض والهزل و"الهلس" والمسرح الضاحك الشعبي، والمسرح الطبقي المختال، مع فرق محشودة للدعاية والإذابة والغواية من الممثلين والممثلات، والراقصين والراقصات، ومعهم خمورهم وزمورهم، وخططهم وأهدافهم.. فماذا صنعوا في قلب مصر وعقلها.. وإلى أي حد نجحوا في استخفاف سمعها وبصرها!؟

يقول الدكتور إبراهيم نصحي فيما هو جزء من شهادة التاريخ التي تؤكد في كل أطواره أن الشعب العربي في مصر، وفي غيرها من الشعوب العربية، وهم أصل الحضارة في العالم، أكثر تمسكًا بمقومات حضارتهم تحت أي قهر، وفوق كل إغراء:

"وإذا كانت الأمية فاشية في عامة الإغريق، فقد كانت فاشية كذلك بين جموع المصريين – المحكومين – الذين استمروا يعيشون كما كان أجدادهم يعيشون من قبل، محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم، مستمسكين بديانتهم إلى أن اعتنقوا المسيحية.."!!

عهد الرومان:

وكانت فرصة الرومان الذين ورثوا اليونان في مصر والشام، وأطالوا برسائلهم البربرية ومذابحهم مدة استعمارهم – أكبر في محاولة تفكيك الذات العربية من طريق الملاعب والمسارح التي توغلوا في إنشائها إلى أعماق المملكة العربية النبطية، التي كانت حدودها تتاخم كلا من المدينة ودمشق وخليج السويس.

لقد استولى الرومان على البتراء عاصمة المملكة النبطية جنوب فلسطين بعد مقاومة شديدة فسقطت في أيديهم في عهد الإمبراطور تراجان سنة 106 ميلادية.

في هذه المدينة الحصينة وسط الجبال، والمنحوتة في قلب الصخر أنشأ الرومان مع ما أنشئوه من مباني الحكم واللهو "مسرحا" داخل ملعب واسع منحوت في الصخر على شكل نصف دائرة، ومؤلف من ثلاثة وثلاثين صفا من المقاعد بعضها فوق بعض بهيئة درج يسع نحو 3000 شخص.

وفي سيناء المصرية يوجد في "الجورة" شرقي العريش وجنوبي رفح في طرفها الشرقي خرائب متسعة من عهد الرومان.. وبها آثار قلعة وأبنية باذخة مبنية من الحجر كما أن بها آثار بئر رومانية، ومثل هذه الآثار موجودة في وادي العوجاء حيث لا تزال هناك إلى اليوم آثار مدينة متسعة، من عهد الروم البيزنطيين، وبهذه المدينة ملاعب وآثار كنيسة وقلعة وآبار.. وكل هذه الآثار وأمثالها في قلب طرق القوافل التي يقودها العرب آلاف السنين قبل الإسلام – تؤكد أن العرب سواء منهم البدو، أو الحضر، قد شاهدوا مسارح الرومان، كما شاهدوا من قبل مسارح اليونان، في الإسكندرية ودمشق، والبتراء، وفي قلب صحراء سيناء المصرية.. فماذا تركت هذه

الهياكل الوثنية التي تمتع بها الغزاة المتألهون بما يوافق طباعهم، ونزوعهم العدواني والترفي – في نفوس العرب الذين ألقوا عليها من بعد نظرة زراية صامتة ومضوا على طرق تجارتهم!

لقد كان الرومان يتلهون في ملاعبهم ومسارحهم، وأيديهم مخضبة بدماء ضحاياهم، بينما على مبعدة منهم، وفي خفية من أعينهم كان رهبان مصر يفرون بدينهم من مذابح هؤلاء البرابرة الذين لم ينههم شيء في آدابهم، أو مسرحهم، أو شرائعهم. عن الشراهة للقتل.. بل والتلذذ بتعذيب القتلى من الأبرياء.. والأبرار.. وأي حضارة في العالم، وفي كل عصور التاريخ أخرجت مثل نيرون ودقلديانوس.. إلا أن تكون هي الحضارة الأوروبية نفسها في طور متقدم من أطوارها كهذا الذي خرج منه أولئك الذين أبادوا الهنود الحمر.. وشعوبا في أفريقية وآسية.. وكما خرج هتلر.. وتلامذته الذين تتلمذوا عليه بذبح العرب في فلسطين من عصابات صهرون!!

المدفأة والشمس:

لقد ظهرت المسارح، وما حولها من أجواء العربدة، وضجيج السكاى، وخيلاء الغزاة، قرونا طويلة فوق أرض العرب. لقد ظهرت في عواصم البلاد فلم تكن خافية عن مواطنيها المتحضرين بها، وظهرت في الصحارى المحيطة بالجزيرة العربية، وعلى طرق القوافل الرئيسية بين مصر والشام والحجاز كما كان ذلك واضحا، ولا تزال آثاره قائمة في سيناء، حيث شاهدها ومر بها العرب البداة من مختلف القبائل والأصقاع.. والجميع بدوًا وحضرًا بين العرب لم يلتفتوا إليها، ونسبوها بحكم قاطع صادق إلى مصدرها من العقائد والثقافات الوثنية.. فهل كان هذا الحكم لأن هؤلاء العرب من بدو وحضر كانوا يومذاك بدائيين ومتخلفين!؟

إن الحكم المختلق ببدائية العرب وتخلفهم وقد كانوا أرقى الشعوب قبل الإسلام وبعده فكرا ومنهجا جماعيا للحياة بدلالة لغتهم وشعرهم هو حكم كان ولا يزال قاصرا على دعاة الغزو للوطن العربي، والمأجورين لهم من بعض المستشرقين والمبشرين وغيرهم، وهو حكم لا يستحق – مع سقوطه بكثرة الشواهد – أن يكون دعامة لعبث بعض الأجيال المعاصرة من الأدباء أو المتأدبين العرب بمقومات هذا الشعب الإنساني في لغته وآدابه، ودينه وخصائصه، وذلك عندما يروجون بكل الحماقة والتدليس لفنون تهدم قواعد هذا الشعب ولا تبنيها، وتدمر ملكاته الطبيعية، وثرواته الحضارية، على طريق فنائه في غيره، وفقدانه لشخصيته وذاته.

لقد حكم العرب القدماء حكمهم القاطع والصحيح على أنماط فن المسرح الذي ارتفعوا بآدابهم ودينهم عنه، ولقد كانوا بهذا الحكم أهلا لإصداره على من دونهم دينا وحضارة وثقافة. ذلك أنهم حين أصدروا هذا الحكم قبل الإسلام وبعده كانوا قبل الإسلام شعبا من الشعراء، لا فرق في ذلك بين الرعاة والحكماء، والرجال والنساء، وكانوا إلى ذلك شعبا من المثقفين، بل كانوا جميعا في مجال علم اللغة التي نزل بها القرآن، وتصريف القول بها تصريفا يدخل إلى اليوم في كتب تعليم اللغة ودراسة نحوها ونظامها ومفرداتها فوق مستوى من نضعهم اليوم في القاهرة ودمشق وبغداد أعضاء مبجلين في مجامع اللغة العربية.. فكيف لا يكون حكم هؤلاء في قضية من قضايا التعبير بلغات مقابلة وناقصة جديرا بالدراسة والاعتبار؟!

كذلك كان هؤلاء العرب بعد الإسلام فوق ما تميزوا به أقدر على تبصر المدلول الإنساني والعالمي لدينهم وثقافتهم، وآدابهم وأخلاقهم. لقد خرجوا في وحدتهم لإزاحة كابوس ومظالم وجهالات حضارة الإلياذة،

والمسرح، والاستاديوم، الذي يلقى فيه الإمبراطور بالأسرى والمسيحيين إلى وحوشه الكاسرة!.. ولقد بلغوا وهم يغيرون العالم سلما، وفي ومضات من زمن، وفي واقع حي باتجاه الأفضل والأقوم – فوق ما كان يمكن أن يحلم به في أغرب أحلامهم جميع مؤلفي المسرحيات اليونان والرومان والبيزنطيين.. بينما كان هو نفس الطريق والمسار كما تنبأ به إبراهيم وإسماعيل قبل فلاسفة اليونان العشرة قبل سقراط، وكما نزل به القرآن على محمد بهذه الرحمة للعالمين، في جهاد من باعوا أنفسهم وأموالهم لله من المؤمنين.

لقد عرف العرب بأصالتهم قبل الإسلام، وشرائع الله إليهم بعد الإسلام، أن عبقريتهم وسلامتهم في لغتهم ودينهم، وقد جمع الله لهم ذلك في كتاب خالد حي هو القرآن، وبالقرآن وتحت رايته تحققت لهم مع فيض التسامح مع أعدائهم، ومع تجديد صورة العالم الكئيبة والقائمة تحت سطوة الجبابرة، مغلقي العقول، طوال الشهوات – صور أخرى من سواسية البشر، ومن التعامل بأخلاق الدين من الأمانة والعدل والمحبة في الشارع والسوق، والمسجد والمدرسة، والمكتبة والحمام، ومن نشر الثقافة العربية الإسلامية بين كل الناس في الوطن العربي، وفي الأندلس، وجزر البحر الأبيض، وأكثر بقاع أوروبا، وفي قلب أرض اليونان والرومان، حيث أدرك الجميع وهم ينتفضون من الدفء والأمن والحيوية واليقظة، وينتظمون بأفكارهم ومشاعرهم مع نظم إيقاع جديد، أصدق وأحب وأبعد مدى – لقد أدركوا أن شمسا حقيقية أضاءت أرضهم، وأذابت ثلوجهم، وأزالت مخاوفهم، ودفعتهم بأمل أقوى إلى حياة أروع، وعلوم أنفع.

لقد قال بهذا القول عشرات ممن تصدوا لأثر حضارة العرب المسلمين على أوروبا من الأوربيين الذين لا يزالون يدرسون إلى اليوم في الجامعات

الأوروبية آداب العرب وشرائعهم، وما قدموه للعالم الأوروبي لأول مرة في تاريخه من مبادرات الإسلام القرآنية في مجال "حقوق الإنسان".. ولكن هناك أيضا من أدركوا مثل تولستوي وبرناردشو وجوستاف لوبون والألمانية الواعية سيجريد هونكه مدى الخلاف الجذري بين ثقافة العرب بمقوماتها السارية معها منذ فجر التاريخ إلى اليوم وبين الثقافة الغربية في أصولها الممتدة فيها منذ هجرات شعوبها من أواسط آسيا وشمالها حاملين خصائص لغاتهم وفلسفاتهم ومناهج تفكيرهم من الوثنية الهندوأوروبية.

تقول سيجريد هونكه في كتابها المنصف "شمس العرب على الغرب":

"وإذا أضفنا إلى هذا الموقف الكريم الذي وقفه العرب المسلمون من الشعوب التي انضوت تحت رايتهم هذه المثابرة على نشر الثقافة العربية الإسلامية وهي ثقافة تختلف في جوهرها عن هذا الطلاء الـ ليني أو القشور الرومانية ازددنا تقديرا وإعجابا بالعرب"!

نعم.. لقد صدقت سيجريد هونكه في وصف طبيعة الثقافة والفلسفة اليونانية بالطلاء، كما وصفت جهد الرومان الثقافي والقانوني بالقشور.. طالما كان محتوى هذه الثقافات هو العجز عن تفسير الوجود تفسيرا علميا صحيحا يتحرر به الإنسان من القهر لغيره، أو الخضوع لغيره.. وطالما أن التعبير عن هذه الثقافات كان مصدره الخطأ في تصور الواقع، وكانت أداته دائما مفكر "يتفلسف" داخل حجرة، وبجوار "مدفأة" معزولا عن الحقائق التي يحثها بتشويش أطماعه ومخاوفه، وبعجزه الكلي عن أن يكون – فيما عدا الإحساس بالجهل – تعبيرا عن جماعته التي تختلف أكثر مما تتجانس.. هذا إلى أن هذا المفكر الذي يبيع فكره لسادته كان يستخدم في رصف أفكاره لغته الهندوأوروبية، الفاقدة للحياة

والحركة الذاتية.. اللغة التي تتألف كلماتها بطريقة إضافية وتركيب قطع جامدة، توزع دلالتها المعنوية بالجملة، وهي طريقة التشييد للكلمة بإضافة مقطع في صدرها، أو مقطع في عجزها، كما لو كانت هذه الكلمات أجزاء من قطع معدنية ثابتة الدلالة، وعلى هذا فمن المحتم دائما في الكلمات الأوروبية المركبة من صوادر مثل Anti بمعنى: ضد وهي في الإغريقية Andi، ومثل Poly, في الإنجليزية والإغريقية بمعنى: متعدد، والمركبة من كواسع أيضا أي من نهايات للكلمة مثل Ness للمصدر وSome للصفة.. إنه من المحتم أن يواجه السامع أكثر من معنى مستقل بنفسه في الكلمة الواحدة، وإن كان هذا المعنى مربوطا بمفصل مقطعي إلى معنى آخر وثالث كما يربط الأسرى، وإن عليه أن يقوم بعملية ذهنية إضافية ليمزج بها هذه المعاني لتعبر عن حصيلتها الممكن تصورها أخيرا من خلط ورج معاني هذه الكلمات المفصلية بعضها ببعض.

على سبيل المثال كلمة: Antiaircraft المكونة من المقاطع Anti بمعنى ضد وAir بمعنى هواء وCraft بمعنى مركب، فالمعنى المفصلي لهذه الكلمة هو "ضد هواء مركب" أو "ضد مراكب الهواء" وأما المعني التحصيلي للمقاطع الثلاثة فهو "مقاومة الطائرات المهاجمة"!.. فأي تشويش في التفكير، وأي غموض وقصور في المعنى يلازم مثل هذه اللغات المفصلية، الجامدة وغير الحية، والتي يتم استعمالها بهذا القصور الناطق، في أعظم شئون الحياة، في غير جلاء أو يقين، كأنها الأطراف الصناعية!!

وأين هذه اللغات المفصلية التي تتجمع معانيها من حصيلة الإيماءات والإشارات بالقياس إلى اللغة العربية الحية المبينة التي تتوالد بالاشتقاق الخصب، لتقدم في سباقها مع علم الإنسان ويقينه وشعوره كل ما هو

بحاجة إليه من اللفظ الذي يشرق بداخله معناه، كأنه خلق به منذ الأزل، وإن كان وليد لحظته، وبديهته.

فإذا كانت هذه اللغات، مع انقراض بعضها، واقتراض بعضها من بعضها، وتزايد المفصليات في مركباتها المهمة، وبلوغ أصحاب هذه اللغات في هذا العصر أقصى ما يسوق إليه التحجر بالإلحاد، والإخلاد إلى الأرض، والعدوان على الإنسانية، والتجارة بالحرب، والتهديد بتدمير العالم، والغرق في أمراض النفس والجنس.. وإذا كانت آدابها قد أفلست، ومسارحها قد انطفأت، وتجارة السينما بها قد دخلت مرحلة الحرب اللاأخلاقية على الأخلاق، والتجارة العلنية بالدعارة.. فهل هؤلاء في مراحل احتضار حضارتهم هم الذين نفرض على لغتنا العربية الغالية أن تنحني أمام هلوساتهم بالاحترام، وأن تتبذل فيما لا تحسنه العفيفة لتنطق بالهجر، وتحترف الكذب معهم، وتميل برأسها وتهمس، وتغمز بعينها وتتأود.. وتعرض مآثرها ومفاخرها للسكارى واللصوص.. وتبيح حصانتها طهارتها للتمثيل والتنكيل!؟.. طاعة لهؤلاء الذين بعد أن تحطمت على التجارب كل فلسفاتهم ركبوا ظهر العلم ليوجهوه إلى الإلهاء والإفناء والتدمير الشامل!؟

كيف.. وقد بدأنا نحيا وبدأوا يموتون..؟.. كيف وبرغم كل ما فعلوه قبل الإسلام من مذابح.. وبعد الإسلام من حروب.. وبعدما بعد الإسلام من مؤامرات بالكتب والنظريات، وبالتبشير والإرساليات.. لازلنا أحياء لم ننقرض.. وظاهرين في مجتمع العالم ولم ننسحق.. وواعين ونحن نسبح في بحر المؤامرات المتنوعة أن صخرة نجاتنا في اللغة، ومنارة وحدتنا وتقدمنا في القرآن.. وأن أيدي شعوبنا رغم شتاتها تتلامس، وأن مدركاتها تتقارب، وهي تتحرك صامدة باتجاه القرآن لتحيا بشريعته، وناشطة في استحياء اللسان العربي لتجتمع وتتوحد في إيقاعه.

ولئن كان هذا في بعض غفلات من وضعوا على رؤوس أفكارهم قبعات الغرب والشرق – أمرا محالا.. أو احتمالا أقرب منه أن تنفجر الأرض بنيزك في الفضاء، فلقد كانت مثل هذه الغفلات راسخة على عقول عمالقة الروم والفرس قرونا طويلة، عاثوا فيها فسادا في الوطن العربي طولا وعرضا، حتى إذا ما ضاقت الأرض على جميع من فيها بما رحبت، وأطبقت الأزمات والمجاعات والصراعات من كل جانب – أذن الله فظهرت وحدة العرب بالإسلام، من حيث لم يتوقع أحد من أقرب المحيطين بهم، والمحتقرين لشأنهم، وظهرت شمس الإسلام بالعرب، متجهة نحو العالم بدفء السلم، وفي العلم، حتى بلغت بضوئها وفيئها ودفئها أطراف الأرض.. وتضاعفت آدمية الناس.. وذاب أكثر الجليد في بلاد الظلم والجليد.

لقد كان هذا هو وعد الله قبل أن يكون.. ولا يزال هذا هو وعده الذي نسير تحته حتى يكون.. وعده في القرآن.. وسنته في قصص القرآن!

القسم الثالث

شهادة القرآن في قصصه الحق

الفصل الأول

الصدق البياني
وحركة التاريخ في قصص القرآن

إن قراءة الجانب القصصي في القرآن بوصفه أعظم المصادر وأوثقها في أيدي العرب لمنهج متميز في قص القصص باللغة العربية - تكفي للكشف عن الفارق الذي يبلغ ما بين القصص القرآني وقصص الشعوب واللغات الأخرى من الأساطير والروايات والمسرحيات - حد ما بين الجد والهزل. وما بين الصدق والكذب. وما بين الإسلام والوثنية.

ومن البداية نجد أن كلمة "القصص" في القرآن ترجع في جذرها اللغوي، ومعناها الاصطلاحي إلى ما أشرنا إليه في الفصل السابق من أصلها ومعناها في علم اللغة العربية، فكلمة "قص" و"قصص" يعنيان في القرآن الكريم تتبع الخبر والحديث على وجه الحق والصدق فيه. وهو تتبع لا مجال فيه قط للخيال أو المبالغة. كما أنه تتبع لا تقصر حكمته على الصدق البياني للخبر والصدق التاريخي، وإنما يرتبط دائما بهذا الصدق أن يكون الخبر القصصي كما يقصه القرآن جزءا حيا من حركة التاريخ، يتنزل الله به أمام أعين المؤمنين وأسماعهم، ليشهدوا ويعوا دالة السنن التي حكمت مسيرة البشر ومصائرهم في الماضي حكما علميا مقننا لا تحول فيه ولا تبدل. فالغاية من القصص القرآني ليست مجرد الإعلام بما حدث من أخبار الأمم والشعوب بالتتبع الصادق لأخبارها، وإنما الغاية أن يكون هذا القصص نفسه هاديا للمؤمنين إلى الطريق الصحيح الذي يتتبعون به خطى من سلف من المؤمنين، الذين اختاروا الهدى بالله عن علم، ونبذوا الضلالة والإلحاد عن برهان ويقين.

القرآن والتاريخ:

يقول الله تعالى في سورة يوسف: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ثم يقص الله بعد ذلك قصة يوسف وإخوته.

فالقصص الحسن هنا ليس "الرواية المتخيلة" من الواقع، وليس "الرواية المصنوعة" بمحاكاة الواقع، وإنما هو التاريخ، والخبر، وحقيقة ما كان. إنه مشاهد التاريخ في حركة وصور وأصوات ليست في حقيقتها – كما تصدر عن المتحركين والمتكلمين في هذا القصص الحق – إلا حركة القوانين التي تحكم البشر بمشيئة الله إلى غايته. إنها حركة قوانين وسنن التاريخ المستمرة في البشر – كما أرادها الله – بارزة وناطقة في مثال كامل تتحرك فيه الحياة من خلال أشخاص لا يمكن أن ننسى مواقفهم، لأنهم في جميع كلماتهم وحركاتهم لا يتجاوزون التعبير عن هذه السنن والقوانين التي تنطق فيهم، إلى التعبير عن مشاعرهم الخاصة، أو التعرض للتفاصيل التي تنتقص من كمال دلالاتهم على قانون بشري عام يسري به الزمان والمكان على جميع نوع الإنسان. ولذلك فقد عاشت هذه القصص الصادقة وهي تقنن سنن التاريخ إلى اليوم دون أن يطرأ على تأثيرها والعظمة بها أي تغيير.

البطل الحقيقي في قصص القرآن ليس إذن هو هذا الإنسان بذاته الذي تدور به أو من حوله أحداث الخبر. البطل هو القانون التاريخي المرتبط بعقيدة الإنسان وأخلاقه وسلوكه . . البطل هو هذا القانون الذي تظهر نتائجه في أقوال وأفعال الإنسان المؤمن أو الكافر صحيحة الآثار في الجماعة التي تعبر عنها، أو التي يعارضها.. البطل مثلا ليس يعقوب وأولاده، وإنما هو "الهداية" في يعقوب و"الردة" في أولاده.. البطل ليس يوسف وصاحبته وإنما هو الطهارة والأمانة في يوسف والشهوة والخيانة في صاحبته.. وهكذا في مختلف المواقف يكون الإنسان بهداية الإيمان أو ضلالة الكفر رمزا لقانون يحكم، وينطق فيه.

من أجل هذا لم يكن الإنسان كما يقدمه قصص القرآن شيئا مذكورا من أجل استعراض آلاف الاحتمالات المتخيلة لقوته أو ضعفه.. وإنما هو إنسان مذكور داخل جماعته، ومن أجل جماعته، ولا يترتب على ذكره إلا صالح هذه الجماعة، فليس لمواقف بطولته وشجاعته – في الواقع الصادق – أية امتيازات كتلك التي يقتضيها الأبطال بين الوثنيين من شعوبهم إلى حد التألية، واستباحة الطغيان، سواء في الأسطورة، أو واقع الحياة.

البطل في منهج قصص القرآن هو الأسوة لغيره، وهو القدوة لمن يقتدي به، لأنه أعطى برهان القانون التاريخي في قوله وعمله على أن الإيمان هو الطريق الصحيح لمسيرة البشر نحو هدف جماعي، وتقدم علمي، ونصر محقق.

بهذا أسقط منهج القصص القرآني نظرية التاريخ التي تجعل "بطولة الأبطال" بمفهوم الغزاة وقادة الجيوش العدوانيين هي محور أحداثه وأخباره، كما أسقط نظرية "الصراع" التي تربط أحداث التاريخ بهذا التسابق نفسه بين الجبابرة والمتسلطين على الغزو فيما بين دولة وأخرى، أو معسكر ونقيضه، كما جرى ذلك قديما وطويلا بين الروم والفرس، وكما يجري اليوم بنفس المفهوم بين الشرق والغرب.

كذلك فإن القرآن عندما أثبت في قصصه حقيقة السنن التي لاتتحول في حركة التاريخ فإنه لم يأخذ في هذا مظاهر النظرية التي تقول بدورة التاريخ وإنما أرسى في بيانه عن الحتمية في سنن التاريخ هذه الأسباب والعوامل الثابتة والمتجددة مع ثباتها، والتي تحيا بها الأمم وتزدهر، أو التي تسقط بها الأمم وتتحطم.

إن منهج القصص القرآني يؤكد أن الإيمان الذي يقيم السواسية، ويجري به تقاسم الأموال، واليقين بالحساب عن الأعمال، وباستمرار الحياة بعد الحياة — هو مصدر قوة الأمم، وقاعدة أمنها وازدهارها، كما يؤكد أن الأمم لا تسقط بعد إيمانها وقوتها إلا بالترف الذي يجرها إلى الكفران، ويدفعها إلى التعاون في العمل، وإلى اللهو والشذوذ، وإلى السخرة للآخرين والاستغلال لجهودهم، وسرقة حاصل أعمالهم. وهذا المنهج واضح في مخالفته للنظريات الأوروبية في دورة التاريخ من حيث أن هذه النظريات لا تزال تضع "الرفاهية" هدفا بارزا وأساسيا أمام القوى المسيطرة والموجهة للنظم الاجتماعية المختلفة التي أحلت "الفلسفات" والنظم الحزبية محل الإيمان وشرائعه وحقائقه في البناء السَّوي لمجتمع الإنسان، وبذلك فإن هذه النظم: رأسمالية كانت أو شيوعية أو صهيونية تستعجل دائما مع نجاحها الشكلي والتنظيمي أسباب انهيارها الاجتماعي والإنساني والحضاري.. وذلك بسبب هذا السباق على "الرفاهية" التي لا يمكن أن تتحقق إلى بطبقة، والتي لا يمكن أن تجمع الشعوب والنظم بين استهدافها — أي الرفاهية — وهي "ترف قاتل" وبين استهداف الهدف الإنساني الأعظم الذي احتفظ به الإيمان وهو: أخوة الإيمان التي يتقاسم بها المؤمنون نعمة الحرية والمسئولية والرخاء.

العجمة والوثنية:

من أجل هذا لم يتناول القرآن في قصصه ذكر الشعوب الأعجمية وقد كانت على امتداد الذراع من أطراف الجزيرة العربية، وكانت تملأ الأرض من حولهم ضجيجا وظلما، ومواكب وجندا. ذلك لأنهم كانوا وهم يمضغون بالعجمة لجما في أفواههم لا يبينون عن حق، وكانوا بصراعهم على الرفاهية قد أذلوا كثرتهم، وعبدوا ملوكهم، كما انهم وقد فقدوا

تصور الحق ونزلوا عن مستوى التوجه إلى الله الحق عاشوا يتلمسون الحقيقية التي فقدوها في التقلب بين باطل وباطل، وظاهر وباطن، ولفظ ومعنى لا يؤديه اللفظ، ومعنى لا لفظ يدركون به هذا المعنى..!

هكذا عجزت تلك اللغات الأعجمية في شعوبها، ولا تزال تعجز عن أن ترتقي بنظامها الصوتي، ولغاتها المفصلية، التي يخرج بها ناطقها عن واقعه إلى إله أعظم فوق مستوى الآلهة المجسدة، أو القوى البشرية المعبودة، وبذلك انتكست هذه الشعوب عن قدرة الإشارة إلى الله الحق، ومن ثم عن قدرة الاعتدال والنهوض من نكستها بقوة الإيمان، فهي تتقلب تحت القاع من أقدام أباطرتها وملوكها، لا ترى في السماء سلطانا غير سلطانهم، ولا تعرف حافزا للعمل في الأرض إلا حافز الطاعة لهم. والتسابق بهذه الطاعة إلى فتات موائدهم، وإلى نعمة الرضى من كهنتهم، وإلى متعة الحياة على حافة نهر الخمر، وبحر الأساطير، كما ينبع ذلك ويجري من قصورهم، ومعابدهم، ودياناتهم.. فأي قصص كان عن هذه الشعوب التي تعيش الموت، وتضحك للعذاب، وتصفق للذل – يمكن أن تنفع ذكراه المؤمنين إذا جاء به القرآن!؟

لقد كان جليا أن قصص القرآن الكريم، وقد جاء لتذكير الغافل بلسانه المبين إلى تاريخ آبائه في قصة الدين الإلهي وليس الوضعي – لم يذكر شيئا من التاريخ أو القصص أو الأخبار – ولا كلمة – عن حياة الفرس أو اليونان أو البيزنطيين، الذين شغلوا كل كتب التاريخ الأوروبي.. إنه لم يذكر اسما لكسرى، ولا سيما لقيصر.. إنه لم يشر إلى أية عاصمة باذخة قام بذخها على مجاعة المستضعفين والمستعبدين والفلاحين، من عواصم أو مدن الفرس مثل المدائن والقادسية ونهاوند.. أو من تلك المدن المغلقة على علوم اليهود السرية وفلسفات اليونان الوهمية، والمدفونة عند

تلك الحدود الفاصلة بين فارس والروم على أرض العرب مثل "جنديسابور" جنوبي نهر دجلة، ومثل "نصيبين" ما بين دجلة والفرات شمال الموصل، ومثل "الرقة" على نهر الفرات على مقربة من "صفين" وشرقي "حلب".. ومثل "الرها" شمال الرقة على أحد نهيرات الفرات.. أو "سلمية" أو سلاميس سابقا شرقي نهر العاصي ما بين حلب وحماه، وكر القرامطة قديما والأغاخانية الإسماعيلية حديثا.

لقد كان ما يجري في هذه المدن قديما، وما لا يزال يجري فيها وفي غيرها حديثا، من أخلاط المعارف السرية والسحرية المغلقة على تنظيماتها، ومن أوهام تحريك القوى الخفية، وتسخير الجن والأرواح، وتجنيد الآلهة المزعومة لفعل المستحيلات، وزرع الباطل، واستعباد البشر — هو ذروة ما وصلت إليه تلك الشعوب من أشكال مفاهيمها "الخاصة" وخلاصات "فلسفاتها" المحجبة وصكوك مهاناتها وأساطيرها الأبدية.. فأي ذكر لهؤلاء في هذه المدن، أو حديث عن هذه المدن من أجل هؤلاء، الذين هم باسم المعرفة المستمدة من "العقل" تحت مستوى الفهم أو العقل.. كيف يمكن أن يكون في قصص القرآن الكريم — حديث عن هؤلاء وما يزعمون — فيه ذكر لغافل، أو تذكير لمتدبر.. وهم على مستوى نظر من كان ينظر إليهم من العرب في أسفارهم ورحلاتهم بين الشام واليمن، والعراق ومصر — عبرة ظاهرة لمن ينظر فيرى رأي العين عقولا مصلوبة، وشعوبا مغلوبة، ومصائر متدافعة، على منحدر الوثنية والعجمة، وإلى هاوية القهر والضياع.

كان قصص القرآن إذن — ولا يزال — لمن يسمع ويعي .. كان لمن يبدأ وعي التاريخ بتاريخ الدين، وتحيا حياته بحياة الدين، وفي هذا لم يكن القرآن والنبي والدعوة من "الله" إلى من يقيمون حول "بيت الله"

مفاجأة لقريش، ولا للعرب.. لقد كانوا وهم يستمسكون بحنيفية إبراهيم، ويرفضون النصرانية التي يقول غلاتها بالوهية المسيح، ويرفضون اليهودية التي تحرف كلام الله وتتخذ من أحبارها أربابا من دون الله — ينتظرون رسولا منهم، وكتابا من الله لهم، يكون فيه القول الفصل، ويظهر به الدين الحق، فلما ظهر النبي، ونزل الكتاب، تثاقل عنه بعض أهل الأموال من قريش، وتحاسد فيه على "النبوة" بعض من كانوا يقتسمون منهم شرف المآثر والمكارم حول البيت، وهم يسقون الحجيج، ويطعمون، ويرفدون، ويحملون اللواء ويسدنون الكعبة، فماذا يكون لهم من الشرف بعد النبوة.. وهم أخوة يتسابقون منذ إسماعيل على الشرف، ويتكافأون في الظفر به؟ .. ولكنهم لم يلبثوا أن آمنوا جميعا بهذا الحق من الله إليهم.. الحق الذي لا ينكرون أنه قد جاء آباءهم من قبل.. وأنه حين يجيئهم لا يجئ به رجل غريب عنهم، أو مجهول منهم.. وفي هذا يقول القرآن ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ • أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾.

إنه إذن دينهم، ودين آبائهم، وهم دعاته في الأرض عملا به، وأسوة فيه، وهكذا فما كان القرآن في عظمتهم وتذكيرهم هم ليتناول في قصصه إليهم إلا أخبار هذه الأمم التي ملكت بالحرية، والسواسية، والبيان أسباب النعمة بالإيمان، ولزمتها حجة الله الذي أنعم عليها بهذا الإيمان، قولا وعملا، واعتقادا وحكما، كما ورد ذكر هؤلاء الذين جاءهم الرسل بالبينات، فأنجى الله المؤمنين، وأخذ بعذابه المستكبرين.

نعم.. إنه دينهم الذي انتبهوا إليه بقوة ما في القرآن من الذكر، وصدق ما واجههم به النبي من الحلم، ولو لم يفعلوا لذهبوا في غيابة النسيان، وذابوا إلا الظل المنحسر، والوهم الزائل.. خلود بأسمائهم في

كتاب الله.. إلا هذه الإشارة إليهم فيما اقترفوه من إثم، وما تشبثوا به من وهم..!

هكذا لم نعرف اسم فرعون موسى الذي لم يحمل أكثر من لقب طغيانه. وهكذا لم نعرف اسم الملك الذي رأى في مصر "سبع بقرات سمان" في قصة يوسف، كما لم نعرف اسم ذلك الملك الذي كان "يأخذ كل سفينة غصبا" في قصة موسى وصاحبه.

كذلك – وهو في غير قصص القرآن يكون مثيرا جدا ومسليا – لم نعرف اسم هذه الملكة من سبأ، والتي كانت "تملكهم وأوتيت من كل شيء" والتي وعت، لأنها من أرض الدعوة، ومهد الدين، هذه الحقيقية التي أكدها القرآن في قولها "إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة".

نعم لم يذكر القرآن اسم هذه الملكة، وعندما وقع لقاؤها بالنبي سليمان ظهر مشهد اللقاء مبرأ في كمال الاعتبار بهذا التدافع بين الإيمان والكفر – من الإثارة، ونقيا نقاء خالصا من تبرج الكلمات، وعزيز المنال فوق التفاصيل العارضة والزائلة في حكم الزمان، وخصائص المكان، ليبقى "الفعل" أو "الحدث" هو الإيماءة المشرقة بالقانون، وحتى يكون قول الإنسان – ملكا أو سوقة، وجنًا كان أو إنسا – هو محض الدلالة على الفعل وقانونه.. بذلك تبقى العظة والعبرة والحقيقية في سنن الله خالدة في قرآنها، وعصرية الحياة داخل إيقاعها، وهي تتجلى على قلوب البشر وأسماعهم في برهان إلهي، وصوت بشري.

ولئن كان القرآن قد ذكر من أسماء الملوك "طالوت" من بني إسرائيل، فلقد كان ذلك لأنه كان ملكا مؤمنا يتبع نبيا مؤمنا، وكان انتصار طالوت في القصة مثالا من آيات رحمة الله التي جحدوها بنو

إسرائيل. وهكذا اقتضى ظهور اسم طالوت أن يظهر اسم خصمه وهو ملك آخر من وزن ملوك بني إسرائيل المولعين على توهمهم وراثة الأنبياء بألقاب الظلم والسطوة عند جيرانهم وسادتهم أحيانا.

ذو القرنين:

ومن الملوك المؤمنين الذين لم يذكر القرآن أسماءهم "ذو القرنين" الذي أشار إليه بصفته تدل عليه من صفات بدواته وهي "قرونه" أي "جدائله" بلغة البدو وعلى طريقتهم، حيث كان من عاداتهم ولا تزال فيهم إلى اليوم أن يرسلوا من شعورهم جديلتين أو أكثر، تجملا من جانب، وتوقيا لضربات السيوف من جانب آخر، في حروب الماضي، وحيث كانت الجدائل تضاف إلى الخوذة في وقاية الرأس والعنق.

فهذا الملك العربي "ذو القرنين" كما حققت تاريخه أبحاث كثيرة في تاريخ اليمن هو الملك الحميري "شمريهرعش" الذي ذكر المؤرخون العرب عنه – وكما أشار إلى ذلك جورجي زيدان في كتابه "العرب قبل الإسلام" – أنه وطئ أرض العجم وفارس وخراسان، وافتتح مدائنها، وخرب مدينة الصغد وراء نهر جيحون، وبنى هناك مدينة لا تزال تحمل اسمه إلى اليوم وهي "سمرقند".

وإذا كان بعض أصحاب الأهواء قد تباروا لينسبوا هذا الملك إلى أمة غير العرب، فقالوا هو الإسكندر، وقال آخرون بل هو أفريقس فاتح المغرب بإفريقية، وقالوا في عودة إلى اليمن وحمير بل هو "أسعد أبو كرب".. فإن أعجب ما نشط الإيرانيون إلى ترويجه في العصر الحديث هو الزعم بأن هذا الملك هو "كورش" الفارسي.. المؤمن بالله وليس بالناروزرادشت.. ثم تضخم هذا الزعم فقالوا وقال صنائعهم بل هو "نبي"!

وهكذا لم يلبث شيعة الهند أن رددوا هذا الزعم على لسان أحد متكلميهم وهو "أبو الكلام أزاد" الذي نفى بشدة أن يكون ذو القرنين هو ملك آخر غير الملك "الصالح" كورش الفارسي!

ولكن الحقيقة التي لا يكن طمسها وراء هذه الخرافة العصرية أن الملك كورش الفارسي – الذي يراد رغم أنفه تغيير هويته التاريخية في نفس العصر الذي يراد فيه زرع إسرائيل في أرض العرب، إنما هو الملك المتجبر الذي خرَّب بابل العراقية العربية، وأهم من ذلك في لغة الأحداث المعاصرة أنه هو الذي أعاد اليهود الذين كان الملك العربي نابوخذ ناصر قد أسرهم ونفاهم إلى بابل سنة 586 ق.م، والذي استقبله اليهود عندما نجحت المفاوضة معهم لإعادتهم إلى فلسطين.. معظمين له كمنقذ لهم تحت سلطان الفرس.. كما يقول المؤرخ الأمريكي جيمس بريستد!

الملك الفارسي كورش ليس إذن هو ذا القرنين، وإنما هو "المخلص" الذي ظهر لليهود في ضائقة المنفى.. والذي يتحدثون عنه اليوم وهم يزيفون التاريخ في إطار العلاقات الودية بين إيران وإسرائيل على أنه أحد الأنبياء الأبرار.. ولكن من أرسله إلى من؟ .. لمن جاء؟.. ومن دعا.. وماذا قال.. وبأي لسان تكلم.. ولأي نار سجد..!؟.. فهذا ما لا يتحدثون عنه، ويكفي أن اليهود الذين أنكروا المسيح، وتمردوا على موسى، وخانوا الله، وعبدوا العجل.. قد منحوا الملك الفارسي كورش في ظل حلف الأطلسي وأهدافه.. رتبة نبي!!

أشهر النساء:

انفرد اسم "مريم" بالذكر في قصص القرآن الكريم من بين جميع النساء اللائي ذكرهن هذا القصص الحق، فلم يذكر القرآن في قصة

الخلق الأول اسم زوج آدم، وأم البشر، كذلك لم يذكر اسم واحدة من أمهات الأنبياء، أو زوجاتهم، إلا بالإشارة.

لقد كانت "مريم" فيما انفردت به في حياتها "منذورة" لعبادة الله و"محررة" له منذ طفولتها. ثم شاء الله أن تكون أما للمسيح تحمل به بأذن الله من غير رجل، وأن تتحمل بذلك طوال فترة حضانته عبء الاتهام الفادح من أهل الغباوة والقساوة. مع صدق البراءة، ونقاء النفس والجسد، وقلة النصير. ثم شاء الله أن تحمل بعد ذلك ما حملته بجوار ابنها حين نهض بدعوته وهي تتبعه كظله، وتشفق عليه – رغم الآيات – من شانئيه ومكذبيه.

لقد كانت مريم بكل ذلك، وبما لم نحط به علما من فضل الله ونعمته عليها، آية بشرية، يعلن عن قدرة الله فيها "قانون" من قوانين الله وسنته أدق مما ألفه الناس، وأبعد في نفاذه مما اعتاده الناس، وهي امرأة قد اكتمل فيها حملة واحدة، وفي آية عابرة شديدة الإشراق – بر الأبنة، ونقاء العذراء، وإيمان المؤمنة، وصبر المبتلاة، وحنان الأم، على أغرب مولود هو في طفولته آية، وفي شبابه آية، وفي كهولته آية.. ترعاه وحيدة به، ثم وحيدة معه، بين وحوش غادرة كاسرة من كهنة اليهود.. وجند الرومان.

ثم ذكر القرآن من النساء الصالحات أم مريم وذلك بنسبتها إلى زوجها وذلك في قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾ وكان ما في بطنها هو مريم.

وكذلك ذكر القرآن من الصالحات منسوبة إلى زوجها "امرأة فرعون" وذلك في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ

فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وأما غير الصالحات من النساء فقد جاء ذكرهن منسوبات كذلك إلى أزواجهن في قصص القرآن الذي ذكر منهن امرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة العزيز في مصر، وامرأة أبي لهب حمالة الحطب.

قانون الغواية:

قلنا أن قصص القرآن الكريم قد أظهر بأسماء الأنبياء قانون الدعوة إلى الله والهداية إلى الحق الذي يبقى، بعيدا عن الباطل الذي يبطل.. كما أنه حتى تبقى هذه الأسماء ظاهرة على أفقه الخالد، اكتفي بالإشارة إلى المؤمنين بأعمالهم التي حققوا بها قانون الاستجابة للدعوة الصحيحة، لقد ذكرهم في جموعهم تحت اسم "المؤمنين" أو "الذين آمنوا" كما ذكرهم بأعمالهم وأمانتهم وصفاتهم الزكية التي منها حبهم لله، وطاعتهم له ولرسوله، وبيعهم الحياة والأموال يجاهدون بها في سبيل الله تصديقا بكتبه ورسله، وبعثه وحسابه.

وكذلك فقد ورد ذكر الكافرين الذين عادوا لله والرسل بذكر أعمالهم كما ذكرهم بنقائصهم، وضعفهم، وحرصهم على الحياة، وكما ذكرهم بصائرهم المحتومة التي انتهوا إليها في كل الدعوات، وكل العصور.

يبقى من هذه القوانين التي جسدتها الأحداث في قصص القرآن الحق هذا القانون الذي يقابل قانون الدعوة في حياة الأنبياء وهو قانون الغواية المتمثل في قابلية الإنسان – ما لم يعتصم بالإيمان – لوسوسة شيطانه، وتحيرات نفسه، وغلبة هواه.

في قصص القرآن يظهر هذا القانون الذي يرمز إلى المعنى السلبي في إرادة الإنسان، والذي يظهر على خفائه في شكل المصدر الذي تتولد منه أغرب الصور والأصوات المضادة للفطرة، وللإيمان، وللعقل، من طريق التسلل إلى داخل النفس، والقدرة على أحداث أنواع الانشقاقات في إرادتها، وألوان التخلفات في أهوائها ورغباتها وشذوذها.. هذا القانون النشط في الإنسان يحمل في لغة القرآن وقصصه هذا الاسم الجامع لصفاته الفاعلة باتجاه الغواية وهو "إبليس" و"الشيطان"، وهما كلمتان عربيتان قديمتان قدم المهمة التي ينهض بها الشيطان في ابتلاء البشر.

أما كلمة "إبليس" فهي في اللغة العربية من "الإبلاس" أي "التحير" والمبلس هو المتحير، وإبليس بذلك هو صميم عمله صانع هذه الحيرة" أو هذا "الإبلاس" في نفس الإنسان كلما واجه الاختيار بين طريقين، وهي أي هذه الحيرة — لحظة الضعف القاتلة التي يتاح فيها لإبليس أن ينفث فيها "غوايته" ليختار المتحير به أقرب الطريقين إلى البعد عن الصواب!

وأما كلمة الشيطان فهي من "الشطن" وهو الحبل الطويل الذي يلقى به في أغوار البئر لرفع الماء به. وشطن الدلو: شده بهذا الحبل، وشطن الرجل صاحبه: خالفه عن نيته. ومن جملة هذه المعاني يكون معنى الشيطان أنه هذا "الوسواس" الذي ينزل به قانون الغواية في حياة الإنسان وفي نفسه لكي "يشطنه" أي يجذبه من أغوار نفسه إلى ما يخالف به نيته وفطرته في الصواب، وفي اختيار الأفضل وهو الإيمان، وأعمال الإيمان.

ولما كانت روية الواقع المتحرك كما هو، والإيمان بالحكمة والغاية وراء واقع هذا الوجود كما هو، والسعي إلى عمران هذه الأرض بالإحسان في مواردها، وبغير تظالم أهلها — هي خلاصة قانون الدعوة إلى الله، فإن قانون الغواية عن هذه الطريق تفتح الطريق الآخر لهذا المنحدر الذي

يتساقط عليه المبلسون والمتحيرون، بعيدا بأوهامهم، وأساطيرهم، وفلسفاتهم، وألوان عزائهم باللهو والمخدرات، والروايات والمسرحيات.. عن حياة الفطرة والإيمان بعطائها العصري دائما، والعلمي، والتقدمي، والإنساني، وهي تبني مجتمع المؤمنين.

حوار كل العصور:

بهذه السنن والقوانين في علم الإنسان، وعلم التاريخ، برزت أسماء الأنبياء، ورموز أخرى معهم، في قصص القرآن الكريم، عنوانا على مشرق هذه القوانين وتعاقبها، وتحركها، حركة شموس الفضاء المضيئة، وكواكبها المعتمة، وشهبها الساقطة، كما أجراها الله في تلاحقها المتسق، ونظامها الوثيق ليتأكد بهذا التقنين الإلهي للبشر من خلال أحداث حقيقية — أن الله قد أنطق هذه القوانين بأصوات الأنبياء في سمع الأجيال لتسمع، كلما استطاعت أن تسمع، إلى دعوة الله مقننة بصدقها البياني والعلمي والتاريخي في قصص حق، وصادق، صدق القوانين النافذة.

من أجل هذا كان منطق هؤلاء البشر في قصص القرآن، وهم يتكلمون بأصوات ودلالات القوانين التي يمثلونها بين الدعوة والاستجابة، وبين الرفض والغواية — هو المنطق العام الذي يتكرر به من خلال تكرر وتنوع الأحداث في مختبر الحياة الإنسانية — تأكيد صحة النتائج والمقررات العلمية عن مصير الإنسان والمجتمع، كما تلقي عليها الضوء من جميع زوايا الأحداث — هذه القوانين الناطقة على ألسنة هؤلاء البشر "المقننين" في علم الإنسان وقصصه من الأنبياء وغيرهم.

الحوار أو التحاور في قصص القرآن الكريم ليس بهذه الرؤية العلمية مجرد أحاديث أفراد عن الهدى والضلال في نطاق رؤية الفرد كما هو في

القصص التاريخي والأخبار، وليس هو هذه الصناعة للمواقف وفن تخليق الكلمات اللولبية، وإطلاق العبارات الرنانة كما هو في القصص الخيالي، وإنما الحوار في قصص القرآن هو في ضوء الشمول الألهي، وسنن الله الهادية كلام أوحى الله به على ألسنه الأنبياء وغيرهم ليكون في الأخبار عما وقع منهم في مراحل الدعوات السابقة وعصورها، وبأكثر من لهجة من لهجات اللغة العربية هو تقنين حصيلة الصدق في كل ما وقع منهم تقنينا شاملا تصبح به لغة الحوار باللسان العربي المبين صدقا حيا، بالغ القصد والإيجاز والبيان، ويصبح به الحوار بهذا التقنين الشامل للأحداث ودلالاتها في علم الإنسان، وعلم التاريخ حوار لكل العصور. ولكل الأجيال والشعوب، وهو يعلو في القرآن الخالد والمشع فوق قيد التفاصيل، وحدود الزمان والمكان، ليبقى في سمع الدهر الإنساني خالدا ومسموعا، وبشيرا ونذيرا، لكل من ألقى السمع وهو شهيد.

ولئن كان حوار المتكلمين في قصص القرآن شاهدا كله على أنه بصدقه البياني والعلمي والتقديم هو الحديث الموجه لكل العصور، والحوار المعبر عن دلالاته الإنسانية في كل المواقف المشابهة عبر كل التاريخ، فإننا نكتفي هنا بضرب الأمثلة – دون التقصي – ونحن نؤكد هذا المنهج القرآني الذي ما كان لغير الله في علمه وحكمته ورحمته أن يبلغ إليه.

في حديث نوح إلى قومه وقد استغرق من أشكال المجاهدة والإصرار سنوات وسنوات طويلة – عرض القرآن لبضعة مواقف توجز في أقوال مقننة تصادم موقف الدعوة بموقف الرفض. أما الدعوة ففيها الإشفاق وصدق النصح ورجاء الاستجابة، وأما الرفض ففيه الاستكبار، ووضع الأصابع في الآذان، واستغشاء الثياب حتى لا يسمعوا ما يقول نوح.

فمن مجموع مشاهد بغير عدد، وكلمات بغير حصر، وألوان من الإلغاء المباشر فوق الحساب في سنوات طويلة يبسطها أمامنا عمر نوح الطويل – أجمل القرآن الكريم جملة هذه اللقاءات العديدة بين نوح، الناطق بقانون الدعوة المضيء، والمنبئ بحكم النبوة الجلي – وبين قومه الذين تجسد في أقوالهم وأفعالهم قانون الرفض المعتم، وحكم الانفصام القاهر.. أجملها القرآن في مواقف قليلة، لم يتحدد لها زمن بموعده، أو مكان حدوده، وحيث يوجز القرآن بيان الصدام بين الطرفين في حوارهما كما يوجزه تصادم السحب الثقال في برق ورعد، فلا يدري أحد إلا الله ما بعد ذلك من غيث.. أو سيل.

في أحد هذه المواقف يقول نوح لقومه في حواره معهم كما يقص القرآن ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ • إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ • فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ نفس هذا النص يظهر في حوار هود مع قومه عاد وذلك كما يقص القرآن عنه ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ • إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ • إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ • فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

ونفس هذا النص يرد في حوار صالح مع قومه ثمود حيث يقص القرآن من قصصهم قوله ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ • إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ • إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ • فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

ونفس هذا النص يرد في حوار شعيب مع قومه من أهل مدين في قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ • إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ • فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

هذه الآيات بنصها الواحد، وبمفردات هذا النص الأساسية في جميع أحاديث الأنبياء إلى أقوامهم تؤكد بإيقاعها المتتابع وحدة أركان الدعوة

في سنن الله التي تحكمها. فهذه الآيات بنصها العربي القرآن لم تجر هكذا في أحاديث الأنبياء إلى أقوامهم خلال عصور متفاوتة، ولهجات متباينة، وفي فترات جهاد ومواجهات طويلة، ولكنها بكل الصدق البياني، والصدق العلمي والصدق التاريخي، كانت هكذا تماما عندما ينزل بها الوحي قرآنا في صورة القانون العام للدعوة، وعندما تصبح في القرآن: حوارا لكل العصور، وحديثا ودعوة إلى كل الشعوب، وإلى من تضمهم هذه الشعوب من جهات الرفض والاستكبار، منقاة وخالصة من أثقال تفاصيلها، ومن أوزار اللغو في ألسنة ومفهومات جماعاتها، كاملة ومستكملة في بيانها القاصد المشرق كل أركان الدعوة، وكل دلالات الحدث والفعل – رفضا أو استجابة – في أخبارها ومصائر أقوامها.

إن هذه الصيغة المكررة من الحوار الموجه على ألسنة الأنبياء لكل عصر، ولكل جماعة منشقة أو مشتتة عن دينها وإيمانها تبدأ – كما ترى – بمقدمة التنبيه الرفيق لهؤلاء المدعويين، إلى أنهم قد تجاوزا الحد في الترف والغفلة عن ذكر الله، وأن ما تراكم عليهم من الذنوب المنذرة بغضب الله يوجب عليهم المبادرة إلى اتقاء ذلك.. يوجب التقوى.

هذا التنبيه في قوله تعالى ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ .. هو الإشارة الأولى إلى حركة التقويم والتصحيح في حياة المدعويين، الذين كانوا يعرفون الله المنعم عليهم، ويعبدونه، ثم غفلوا عنه إلى آلهة موضوعة، وأهواء متبعة.. إن هذا النداء ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ هو الشعاع الأول النافذ من شمس الرسالة والدعوة. إنها يد تمتد بالكلمة المدوية لتقول وهي تحجز هذا السيل المندفع في مغاضبة الله ومعصيته.. لتقول في تأنيب حازم، ورفق زاجر: "أما آن لكم بعد.. أن تكفوا عما أنتم فيه من الإنحراف؟".

ومن ثم تبدأ الحقيقة الأساسية في شرعية الداعي وهي ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أي إنني أقول لكم هذا، وأنا أخوكم، فلا سلطان أدعيه عليكم، وإنما أنا ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ .. وصادق كما تعلمون.. رسول من الله الذي هو الحاكم عليكم، والمولى فوقكم، والذي أرسلني بهذا الحق لهدايتكم.

وترتيبا على هذه الشرعية والأمانة في الدعوة يلخص أخوهم، والرسول من الله لهدايتهم، هذه الرسالة كلها، والرسالات السابقة عليها، في كلمتين في نص الآية حيث يقول ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

أما "التقوى" فإنها الركن الأول للإسلام بعد الإيمان. التقوى هي مع أول الانتباه والتذكر لحق الله والإيمان به أول الخشية لله المحسن والمنعم والقادر وذلك بالميل عما لا يرضيه، أي المبادرة بانتقاء الوقوع فيما حرمه الله من الحرام.. وما نهى الله عنه من المنكر.

إن التقوى – في هذا الأمر الأول إلى الإيمان والإسلام – تمثل في المعادلة الدينية إيمانا وعملا قانون "الميل عن الميل" وبذلك تتحدد طبيعة "الاستقامة".. إنها – أي التقوى – تصور نشاط الحركة الصحيحة في النفس التي استيقظت في غفلاتها على النذير لترفض "الرفض" لدعوة الإيمان، وبذلك ينفتح له طريق الطاعة والمجاهدة والإسلام.

إن هذا القانون الذي تمثله "التقوى" بأسبقيتها في مجال "الاستجابة" تشرح وتوضح في شعار الإسلام الخالد "لا إله إلا الله" كيف أن النفي "لا" لجميع الآلهة الكاذبة، والفلسفات المبتدعة، والمتاهات والطرق المعتمة – هو وحده الطريق إلى "الإثبات" الذي لا شبهة فيه لهذا الطريق الأزلي والأبدي والمستقيم مع الله الحق، إيمانا وعملا، وتصديقا بالغيب وجهادا.

نعم.. إن الركن الأول في نص الحوار المتكرر بين الأنبياء وأقوامهم وهو "التقوى" إنما هو الركن الأساسي لصحة "الطاعة" للأنبياء فيما أمرهم الله بتبليغه من غيبه وشرائعه، وهو الركن المتكامل مع نص الآية الموجهة بمعناها ودلالاتها إلى كل العصور: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

"التقوى" إذن هي خشية الله المانعة من الكبائر والصغائر بعد إخلاص العبادة لله وحده، وأما "الطاعة" فهي الإقبال بعد النقاء والتحرر من الكبرياء والكبائر والصغائر على جميع مبادرات الإيمان، وأحكام شرائعه، في مقاسمة الأموال مع أصحاب الحق فيها، وعمارة الأرض بالأعمال المشروعة التي يقودها ابتغاء وجه الله، في الشكر على نعمه، وإقامة العدل، وتنمية الجمعة بالعلم، وتكافؤ المسئولية، وبالسواسية في الجهد من أجل الجماعة، ومع الجماعة، بحسب الحق، وبحسب الجهد.

بهذه الأركان التي أقامها حوار الأنبياء المباشر – كما قننه قصص القرآن محكوما بظروفه الزمانية والمكانية واللغوية – يرتفع هذا الحوار على ألسنتهم بالصدق الكلي في هذا القصص الحق إلى مستوى الشمول في القانون العام للدعوة إلى الله، ويصبح بذلك كما شاء الله في آيته الكبرى بالقرآن حوارا لكل العصور، ولكل الشعوب والأجيال، ومهما اختلفت ظروف البشر الموضوعية من عصر إلى آخر.

النفي والإثبات:

كذلك تأكد في أكثر من موقف في قصص الأنبياء وحوارهم بالقرآن قانون النفي للآلهة الكاذبة، التي لا حصر لها في مجموع الأسماء البشرية، أو أرواح الطبيعة، أو الأفكار المخترعة، أو الأهواء القاهرة، وذلك حتى تثبت بكل الإخلاص والتجرد حقيقة الإله الواحد الحق، وفي

مثل هذا يقص القرآن من قول هود إلى قومه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

وكما يقص القرآن عن قوم صالح إلى ثمود ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ وكذلك قول شعيب إلى مدين ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

وفي مثل هذا النفي للإثبات يقول يونس في دعائه إلى الله ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾ وهو ما استقر في يمين المسلمين من أن الشهادة بالله الحق لا تثبت إلا بنفي ما عداه، فلا يقول المسلم ابتداء "هو الله" بل يشهد كما شهد الله بهذا النفي المثبت في قوله تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

بهذا النفي تتعادل – كما ذكرنا – على أساس المقابلة الحتمية حركة رفض الإيمان بين المشركين والملحدين مع حركة نفي المؤمنين لكل أسباب الشرك وأقوال الإلحاد، وهم يؤكدون بأعمالهم هذا التدافع الذي تجري به سنن التاريخ، وقوانين الله، على طرق الأفراد والشعوب بين الهدى والضلال.

إن نفي الآلهة الكاذبة لإثبات الإله الحق هو شاهد الصدق في المعادلة الدينية التي يتم بها ويستمر جهاد المؤمن اليومي، وأمام كل سؤال أو اختيار، لكي ينفي الباطل الذي يبطل، وبذلك يثبت الحق الذي يبقى، وذلك من خلال هذه اليقظة المستمرة ببرهانها العملي في السلوك حين يقول

المؤمن بقلبه ولسانه وعمله "لا" للباطل وآلهته وأكاذيبه، ويقول "نعم" للحق وإلهه الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو.

إنه بهذا النفي في قول المؤمن "لا" حتى يصح له بكل صدقه وجهده أن يقول "نعم" يظهر في السلوك اليومي للمؤمنين، وفي الأسوة الظاهرة أمام المجتمع، هذا الارتباط الحي بقوانين الدعوة وأركانها لكي يحقق المؤمنون داخل مجتمعهم "تغيرهم" الدائم عن طرق الباطل وغوايته، من أجل أن "لا يتغيروا" عن طريق الحق وغايته.. وهذا هو الثبات الذي يجاهد له المؤمن حتى يبقى في حياته وعمله تعبيرا حيا عن قانون الاستجابة لدعوة الأنبياء وحتى لا يتحطم وينقصم داخل نفسه، فيصبح لسانه مع الإيمان، وقلبه وعمله مع الكفر، والضلالة والهوان.

سقوط الطواغيت:

كذلك فإن حوار الأنبياء مع أقوامهم كما يقص عنهم قصص القرآن الكريم يكشف عن هذا القانون الذي يقدمه في علم الإنسان وعلم الإيمان في هذا الحوار الموجه لكل العصور، وكل الشعوب، وهو قانون سقوط الطغيان بكل أشكاله ورجاله ونظمه، كلما استقر الإيمان بيقينه وعمله في جماعة أو مجتمع وذلك حيث يقول الله في غاية كل الرسالات التي أرسل بها إلى الأمم السابقة على أرض الدين ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ ﴾.

فهذا القانون هو صورة واضحة لآثار قانون النفي للآلهة الكاذبة يلخص في الحوار الموجه من الأنبياء إلى أقوامهم أصدق النتائج التي أسفرت عنها جميع التجارب الاجتماعية البشرية عبر كل العصور، والتي تؤكد

أن الحكم الطبقي الطغياني بأي شكل من أشكاله الغليظة السافرة، أو الضاغطة المقنعة هو البديل الوحيد لحكم السواسية والمقاسمة والعدل والرخاء والإسلام كلما استقر للجماعة أو للمجتمع إيمان صادق بالله، وحكم نافذ بشريعته، ويقين ظاهر ببعثه وحسابه.

إنه بهذا المعنى من قيام حكم الإيمان والشرع تتقرر مع الدين الحق، ومع الإيمان بالله الواحد، جميع "حقوق الإنسان" التي أحياها وعاش بها المجتمع الإسلامي قرونا طويلة، والتي عندما نقلها الغرب عن المسلمين – حول القرن السادس عشر – تقليدا بغير إيمان، ومحاكاة بغير صدق، فقد ظلت ترجمته لهذه الحقوق عن العرب المسلمين مجرد شعارات سياسية، و"أوهام مسرحية" في حياة الدول العظمى بقوتها العسكرية، والتي تذبح بعدوانها هذه الحقوق قربانا لفسادها الداخلي، وعدوانها الخارجي، صباح كل نهار، ومساء كل ليل.

نعم.. بهذا النص القرآني المشترك في حوار الأنبياء لكل العصور عن إحلال الإيمان الحق، بالله الحق، محل الرضوخ لأنواع "الطواغيت" الكثيرة التي لم تتخلق بأشكالها القبيحة إلا في بطون الفلسفات، وليالي الغفلات.. بهذا النص القرآني يتأكد في حياة البشر هذا القانون المسيطر على مصائرهم، والمميز لطبيعة ما في أقوالهم وأعمالهم من نور أو ظلمة، ومن هداية أو ضلالة، وهو في المعادلة الدينية يمضي هكذا عبر كل العصور "إذا حكم الله سقط الطواغيت".

الإنابة إلى الله:

وكذلك في هذا الحوار الذي أحكمه الله في القصص القرآني على مثال القوانين الناطقة باللسان العربي المبين – نجد هذه الأحكام المحكمة

في أسوة الإنابة إلى الله على شتى الصور، وفي مختلف المواقف، يقدمها القرآن عن الأنبياء أنفسهم لتكتمل في حياة المؤمنين مسيرة القوانين الهادية، وهي تمتد إليهم في المواقف الصعبة، ومآزق النفس مع الله، كما تمتد يد رحيمة ترشد إلى الإنابة إليه، وتصرف عن الغي ومتابعة الهوى، وتهدي إلى سواء السبيل.

ففي حوار الأنبياء مع أنفسهم منيبين إلى الله يقول موسى بعد أن قتل نفسا بغير حق ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾.

ويقول يوسف في حواره مع من راودته عن نفسها ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ .. أي أنه يعود بالله من كفران نعمة من آواه إلى بيته، وهو كفران أعظم بنعمة الله الذي أواه بالهداية إليه.

ويقول المسيح في حديثه إلى الله في مشهد التبرؤ مما ادعاه عليه بعض من اتبعوه ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

ويقول محمد في مجاهدته لقومه وهو يستنهضهم بما في نفوسهم من حب الله ليقبلوا على إتباعه وطاعة الله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ • قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

في هذه الكلمات الفاصلة في المواقف الصعبة نجد استغفار الله من ظلم النفس، وتجد الاستعاذة بالله من الغواية وكفران النعمة، ونجد

الوقوف بين يدي الله موقف الصدق إقرارا بنعمه، وتبرؤا من تجاوز الحق في عبادته، ونجد اعتبار الحب الخاص لله هو مفهوم العبادة، وهو حافز العمل والطاعة، وأنه بهذا الاعتبار يكون غضب الله على الكافرين – بديلا من حبهم – هو أقسى عليهم من محق أعمالهم، ومما أعده لهم من عذابهم.

في ذلك وفي مثله من كلمات الأنبياء الفاصلة في حوارهم النفسي مع الله، على مشهد ومسمع من المؤمنين في قصص القرآن، وعبر كل العصور، يجد المؤمنون على الدوام هذا الظل الذي يفيئون إليه في كل ضائقة، حيث يثوب إليهم بهذه الكلمات ما عزب من الرشد، وينفرج ما تعقد من المواقف والأزمات، وحيث يجدون في ساعة العسرة، ولحظة الشدة، هذا الضوء والعزم والطريق.. إلى الله.

هذا هو قصص القرآن الحق بوحيه الخالد، وصدقه المبين، وحواره المقنن والموجه لكل العصور، ولكل البشر، يعطي وهو يعلو ويشرق عطاء الرشد للإنسان، ويجدد وينمي حياة الإيمان لأمة العرب، وللمسلمين الناطقين بلغة العرب.. بينما هناك بعيدا وقريبا، تحت أطباق ظلام، وموجات هذيان وارتعاشات صرع – يتناقل الهيلينيون، وأخلافهم المعاصرون، من المتمجدين بثمار الغزو الفكري الأوروبي للوطن العربي – خرافات شعوب وثنية مخمورة، قصصها منحوتة من صخر، ومنسوجة من وساوس، ومتلوية بآلام، وصارخة في أغوار العجز والشتات واليأس على ألسنة أشباح أو أبطال حوارهم ينز إثما: ويخور غربة، ويتخبط مسا، ويتساقط عدما.. بينما وهذه الآداب الكحولية تلفظ أنفاسها في العالم، يموت إنسانها إنسانيا، وحضاريا، وهو يتشبث كالغريق بأكذوبته في عقيدة الصراع.. الصراع بين الإنسان والآلهة بين الإنسان وقدره.. بين هذا

الإنسان الأوروبي القديم والحديث وبين حركة الوجود وسننه المحيطة به، والفعالة فيه.. الوجود الذي لم يستطع أن يفسره إلى اليوم بالإيمان.

حوار الأغلال:

وهكذا، في مثل ذلك التفسير الوثني للحياة والخلود، نقرأ مثل هذا الهراء الذي لا يخجلون منه في أعمال عمالقة المسرح اليوناني.. والذي لا يزال يتجدد في الآداب المغمورة إلى اليوم.. والذي لم يكن في حقيقته يزيد عن اعترافات تهم الباحثين في علوم النفس المنفصمة، ليكشفوا عن جذور العقد والنقائص العقلية، والانشطارات النفسية، في مأثمة المذابح والشذوذ والخمر والابتذال.

نعم... في واحدة من ثلاثية اسخيلوس عن بروميثيوس رمز الإنسان في الأساطير اليونانية يقول هذا القطب المسرحي الذي لم يكن يكتب كتبه – كما يقال – إلا مخمورا تماما .. يقول هذا القطب في مفهوم الإنسان اليوناني داخل حوار الأغلال والاستصراخات وسط حياة تموت، وذلك في رواية "بروميثيوس المصفد":

* هاأنذا مصفد في مكاني.. أنا إليه منكود الطالع..!

* هاأنذا أناصب زيوس العداء..

* ويمقتني كل من تناله قوته، وهو القادر على كل شيء..!

* ذنبي عند زيوس أني شديد الحب للإنسان!!

وفي مسرحية اليكترا ليوريبيدس وهي شبيهة في شذوذ الجريمة، وقتل ذوي القربى، بمثيلات لها في مسرحيات اسخيلوس وسوفوكليس – يجري هذا الحوار اليكترا وأورستيس حول قتل أمهما:

أورستيس – ماذا نفعل؟ .. أمنا.. هل نقتلها؟

الكترا – ماذا.. هل خشيت إذ رأيت صورة أمك..؟

أوستيس – ويحي .. كيف أستطيع قتلها.. تلك التي أرضعتني وحملتني؟

أليكترا – كما قتلت هي أباك وأبي..!

أورستيس – أي فيبوس.. يا لها من حماقة زائدة!

اليكترا – لكن إذا أخطأ أبولو .. فمن يصيب؟

أورستيس – ذاك الذي أمرني أن أقتل أمي.. على غير طبيعة الأمور!

وننتقل من أصداء هذا العفن الوثني، المخضب بذكرى العدوان الهليني على الوطن العربي، والمثقل بالشذوذ، والفصام، وتهيآت السكارى – إلى مرحلة أقرب إلى عصرنا في القرن السابع عشر لنقدم هذه الفقرة التي تحمل نفس التخبطات الوثنية، والولع بالشذوذ، والابتذال الهابط الذي لا يعرف الحرمات، وذلك في قصة إغريقية بعد مسرحتها بالذوق الفرنسي على نفسي الجذور اليونانية بخيال جان راسين، وهي قصة فيدر التي عشقت ابن زوجها الملك.

أونون مربية فيدر – أنت تحبين.. وليس في يد الإنسان أن يقهر مصيره

* لقد وقعت تحت تأثير سحر القدر المشئوم..

* فهل هي أعجوبة إذن لم نسمع بها من قبل؟

* أيتها المخلوقة الفانية تحمل مصير المخلوق الفاني..

* منذ عهد بعيد وأنت تئنين من نير محتم!

* الآلهة أنفسهم وسكنو الأوليمب..

* الذين يخيفون الآثمين بصوت هائل..

* قد اكتووا أحيانا بنيران حب أثيم..!!!

وهكذا... وهكذا... نفس هذا الهذيان الذي تتحدر به على منحدرات الشذوذ الوعرة كلمات عن الآلهة، وتتساقط الآدمية المستعبدة لشهواتها، ليتسرب ذلك من عصر الوثنية بنفس غوايته ورعدات إثمه إلى عصر المسيحية في أوروبا.. ومع الغزو الأوروبي للوطن العربي بالحراب، ثم بالكتب والأفكار، ثم بخطط وأموال مدارس الإرساليات الأجنبية – تظهر اللوثة نفسها في ترويج قصص يوناني مكتوب باللغة العربية يستقبل بوجهه الأوليمب.. ويسجد لآلهتها.. وأساطيرها.. وينفصل عن واقعه معها!!

القصص دين:

هذا القصص القرآني الحق بكل هذه الخصائص التي تجعله في قلب إشعاع الدعوة إضاءة باهرة وخالدة على القوانين التي تحكم النوع الإنساني من خلال الفعل والحدث، بعيدا عن التفاصيل الزائلة، وعن قيد الزمان والمكان – تجعله في بيان القرآن من الدين الذي يوجه المؤمنين إلى تصور الإنسان السوي في مفهوم القرآن، وكما يرضى الله عنه، مع القدرة على التأسي بهذا الإنسان، والتحول إليه، والسير على آثاره.. قصصًا.

القصص القرآني، وجميع القصص الذي يقوده ويوجهه القرآن في آداب اللغة العربية، هو من الدين صدقه، ومنهجه، وأهدافه.. وأعظم ما يميزه عن غيره أنه يخلص إلى العظة في الخبر الذي يقصه، وإلى العلم الذي يستخلصه من الخبر، وإلى الآية المضيئة التي يرفعها أمام عين المؤمنين، دون أن يتعرض القارئ أو المنصت إلى ما يثير غريزته، أو إلى ما يستفزه

لخيال كاذب، أو خاطر معيب، وإنما هو بما يقرأ أو يسمع لا يعلق به من مشاهد النزاع بين الحق والهوى في حياة الإنسان، ومخاضات فتنته — إلا برد الطهر وسلامه، وصوت العصمة ورحمتها..

وحتى يمكن لنا القياس بين كمال الأداء القرآني في أحد هذه المشاهد الشديدة القابلة للإثارة، والتي قد تعكس العظة فتجعلها غواية — كما هو شأن جميع الاثارات المتعمدة في القصص المختلق والموضوع — وبين نفس المشهد كما يعرضه كتاب آخر من عند الله هو التوراة، ولكن جرى عليه التحريف البشري، ففقد المشهد طابعه في القصص الديني الحق، وتزعزعت فيه عظته الإلهية، وتسلل إليه من نبضات الإثارة العكسية للعظة ما جعل هذا المشهد مصدرا للإيحاء بكثير من قصص الفتنة، وأعمالها الفنية الأخرى في أوروبا.. حيث تحول أكثر ما في "الكتاب المقدس" بعهديه.. إلى تجارة للعابثين.

نعرض هنا بإيجاز المشهد الذي جرى به امتحان "يوسف" قبل نبوته في بيت العزيز، كما عرضه القرآن بأدق أحداثه، وبالكلمات المطهرة والمبينة عنه داخل مشهد فيه امرأة مثل فيدر.. وملك كريم.. وفراش!! سنعرض لهذا المشهد الشهير في قصة يوسف كما لا يزال يقدمه القرآن مثالا كريما لقرآن كريم وقصص كريم.. في مقابل نفس المشهد كما يعرضه العهد القديم في أيدي اليهود.

يقول الله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ • وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ • وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ

وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

هذا المشهد بعينه تقدمه التوراة بأيدي الأحبار كما يلي جياشا بنبضات الإثارة، وخافتا في مفهوم العبرة.. تقول التوراة:

"وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت اضطجع معي. فأبى وقال لامرأة سيده هو ذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت، وكل ماله دفعه إلى يدي. ليس هو في هذا البيت أعظم مني. ولم يمسك شيئا عني غيرك لإنك امرأته. فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله. وكان إذا كلمت يوسف يوما فيوما أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها. ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله، ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت، فأمسكته بثوبه وقالت اضطجع معي. فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج، وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة أنظروا قد جاء إلينا برجل عيراني يداعبنا. دخل إلي ليضجع معي فصرخت بصوت عظيم.."

في ضوء هذه المقارنة في مشهد من المشاهد المشتركة بين القرآن والتوراة التي تدخل في نصوصها الأحبار، نتبين إلى أي حد يبلغ قصص القرآن حد الكمال في أداء المعنى إلى النفس، مهما اختلفت أحوالها وعصورها، منزها عن التفاصيل المعوقة، وعن أي ثغرة تنفذ منها الإثارة، أو ينبثق الأثر العكسي على نفس الإنسان.

ونستدل على ذلك بعد المثال السابق بشاهدين أولهما أن قصص القرآن بلغ في النفس العربية نهاية ما أمكن من تأثير كلام في نفس،

فوعى العرب فضائل القرآن وعظاته وغاياته، وجعلوا من أنفسهم صورا حية للمثل الكامل فيه ولم يتم هذا التأثر لأمة التوراة، أو غيرها بأي كتاب في يوم من الأيام.

والشاهد الآخر أن العرب المسلمين لم يشعروا مطلقا بشيء من نقص المعنى في النسق القصصي للقرآن، فلم يخطر في بالهم في يوم من الأيام، وإن كان قد خطر للشعوبيين من بعدهم – أن موقفا من المواقف في قصة من القصص يحتاج إلى تفسير، أو تكملة، أو تفصيل، ولهذا – في غير كتب التفاسير التي حشدها الشعوبيون بالإسرائيليات – لم تنشأ بينهم تلك القصص الدينية التي تجعل من النص القرآني مادة ومجالا للمتعة باختلاق الحوادث، وتسجيل التفاصيل، سواء لنقص يتطلب الاستدراك، أو استطالة وراء معنى مفقود يستوجب المتابعة، كما حدث ذلك في الكتب الكثيرة التي نشأت حول قصص التوراة، وبجميع اللغات، التي كانت في أكثر أحوالها، مع الصور والتماثيل، جنوحا إلى معان مضادة للتوراة، واختراعا وتجارة مع الربا بأسماء رجال ونساء وحكايات لتسلية الملوك والملكات في أوروبا، يتسابق إليها القصاصون والشعراء والمسرحيون، مثل رواية "إستر" لراسين، "وموسى في مصر" أوبرا لروسيني و"يوسف" أوبرا لمهول، و"شمشون ودليلة" أوبرا لسان سانس.. إلخ.

الرسول والقصص:

لقد كان معنى قيادة المنهج القصصي القرآني لآداب وقصص العرب بعد الإسلام واضحا تماما في حياة العرب الأوائل بعد إسلامهم، ولكن المراحل التي دخلت بها الثقافة العربية الإسلامية في ثلاث محاقات متعاقبة من الفرس إلى الترك، ومن الترك إلى الفرنسيين والإنجليز – قد ألقت هذه

الأقنعة القاتمة على وجوه الحقائق المشرقة التي اعتصمت بها الثقافة العربية القرآنية بين المسلمين إلى مدى طويل.

فمنذ نزول القرآن الكريم كانت مهمة القصص جلية، ومحدودة، ومرتبطة بأوثق رباط بالدعوة إلى الله، والالتزام بشريعته، وقد وضع النبي محمد صلى الله عليه وسلم حدود هذه المهمة الدينية الدنيوية للقصص بأنواعه قبل الإسلام وبعد الإسلام، في قوله الجامع "لا يقص إلا أمير أو مأمور أو مختال".

والمعنى أنه لا يحق لأحد أن يقص على الناس قصص السابقين وأخبارهم ليعظهم به، ولا يفتنهم فيه، إلا أمير مسئول، أو مأمور بهذا الإعلام والإخبار بالقصص الحق من الأمير، فإن مسئوليتهما عن صدق الرواية، وأمانة القصص الحق، الذي هو دين وعلم وسنن تحددت أحكامها في مصائر الإنسان والأمم – تمنعهما من الميل مع الهوى بالمبالغة، أو بالتغيير والتبديل، أو بالوضع والاختلاق، مما ينكسر به مسار هذه السنن، وينطمس به هذا العلم، ترويجا بالباطل لمذهب، أو دعاية لزعيم.

وعلى هذا فإن هذا "القصص" إذا ما وقع – كما وقع فيما بعد – في أيدي من يتكسبون به من العامة في المساجد والأسواق، أو بين أيدي من يخدمون أهداف الشعوبية والإسرائلية من العلماء والمتعالمين، فإنه بهذا تبدأ بداية الأساطير بديلا للخبر الصادق، وتنشط مرحلة التحول بالحقائق إلى الخرافات، والانتقال من عصر اليقظة والذكر بالدين إلى عصور الشطح والغفلة والبدعة بادعاء الدين.

إنه بهذا يبدأ خطر التزيد والاختيال على ألسنة القصاصين المرتزقة الذين يبدأون الانحراف تحت فتنة الأجر والإقبال، حيث يصبح "القصاص" هو صنيعة جمهوره، وليس الداعي إلى الله وأجره عليه، ومن هنا فهو

يستعرض بصوته، ويميس بقامته، ويميل بعنقه، مقبلا مدبرا، ومتطاولا متقاصرا. ومن هنا مع التحريف والمبالغة والوضع تنطمس الحقائق واحدة بعد الأخرى، وتبدأ مرحلة الغرق في الأساطير، والخرافات، والتأويلات، والإسرائيليات والزرادشتيات التي عمت بها الفتنة، واستشرى بها التعصب الشعوبي، والتحزب المذهبي، والتشيع الانشقاقي، ثمنا لمتعة جماهير القصاص، وثمرة لخيلاء رجل قص واحترف، فبالغ وأسرف.. وكان في نفس الوقت صنيعة انقلاب على الدين الحق، وعلى الحكمة والبصيرة والحقيقة التي جاء بها الإسلام، ونزل بها القرآن.

ويقول الرسول في نفس المعنى "القاص ينتظر المقت لما يعرضه في قصصه من الزيادة والنقصان" كما أورده ابن الأثير في النهاية.

ثم يقول الرسول أيضا وهو يقدم البرهان على مخاطر استباحة الصدق القصصي، والتجاوز بالرواية من الحق إلى الباطل، ومن الخبر إلى الأسطورة كما وقع ذلك لليهود على مشهد من العالم قبل الإسلام:

"إن بني إسرائيل لما قصوا هلكوا" وفي رواية أخرى "لما هلكوا قصوا" أورده ابن الأثير كذلك.. والمعنى واضح في أن الخروج بالزيادة والتحريف أو الوضع والخيال عن حدود الصدق العلمي والتاريخي والبياني للقصص الديني أو التاريخي، أو في أحاديث كل يوم — ليس إلا طريقا إلى الهلاك في دوامة "الأكاذيب"، والضياع في متاهة "الخيالات" ولا يكون ذلك إلا بفقدان الرؤية للحق والالتزام به، بسبب نقص الإيمان، أو اهتزازه، أو فقدانه، بينما هو مصدر الرؤية للطريق، والوضوح للهدف، والالتزام بالسير القاصد، والخطو المتسق.

ولئن كان هذا المعنى في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ينصب على القصص الحق في القرآن الكريم، وعلى قصص وأخبار العرب

الأوائل، وعلى قصص المسلمين وأخبارهم، وسيرته وسيرة أصحابه بينهم، مما لم يذكره القرآن في ارتفاعه عن التفاصيل، وتقنينه للأحداث – فكيف يكون الحكم حين يخرج من مجرد "الخيلاء" التي أشار إليها في حديثه عن "القصاص المختال" أي المتزيد – كيف يكون الحكم إذا تحولت ظاهرة الخيلاء والمبالغة إلى صناعة كاملة "للتخييل" والتلفيق لكل ما لا أصل له من الحكايات، ولكل ما جرى تخميره من الأكاذيب، ليسكر بها الغواة والهواة والمستضعفون من قراء الروايات، وشهود المسرحيات.. فيضحوا أو يبكوا.. ثم يدمنوا على هذه "السكرات في بضاعة من يضحكهم ويبكيهم بالخيال والوهم، وبالصناعة والتمويه حتى إذا هلك هؤلاء السكارى المخدرون بما قرأوا، وبما شاهدوا، داخل غيابة الاستبطان الوهمي، لم يبك عليهم أحد..!

نعم فهكذا بعد أجيال من سكرات القصص، وأوهام المسرحيات هلك اليونان والرومان.. كما سيهلك عمالقة حضارة اليوم، المرضى ببقايا أوهام المسرح، والمتقنعين على عدوانهم وشهواتهم بالكثير من أقنعة الخداع والتمثيل.. خداع كل منهم لنفسه المنقسمة عليه، وخداع كل فئة لأختها، وخداعهم للأمم التي يتحالفون معها، أو يتحالفون عليها.. وهم في كل أمرهم ساء ما يفعلون، وعن تخييلهم وخيلائهم لا يرجعون.. وإذا رأوا آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم.. تحمل نذر هلاكهم.. لا يستدركون.. ولا يؤمنون!

الفصل الثاني

الوجود الحي
ومفهوم الإنسان في القرآن

مفهوم الإنسان:

جوابًا على السؤال المستمر الطرح داخل مسيرة البشر: من هو الإنسان، توصلا لمعرفة: ما الوجود.. والحياة؟ .. ومن الموجد.. والخالق؟.. قيل قديما: الإنسان حيوان ناطق.. ولم يكن هذا الجواب كافيا لإنارة الطريق فالنطق المميز لحياة الإنسان لا يعني النطق بالصواب دائما. إنه لا يعني أن هناك من لا ينطق أصواتا معجمة خرساء المعاني.. أو أن هناك من لا ينطق كفرا بالحقيقة التي يبحث عنها، أو التي أغمض عينيه وحواسه وهو يبحث عنها.. بينما الكفر، الذي هو غطاء على الحواس، يملأ الكلام المنطوق في الفلسفات والأساطير والحكايات الخيالية "كذبا" أو "ظنا".. والظن لا يغني من الحق شيئا.

وقالوا بعد ذلك في تعريف الإنسان بما هو أفضل إنه "حيوان ذو تاريخ" أي إنه بالكتابة التي يعقل بها تسجيل ما يجرى عليه، وما يجرى منه، يستطيع أن يفيد من تجاربه ويتقدم، بخلاف الحيوان الأعجم الذي لا تاريخ له.. ولا تجربة لتقدمه.

ولكن الكتابة في حد ذاتها هي "نطق صامت" أي أن الإنسان بالكتابة هو الذي ينقل أصواته وصور أفكاره ومعانيه بالحروف والكلمات من جيل إلى جيل.. ويعود بنا هذا إلى عيب التعريف الأول، أي إلى السؤال عن نوع هذا الكلام المكتوب.. ومدى الحق والصدق والصواب فيه.. أي مدى رؤية الواقع كما هو من خلال حركته، ومدى فهمه فهما شاملا من خلال وعي قوانينه.

ثم ظهر أخيرا مع الماركسية هذا التعريف الذي يحدد المفهوم المادي أو الأرضي للإنسان على لسان "انجلز" مرتبطا بالنقطة المركزية في

فلسفتها المادية وهي "تصنيع الطبيعي بأيدي الطبقة العاملة" وذلك حيث يقول "الإنسان كائن حي ذويد".. أي "يد" تعمل بتوجيه الفلسفة المادية على تصنيع العالم الطبيعي من أجل تغيير هذا العالم.. وهذا التعريف ناقص أيضا، ومغلق عما هو أبعد من العالم الأرضي، وما هو في متناول الحواس، بينما الإنسان والأرض متأثران بالوجود السابق، وبالواقع الراهن، وبالمستقبل الوشيك والبعيد، أي بهذا الذي تغلق الماركسية أعينها بسذاجة عنه، وهو القوة المدبرة لهذا الوجود السابق والراهن والوشيك، والتي وإن لم تكن بالضرورة في متناول الحواس الإنسانية، فهي في متناول إدراك العقل الإنساني السليم.

في القرآن الكريم نجد أن الإنسان الذي هو بدليل حركته الحرة كائن حي يتميز أولا بهذا "العقل" الذي "يعقل" أي الذي "يمسك" بأيدي حواسه من الواقع المحيط به كل ما يقوم به من "المدركات" هذا البرهان على الله الخالق، وكل ما يستقيم به طريق حياته في ضوء هذا البرهان إيمانا به، وتصديقا بما يأتي منه.

هذا العقل الذي يميز الإنسان عن غيره لا يكون في لغة القرآن عقلا سليما صحيح الأداء لوظيفته التي هي عقل وربط المدركات من العلوم والسنن مما حوله إلى وعي الإنسان – إلا إذا عقل البرهان المبين على الله، وأسلم بهذا إلى الإيمان به، ونقل هذا الإيمان إلى الشعور بالأمن في قلبه، أي نقله من مجال "الفكر المجرد" و"البرهان النظري" إلى مجال "الحس المدرك" والمسموع في جهاز القلب، الذي أودع الله فيه هذه العلاقة الوثيقة بالرقابة والتسجيل لعلم العقل الذهني والإدراكي، وهي علاقة تظهر – كما سبق القرآن إلى تسجيلها – في ارتباط نبض القلب بهذه الدلالة

القطعية على "الصدق" في حالة انتظامه، وعلى "الكذب" في حالة اضطرابه وتسارعه.. مع أن وظيفته العضوية والحيوية هي ضخ الدم لتسير الحياة.

بهذا الجهاز الكاشف عن الصدق والكذب كما وضعه الله تحت صدر الإنسان، وكما كشف عنه القرآن في أكثر من آية وحكمة – يظهر هذا الاتحاد الناطق باستمرار تحت الضلوع بين "نبض الحياة" في القلب، وبين "برهان الإيمان" بالعقل. إنه الاتحاد الدال "حسيا" على حكمة الحياة، فالإنسان مخلوق ليؤمن، وبعبارة أدق ليكون "اختياره" بالعقل واليقين وبالعمل هو الإيمان. إنه الاتحاد الذي وضع عمل العقل من حيث صدقه بالإيمان، أو كذبه بالكفر، في حيز الوقائع التي يدركها الحس، والقياس المادي، وهكذا نقل القرآن الكريم بهذه الدلالة المرشدة مكان العقل في الرأس نقلا مجازيا إلى "القلب" الذي هو تحت الصدر قياس عمل العقل الدائم في إدراك برهان "الإيمان" وفي تسجيل وتحقيق حالة "الأمن" الكامل بدليل انتظام نبضات قلبه مهما كانت المؤثرات الضاغطة عليه – قهرا أو غواية – من حيث أن إدراك الإنسان درجة الإيمان بالله عقلا ووعيا ويقينا هو "الصدق" المطلق في حياته.. الصدق الذي يكون بالأمن هو مصدر كل صدق في شعوره وقوله وعمله.

إذن فمفهوم الإنسان في القرآن هو أنه "كائن حي ذو قلب" أي ذو عقل يدرك بتفكره في واقع الوجود وحركته برهان الله الحي، الخالق، المدبر.. وهو يدرك هذا حقا وصدقا بدلالة انتظام نبض قلبه تحت أضلاعه، وبدلالة "سلامه النفسي" في واقع هذا الأمن القلبي وسط أنواء الحياة وعبابها وهو هذا السلام الذي يسميه القرآن بلسانه العربي "السكينة".. سكينة المؤمنين.. كما أشرنا إلى ذلك في الكلام عن اللغة الدينية صفحة150.

يقول الله في أن الإنسان يعقل بقلبه بسبب هذه الدلالة الحسية في القلب على الإيمان والصدق: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

ويقول عن الكاذبين بالكفر ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

ويقول في أن الإيمان هو مصدر الأمن، لأن الإيمان هو الصدق الكامل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

الوجود الحي:

بهذا العقل الممتد بحواسه إلى أقصى واقعه في الوجود المحيط به، والمتحرك في رصده لهذا الواقع مع آياته المتسقة على نفس إيقاعه، والمتفاعل معه إلى أقصى قدرته بحاجات حقيقية غير زائفة.. حاجات الحياة الأساسية من حفظ الذات، والنوع، والأمن، والعلم – انطلق الإنسان العربي في أوسع رقعة من الوجود الحي الذي وصفه القرآن.. الوجود الأكثر تكاملا بأرضه وسمائه، وبدائه وأضوائه، من أي رقعة أخرى يحيا بها إنسان على هذه الأرض.. انطلق ليتفكر ويتعلم، وليتعلم ويؤمن، وليؤمن ويعمل، وليعمل ويترك عمله في مأثور كلامه، وصادق قصصه وأخباره، لمن يسيرون من بعده على نفس الطريق.. طريق الإيمان.

هذا الوجود المرئي، والمحس، والمدرك، كما يصفه القرآن لمن نزل إليهم هو وجود مفتوح أمام الإنسان.. إنه مفتوح أمام حواسه ومدركاته وحاجاته فليس مغلقا عليه، وليس موصدا في وجهه.. إنه وجود مفتوح

بآفاقه، وبدائه، وأضوائه، واعتداله، وجائزة مشقاته في الأمن، والرزق، والجنات، والينابيع.. جائزة ونعمة في رزق البر والبحر.. وفي عطاء الأرض والسماء.

هذا الوجود المفتوح أمام عقل الإنسان العربي وقلبه، وأمام يده وقدمه وجود شديد الجاذبية له.. إنه ليس كما هو في الشمال وجودا طاردا بالصقيع والجدب، وليس كما هو في الاستوائيات وجودا قابضا بالحرارة والوباء.. إنه رغم وحشته يفتح ذراعيه ليأنس بإنسانه، وليأنس إنسانه به، وقد خرج إليه من كل أفق باسطا مودته بكل عناصره، التي كأنها في كل مواكبها تتكلم إليه.. تتكلم إلى الإنسان.. تحييه منذ أن تشرق.. وتحاوره دون أن تمل وتودعه عندما تغيب.. حتى إذا ما أشرقت عليه مرة أخرى حيته من جديد.

هذا الوجود المفتوح أمام الإنسان العربي هو كما يصفه القرآن وجود حي أيضا، بهذا المفهوم للحياة في علم الدين.. هذه الحياة التي ترفع عوائق الغربة بين الإنسان وبين الواقع الحي المحيط به.. الواقع المتحرك، والوجود المفتوح الذي لا يستكبر بكل مواده، وعناصره، ونظمه، عن أن يكشف لهذا الإنسان الذي خرج إليه – أنه مسخَّر له.. مسخر له في هذه المرحلة العابرة في الدنيا إلى أقصى ما يكون بهذه التسخير نماؤه واستهداؤه، وعلمه وسلامه. وأول ما يكون من سخرة هذا الوجود لهذا الإنسان المستأنس إليه أنه لا يفتر عن استخلاصه من متاهات حيرته بهذا الدليل الدائم، والمتجدد، تقدمه له الأشياء مجتمعة ومنفردة، على أن الله خالقه، ومدبر أمره، وهادي سبيله.. الله هو تفسير حياته، وتفسير كل الوجود من حوله، وإن عصمته وسط هذا الوجود الكبير هي أن يؤمن، وأن شكره

لله على هذا الوجود المسخَّر هو أن يعمل في عمران هذا الوجود، بهدى هذا الإيمان.

يصف الله في القرآن هذا الوجود المفتوح والحي أمام الإنسان بأنه مسخر له إلى أقصى ما يبصر منه، وما يدرك فيه فيقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، ويقول ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ • وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

ويقول عن الأنعام التي سخرها له، ولا يزال يسخرها له ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ ومن آيات الله في هذه الأنعام من الإبل والضأن والمعز ما سخرها به لينسج خيامه، وبيوت رحلته التي يطويها ويبسطها وهو يسعى في رحلة حياته الطويلة في قلب هذا الوجود الحي بالحركة، وبالنعمة، وبالحوار، وبالهداية والعلم، وبالإيناس والمشاركة.. يقول الله في نعمة الأنعام بهذه البيوت: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

هذه هي بيوت الحركة داخل الوجود الحي المفتوح، وهي لذلك نعمة في مقابل تلك البيوت التي ظن الإنسان أنه يخلد فيها بقدر صلابتها، فأصبح في أسرها لا يتحرك، ولا يباشر بحركته حركة الوجود، فيفهم عنه، ويرى برهان الإيمان فيؤمن معه أنها — أي بيوت الرحلة الدائمة — نعمة في مقابل تلك البيوت الحجرية التي هلك بداخلها. وفي عواقب الهلاك داخل هذا القيد الحجري، وفي وهم الخلود به في متاع دائم يخالف الإنسان

به لغة الوجود من حوله لأنه انفصل عنه – يقول الله في هلاك قوم عاد ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ • وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي تصنعون المحاجر في الجبال لبناء البيوت والقصور المنيعة أملا في الخلود. وفي هذا المعنى يقول عن أسباب هلاك قوم ثمود ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ أي مرفهين ومترفين وطامعين في الخلد على هذه الأرض..

في هذا الوجود المفتوح أمام الإنسان، والحي معه، وشديد الجاذبية له، وحيث يتحرك الإنسان فيه – كما تحرك الإنسان العربي القرآني – بعقله الراصد لما يدركه، وبقلبه الساكن بما آمن به، راحلا رحلة الطير بأجنحته بيته الراحل معه، من أفق إلى أفق، ومن مشقة ونعمة إلى مشقة ونعمة أخرى – يصبح نصيب هذا الإنسان من عدد الساعات التي يتفكر فيها في الوجود والحياة، وفي الخلق والمصير، نصيبا وافرا يملأ كل يومه، ويرف على خاطره حتى ملء نومه، فهو في ظعنه ومقامه، وفي صحوه ومنامه، قد أسلم كل أمره إلى الله بين يدي آياته، فلا تغيب عنه شمس، ولا يضل منه نجم، ولا تخطئه نأمة في نسمه، ولا بارقة في سحابة.. أكثر طعامه الشمس، وأكثر شرابه الهواء، وأعظم أنسه الكلمة، وأعظم هدفه الحرية، حتى يبقى الله بهذه الحرية ظاهرا له، وقائدا لمشيئته، وهو يمتطي إليه دنياه، وما سخره له من شيء في هذه الحياة، راحلا مجسدا.

العمل شكر:

في هذا الوجود المفتوح، الذي يعيشه الإنسان القرآني العربي، وحتى اليوم إذا استطاع.. في هذا الوجود الحي، المسخر له بالنعمة، وبالهداية، في كل سمائه وأرضه، وباتساع نهاره وليله، مالكا لنفسه، عاقلا للحظته.. في هذا الوجود الناطق عن الوجود في وعي هذا الإنسان، فهو لا يقول كما

يقول الإنسان الأوروبي المنفصم "أنا أكون" أو "أنا موجود" حتى يعبر من باطنه إلى واقعه بفعل الكينونة.. في هذا الوجود البسيط، الغني، المؤمن يصبح الإنسان هو عمله، ويصبح عمله هو شكره، ويصبح شكره هو حواره الدائم مع الأشياء، ومع نفسه، ومع الناس، وهو يستخلص ما في واقعه المتحرك، ووجوده الحي، من نعمة الله التي لا يحصيها، ليتوجه بكل ما يستخلصه أعمالا وكلمات إلى الله الذي أحياه، وأنطقه بالحق وهداه.

في هذه النعم المتجددة التي يرى الإنسان ويدرك أنها موجهة إليه، في دار متحركة مثل داره هي دنياه، غير أن مصابيحها نجوم، وسراجها شمس، وجدرانها آفاق، وسقفها زينة، وأرضها مسعى.. لا يصبح العمل فقط هو تصنيع الطبيعي.. هو حرث الأرض، وشق الطرق، وبناء السفن، وصناعة الأسلحة.. بل تصبح كل حركة بإرادة الإنسان هي عمل يحسب له أو يحسب عليه، وإذ هو إنسان شكور، إلى رب منعم، في دار امتحان بنعمته، ونعمة بامتحانه، فإن كل حركة بإرادته تكون عملا صالحا يتوجه به إلى الله في مقام الشكر، حتى وإن كان شكره صبرا، وصبره دعاء، ودعاؤه تضرعا.

نعم.. إن كل حركة بإرادة هذا الإنسان الشاكر على النعمة، المتحصن من الفتنة، تكون عملا محسوبا في حسابه، وملمحا ناطقا من ملامحه، وإذ هو إنسان شكور بالإيمان فإن أقرب أعمال الشكر إلى إرادته أن يتحصن على إيمانه، وأن يستهدي فوق هدايته، وأن يستوثق بدوام الذكر لميثاقه مع ربه.. فهذه هي صلاته إلى الله، وذكره له قائما وقاعدا وعلى جنبه، فلا يكاد بها يغفو قلبه، أو يغمض وعيه، أو يفتر لسانه، والصلاة في مقدمة أعماله أحبها إليه، وألصقها بطبعه، وأسرعها عائدا

على نمائه، وعلى سكينة قلبه، وسلام نفسه، وأيسرها أداء في حركته، كأنها.. بل هي فطرة خلقه يتمكن منها، ويعود إليها، ويتضر وجها بها. وإنه لحق في فطرة هذا الإنسان القرآني.. أن يكون أحب أعمال شكره إلى الله ذكره، والقيام له، وتقويم النفس إليه، ونهيها، وأن لا تكاد جملة ينطق بها في حديث نفسه، أو حديثه إلى غيره، إلا والله منها باسمه، أو بالكلمة الدالة عليه، هو مدار المعنى، وعصمة الصدق، وهداية الأمر. وما كان من أمر لغة أخرى في ألسنة أهلها مثل ما لهذه اللغة العربية، فوق هذا الوطن المنير، في ألسنة أبنائها وأجيالها إلى اليوم من ذكر "الله" باسمه في حديث كل يوم، وجملة كل لحظة، حتى وإن غفلوا – كما هم في شتاتهم المعاصر – عن ذكره.. وهم في ذكره!!

لقد كان على هذا الإنسان القرآني أن يشكر الله بعمل يبدؤه بعبادته، ثم يتبعه بتوظيف جهده وعقله في تنمية جماعته حبا لها بحبه، وطاعة لما يصلح به أمرهم في طاعته.

ومن ثم تكون الأعمال الإنتاجية، والأعمال الاستخراجية، من أجل نمو جماعته بعمله، ونمو عمله في جماعته، بعد أن يكون قد أعطاها "العفو" كما أمر الله.. أعطاها، ويظل يعطيها، فائض ماله، وفائض جهده، وفائض حاجته، فهذه الأعمال الإنتاجية.. أعماله في المزرع والمصنع.. أعماله لتذليل البر والبحر لما ينفع الناس تأتي في مرتبتها بعد أعمال التقويم لنفسه، وتنمية إيمانه، وبعد أعمال العطاء لجماعته والبر بنوعه.. وهو بهذه الأعمال الإنتاجية والاستخراجية يمضي على نفس النهج الذي أضاءه الإيمان، والذي انتفى به في حياته الآمنة، وفي وجوده الحي نزع الصراع، وقهر السلطة، وزيف الكهانة – فهو يزرع الطيبات من زرق الله، وليس الخبائث والمخدرات من فتنة الشيطان، وهو يصنع ما تسبق إليه حاجة

الناس، مما ينفع ولا يضر، ومما يعطي عائدا صحيا للمجتمع، وما لا يترك من آثاره مرضا بالترف، أو شذوذا في سبيل العيش، أو تمييزا أو تمكينا لفئة على غيرها بغير وجه حق.

إنها هذه الأعمال التي تتجه في معنى التقدم، والعمران، وترويض العناصر الطبيعية وتذليلها بالعلم لمنفعة الناس على أساس "التصنيع الطبيعي" وليس "تصنيع الطبيعي".. وهكذا فإن العلم الذي يقوده الإيمان لا "يفلق" الذرة، ولا يفتح ملف "أطفال الأنابيب" ولا يطير إلى أسلحة الدمار الشامل..!!

نعم.. هكذا كان المسلمون الذين قدموا بالإيمان أصول "المنهج العلمي" القائم على التجربة الحية لأول مرة، ومحوا بذلك عار الفكر الأرسطي التجريدي وأسقطوا منهج الغباء الفلسفي اليوناني — أخضعوا العلم لمعنى "العمران" وربطوا مفهوم "العمران" بأمن الإنسان، وبنمو علاقاته الاجتماعية اليومية على أساس السواسية، والاحتفاظ بداره الإلهية العابرة، أي الدنيا، بملامحها الطبيعية حول عمرانه، وداخل عمرانه، من حيث أنها هي كتابه إلى الله، وبرهانه إليه. فلم يلوثوا بيئة الإنسان، ولم يخاصموا بينه وبين واقعه، ولم يزجوا بالعلم في مزالق أهواء المردة من البشر، ولم يدفعوا به وراء وهم ألوهية إنسان وسحق إنسان آخر، إلى أن اختطف المارد الأوروبي هذه الشعلة العلمية من أيدي العرب المسلمين، في تعاقب دورات التاريخ، فمضى بها المجنون سراعا عبر نزوات العدوان.. وبوارق الطمع.. ليحرق الأرض.. ليحرق الحياة ونعمة الله!

نعم.. فمنذ كانت "الأنعام" ترعى العشب، وتحلب الحليب، كان هذا الإنسان القرآني العربي سلاما لنفسه، وسلاما لعشيرته، وسلاما لكل البشر.. كان سلاما بإيمانه وعلمه، وبعمله الذي توجه به إلى الله

للشكر على نعمته.. للشكر على نعمة الأنعام، والغيث، والطرق، وهذه الدار الطبيعية الواسعة المضيئة بالنهار، والمنيرة بالليل.. الدار التي لم يكن يملك فيها إلا "أنعامه".. من صنع الله له.. أنعامه التي يقول الله له عنها في أبلغ بيان:

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ • وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾.

فهذه الآية التي جمعت كل ما كان يملكه الإنسان القرآني العربي، المتبدي في عصوره الأولى لم تترك شيئا من صفة كمال النعمة في هذه "الأنعام" التي حملت اسم النعم الكثيرة، والتي ارتبطت حياتها وخصائصها وطبيعتها بهذه الدار الواسعة.. بهذه البادية المكتملة في أرضها وسمائها بدلالات الدنيوي والأخروي.. ليكون للإنسان المؤمن في هذه الدار الراحلة معه "جمال" حين يريح من رحلته فيقيم، وحين يد عن بعد إقامته ليسرح.. وأنعام الله بين يديه، له فيها "جمال" على كل حال.. أي له فيها "جملة" النعم التي ألقاها الله له في كل صور حياته، مقيما وظاعنا.. مريحا مع المساء، وسارحا مع الشروق.. ونشطا قبل الشروق.

هذا "الجمال" الذي أفاء الله به على ذا الإنسان القرآني، البادي، العربي، في جملة النعم كما دفعها إليه، والأنعام كما خلقها له، لم يزل حتى اليوم أوفر حظا من النعمة الخالصة، والجمال المتسق، في طعام ذلك الإنسان، ومسكنه وطبيعة داره، وسلام نفسه، مما بلغ إليه الإنسان المعاصر في الدول المتقدمة بتسخير العلم، وبالسخرية من الإيمان.

إن ذلك القدر الذي استوعبته تلك الآية وحدها من دلالات "الجمال" الصحي في حياة الإنسان يحل ويرحل وراء أنعام الله له، ووسط نعم في داره

الواسعة أفاءها عليه – لا يزال أوفر كثيرا مما حققه الإنسان الأوروبي الشرقي والغربي والأمريكي، وذلك بشهادته التي لا تخفى عن زائر بلاده، في نوع الغذاء الذي رجع إليه بمشروعات طائلة النفقات لاستدراره والاستزادة منه وهو "اللبن" الذي يقيمون لإبقاره قصورا مكيفة، تعيش فيها آمنة، معززة مخدومة، لتقدم للمتخومين واللاهثين طعام "السماء".. وليكون هذا اللبن في إمكان تسييره والزيادة فيه علامة مميزة أكثر من الطائرة والصاروخ على "التقدم" بمفهوم العمران في لغة الإسلام والقرآن.. وستظل الحقيقة الباقية أن الإنسان العربي الأول، والبدوي العربي المعاصر، لا يزال يشرب من "اللبن" غذاء أساسيا وحيدا في الغالب أوفر مما يستطيعه أو يطيقه ويرتفع إليه، إنسان أوروبا وأمريكا المضيع في علبه المحفوظة والمسممة إلى جوار خموره، وابتذالاته، وعقارات هلوسته.

كذلك فإن هذا الإنسان الأوروبي والأمريكي المعاصر لا يزال، بعد أن أنهكته بيئته المتصادمة مع حاجاته، وضيعته غياباته في صراعاته مع نفسه ومجتمعه وعالمه – ينتبه بإشارة العلم، وبمشورة الأطباء، وأحيانا كثيرة بصراخ الفطرة الممسوخة فيه لكي يقترب من الطبيعة.. لكي يتبسط ويحيا حياة الخيام، أو المعسكرات.. لكي يعرض جسمه الجليدي لمزيد من الضوء أو الشمس، ولكي يفتح على سراديب نفسه المزحومة بفضلات فكره المعضوب، ورغبات نفسه المحطمة، تيارا من هواء نقي، لم تفسده أنفاس مخمورة، ولم تلوثه أدخنة مسممة.

وهكذا نشأت، ولا تزال تتزايد، جماعات الرحلات والمعسكرات، كما أصبحت من ظواهر هذا العصر، هذه الفلول والمزق البشرية من قبائل الهيبيز المختلفة الجنسيات الأوروبية، وهي تخرج إلى العراء والحدائق في مدنها، أو حيث ترحل الفئات القادرة منها، تحمل في أسمالها المتعددة

مسحة عذاب القرون، ومسخ حياة الموبقات والعدوان، وكأنهم – كما نراهم في أزواجهم أو جماعاتهم في رحلات "التشمس" في مصر "دراويش أوروبا" الذين أفرزتهم نهاية الانحلال بالإلحاد والترف، وقد كانوا من قبل يسخرون من "دراويش الشرق" بينما هم الذين كانوا – أي الأوروبيين – عندما سرقوا بلاد العرب، وطمسوا علومهم، وقهروا جماهيرهم، سببا في أن يفرز المجتمع الإسلامي في مراحل الانحلال والتدهور والشتات "دراويشه" الذين لا مقارنة بينهم في عفويتهم، وإمكان إنابتهم، وتطهر أكثرهم، وبين البلداء المحطمين من ضائعي أوروبا وأمريكا، الذين يسبح بهم عباب نهر الحياة بعد أن غرقوا جثثا طافية.. كريهة المصير.

وهكذا يبقى المثال القرآني عن هذا الإنسان البادي الذي جعل الله له الحسنى بالجمال المتسق في جملة النعم التي أفاءها عليه بأنعامه، وبدائه، ورحلته ونقاء مطعمه ومشربه، وسلام نفسه، وحرية إرادته – ثم بعمله الدائب الذي يشكر الله به، فهو يقاسم في ماله، ويقاتل عن جاره، ولا ينام على ضيمه – يبقى هذا المثال القرآني الذي يرفعه هذا الإنسان الحي، ذو القلب، في وجوده المفتوح، والحي، بما فيه من الطيبات، والنعيم، والأنعام، والجمال والرحلة، والشكر – يبقى بالنسبة لهذا الإنسان المعاصر المتقدم "الإنسان الأوروبي الذي قتلته آلة تقدمه، وأوهام قصصه، وأغلال فلسفاته – هدفا بعيد المنال، وبمعنى أكبر من فهمه، وأقسى على عقله من صحوة للحق تنتابه بغير خيال!

الخطاب المباشر:

من أجل هذه النعمة التي استحقها هذا الإنسان المؤمن من أول الدهر إلى آخره.. الإنسان المدعو برسالات الله على أرضه، وفوق وطنه، وبين نعمه، وبلسان أقدر اللغات للبيان عن إيمانه وعمله وشكره – كان خطاب

الله لهذا الإنسان مباشرا إليه.. لم يكن حديثه إليه من خلال كاهن في معبد، أو دعى تحل الآلهة فيه على العرش، أو طقوس أمام هياكل سرية تضاء بالشموع، أو رموز في ترانيم وأوراد سحرية، أو كلمات بلغة الجن في تمائم وتعاويذ.

الخطاب المباشر إلى الإنسان الذي يسمع.. الإنسان الحر.. والقادر بحريته أن يحمل أمانة الاختيار بين الله والهوى.. بين الذكر والغفلة.. بين اليقين والظن.. فهو مسئول أن يسمع.. وأن يتدبر ويفهم.. وأن يعلم ويحكم.. إنه مسئول لأنه عرف النعمة وعاش بها، ورأى الآيات وتحرك بينها، ولأن الله في أعظم نعمه عليه عرَّب لسانه، وأنطقه بالعربية، يكون أهلا بذلك يفهم كلام الله، ويميز ويعي أن ما يسمعه من رسول يصدقه، ولا ريبة له فيه، هو باللسان العربي كلام الله.. الذي ينزل إلى الإنسان نظمه العربي بالصوت البشري، ويبقى بعيد المنال عنه دائما بمستوى وحيه الآلهي.

هذا الإنسان الذي نشأ في النعمة المحفوفة بالمشقات، والذي عاش بهذه النعمة حرا، وارتقى بالحرية والبداء في تعبيره فنطق عربيا.. هذا الإنسان عرف الله، ووضع بلغته وحدها هذا الاسم الصحيح الذي يشير به إليه.. وعندما عرف الله، ونطق باسمه، وشكره على نعمته، تكلم الله إليه.. وكان في مستوى أن يسمع من الله، وأن يفهم منه.. وهكذا من بين هؤلاء الرعاة كان الرسل.. والدين الحق.. والكتاب المنير.. كان ذلك كله ثمرة ارتقع الإنسان في مواجهة الوجود الحي إلى مستوى المسئولية الواعية والمعبرة.

لقد أصبح هذا الإنسان — بوعيه وتعبيره في الوضوح التام.. لقد تعرب في نعمة الله فكره وقلبه، ولسانه وعمله.. والعربية هي الوضوح.. والوضوح

أول صفات الحق، وأعظم قدراته.. وبالوضوح أصبحت مسئوليته عن الدين والحق، والصدق، كاملة أمام الله.

لقد أصبح هذا الإنسان العربي في الوضوح التام فكان لزاما أن يكون خطاب الله به إليه مباشرا.. وأن يكون رد هذا الإنسان بالإيمان والعمل الشاكر في كل مجالاته مباشرا أيضا، وجليا.

إن الله يخاطب هذا الإنسان تام النعمة، والواضح، والمسئول.. يسأله داخل بدائه في الوجود الفتوح، والحي، والمحرك، فيقول له:

* ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

* فإذا لم يكن قد سار ورأى بما فيه الكفاية ليقظة وعيه أمره بمزيد من السير وهو يقول له: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾.

* ويقول له ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾.

* ويقول له ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾.

* ويقول له وهو يقوده إلى منهج التفكير السوي، ومنهج العلم والملاحظة والتجربة: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ • ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

أما وقد عرف الله ببرهان خلقه، ودليل نعمته، وعرف بالسير والنظر، وكر البصر، وتتبع الظواهر، وملاحقة السنن — أنه لا عشوائية في الخلق، ولا فطور، وإنما اتساق وحكمة، وغاية ورحمة، فلقد حق عليه أن يسمع لمن يدعوه، وأن يستجيب لمن رحمه قبل خلقه، ورحمه بين خلقه، وأعد له من جزاء الخلد على كدحه إليه — خير ما أعده لخلقه.

لقد حق عليه، وهو في الوضوح التام، أن يسمع إلى ربه يخاطبه بالوضوح التام من قلب الوجود الحي، ومن فوق الوجود، ومما هو أقرب إلى نفسه في هذا الوجود، خطابا مباشرا يدعوه به، ويوجهه إليه، ويجتبيه له، في قرآن عربي خالد مبين.. حيث يقول:

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [فاطر:6]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:6]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة:21]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الحديد:28]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [محمد:7]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة:57]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الممتحنة:13]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف:2]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: 8]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء:174]

هذا الخطاب المباشر للإنسان الحي بوعيه، والشاهد بقلبه والمفتوح العينين والمرهف الأذنين في قلب الواقع الحي المحرك بآيات الله التي هي في تكاملها، واتساع مداها، في مجال رصده.. هذا الخطاب المباشر إليه نفسا وجسما، وعقلا وفؤادا، وحاضرا ومستقبلا – هو المنهج السوي في إلزامه بالمسئولية التي هو أهلها، وبالأمانة التي يحملها، وسط الحقائق والآيات

التي تشهد عليه ويشهد عليها. وهو أدب التعبير في كماله بالحق، والصدق، والوضوح، مع هذا الإنسان الواضح أمام الله، والواضح مع نفسه، والواضح مع الآخرين.

أفلا يكون من المضحك والغريب بعد ذلك أن يأتي زمان يقال فيه لهذا الإنسان المفتوح القلب والعينين، في واقع لا يزال مفتوحا وحيا أمام عينيه "تعال أغمض عينيك لتنظر، وضع أصابعك في أذنيك لتسمع، ثم قم إلى هذا الركن فأعط قيادك لمن يكذب عليك، وابتلع هذه القصص الخيالية الكاذبة.. لكي تفهم وتتحرر؟؟..!".

ثم ألا يكون أشد غرابة وخلطا أن يأتي أيضا هذا الزمان الذي توضع فيه الأسوة بالثقافة في أيدي أدباء يقل بينهم الراشدون القوميون، ويكثر فيهم النقلة المقلدون، والكذبة المختالون، فيقال لهذا الإنسان المؤمن، المفتوح الوعي والعين في وجود مفتوح، وبين يدي تراث صريح "قم لتعرف الحقيقة.. أدخل هيكل العزاء والأكاذيب.. أدخل هذا المسرح.. سنطفئ الأنوار.. سنموه على سمعك وبصرك.. أكتم نفسك.. والآن بعد بضع ساعات وأنت تحت المخدر.. ومستسلما لتعاون المؤلف والمخرج والممثلين على خداعك.. ماذا فهمت؟ .. ماذا قال هؤلاء بعضهم للبعض الآخر.. آه.. يرمزون إلى السخرية من الماضي.. يفتحون شهيتك لحرية المتعة.. يتبرمون من الضرائب الثقيلة.. برافو.. برافو.. لقد فهمت حقا.. وتسليت كثيرا بالطبع.. والممثلة الأولى ما رأيك فيها.. آه يا عفريت.."!!

هذا الهوان نفسه، والمسخ، قد يكون قمة بعيدة المنال في فن التعبير الأوروبي غير المباشر على المسرح، إذا قسنا ذلك بما عرضته مسارح القاهرة وغيرها من العواصم العربية من "زبالات" الكتابة المخمورة والعارية، التي لا تصلح لغير شوارع ومجامع الهوى، أو التي هي بالذات —

كما يسميها الدكتور حسين فوزي في مقال له في الأهرام في 22- 2- 1976 بعنوان السينما الفاضحة – الكتابة العاهرة، وهو يدين ما انتهت إليه الروايات السينمائية في مصر داخل إطار الفن الحديث بالإيرونية، أي بالإثارة الجنسية الشهوانية، والشبقية.. والسينما في العالم الغربي، وفي وكرها الصهيوني السياسي التخريبي في "هوليود" على الساحل الغربي لأمريكا، هي الأبنة غير الشرعية بالسفاح الصهيوني مع المسرح، بعد متغيرات فنون التصوير، والتمويه، وأدواته الحديثة، وتعدد وتطور أهداف الصهيونية العالمية في باطن سياسة التوسع والغزو التجاري وغير الأخلاقي والعسكري للإمبراطورية الأمريكية المعاصرة، وريثة روما القديمة وبيزنطة..!

هذا الهوان نفسه، والمسخ، بآلاف الأدلة على الهوان، وآلاف الظواهر على التخلف، والضياع هو ما يراد بهذا الإنسان العربي، المفتوح الوعي واللب في وجوده المفتوح على رسالة القرآن والإيمان، حتى يلتوي عنقه عن منهج فكره، وطرائق تعبيره، وعما بناه عبر العصور من أدبه المباشر، المتميز بين الآداب، بالحكمة وفصل الخطاب.. لكي يخضع لنفس التقاليد الهالكة لآداب اليونان وأوروبا التي عاشها منذ قبل الإسلام، وما بعد الإسلام.. لكي يخضع للكتابة المخدرة.. والكتابة الوثنية.. والكتابة العاهرة.. في فنون الروايات الخيالية والمسرحية.. لكي يخضع للأيرونية – أي الإثارة الجنسية الشبقية، القديمة والحديثة.. هذه الإيرونية Erotism التي مصدرها كوباء أخلاقي في العالم – بغير غرابة وبغير فخر – هو نفس بؤرة الفساد والانحطاط الوثني والفني والأسطوري القديم في بلاد اليونان. ذلك أن الكلمة في المعاجم الأوروبية، وكما أصبحت في علوم النفس الحديثة عنوانا على مرض نفسي ينتهي إليه تصدع وانهيار "الإنسان

الأوروبي" المعاصر – ترجع في الأصل إلى الأساطير اليونانية عن الهم Eros.. إله الحب بالمفهوم اليوناني طبعا.. مفهوم الشبق والعدوان والشذوذ.. وليس الطهارة والنقاوة والعذرية المتمثلة في علاقات الحب على هذه الأرض العربية، والتي ترقى بالحب فتبدأ به من المنطلق الهادي والمرشد والشامل وهو "حب الله".. والآباء.. والأسرة والعشيرة والوطن.. وأعمال الشكر في سبيل الله.. وهؤلاء الذين يحبهم المؤمن جميعا.

من أجل ذلك كله تصبح دعوة التحرير والبناء للإنسان العربي المعاصر مرتبطة أساسا – كما يوجه إليه القرآن دائما – بتحرير آدابه المباشرة من أذرع الإخطبوط التمويهي في فنون الرواية الأوروبية والمسرح، والسينما، وجميع الفنون الصناعية الخداعية.. ولا يتم هذا التحرير إلا باستحضار الوجود الحي والمفتوح من حولنا استحضارا حسيا وعلميا من جميع جوانب التفكير فيه، وشهود برهان الله به.. وهو الاستحضار الذي يردنا مع الإيمان إلى الصدق، ومع الصدق إلى منهج الصادقين في التعبير المباشر، والأدب العملي، وأدب الدعوة، باللغة العربية، والجملة القرآنية، التي في سماعها مسرة، وفي وعيها مسرة، وفي تكرارها، والتوحد بها، وتصحيح الاتجاه إلى الله بها أطهر وأعظم المسرات.

إن استحضار هذا الوجود الحي والمفتوح فوق أرضنا.. مهد الدين وبرهانه.. هو المقدمة لكي يعيش الإنسان العربي – كما فعل أكثر أسلافه – واقع النعم الكاملة، ومناخ الوضوح التام، حيث يتاح له أن يستعيد مشاهد الحياة في عناصر هذا الوجود المتسق والحي أمام عينيه.. الوجود المتحرك والمتكامل بكل عناصره وآياته في قصص حق، على مسرح وحيد لحركة الإحياء والأشياء والصدق، حيث يتاح أن يسمع الإنسان ويدخل في حوارات الخطاب المباشر، والتعبير الصادق، مع أجزاء

ومفردات وجملة هذا الواقع الحي في تكامله السماوي والأرضي، وتعبيره المفصح عن البشري والإلهي، والدنيوي والأخروي، وحيث يتجدد في إطار العلم والحق، والجمال والصدق، أن يصغى المرء إلى قول السماوات والأرض في حركتها الدائبة عن أمر الله: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.. وأن يشهد ويصغى أيضا إلى الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس "يسجدون" لله، و"يسبحون" بحمده.. ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.. في هذا الوجود الحي بمشيئة الله فيه، وسنن الله التي تحركه.. وليس بمفهوم "الأرواح" في العناصر كما هو إلى اليوم في خزعبلات اليونان وأسلافهم الهنود.. فالروح في القرآن هو "أمر الله".. هو كن فيكون.. ليس للبشر "أرواح" بل أنفس.. يقول الله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا • فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.. وليس للأشياء "أرواح" بل سنن وقوانين وطاعة الأشياء في السماوات والأرض لربها هي حياتها، وامتثالها لقوانينه فيها هو كلامها، وحوارها.. وتسبيحها.

هذا الاستحضار للوجود الحي في بداء وطننا وضيائه، من أجل الشهود الكامل لبرهان الله، وتفتق اللسان بالحق والصدق، كان هو الدرس الأول للإنسان العربي في مهده، وأول وعيه، حيث تضع الشمس والنجوم والرياح والنسمات "قبلاتها" على وجهه، وبصماتها في حضانته وتكوينه، قبل أمه، ومع أمه، وأكثر من أمه، وبعد أمه وأبيه.. وهكذا عندما كان يستقر العربي لماما في مدينة كان يرسل بوليده ليرضع مع أم بدوية لبان أمه الكبرى.. لبان البادية. يرضع من ثديها ألوان الصور، وأنغام الأصوات، وحروف اللغة، ومضمون الكلمات.. مضمونها بمعنى الإيمان.. وبمفهوم الصدق والحق.. وبالإشارة المباشرة إلى الله.. بعد نفي كل ما عداه.. والإسلام إليه طوعا لا كرها.. ووعيا لا تقليدا.. وإقبالا لا فرارا.. والتزاما وعملا.. لا قولا ونفاقا.

هكذا بعث عبد المطلب بحفيده اليتيم "محمد" إلى بادية بني بكر بن سعد، ليرى ما رآه أسلافه من ملكوت السموات والأرض منذ طفولتهم.. وما رآه في شبابه أبوهم إبراهيم.. ليرى مثل ما سيراه لداته وأترابه من أطفال القرشيين حتى مع يتمه وفقره أرسلوه إلى دار حضانة الأحرار.. وحضانة الأبرار.. أرسلوه إلى جامعة كل الأنبياء والمرسلين، والشهداء والصديقين.. أرسلوه إلى مجمع العلم، ومشهد الحق، ومنبع البيان، ليقرأ كتاب الملكوت المرئي، ويملأ من صوره وأصواته وتخلقات أفكاره، ونظم حركته – لفائف ذاكرته، وخزائن رشده، وسرائر أمانته وصدقه، وبيانه وعلمه.

نعم.. وهكذا ظل العرب المسلمون ممن خرجوا بعد الإسلام إلى الأمصار العربية يفعلون ذلك عندما استقروا في مدن أكثر ترفا، وأشد أسرا، وأثقل إخلادا.. فكان الأمويون يرسلون بولائدهم من قصورهم في دمشق ليحضنهم البداء، ويثقفهم ويعربهم الملكوت المنير.. حتى أكلهم الترف، وأهلكتهم الأساطير في القصور والمدن فلم ينفعهم ذلك شيئا، ونزلوا عن السلطان مكرهين لأعدائهم، وأعداء العرب والدين.

لم ينفعهم الدرس الصحيح الذي حاولوه، لأنهم استتبتوا به صدقا في كذب، والصدق لا يكون مرحلة تنقطع، بل بداية تنمو.. أو توبة تتمكن.. الصدق هو الغاية في الإسلام ومنهج القرآن.. والصدق هو الوسيلة والطريق والأسلوب في العمل بالإسلام ومنهج القرآن.

الصدق هو الرسالة.. والصدق هو الرسول.. والصدق هو الإيمان بالرسالة والإيمان بالرسول.

يقول الله عن "الصدق" الذي هو حضانة المؤمن من أي كذب، ومصدره:

* ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء:80]

* ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر:33]

* ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾ [الزمر:32]

ويقول الله عن الصادقين الذين يتبعون الصدق وهو الإسلام، والحق، والقرآن، ويؤمنون بالرسول الذي جاء بالصدق، ويطيعونه:

* ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات:15]

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة:119]

* ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ [الأحزاب:35]

القرآن المهجور:

هذا الاستحضار الحضاري الإسلامي للوجود الحي، المتحرك، الذي يشرق بالحق والصدق، ظل بعد نزول القرآن مرتبطا بهذا الكتاب الخالد، الذي يتمثل فيه منذ نزوله هذا "البرهان" المسموع، والجامع، والمبين، والمذكر بحقائق "البرهان" المدرك والمحس في الملكوت المرئي والمشهود.. ملكوت السماوات والأرض. والقرآن بهذا البيان الجامع، والذكر الموصول، يحفظ بقاء الأمة العربية على دينها وحريتها وأصالتها، كما يحفظ بخلوده هذا "القرآن" نفسه بخزائن معانيه التي لا تنفد، وقوام نظمه الإلهي الذي لا ينحل، كما يحفظ اللغة، والدين أي الشريعة، والتاريخ.

القرآن وهو يرفع الصوت بالدعوة إلى الله، ويجعل من هذا الصوت – كيفما كان المستمعون إليه – عمودا محوريا من النور تجتمع حوله وتتجاذب مقومات وخصائص وأنشطة وآمال المجتمع الإسلامي – هو الذي يستحضر للمؤمنين به جو هذا الواقع الحي، وهذا الوجود الشاهد باتساقه وحياته وعلمه على الله، وهو من أعظم ما يرأب به صدوع الأمة العربية، ويدعم به دعائمها، ويحفظ عليه نعمة استمرارها وبقائها يستبقى بصورته، وترتيله، وآيته، وقرآنه، هذه اللغة العربية التي تستنشق فيها ريح الأسلاف، ونشرئب بها إلى أعمال الأبرار، ونستطلع بها من آفاق النفس المؤمنة آفاق هذا الواقع الحي في وطننا العربي العظيم، والمنير.

إن اللغة العربية كما نشأت قبل نزول القرآن، وكما خلد بقاؤها بالقرآن، وكما وصلت إلينا وهي تعيش في ظل القرآن – هي.. كلمة كلمة وجملة جملة.. نبع دافق ظليل، يجمع ويعكس صور الوطن العربي وأصواته، وفكر الإنسان المؤمن وغاياته، منظوما ذلك في نسيجها الصوتي الحي بإيقاع الطبيعة ذاتها في صوت الإنسان.. الطبيعة الحية التي لا تزال تعيش في لغة الإنسان العربي، وبعد أن استقرت له بالقرآن، لتشهد على جهاده، وجهاد أسلافه، في مواجهة واقعها، واستبانة بيانها، وتتبع برهانها، تتبع الواعي، وملاحقة المؤمن، وبأمانة الملتزم.

ولكن.. منذ أصبح القرآن مهجورا في أهله وإن استمعوا إليه، ومنذ صار الإنسان العربي أسيرا لأفكار عدوه وإن لم يستيئس من تحرره منه – فإن اللغة العربية بين حقبة وأخرى من حقب التبعية والتخلف والشتات، أخذت تتلقى بيديها الطعنات والهجمات عن وجهها المشرق.. طعنات في نحوها وإعرابها.. وفي كلماتها وتراكيبها.. وفي نظامها الصوتي وإيقاعها.

بل إن الخطط في مهاجمة "اللغة القرآنية" و"اللغة الشاعرة" و"اللغة الجميلة" أخذت تتزايد وتتنوع في هجماتها لتحاصرها في زاوية مهملة وذلك بتعليم اللغات الأجنبية المغايرة لها في الجذور والصوت والمنهج منذ الطفولة، ليؤثر ذلك على نشأة الطفل العربي مغتربا عن لغته القوية قبل أن يتمكن، وبخاصة بعد أن سحب "المجددون" فقيه القرية من عنقه وألقوا به بعيدا، ليكون القرآن في بناء الناشئة لسانا وشخصية، ودينا وأصالة — مهجورا حقا، بينما تدق "الأجراس" أمام أبواب الحضانات الأجنبية، والمدارس الأجنبية، التي تقدم لمن يريدون أن يجعلوا منهم "طبقة" المستقبل — لغة الخواجا.. ورطانة العدو.. وتاريخ بلادنا وآمالها بالمقلوب!!

وفي الظل القاتم حول قرآن "مهجور" لا يذكره أهله إلا من وراء حجاب أو "عزاء" عند الموت أخذ عظم "العامية" ينشز.. وأخذت أمراضها تستفحل وأخذت ملامح هزالها في النطق، وسعالها في الأفواه، وكلماتها التي أكلها السوس، وغلبها الاغتراب — تملأ أحاديث كل يوم.. ليس في الأسواق، ووسائل المواصلات والبيوت فحسب.. ولكن — حتى في مجامع العلم.. وبين عدد غير قليل من المحاضرين والأساتذة الكبار الذين يتكلمون "العامية" برطانة "إيتالية".. أو "سكسونية"!!

هذه اللهجات العامية في أكثر الشعوب العربية، والتي ينفخ الدعاة بالفكر الأوروبي في حطبها لتشتعل حتى تصبح رمادا — هي كما يسميها القرآن الكريم — وكما نسمي العبرية والآرامية والبابلية والحبشية — ألسنة أعجمية، أي أنها مع جذورها العربية أصبحت بأمراض التخلف، والشتات، والتسيب الأخلاقي، والتأويل الخرافي للدين العلمي وقد دخلها الإبهام، وأعوزتها الحيوية والأبانة، وأصبحت عاجزة عن أي تعبير سليم،

ومؤثر، في توحيد شعوبها عقائديها من شتاتها، ودفعها بعيدا على طريق التقدم.

من أجل استكمال الحرية إذن، واستحياء الإيمان، واستحضار الواقع الحي في فهم الحياة، وإحياء الحياة، والصدق في الحياة، ينبغي أن نسترجع اللغة العربية بمستوى وعي القرآن، وأن نعود إلى القرآن لنضع على رأس مهامنا عودتنا إلى اللغة العربية، وعودة اللغة العربية إلينا.. هذه اللغة الأبية، المقاتلة بيديها، بقوى الخلد، والاقتدار، والحياة الحرة الشريفة، والمنتصرة، التي تمنح شعورها للناطق بها، وهي تضمخ بعطرها فمه، وتجدد بأبائها عزمه، وتوقظ بدينها ضميره.. هذه اللغة التي أقمنا بها وبالقرآن على أرض العرب، ومع انتشار الإسلام بها إلى أوروبا — حضارة إنسانية، علمية، متسامحة صادقة وباهرة في آدابها المباشرة، نقية من التعصب والعدوان.. هذه اللغة تعود إلينا إذا لم نعد إلى هجر القرآن.. أي إذا عدنا للقرآن، الذي هو بيننا لا يزال النبع في حياتنا لحياة الصدق وحقائق الإيمان.

الجبر والاختيار:

يبقى في المفهوم القرآني للإنسان، وفي هذا المجال البياني عن مناخ الصدق التعبيري والخطاب المباشر، في آداب اللغة العربية، ومنهج التعبير الإسلامي أن نرد على شبهة شائعة عن بعض المستشرقين في صدد مناقشتهم لموقف العرب من "الدراما المسرح" وتفسيرهم لقصورهم عن ذلك بفقدانهم حرية الاختيار أمام وطأة "المكتوب"!

وكنا قد أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى رأي المستشرق الفرنسي هنري كوربان، الذي اشتغل مديرا للمعهد الفرنسي للدراسات

الإيرانية في طهران، والذي يفسر به انصراف "الفكر الإسلامي" عن الدراما بهذه الشبهة التي تطرقت إلى فهمه بسبب "دراساته" الإيرانية، وحيث لم يكن في وسعه أن يميز بين خصائص "الفكر الإسلامي" في مرحلة النفوذ الشرقي الفارسي بكل ارتداداته القديمة على الدولة العربية الإسلامية، وبين الفكر الإسلامي مستمدا من القرآن بمنهج السلف من صحابة الرسول العرب، الذين فهموا القرآن العربي بمنهج عربي، لا تزيُّد فيه، ولا شبهة، ولا تأويل.

لقد أسقط كوريان مفهوم "الجبر" وهو أحد مفهومين خاطئين للعقلية الفارسية في فهمها وتأويلها لحقيقة "الاختيار" الإنساني كما أبان عنه القرآن – أسقط هذا المفهوم بالجبر في أقوال "الجبرية" الأعاجم على "الفكر الإسلامي" شططا منه، وعجزا عن التمييز بين الشرقي والعربي، بل ربما إذا استطاع التمييز جنح إلى تفضيل "الشرقي" والتبرير له في وجه المفهوم "العربي" الذي يصادمه بالمنهج، ولا يألفه بالتكوين.

يرى كوريان وهو ينسب هذا الفهم الشرقي عامدا إلى الفكر الإسلامي أن الفكر التاريخي الإسلامي يتحرك حركتين متعادلتين هما "المبدأ والمعاد" لذلك لا يمكن أن نرى العالم يتطور بهذا الفكر: "لأن العالم لا يسير عموديا بل أفقيا" ثم يرتب كوريان على هذا أن كل ما يحدث للمسلم فهو مكتوب بالنسبة للتحرك العمودي، وكل ما يحدث في المسير الأفقي فهو في حياة الناس المألوفة حادث ثانوي.. ثم يحكم أخيرا حكمه الإسقاطي الشرقي فيقول أن "هذا الزمن البعيد غير المحدد والدوري يخلق "الأسطورة".. ولا يمكن أن يخلق الدراما"!

لا شك أن كوريان وقد عاش في دراسة طويلة للفكر الإسلامي بالمنظار اليوناني والإيراني معا قد سمع عن جماعة "الجبرية" التي ظهر بها

في مراحل الردة والزندقة عدد من مرجفة اليهود من أمثال أبان بن سمعان، وطالوت ابن أعصم وغيرهم يقولون مقالة الزرادشتية الغابرة باسم الإسلام، ويزعمون أنه لا اختيار للإنسان في فعله بشيء، فالفعل فعل الله، والإنسان مجبور في أفعاله من خير وشر.. وفي مقابل هؤلاء ظهر إخوانهم يعزفون معهم على الوتر المقابل، ويحملون اسم "القدرية" أي الذين يقولون على عكس "الجبرية" بأن للإنسان إرادته المستقلة عن إرادة الله، وقد غالى هؤلاء أو أولئك في ارتداداتهم إلى المعتقدات الفارسية القديمة لخلق الشبهات، حتى سماهم مسلمو ذلك الزمان وهم يتبرؤون منهم "مجوس هذه الأمة"!

الفهم الصحيح بالإيمان، والصحيح بالعلم، ونص القرآن، في هذه القضية التي أثارتها فتنة المفاهيم الأعجمية، والإسرائيلية، واليونانية، هو أن "الإنسان مختار في حياته في حدود ما اختاره الله له" أي أن الإنسان وهو يبدو أمام نفسه مختارا بمشيئته لما يختاره فإنه في الحقيقة – التي لا يعلمها إلا بعد حرية اختياره – لا يختار إلا ما اختاره الله له".

مصدر الفتنة بين المفتونين بمقالاتهم وشبهاتهم حول مشيئة الله ومشيئة الإنسان أنهم تحدثوا في قضية "المشيئة" بمستوى تصورهم وهم يجترون تاريخ أسلافهم ذلك "الإله البشري" الذي كثيرا ما حكمهم وتأله عليهم في أثواب ملك.. أما الله الحق.. غير المحسد.. الخالق وليس المخلوق.. الذي ليس كمثله شيء.. فقد كانوا في قاع فتنتهم تحت مستوى تصوره.. أو الإيمان به وتنزيهه.. ولذلك فقد تصوروا اشتراك المخلوق في مشيئة عمله مع الخالق.. مع أنهم لا يتصورون اشتراك الإنسان مع "الآلة" التي يصنعها – وهي مخلوقة مثله – من مشيئة عملها..!

لقد تصوروا "الله" الذي آمن به المسلمون العرب كما عرفوه من قبل، وكما نزل به القرآن منه، على رسول منهم بلسانهم.. لقد تصوروه رجلا

مثل "زرادشت" أو إلها مصنوعا على شكل رجل مثل أهورامزدا و"برهمن" فافترضوا في طلب "العدل" منه مفهوما له كالذي يكون بين رجل وآخر، أو بين مخلوق كبير غير مرئي ومخلوق صغير لا يزال يرى نفسه!

على أن الأصول الثابتة لهذه القضية التي كانت ولا تزال أثرا لتخلفات الفكر الوثني الأعجمي عند ارتداده على أصحابه بأمراضهم القديمة – هذه الأصول هي في القرآن الكريم كما يأتي:

أولا: لا مشيئة للإنسان، ولا لشيء، إلا ما يشاؤه الله، وفي هذا يقول الله في كتابه في قول محكم مبين ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ويقول في تأكيد ذلك في قضية الإيمان والكفر: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

ثانيا: هذه المشيئة الكلية والشاملة لله في كل شيء، والتي لا يعلم غيبها غيره كفلت للإنسان في فكره وقوله وعمله موقفا كامل الوضوح لمشيئته الخاصة، ولاختياره الأمر بين الأمرين، بل لقد كانت الفطرة التي خلق الله الإنسان عليها هي التي يدافع الإنسان عن اختياره الحر الذي يحفظ به "حريته" أو "إرادته" التي تبرر مسئوليته وإنسانيته، فهو كلما استطاع يقاتل عن هذه "الإرادة الحرة" حتى لا يستعبده عنها من يطغى عليه بالقهر أو بالغواية.

كذلك كفلت مشيئة الله للإنسان في عدله ورحمته أن يكون له "الخيار" بين الهدى والأمن مع الله، أو يكون له التحير والضلال والشك والخوف إذا ضل عنه، وأصم أذنيه عن دعوته.

يقول الله فيما قضى به للإنسان من موقف الاختيار ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

ويقول في تأكيد أن الاختيار للإنسان فيما يختاره من الخير والشر ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ ويقول في هذا المعنى أيضا ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

ثالثا: إن الذين ابتدعوا من السابقين واللاحقين فتنة "الجبر والاختيار" في غبار الأقاويل والارتدادات الأعجمية واليونانية والإسرائيلية بأنواعها قد فسروا المشيئتين معا: مشيئة الله ومشيئة الإنسان على أساس تصور استبطاني صوفي أو فلسفي لواقع "ساكن" و"مغلق" أمام رؤية الإنسان بإيمانه. لقد ظنوا لذلك أن الجمع بين المشيئتين "تناقض" من حيث أن ملوكهم قد مارسوا عليهم من قبل جبروت إرادة واحدة، سحقت إرادتهم جميعا وجعلتها عدما.. لقد عجزوا بالفعل عن أن تتسع عقولهم – في معاينها المعجمة – لتصور اتساق المشيئتين، من حيث أنه لا ضير ولا تناقض في أن تتحرك مشيئة الإنسان المخلوق في إطار وداخل حركة المشيئة الإلهية.. مشيئة الله الخالق، المدبر والمسيطر.

لقد عجزوا في وجودهم المغلق والساكن عن تصور إمكان الاتساق في حركة المشيئتين بينما إحداهما وهي مشيئة المخلوق خاضعة تماما لمشيئة الخالق. كما عجزوا ولا يزالون يعجزون عن تصور اجتماع الوجهين البشري والإلهي في الحقيقة العلمية الواحدة، من حيث ما يقع من كل وجه منهما في حس الإنسان، وفي واقعه القريب، من غير تناقض.

فالأرض تحت أقدام الإنسان، وأمام نظره، وفي حسه وشعوره "ثابتة مبسوطة" وليست "متحركة كروية" – ولكنها في حقيقتها العلمية والإلهية في القرآن: "متحركة كروية" وليست "مستقرة مبسوطة".

يشير القرآن الكريم إلى الصورتين معا، لأنه هكذا تبدو جميع صور الوجود، وما تحمله من حقائق العلم، ذات دلالتين تتكاملان معا في التعبير عن حياته العابرة باتجاه حياته الآخرة.. دلالة قريبة على "الدنيوي" في سعيه تلتقطها حواسه بفطرتها بدون كد، ودلالة بعيدة على "الأخروي" في غايته يدركها عقله وفطرته أيضا بجهد التبصر والتفكر في غيب الأشياء، وما تنبئ عنه.

الأرض مبسوطة.. نعم.. وهذه نعمة من الله حتى تكون بالثبات الظاهر والانبساط الممتد مجالا لحركته، ونشاط حواسه، وقدرته على التركيز فيما بين يديه من سعيه، وهذه النعمة يذكرها الله في قوله ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي جعلكم بوسائط علمية، وموازين دقيقة في السمع والبصر والحركة والتفكير – ترونها هكذا كالبساط الممتد لسعيكم، وذلك حتى تتحركوا فوق هذه القذيفة "الكوكبية" هادئين، قادرين على التفكير والعمل فوق سطح ممدود بامتداد أنظاركم، فكلما استدار انبسط أمام أعينكم من جديد، وهو سطح مزدان بمناظره وأضوائه بين الأرض والسماء، حيث يتحرك كل شيء حركة تتسع لقدرتكم على تأملها ووعيها، وعلى ملاحقتها من غير فزع أو اضطراب.

ولكن هذه الأرض في غيبها القريب، وكما يمكن أن يتحقق الإنسان من ذلك، وكما ينبئ القرآن عنها أيضا في آياته هي "كروية" و"متحركة" وليست مبسوطة ولا مستقرة، فهذه هي الحكمة العلمية في وجهها الآخر الذي يعطي دلالته الثابتة على الإلهي والأخروي، لينظر

الإنسان ويتعلم، وهو يضع الحقيقتين العلميتين معا.. حقيقة المشهود بعينه لصالح التركيز لفكره، والضبط لحركته وعمله.. وحقيقة المشهود من غيبه بالتصور العقلي لما لا يمكن أن يراه بعينه.. هذا الغيب القريب الذي تتبدى له بواديه من خلال المسموع والمرئي ليتجه به إلى الأخروي والإلهي ويؤمن.

وهو إذ يضع هاتين الحقيقتين متجاورتين معا، ومتسقتين في العلم والدين، وغير متناقضتين، إنما يرى الحقيقة كاملة، وجلية، ومتسقة بين شهادتها وغيبها، كما أنها في مثل قضية منظور الأرض أمام عين الإنسان لا تتناقض بين انبساط هذه الأرض على مدى حواسه، وبين كرويتها في الواقع المشهود بهذه الحواس.

يقول الله في كروية الأرض بعد انبساطها ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي أدارها وكورها على شكل الدحية أو البيضة. ويقول في تكوير الليل والنهار هو في تعاقبهما دليل على كروية الشمس والأرض والقمر: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ ويقول في حركة الأرض السريعة مع هذا التكوير ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ .. فهاتان هما الحقيقتان العلميتان تحملان بتكاملهما هذه الحقيقة الكاملة في دلالتها بالانبساط والكروية معا على ارتباط الدنيوي بدلالته على الأخروي، والبشري بدلالته على الإلهي.. ليصبح الدنوي مرتبطا في وعي الإنسان المؤمن وحركته بالأخروي.. أي ليصبح الإنسان في سعيه متجها إلى الله في دلالة الإيمان به والطاعة له.

من هذا العجز في الفهم الشعوبي والتفاسير الإسرائيلية السابقة للقرآن عن تصور الأرض منبسطة وكروية في وقت واحد — عجزوا عن أن

يدركوا في تأويلاتهم عن الجبر والاختيار أن الإنسان في دائرة المشهود له هو "مختار" بقدر وعيه، وبقدر طاقته، وأنه بسبب هذا "الاختيار" الحر في حدود المشهود للإنسان وقع "الاختلاف" الشديد بين البشر في تفسير الحياة، وتصور الواقع، وفي الحكاية عنه، وفي محاولة التأثير فيه.. لقد اختلفوا في الأساس على جواب هذا السؤال المستمر، والمحلق فوق رؤوس العصور والناس: هل قوانين الحركة والتغير في المادة "ذاتية".. أم هي من إله خالق مدبر.. عليم بما يريد وما يفعل.. وهو الله الحق..؟

رابعا: معنى هذا أن الإنسان المؤمن السوي لا يواجه أية شبهة في السؤال عن مشيئته الحرة، ومشيئة الله المسيطرة.. ذلك أن الإنسان المؤمن يرى بغير لبس أنه يتحرك مختارا إلى الله، الذي له الخيرة والأمر في كل اختياره وأمره.. إنه يتحرك واثقا من عدل الله وحكمته .. ومتيقنا من أن الإنسان مع اختياره لا يعلم على وجه اليقين ماذا اختاره الله له في علمه، فالله قد خلقه ليمتحنه بدنياه، أي ليمتحنه باختياره فيما بين الهدى والضلال، ولذلك فهو لا يخبره بما في غيبه عما هو فيه: أحق هو؟.. وإن كان حقا فهو لا يخبره: أصادق هو فيما آمن به من الحق؟.. كما أن الجانح عن الحق في اختياره لا يعلم أيختار الله له غدا ما هو أفضل.. وإنما ترك الله لعباده ما في فطرتهم، وما في عقولهم وتجاربهم من أصوات وأضواء ودلالات يقينية على الاختيار الحق.. الذي هو اختيار الله يقينا.

الموعد إذن لجلاء الحق، وظهور الغيب في أمر اختيارات الناس، صحيحها وباطلها، هو هذا اليوم الذي يؤمن به المؤمنون ويكفر به الكافرون.. هو يوم "البعث" للحساب والجزاء.. ففي هذا اليوم الذي لا ريب فيه تتم مراحل الخلق.. ينضم الزمان في وحدة وهو يطوي أجنحته الحفاقة ويستقر ز يتحد الماضي والمستقبل في الزمان، ويصبحان معا "حاضرا"

يتجدد من غير صراع، ومن غير حجب، ومن غير خوف.. حاضرا تتبدى فيه رحمة الله ورضوانه في حقيقة باقية يتوحد فيها "الزمان والمكان" مرة أخرى في خلود "الجنة". خلود الإنسان المؤمن السوي، الذي تم خلقه واستخلاصه من فتنة الحياة بالخلق بعد الموت، ومن قبضة التراب والموت بعد الحياة.. كما شاء الله لهذا الإنسان مشيئته، وكما وضع اختياره في اختياره.. نعم كما شاء الله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

وفي بيان هذه الحقيقة التي استغشى عنها الشعوبيون والمتفلسفون، ورفاقهم – تقدم اللغة العربية، الدينية بطبيعتها ونظامها ومفرداتها، دليلا كل يوم، قبل نزول القرآن وبعده. إنها تذكرنا إذا أردنا بأن الوجود إذا كان في جملته في السماوات والأرض هو "عالم الأشياء" فإن كلمة "شيء" المشتقة من الفعل "شاء: يشاء" هو ولا شك دلالة هذه المشيئة العليا في مشيئة الله، الذي خلق ﴿كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.. كذلك فإن "الخير" الذي يختاره الإنسان لنفسه من "الأشياء" في تعامله معها يعني في المعنى المطلق في اللغة لهذا "الخير" أنه هو ما اختاره الله للإنسان من حياته وكدحه بين هذه الأشياء.

وعلى هذا فإن امتحان هذا الإنسان في هذه الدنيا يتلخص بدلالة هذه اللغة العربية الدينية أنه يختار من "الأشياء" التي شاءها الله – هذا "الخير" الذي اختاره الله.. أي الذي هو التحرك على الأرض في ضوء الإيمان للعمل في مواردها ونعمها، وبين أحيائها وأشيائها، بشريعة الإيمان.

الفصل الثالث

منارة القرآن على بحر الأساطير والتفاسير

المنارة والظلمات:

لم يكد يتم الشروق القرآن على الجزيرة العربية حتى تهيأ المسلمون من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ليخوضوا حرب تحرير الوطن العربي من نير الروم والفرس، ومن أثقال القهر الطبقي، والقيد العقلي، في ظل نظم وحكومات وجيوش ونزوات القياصرة والأكاسرة.

وامتد الإسلام بشروقه، وبسبب أن المقاومة الفارسية اشتدت أمام ضرورة الجلاء عن العراق واليمن – استوى المسلمون في حرب وقائية على أرض فارس، وأصبح الفرس أنفسهم بعد زمن قليل مسلمين، يتكلمون العربية، ويسارعون إلى التعامل والتعادل مع العرب بتعلم علومهم، بل ومحاولة التفوق والتوسع في هذه العلوم.. هذا بينما تراجع الروم بعيدا يتربصون وراء أسوار القسطنطينية لهجمة جديدة على أرض العرب.

ولما كانت علوم العرب تستند أساسا إلى الدين، وتنطلق في النظر إلى الدنيا من الدين، فقد أصبح القرآن هو "المنارة" الهادية والراسية التي تصدر منها مناهج واتجاهات هذه العلوم، والتي تتحدد بعلومها وأحكامها أحكام المجتمع الحر الجديد في علاقاته، وسلوكه، وأهدافه، كما نظمها الإسلام في إطار مفهوم قرآني للإنسان، والسواسية، والحرية، والشورى، والدولة – لم يسبق إليه مجتمع.

وأخذت الأيام تمضي، والليالي تدور، على طريق المتغيرات الطبيعية في سنن الله، وباتجاه هذه النتائج الغريبة التي لم يستطع العربي التوقي منها، أو محاذرتها، داخل هذا النظام الحر الذي أقاموه بالإسلام فوق أرضهم. إنهم لم يستطيعوا التوقي من هذه النتائج التي بدأت نذرها تظهر منذ خططت بقايا النظام الكسروي المنهزم لاغتيال الخليفة عمر بن

الخطاب، ومنذ عمد المتطرفون من الفرس بعد هذا الحادث ضد الآخر، مجتهدين وهم يتعثرن معتقداتهم القديمة تحت أقنعة كثيرة أن "يرثوا" على طريقتهم حيوية الدين الجديد، ولغة العرب الفريدة وثقافتهم بمجرد أن يتعربوا – كما توهموا – على باطن فارسي زرادشتي، يخفيه ظاهر عربي قرآني!

ولم يكن الفرس الذين أسلموا، وتعربوا، بهذا الازدواج الخطر، وغير المريح لهم بين القديم والجديد. هم وحدهم العامل الوحيد في تحريك وتفجير الخلافات والمتناقضات، وصياغة القضايا الوهمية والأسطورية والجدلية داخل مجتمع الأمة العربية الكبيرة بعد توحدها بالإسلام، فلقد كان اليهود الذين فك العرب المسلمون أغلالهم من أسر الرومان، قد شرعوا مع الأمن الذي نالوه على أيدي العرب المسلمين، ومع حرية الحركة والتجارة – يمارسون هوايتهم في سرعة الانتقاض على من أحسن إليهم.. لقد كان اليهود هناك أيضا ليكونوا أعوان الفرس على الضغينة والحقد على العرب، وعلى المحاولات الدائبة لتمزيق وحدة المجتمع الإسلامي العظيم، وبلبلة من فيه بالإشعاعات، والخرافات، والبدع، والمذاهب، وتجارة اللهو، وصناعة المتعة.. حتى سقط الصرح العظيم على كل من فيه، دون أن يقيموا بعده البديل..!.. ومع ذلك فقد بقيت منارة القرآن.. بقي القرآن العظيم.. كما بقيت جميع الاحتمالات ليعود الصرح إلى أهله.. ليعود بأهله.. ليعود صرح وحدة العرب، ومجتمع حياة المؤمنين.

عرب وعجم:

هذه المراحل التي استغرقها الشروق الإسلامي سيرا بشعوبه وهي تتدافع بين البناء والهدم، وبين البيان والعجمة، وبين التوحد والشتات – كانت هي فسحة الزمن التي تحول فيها "الخبر" القرآني الصادق إلى

"أسطورة" بغير جذور على طريق التأويل والتفسير، كما يحول الحكم الإسلامي الشرعي المحكم إلى ترخصات وتبريرات وتجاوزات.

لقد استغرقت هذه المسيرة نحو تفكك وحدة العرب، خطوة خطوة مع التحول بالصدق العلمي القرآني نحو التفسير الإلهائي الأسطوري خمس مراحل، تمثلت فيه أطوار القانون الاجتماعي التاريخي الذي أعلنه القرآن في قصصه عن كثير من الأمم التي بطرت معيشتها بعد استخلافها في الأرض بنعمة الإيمان، وهو القانون الذي جمعته الآية القرآنية في قوله تعالى للمؤمنين على عهد النبي الكريم ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾.

أما هذه المراحل الخمس التي جرى فيها تحول الإشراق الإسلامي في الدولة العربية الأولى والكبرى بالإسلام باتجاه الغروب، مع تفكك المفاهيم القرآنية الصادقة بالنزعات الأسطورية، فقد سارت على الوجه الآتي:

أولا — مرحلة "التحرير والبناء" بالأعمال المباشرة التي وضع النبي معالمها للخلفاء من بعده منذ أبو بكر عندما أنفذ إلى الشام جيش أسامة بن زيد لحرب وإجلاء الروم، والمبادرة بتحرير "القدس".. وفي هذه المرحلة أدى عناد الفرس، ورفضهم الانسحاب عن الأرض العربية التي طالما حركوا جيوشهم فوقها، ونهبوا مواردها — إلى سقوط النظام الكسروي، وعندئذ أسلم أكثر الفرس وتعربوا اختيارا وتريضا.

ثانيا — مرحلة "الإخصاب الحضاري" بعد بناء الدولة العربية الواحدة من الشعوب العربية المحررة، والأجزاء المستعربة من الشعوب الأخرى، وهي الدولة الكبرى التي قدم لها العرب المسلمون من أصحاب النبي — بعد

حسنى الجهاد لتحرير شعوبها من نير الاستعمار القديم الطويل – دينهم، ولغتهم المبينة، وثقافتهم، لتسري بها في شرايين حياتهم الجديدة حقائق "مجتمع المؤمنين" القائم على السواسية، وحكم الله بالشورى والعلم، والرخاء والأمن للجميع.. بينما أخذت اللغة العربية القرآنية، والتي حلت محل تلك اللهجات المريضة في أفواه تلك الشعوب المتحررة، تغسل وتجدد في نشوة الحرية والتعريب والتديين أفكار ومعاني وآداب وأهداف هذه الشعوب الكثيرة الموحدة مع العرب حول القرآن وشريعة الله الحاكمة فيه.

ثالثا – مرحلة "التشبع الحضاري والاسترخاء" وفيها تم لنطفه الحضارة العربية الإسلامية أن تستقر وتنمو وتزدهر في نشاط وعمران وإشعاع هذا المجتمع الإسلامي الكبير، الذي بدأ الكلام فيه ينبئ عن تمام "تعرب" الحياة الشرقية السابقة بألوانها الفارسية والرومية. وفي هذه المرحلة تمت أغرب عملية لتبادل الخصائص بين العرب والعجم. فلقد استولى الشرق الأعجمي تحت ملامحه العربية الجديدة على التراث الديني واللغوي والأدبي من العرب بينما لم يأخذ العرب من العجم – والمقصود أولئك العرب في الدولة والإدارة وقيادة الجيش – إلا أسوأ البدل عن دينهم، ولغتهم وآدابهم، ومنهج تفكيرهم، وطابع سلوكهم، وهي ألوان الترف في المسكن، والملبس والمأكل، ولذات الاستقرار بعد الترحل الدائم، وميراث المتاع والتفلسف والتمنطق الهندي واليوناني والفارسي وما يلحق بها من القضايا الجدلية، ومن الأوهام والأساطير.. في الوقت الذي أصبح فيه الأعاجم المستعربون يملكون حرية وأدوات التأويل والحذف والحشو والوضع في الدين واللغة والآداب باسم العلم، وباسم الازدهار، ومع الإسراع بكل المقومات العربية، وبالعرب المسلمين أنفسهم، نحو مغيب الشمس الأول.

رابعا – مرحلة ظهور "التناقض والانفصال" بين عنصري الحضارة العربية الإسلامية في العصر العباسي، حيث انتهى الزواج "العربي الفارسي" في قصور خلفاء بغداد إلى صحوة الرشيد وتصفية البرامكة، وانكشاف الكثير من مخططات الفرس ضد الدولة العربية.

لقد كان العقل الشرقي الأعجمي قد بلغ في هذه المرحلة حد "الاكتفاء" بما حصل عليه من العرب، والشعور بالقدرة على الانفصال والاستقلال بالسلطة، وانتهت بعد ضعف السلطة العربية تلك النشوة العريضة والنادرة التي أدخلها العرب على الحياة الشرقية في كل مجال، وبخاصة بعد أن زالت العصبية العربية في الدولة بتأثير الخطط والمؤامرات التي قامت بها تحت سطح النظام، وأمام عينيه أحيانا، تنظيمات الزنادقة من البابكية والقرامطة والإسماعيلية كذلك فقد كان بيان العرب الساحر في خطب عهد الخلفاء الراشدين قد استرخى وانحل داخل القصور المعطرة، ومجالس الشراب الباذخة والموصولة، حيث استحال بها الخلفاء ملوكا، والعرب عجما، وتحولت العمامه العربية الرجالية الناصعة البياض إلى تاج من قماش مزركش، كسروي، أنثوي، على جانبه ريشة، وفي مقدمته جوهرة!

في هذه المرحلة ذابت الخصائص العربية بين القادة، وحل محلها الدخيل الأعجمي من أمراض وأوزار المغلوبين، ومع العادات الشرقية الأعجمية التي عادت للظهور معربة، ومتدينة في ظاهرها بالإسلام، بدأت لعبة اقتسام وخطف أجزاء الدولة، وإقامة حكومات المغامرين هنا وهناك، بالقوة أو بالولاء الظاهري، أو بالهدايا والمؤامرات.. وأصبح الخليفة "رمزا" لا حول له في بغداد.. رمزا لا يملك إلا توقيعه، وإحناء رأسه لأعدائه، وأعداء العرب والإسلام، وهو يمنحهم حق السلطة الشرعية!

وفي هذه المرحلة أيضا بدأت الأصوات "الشرقية" الأعجمية ترتفع باللغة العربية الناعمة وهي تمارس حريتها في استثمار مؤامراتها التي نجحت أخيرا. فظهر السكارى المجاهرون بالسكر والكفر مثل أبو نواس، وظهر الشعوبية المجاهرون بتمجيد كسرى وتحقير العرب مثل مهيار وبشار، وظهر من أصبح في وسعهم أن يبشروا بأنفسهم "آلهة" بين المسلمين ليطالبوا الناس بعبادتهم تحت عشرات المذاهب، ووراء أسماء العديد من المغامرين الذين تقمصوا أشباح "الأئمة المستورين".. وكل هذا التخريب والهوس تم في إطار استمرار مظاهر الدين، ومع استخدام اللغة الفصحى، التي عملت في خدمة أعدائها من الزنادقة والشعوبية وصانعي الأساطير من حيث أن هؤلاء الأعداء تشبثوا حتى اللحظات الأخيرة من حياة هذا الصرح العظيم باستغلال خصائص هذه اللغة الحية.. لغة القرآن التي لم يكونوا في عودة نفوذهم إلى أرض الوطن العربي يملكون البديل الأعجمي لها.. فالبديل في لسانهم وتراثهم لم يكن يساوي شيئا..!

خامسا: مرحلة "التحلل السريع" في كيان هذه الشعوب التي اتحدت باتفاقها على الإسلام وتمزقت باختلافها فيه، مع سقوط السلطة العربية، وتمزق قياداتها أيضا بالفتنة الأعجمية. ولم يكن الوريث الوحيد للعرب والعجم إلا هؤلاء الأتراك بفصائلهم المختلفة، والذين رغم تنوع أسمائهم فقد احتفظوا وتحت إسلامهم — بأقصى ما فيهم من الخصائص التتارية وهي، التقلب والتآمر والإغارة والنهب الذي بلغ ذروته عندما سرقوا "الخلافة" وعندما استغلوا الدين ليحكموا الشعب العربي أسوأ حكم، ولينهبوا موارده، وليقتلوا شبابه في حروب التوسع المستمر دفاعا عن هذه السلطة الاستبدادية الغريبة التي لم تنشأ ولم تقم إلا على الجيوش المرتزقة، والمؤامرات، والنهب العلني وعالم الحريم..!

وكان لابد أن يسقط هؤلاء المماليك الجبابرة، والرقيق الذين نهبوا السلطان وتمادوا فيه.. لكي تنتقل أرض الوطن العربي من أيديهم بعد ارتعاشها وذبولها إلى ظالم أوروبي جديد.. ظالم لا يدعي أنه عربي أو مسلم لأن مهمته الظاهرة والباطنة كانت ولا تزال – وكما تأكد بعد زرع إسرائيل – إنما هي القضاء على العرب.. والقضاء إن استطاع.. على الإسلام!

متاهة الإسرائيليات:

لقد تحقق منذ البداية إمكان التحالف بين اليهود والفرس – الأصدقاء من أيام كورش، لكي يعلموا معا من داخل المجتمع الإسلامي على تطويق الانتصار العربي الكامل والمفاجئ بالإسلام، وعلى تعويق مسارات العرب به، والعمل على تزييف وتوهين وتعطيل نصوصه ومبادئه بالتفسير والتأويل، والوضع وتلفيق الحكايات والأساطير.

وهكذا لم يلبث اليهود أن نشطوا لممارسة خبرتهم في تضليل الشعوب الشرقية المسيحية قبل الإسلام بما أذاعوه بينهم عن عجائبيات وأسطورات تاريخهم الديني، وما اعتادوا نفثه من الدعايات حول علوم السحر، واستخدام الجن، وتحريك القوى الكامنة في الحروف والأرقام، والتمتمات الغريبة في الظلام.

وهكذا في دولة من أخلاط الشعوب، والنظم الفكرية واللغوية، والتراث المتناقضة بين النور والظلمة، والوضوح والعجمة – اختار اليهود مجال عملهم المفضل وهو تحويل "الخبر" الصادق إلى خرافة مثيرة تسمعها فئات حديثة العهد بالإسلام، قد أثارتها انتصارات العرب به، وحبب إليها العلم بها وراء هذا الدين المنتصر في أهله، والمنتصر بكتابه، والمنتصر بآية

أخرى عظيمة الإثارة، وهي انطباق عمل الداعي على الدعوة، وتجسد حقائق الإيمان في المؤمن، واتساع بيان اللغة التي ينطق بها المنتصرون للدلالة على كل هذه الآيات الحية إلى مدى بعيد.

وهكذا وقفت أعداد كبيرة من المثارين بالحياة الحرة الجديدة، الفياضة من عطاء إله حق، في حياة المسلمين العرب، من أصحاب رسول الله، الذي لم يعرف الأعاجم من هو، ولم تسعد أعينهم برؤيته – وقفوا في فضول الأعمى الذي أبصر، والرقيق الذي تحرر، ليسمعوا أقوال وتزيُّدات أولئك المتهودة واليهود من هؤلاء "القصاصين" الذين أعادوا فتح مخازن الإسرائيليات الأسطورية بكل قوالبها وأهدافها، وصيغها، ليعيدوا صياغتها "إسلاميا" أي باستخدام الأسماء الإسلامية والمصطلحات القرآنية، والقصص القرآني.. لمحاولة الفتك باتزان المسلمين، وسلامة اعتقادهم، وصحة معتقداتهم.

لقد فتح اليهود بكل نشوة الطفيلي الكامن الذي أتيحت له غرة من عائله – ذلك القبو السري المشهور منذ "السامري" الخزائن أكاذيبهم على الله، وعلى البشر، وأخذوا يملأون بها أفواه القصاصين الكذبة ليشبعوا حاجة المثارين بالدين الجديد، وحديثي التعلم لهذه اللغة المبينة والشاعرة – بكل ما يعمل فيهم من الخرافات والأساطير والأكذوبات عمل الخمر.. وعمل السحر.

والتراث الضخم الذي تركته عصور التدوين من كتب التاريخ والتفسير والحديث لا تزال تشهد على ما اجترحته الإسرائيليات في تشتيت المسلمين إلى اليوم، وتعويق وحدة العرب على أرضهم، وحول دينهم الواحد، وكتابهم الواحد، في طاعة الهم الواحد.

لقد كان مجال هذا التشتيت من طريق إزاحة "الأخبار" الصادقة يحل محلها سلطان الأساطير المسكرة، والخرافات المخترعة – واسعا أمام نشاط هؤلاء الهدامين للعقل والعلم والدين إلى حد لا تكاد تبلغ إليه أية مجموعة من القصص في العالم، أو أي فن قصصي في شعب.. والبداية التي اختارها اليهود أساسا قبل الإسلام لتضليل البشر، وخداع أنفسهم أيضا، هي مفترياتهم حول النصوص الدينية الصحيحة لقصص الخلق.. من عجائب الكلام عن الجنة، والشيطان، والحية، وآدم وزوجه.. إلى ما تحت الإسفاف وما وراء الهذيان.

وكذلك شقوا طريق الافتراء بجسارة خرافية إلى قصص الأنبياء، فأثخنوهم تجريحا، وأشبعوهم عدوانا وافتراء وكذبا، وهم لا يتورعون عن الزراية بالمعقول في هذا القصص القائم أصلا على أساس "بشرية الرسل" هذا الأساس الذي اجتهدوا أن يهدموه إلى ما فوق وإلى ما تحت درجة الإنسان، حتى يقتلوا في الناس معنى القدوة والالتزام بهؤلاء "الشهداء" و"الصديقين" و"المرسلين".. كما قتلوه في أنفسهم.

ومن قصص الأنبياء تطرقوا إلى دس المفتريات والغرائب على سيرة النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام، حتى يضعوا هذه السيرة الشريفة – وهذا هدف أساسي عندهم – في طابور القصص التي ابتدعوها لجميع الرسل.. من أرسل إليهم، ومن لم يرسل.. وحتى يخرجوا بسيرة النبي – كما خططوا بكيدهم – من حدود ما كرمه الله بكماله البشري.. إلى عالم من الخرافة بغير حدود.. لتضيع به الأسوة بين المسلمين، فيفقدوا – كما فقدوا في عصور الانحلال بهذه الإسرائيليات التي لا يزال يغص بها التراث – عصمتهم في إتباع القرآن بإتباع النبي، كما صح من عمله، وكما صح من حديثه.. وليس كما وضع الوضاعون من اليهود وأشياعهم.

ومن حصيلة ما جرى به الوضع والافتراء في كل هذه المجالات تكدست مادة للخرافة والأسطورة تلقفها من تصدوا من علماء الأعاجم لتفسير القرآن، الذي أصبح بالضرورة علما تتطلبه حاجة أولئك المسلمين الجدد، الذين عجزوا رغم تكلمهم بالعربية أن "يستمعوا وينصتوا" للقرآن، فيفهموا ويعقلوا، ويتدبروا ويعملوا.

وهكذا استمر الطفيلي اليهودي يتكاثر في ظل الأمن الإسلامي داخل الدولة العربية الإسلامية الشرقية، وفي أقصى الغرب في الأندلس، وهو يعمل على أن يقتات بأكثر ما حاول اجتياحه من "الأخبار الصادقة" لتخرج من أفواه كذبة تحولت إلى "أساطير" مخدرة، ليس فيها لمن يسمع لقصصها واختلافاتها إلى الشتات.. حتى سقطت الدولتان على من فيهما.. وعلى الطفيلي نفسه معتق الأساطير، وصانع الأكاذيب.. الطفيلي الذي لحقته أخيرا لعنات خطيئته، وضربات ذنوبه.. من جنس هذه الذنوب.. فسقط بأعداد كبيرة صريعا في الأندلس.. وفر من استطاع الفرار إلى أوروبا ليتجرع من "الشتات" والهوان فوق ما تمناه للعرب المسلمين، وأشد تعقبا له وحكما على مصيره مما خططه لهم، وهم الذين أحسنوا مرارا إليه دون أن ينتظروا منه الجزاء.. فكان له هذا الجزاء!

عمدة التفسير:

ومضت قرون طويلة تحمل في عباب آثارها فضلات وآثار عمل الطفيلي اليهودي في عائله وهو المجتمع الإسلامي، بينما أصبحت هذه الإفرازات الطفيلية في قصص اليهود الأسطوري وإسرائيلياتهم مادة نافقة في سوق التفسير" وطريقا يلجأ إليه أعداء وحدة العرب، وصحوة المسلمين، لكي يعزلوا المؤمنين بسلطان هذه الخرافات في هذا العالم الوهمي الهلامي الذي هو كما اختلقه اليهود "غير هذا العالم".. أي غير هذا العالم

الذي تكلم عنه القرآن الكريم، وعاش فيه النبي الأمين، وآمن في أعظم عصور تاريخه قوم النبي من العرب الذين صدقوه ونصروه، وجاهدوا معه بأنفسهم وأموالهم وصدقهم.

حتى إذا أخذت عصور الصحوة تشرق تباعا على المسلمين فوق أرض الرسالة كان من ظواهر هذه الصحوات ظهور هؤلاء العلماء من أهل التقوى وأتباع السنة والسلف الصالح، الذين كان أول جهادهم تعقب الإسرائيليات وكشف تدليساتها، وإزالة آثارها، ومع ذلك فإن الأمل في أن تأتي هذه الصحوة الشاملة التي تقتلع كل هذا الغثاء الإسرائيلي، وجميع الأحاديث الموضوعة، وتنتزعها من الكتب بالتنبيه إليها، وتحصرها كما يحاصر الوباء.. وليس مجرد التوقي والحذر منها مع بقائها بطول التراث وعرضه – هو الأمل العظيم الذي يزداد الهتاف به، ويكثر من ينتظرون بشائره بين المسلمين.

لقد كان عسيرا – ولا يزال – على كثير من العلماء الصادقين تنقية كتبهم في التفسير من تسلل الأخبار والأحاديث الموضوعة، ونذكر مثالا من هؤلاء العالم الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي من رجال القرن السابع الهجري، والثالث عشر الميلادي، ونذكر معه أيضا عالما معاصرا جليلا تعلق بالسنة، وبتحقيق الكتب الإسلامية، وكان مما حمل أمانته محاولة إخراج تفسير ابن كثير لأبناء هذا الجيل منزها بجهده من بعض ما تسلل إليه من الإسرائيليات رغم شدة توقيه وحذره.. وهما معا مثال نضربه لمجاهدة مصادر "القصص الخرافي التي لا يزال علماء المسلمين يترددون في قرار اقتلاعها من أساسها، بسبب يرجع إلى هذا المصدر نفسه.. أي إلى أثر "الإسرائيليات" الفعال في بقاء شتات المسلمين، وفي تفرقهم إلى شيع وفرق وأحزاب.

يقول العالم المحقق المرحوم أحمد محمد شاكر في تحقيق المختصر لتفسير ابن كثير تحت عنوان "عمدة التفسير":

"إن تفسير الحافظ ابن كثير أحسن التفاسير التي رأينا، وأجودها وأدقها بعد تفسير أبي جعفر الطبري.." ثم يقول "وقد حرص الحافظ ابن كثير على أن يفسر القرآن بالقرآن أولا، ما وجد إلى ذلك سبيلا، ثم بالسنة الصحيحة التي هي بيان لكتاب الله".

ثم يقول أحمد شاكر وهو يتحدث عن منهجه في تحقيق هذا التفسير المختصر، مبديا عن حرصه المماثل على تنقية الكتاب مما تسلل إليه – رغم جهد ابن كثير – من الأخبار والقصص والموضوعات الإسرائيلية: "حذفت كل حديث ضعيف أو معلول.. ونفيت عن كتابي هذا كل الأخبار الإسرائيلية وما شابهها، فإن ابن كثير رحمه الله قد ذمها في مواضع كثيرة من تفسيره، وأبان عن ضررها، وأنحى باللائمة على روايتها ورواتها، ورسم لنفسه خطة في شأنها، ومع ذلك.. فإنه فيما يبدو لي لم يستطع أن يسير على ما رسم، وغلبه ما وجد من الروايات في كثير من المواطن، فأثبت طائفة غير قليلة منها، فحذفتها كلها والحمد لله".

ثغرة الأساطير:

ولكن لماذا تسللت إلى تفسير ابن كثير هذه الإسرائيليات بأعداد "غير قليلة" حتى جاء أحمد شاكر فنفاها عن هذا التفسير مشكورا؟.. لماذا غلبت هذه الإسرائيليات في مواطنها الكثيرة من كتب التراث عالما ورعا متحرزا من الموضوعات الإسرائيلية وغيرها مثل ابن كثير؟

الجواب يرد من غير نص عليه في قول الشيخ الشاكر في الجزء الأول عمدة التفسير وهو يقدم له بقوله عن ابن كثير إنه قال في مقدمة تفسيره

بعد أن ذكر حديث "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" – "ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد.."

هنا نكتشف واحدة من الثغرات الكبيرة والخافية عن أكثر العيون، والتي كانت ولا تزال تبيح الاعتماد على أساطير اليهود، وإسرائيلياتهم، وفي تفسير ما عندنا من الحق والصحيح، وبخاصة في قصص القرآن الذي امتلأ في كتب العلماء والمفسرين القدامى والمحدثين، بالخرافات اليهودية، بل كانت هذه الخرافات هن غالبا عمدة وأساس هذه الكتب، ومصدر إشاعة الغرائب وليس الحقائق بين المسلمين عامتهم وخاصتهم.

إن الحديث الذي يتناول إباحة "النقل" عن أخبار بني إسرائيل كما يقدمه ابن كثير ويتعرض لشرحه ينقسم إلى شقين: الأول هو الخاص بالتحديث عن بني إسرائيل بغير حرج، والآخر هو التحذير الشديد من الكذب المتعمد على رسول الله.. فإذا كان الشق الثاني الذي يتضمن التحذير من الكذب على رسول الله حديثا صحيحا لا ريب فيه في حكم القرآن، وصحة الرواية، وضوء العقل، فكيف يصح الشق الأول، وهو يتناقض مع الثاني من حيث الإذن بالأخذ عن أخبار بني إسرائيل في مجال الاستيثاق الديني، أو زيادة العلم في الدين بما لم يرد عنه نص في الكتاب أو السنة الصحيحة؟

إن ابن كثير يشعر أيضا بالحرج فيقول في تفسير إباحة الحديث عن بني إسرائيل، وتخفيف معناها من أجل تبرير صحة هذا الشق الذي أضيف بدهاء بالغ إلى حديث صحيح.. يقول ابن كثير وكما نقل ذلك عنه أحمد شاكر في مقدمته، وبعد أن ذكر هذا الحديث بشقيه: "ولكن هذه

الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد للاعتضاد".. أي أنها تذكر في مقام الشهادة على صحة ما عندنا وليس في مقام البرهان على صحته!

ثم يمضي ابن كثير في تبرير صحة الأخذ عن بني إسرائيل بغير حرج، كما جاء في الإضافة الإسرائيلية الموضوعة، والتي أجازها الكثيرون بغير حرج يمضي فيقول "فإن هذه الأخبار على ثلاثة أقسام: أحدها ما علمنا صحته مما بأيدينا مما نشهد له بالصدق فذاك صحيح. والثاني ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.. والثالث: ما هو "مسكوت عنه".. لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به، ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم"!

معنى هذا وهو عجيب غاية العجب أن الأمر الصريح والمنسوب إلى رسول الله بنقل الأخبار وروايتها عن بني إسرائيل بغير حرج هو ما يأتي كما يفسره أو يبرره ابن كثير:

* خبر صحيح عندهم يوافق ما عندنا فلا حاجة لنا به..

* وخبر مكذوب عندهم ينكره ما عندنا فلا حاجة لنا به..

* وخبر مجهول منا لأن ما بأيدينا سكت عنه فهذا ما تجوز حكايته!

أي إننا نقف بمعنى الحديث المنسوب إلى الرسول عند حد إباحة التحدث بما تخصص فيه اليهود من غرائب الأخبار التي دسوها حتى في أسفارهم، وعلى رسلهم .. وهي في ظاهرها وباطنها خرافات يلتوي بها معنى "الصحيح" الذي عندنا إذا أخذنا به وصدقناه، ويزداد به نكر "المكذوب" الذي عندهم ولا حاجة لنا في المزيد!

ويفطن ابن كثير بسلامة قصده الديني إلى هذا الحرج الذي أضافه الشق الموضوع على الحديث الصحيح فيقول ما هو في دلالته تجميد المعنى

الحديث المنسوب للرسول: "وغالب ذلك – أي من الأخبار الإسرائيلية المأذون بالاستشهاد بها – مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني"... أي أن المأذون به من هذه الأخبار يدخل في أمر آخر لا يرتقي إلى مستوى حقائق الدين.. أي أنه مجرد أخبار وقصص تروى للاستشهاد.. وهذا حرج آخر يضيفه هذا التبرير لصحة الإذن بالتحدث بالإسرائيليات، ذلك أن الأخبار التي لا ترتقي إلى أمر ديني هي قصص تدور في الأخبار الإسرائيلية دائم حول أمر ديني تفسره القصة. فالاستشهاد بهذه القصص والأخبار هو استشهاد في أمر ديني يصوره اليهود بحسب أهوائهم بعيدا عن هذا "الصحيح" الذي في أيدينا، أي أن هذا الاستشهاد هو في نفس الوقت "اعتضاد" للباطل وليس للحق؟.. فكيف نعقل أن الرسول يأذن بهذا.. ونفتح هذه الثغرة.. وصوت القرآن الكريم الذي نزل وحيه عليه، وكان هو النور الذي اهتدى به ودعا إليه، يرتفع بالتحذير من اليهود الذين عاشوا ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ و﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ كما يقول عنهم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.. أي أن الإعراض عنهم أمر نزل به الوحي إلى المسلمين.

ويمضي ابن كثير ليؤكد الحرج الذي انتهى إليه الأخذ عن بني إسرائيل، والبلاء الذي صار بخلافات المفسرين بسبب ذلك فيقول "ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرا – أي في أخبارهم التي لا تعود لأمر ديني – ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم وعدتهم، وعصا موسى، ومن أي شجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، أو نوع الشجرة التي كلم الله منها

موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه"!

فهل هي الأخبار الوهمية، والمصوغة في صياغة أسطورية ليتلهى بها السامع والقارئ عن النص المحكم، والحق الملزم – هي التي أذن الرسول للمسلمين في التحدث بها ليزدادوا علما..!؟ .. فإذا كانت من العلم فلماذا لم يتحدث بها القرآن؟.. لماذا أبهمها كما يقول ابن كثير، بينما تحدث عن النملة التي قالت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ .. ولماذا حين ذكر النملة لم يقل أهي سوداء أم شقراء؟ وهل هي نملة من جنود النمل أم من الشغالة؟.. لماذا يتوقف القرآن عن التفاصيل في كل قصصه؟.. وهل هذا علم أعلى.. إلى هدف أسمى.. أم قصور عن بعض العلم وليس هذا حقا؟.. ثم كيف يأذن الرسول في هذا الحديث الموضوع عنه بالتحدث عن بني إسرائيل وهذه الأخبار كما حصرها ابن كثير وغيره في "المسكوت عنه" مما ليس بصدق ولا كذب قد اختلف فيه اليهود كعادتهم خلافا كبيرا.. فكيف إذن نأخذ عنهم ما اختلفوا فيه..؟.. وكيف يأمر الرسول المسلمين بأن يحدثوا بأخبار هؤلاء المحرفين الذين اختلفت أخبارهم خلافا كبيرا دون أن يبين لهم كيف يتحدثون عن المختلفين؟.. بل كيف يجتمع للمسلمين أن يحدثوا عن النبي وهو الصادق الأمين، وبين أن يحدثوا عن أكذب الكذبة في تاريخ البشر، وتاريخ الدين، وهم بنو إسرائيل، ثم هو في نفس الحديث يحذر من يكذب عليه متعمدا!

بل نقول كيف اتفق لابن كثير على حفظه وتورعه أن يصدق هذه الإضافة الإسرائيلية على حديث صحيح وقد سبقه العالم السلفي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الحوزي القرشي من مواليد القرن السادس الهجري فأثبت في كتابه عن "الموضوعات" بعد المقدمة هذا الحديث الصحيح عن

النبي صلى الله عليه وسلم وهو "من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" لقد أثبته ابن الجوزي هكذا بغير الإضافة الإسرائيلية التي لا يقبلها عقل سليم على النبي الكريم وهي "وحدثوا عن نبي إسرائيل ولا حرج".. وقد ذكر ابن الجوزي في كتابه ما ينفي أي إبهام أو لبس حول صحة الحديث هكذا بغير الإضافة الإسرائيلية عندما نسب روايته بنفس النص المحكم "من كذب علي متعمدا فليتبوأ معقده من النار" إلى عشرات من الصحابة يقاربون المائة كلهم رواه بغير هذه الإضافة الإسرائيلية المكشوفة، رغم دهاء الوضاعين بإلصاقها إلى حديث صحيح، وفي مقدمة هؤلاء الرواة الصادقين أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم وغيرهم.

على أن العالم المحقق أحمد محمد شاكر رحمه الله يخطو خطوة أوسع في الدلالة على الشبهات الكثيرة في هذه الإضافة المنسوبة إلى النبي دون أن يعلن عن أنها إضافة إسرائيلية فهو يقول تعقيبا على كلام ابن كثير عن هذه الإضافة نفسها: "ويقول أحمد محمد شاكر: إن إباحة التحدث عن بني إسرائيل فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه — شيء، وذكر ذلك في تفسير القرآن وجعله قولا أو رواية في معنى الآيات، أو في تعيين ما لم يعين فيها، أو في تفصيل ما أجمل فيها — شيء آخر! لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه، ومفصل لما أجمل فيه! وحاشا لله ولكتابه من ذلك".

ما أصدق هذه الكلمات.. إذن فكيف — مع هذا — نعقل أن الرسول يبيح التحدث عن بني إسرائيل.. وبغير حرج.. هل لنتحدث عنهم.. بعيدا بعيدا عن كتاب الله .. عندما نلهو مثلا.. ونخلو إلى شياطين الأنس والجن..

كيف والرسول لا يحدث في حديثه الذي يصدر عنه بين يدي كتاب الله إلا ليكون المسلمون بوصاياه في هذا الحديث أقرب قربا في كل شئونهم إلى كتاب الله!

ويبلغ الشيخ شاكر رحمه الله ذروة الصدق في الفهم حين يقول وهو يستغفر الله: "وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أذن بالتحدث عنهم أمرنا أن لا نصدقهم ونكذبهم، فأي تصديق لرواياتهم وأقاويلهم يكون أقوى من أن نقرنها بكتاب الله ونضعها في موضع التفسير أو البيان؟.. اللهم غفرا"

ونسأل مرة أخرى: إذن فلماذا يأذن الرسول بالحديث عنهم؟.. كيف نعقل ذلك؟ وكيف لا يهولنا ما نجم عن الزعم بهذا الأذن من اقتحام هذه الأخبار الإسرائيلية الأسطورية المدمرة رحاب كتاب الله لتكون في قصص القرآن موضع التفسير والبيان والشهادة.. حتى استشهدت الحقائق في أكثر هذه التفاسير.. ووهن بها إيمان أكثر المسلمين.

نعم.. ولا تزال هذه الثغرة الكبيرة باقية تحت جدار التراث، وفي قلب مدوناته، لتجري على الألسنة إلى اليوم، وتتسلل إلى الأفهام جيوش الظلمة، وطفيليات الخرافة، ومسكرات الأسطورة.. والعدو الإسرائيلي قد جاء بنفسه إلى هذه الأرض المطهرة.. جاء وراء أكاذيبه، وفي غفلات الضعف الذي انتهت بنا إليه، يحاول إن لم ننجح في صده.. أن ينفخ وينشط سريان النار في هذه الأكاذيب الأخرى.. أكاذيب لها مذاق خمر جديدة.. وفن خداعي جديد.. وهدف عدواني جديد.. أكاذيب بدأت نصك عملتها في بلادنا على أيدي صنائع الاستعمار، وخطط إرساليات التبشير.. أكاذيب الرواية الأوروبية الخيالية والمسرح، وما يجري بباطنها وظاهرها من محاولة التمزيق النهائي في مقومات وملامح وهوية الإنسان العربي، وتحويله إلى

خليط "شرقي عربي أوروبي" نابع في حالة الشنات والاستهواء والذهول إلى سيده الجديد.. هناك وراء البحر الأبيض المتوسط شمالا.. شرقا وغربا!!

الإنسان الشرقي:

في ذلك المناخ الشرقي الذي تم فيه فوق أرض العرب تبادل المواقع خلال خمس مراحل بين العرب والعجم، فاستعجم العرب، وتعرب العجم، نشأ هذا التراث الإسلامي الذي يدور تحت منارة القرآن الخالدة، وحولها، فوق بحر من الأساطير والتفاسير، وأكداس من الموضوعات والمبتدعات. وعلى رغم للتناقض بين الفريقين.. بين العرب الذين استعجموا على عروبتهم، والعجم الذين تظاهروا بالتعرب على عجمتهم، فقد عاش الجميع يتقاتلون ويتنابذون، بينما هم يتخالطون في المساجد والأسواق، وفي القصور ومجالس العلم، وفي مجالس اللهو والخمر والغناء أيضا، دون أن ينشب بينهم صراع حاد حاسم يقضي على طرف لصالح الطرف الآخر.. أو ينشأ بينهم تحالف صريح يتعاونون به على هدف محدد.. لقد اعتاد كل من الطرفين أن يذوب كل منهما في الآخر، وأن يمتصه على مهل، ثم ليتحول من بعده إلى شيء.. لا يصلح لشيء!

لقد عاش كل من الطرفين داخل المجتمع الإسلامي بعد انحلاله وتفككه في توافقية "شرقية" يتحرك بها الأضداد في اختلاف كأنه الاتفاق. فكل شيء كما يبدو — هو منقسم على غيره في إطار الاتفاق.. الدين واحد.. ولكن لا ملل من الاختلاف فيه.. والقرآن واحد.. ولكن لا انتهاء عن الفتنة في تأويله.. والمجتمع واحد.. ولكن الناس من عرب وعجم ليسوا فيه سواء في الفهم، ولا في العادات، ولا في الأهداف.. والإنسان في هذا المجتمع واحد ولكنه وقد أخضع الحياة لمفهوم المتاع القريب، وفصل الدين في واقعه عن الدنيا، وأعطى ولاءه للظاهر الخليفة الأسير في القصر،

وولاءه الباطن للإمام المستور في القصر الآخر، أو للقطب المغمور في داخل الأسواق وحول المساجد، وللشهوة السانحة في أي مكان.. إن هذا الإنسان لم يعد – كما كان بالإسلام الحق – واحدا متحدا بذاته.. إنه كيان هلامي دائم التشكل والتخلق، فارغ من أية حقيقة منتصرة لها السيادة في إرادته.. إنه منقسم دائما على نفسه.. قابل لحلول غيره فيه.. من السماء والأرض.. وقابل أيضا لغيابه عن نفسه. لقد هبط عن حقيقة المؤمن.. وتقاصر عن صناعة المتفلسف.. ورضى أن يكون في مجتمع التيه الشرقي، وداخل وليمة الحضارة السكرى بالإسرائيليات، والفصامية بالشعوبيات، والتي ذاب فيها العرب والعجم مفتوحي الأعين كالموتى – مجرد "صورة" في حلم بديع مروع.. صورة مليئة بالرموز، والشفرة التي لا تجد حلا، وهي تتشكل لتلد المعاني المتناقضة، ومشاهد القدرة الوهمية على تخطي العوائق، وصنع الخوارق.. بينما وهي تعلو وتهوى في مهاب الرياح والنسمات – هذه الصورة – تتحول في نهاية كل بداية – إلى وهم متطاير .. إلى حصاد الريح.. إلى لا شيء يتكلم!

ومع كل ذلك.. مع غيابة الترف، وخدر التخيل والاختلاق، ونشاط الوضاعين في "النفس" و"الفيض" بالغرائب والأوهام والأكذوبات التي يتمزق بها مجتمع المسلمين تحت مستوى اليقين، وفي أعماق الظن، فقد ظل الشعور بأن المسلمين على هذه الأرض "عربا وعجما" يدنون بدين واحد سببا لأن تبقى تناقضاتهم بعيدة عن دفعهم إلى الصدام الحاسم.. صدام الصراع الذي وقع مرات ولا يزال يقع بين العرب وأوروبا قبل المسيحية، وبعد المسيحية، ومع الصهيونية إلى اليوم.

ومع ذلك أيضا، فإن هذا المجتمع العربي الإسلامي الذي بدأ مثالا في التطبيق على مجتمع النبي كما بناه مع أصحابه في المدينة – قد أخذ بهذه

المتناقضات يفقد دلالاته المتميزة اجتماعيا وثقافيا وحضاريا على أنه - كما بدأ - هو المجتمع الإسلامي والإنساني المنشود.. المجتمع الفاضل الذي تصبو وتحلم وتفكر وتعمل على بنائه - هذه الإنسانية على مر العصور.. والذي إذا أوجدته آمنت به.. أو أحلته محل الأسوة والتقدير.

لقد تحول المجتمع الإسلامي بعوامل سلبية كثيرة إلى مجتمع "شرقي".. وبينما احتفظ بعدد كبير من العرب والفرس تحت حالة الذوبان الشعوبي باتجاه الانهيار، بأنساله خصائصهم القومية ليبدأوا - بعد انفضاض العرس - حياتهم القومية من جديد - فإن الإنسان "الشرقي" قد ظهر فعلا فوق أرض الحضارة العربية الإسلامية.. الإنسان الذي اجتمع فيه العربي والأعجمي رغم أنفه.. اجتمع فيه الأحسن والأسوأ من موروثات وخصائص أسلافه المشتركة.. وهو الآن لا يزال يسير فوق هذه الأرض نفسها التي نشطت فوقها الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة التي تحاول أن تلغي قوة "العمل" في القرآن، لتحل محلها قوة التبرك بآياته المعجزة، وأسرار حصول المرضى والمتعطلين والبلهاء بغير أسباب على الصحة والرزق ومواقع القيادة في المجتمع والاحترام عند الحكام!

إن هذا الإنسان "الشرقي" الذي يعيش الآن فوق الأرض العربية منتميا إلى الشعب العربي، وهو يتكلم اللغة العربية لا يزال يحمل على ظهره هذا التراث المنسوب إلى العرب، والزاخر بآثار العجم، وحلفاء العجم. والآن بعد أن استقل الفرس بأرضهم، وقوميتهم، ولغتهم، ومعتقداتهم - يسأل الإنسان العربي الشرقي نفسه: إلى متى يحمل على ظهره هذا التراث الثقيل والمختلط دون أن ينقيه، وأن يفرز فيه لنفسه الصحيح والنافع ليحدد هويته به، وليستخلص هذه الهوية من بين أصابع الخلط بين العروبة والعجمة.. وليستخلص دينه الحق من بين أنقاض وأكداس وألغاز وموضوعات هذا

التراث، ليسترجع لحياته وقلبه وعمله هذا الدين "إسلاما" على ملة إبراهيم، والرسول الكريم، وليس هذا النحل التي ظهرت بها أقنعة الأحاجي والمعمليات والهستيريات والإسرائيليات في أقوال أمثال الحلاج والبسطامي وابن عربي!

إن هذا الإنسان "الشرقي" الذي لا يزال ينشأ فوق أرضه العربية في حضانة الكثير من هذه المتناقضات المتساقطة عليه من هذا التراث الجامع بين الصحيح والموضوع، والحق والزيف – يريد أن يحدد هويته وهو ينتمي على أرض العرب إلى أسلافه العرب.. يريد أن يستخلص من التراث أفضل ما فيه بجوار القرآن والحديث.. يريد تراثا لا يحقر العرب، ولا يشتت الديانة، ولا يسخر الكتابة الأدبية لهدم مبادئ الأخلاق، وتجاوز حدود الله، والدعوة للشعوبية فوق الأرض العربية، كما تخصص في ذلك الأصفهاني وهو يجعل تاريخ العرب قبل الإسلام ويعده هامشا على أصوات الجواري المغنيات في مجالس الخمر والزمر.. وهو هامش حشوه الكيد والزارية والعبث.. ومثل كتاب المعارف الذي لا معرفة فيه لابن قتيبة، أو كتب ابن المقفع التي لا أدب فيها.. عن الأدب!

إن هذا الإنسان الشرقي وهو يطلب في صحوة الأمة العربية أمام غزاتها الجدد بالسلاح، وبالسلع الاستهلاكية، وبالأفكار – يحس أن الإلحاح النفسي أصبح شديدا عليه ليعرف على وجه التحقيق: من هو؟ .. ليخلع وهو يستعيد قدرته على العطاء بالإيمان والعلم – زناره الشرقي، ويظهر لنفسه لأعدائه ولأصدقائه وللعالم في ثوبه العربي.. ليعزز نماءه بالصحيح من تراثه، وليعزل غير الصحيح منه.. وهو ينتهي عنه.

إن هذا الإنسان "الشرقي" قد رجع بدورات الزمن يبصر شمس الصحوة العربية تشرق عليه فوق وطنه العربي.. وسواء أكان تركيا أو

روميا أو فارسيا، أو عربيا مبهما، أو عربيا جليا، فقد تعرب لسانه، وتعرب مصيره.. فوق هذه الأرض.. أرض العرب.. ويبقى أن يتعرب قلبه فيؤمن، وأن يصدق إيمانه فيعمل بوحي الإيمان، وشريعة القرآن، ويسلك بهذا العمل سلوك الإنسان الذي أنعم الله عليه بنعمة الإيمان والقرآن.

لقد وصل هذا الإنسان "الشرقي" إلى مفترق الطرق. فأما أن يذوب ويغيب، فلا يبكي عليه أحد.. وإما أن ينيب إلى الله ويستجيب، فيملك طريقه، ويستعيد ذاته، ويبنى على الإيمان والسواسية والعدل مجتمعه.. ويتقدم.

إنه هنا ينبغي أن يكون إنسانا عربيا مؤمنا لا يحل غيره فيه، ولا يحل له هو أن يغيب عن نفسه، أو أن يخرج عن واقعه، أو أن يستجيب لصوت أي ردة عن إيمانه البسيط القديم، وطريقه المفتوح الواسع، وقرآن الله المحكم المبين.

إنه لا ينبغي له أن يضعف فيسمع من غزاته وساوس قديمة، أو وساوس بمتاع مستحدث، أضيفت إليه نكهة رومية صارخة، والغاز أوروبية غبية، ومتاهات وخرافات قادمة من بعيد تتبرج باسم عصر العلم. أن عليه أن لا يسمع لأي صوت يفتنه مرة أخرى كذلك الصوت الذي أخرجه من جنة إيمانه واتزانه، والذي كان يخرج له دائما من فم امرأة في سفر العجم القديم الذي عربه الجهشياري وهو "ألف ليلة وليلة".. الصوت الذي يقول له بغواية آمرة "قم نعمل انبساطا".. لقد انبسط المسكين حتى انطوى مجده في انبساطه الطويل.. والآن لم يبق له إلا أن يقف على قدميه ويسمع إلى الصوت الصادق الصوت الأخر الذي يقول له من كل مكان.. من نفسه، ومن الآفاق.. ومن متغيرات التاريخ، ونداءات المستقبل: "قم أيها العربي لتبني ذاتك، .وإرادتك.. ومجد أمتك.. وأنت تعطي حق الله عليك".

الإسرائيليات الأوروبية:

في صحوته قام.. هذا الإنسان العربي.. في صحوته المتجددة المراحل في العصر الحديث.. قام بتخطي العوائق التي يضعها غزاته على طرقه، وتحت أقدامه، وفي نفسه وفكره.

لقد انتفض بعد انقشاع المحاق التركي.. ورغم ضربة نابليون.. وعندما رفع عرابي سيفه في وجه تحالف الخديوي مع الإنجليز هجموا عليه في ذروة قوة الاستعمار.. ومع ذلك فقد قام هذا الإنسان ونهض.. مسح وجهه بيده ولم ينهزم.

وانطلق من "القمقم" كل مخطط الحروب الصليبية المختزن.. فأزاح الإنجليز الشريعة الإسلامية ووضعوا مكانها منذ سنة 1883 قوانين أوروبا المتناقضة معها.. أزاحوها لكي يضعوا المصريين بأمر الأرمني المغامر نوبار في إطار تشريعات أوروبية يتحركون بأغلالها، لا لخدمة المستعمرين فحسب، وإنما لتدمير المعاني والأخلاق الإسلامية التي نجحت بها مصر، وليمسخوا ملامحها، وليعبدوها عن مقوماتها، وليحدثوا انفصالا في حياتها بين الحقيقة القانونية والواقع الاجتماعي، كما يقول المستشار عبد الحليم الجندي في العدد 3 السنة 18 من مجلة إدارة قضايا الحكومة.

لقد فرض الإنجليز على المصريين بعد عرابي أن يستوردوا قوانين وتشريعات أوروبية غريبة عنهم، بل متناقضة معهم، وحتى بعض القضاة الأجانب الذين عملوا في القضاء المختلط، مثل المستشار مسينا الذي رأس القضاء الإيطالي فيما بعد في روما كان يستهول هذا المسخ التشريعي للمجتمع الإسلامي المصري، فكان يقول عن التشريع الأوروبي المستورد

"إن شبح زعيم المدرسة التاريخية "سافيني" لترتعد فرائصه من تصور استيراد أو اقتراض أمه لتشريعاتها".

ومع ذلك نهض الإنسان العربي في مصر على قدميه، وظل يجاهد طوال القرن الماضي وهذا القرن لاستعادة شريعته.. لقد تضافرت قوى علماء الدين، ومستشاري محكمة الاستئناف، وفقهاء وأساتذة الجامعات، وأعضاء مجلس الشعب حتى تم في سنة 1971 تغيير الدستور ووضع المادة التي تنص على أن الشريعة الإسلامية مصدر أساسي للتشريع، وحتى بدأت مهمة التقنين للشريعة في سنة 1976.

وكان من العوائق والتحديات أيضا ما سارع إليه الاستعمار بعزل الدين عن مناهج التعليم بكل مستوياته، في إطار مناخ هذه القوانين الأجنبية المستوردة وعزل الأزهر بما فيه من الدين عن الحياة العامة، وعن طبيعة العصر.

ولم يستسلم الإنسان العربي في صحوته ليخرج من زناره الشرقي، ويستخلص هويته العربية الإسلامية.. فبدأ تيار الدين يغزو الجامعات في مفاهيم طلابها، وداخل اتحاداتها وفي رحابها، وتمضي المطالبة بتصحيح الأوضاع، وتقويم المعوج بيد الاستعمار وطفيلياته.. وبدأ الأزهر بعد الثورة يسبق إلى الطريق الصحيح.. ولم يعد معنى الأزهري أنه "المغلق" عن عصره، والملفوف داخل ماضيه.. بل خطوة وراء أخرى يستعيد الأزهر مفهوم الجامعة التي أنشأها المسلمون قبل أن يفك الأوروبيون الحط.. الجامعة التي تعلم علوم الدنيا والدين داخل المساجد، بغير أجر، ولجميع الأعمار، وجميع العلوم الدينية والطبيعية في وحدة متسقة.. عبر الحياة.. إلى مستقبل يفنى به الفناء، ويحيا به الخلود.

ثم بدأت مرحلة من أخطر المراحل حين ظهر جيل "الحضانة الأوروبية" .. الجيل الذي رضع مستحلب المناهج التي وضعها المستعمر، تحت إشراف أساتذة تتلمذوا على الغالبين في جامعات أوروبا وأمريكا.. بدأت المرحلة المخططة والناطقة باللغة العربية، لتقويض ثقافة المجتمع باتجاهه العربي الإسلامي.. لتوهين الدين، والتاريخ، واللغة نفسها التي ينفثون سمومهم باستغلال جاذبيتها وسحرها، وهم يوزعون في كل اتجاه هذه الإسرائيليات الأوروبية الجديدة لتغيير وجه المجتمع العربي الإسلامي إلى ملامح ومعتقدات وصراعات أوروبا اللادينية.. تحت شعارات "التخلص من القديم".. و"فصل الدين عن الدولة".. ولعبة "اليمين واليسار"!!

نعم.. بدأ جيل "البزازة الأوروبية" الذي رضع ثقافة جامعات الغرب ينشط وهو يدق الأرض متعاليا ويزأر، بينما توضع تحت يده أكثر الصحف، والمطابع، والدعايات الأجنبية التي تنعكس على الرأي العام.. لينقل الشمس من مطلعها.؟!

في عام واحد وقعت ضربتان لإطفاء نور الشمس.. والزراية بالعرب وبالدين، أي بالعرب وبالإسلام معا.. ضربة شرقية والأخرى غربية.. في المفهوم.. والهدف.. ومصدر العلم المزعوم!

ضربة الاستشراق الغربي تولاها طه حسين في أول عنفوانه عندما أصدر كتابه التعس "في الشعر الجاهلي" وفيه بغير تبصر، وفي غفلة من شعب مصر في أغلال الأمية هجم هجمته العشوائية على جملة من الحقائق الدينية والعربية الأساسية، فهو يشكك في نسبة العرب إلى إبراهيم، وفي إقامتها قواعد بيت الله في مكة رغم النص القرآن، وهو يشكك في وحدة اللسان العربي بين الحجاز واليمن، وهو يقول بانتحال الشعر الجاهلي ليمحو بكذبة واحدة تراث أمة هي أم جميع الحضارات في العالم، حتى

حضارة بحر الروم، وحضارة فرنسا التي كانت ملهمته وأستاذه عندما انزلق بأبحاث المستشرقين هذا المنزلق.

على أن الإنسان العربي لم يكن نائما.. وقام الشعب العربي في مصر وغيرها يدين طه حسين.. أدانه الأزهر.. وأدانه القضاء.. وأدانه سير التاريخ بهذا الشعب وهو يتقدم بهويته هو.. وليس بهواية طه حسين ومدرسة طه حسين.

وتصدى لهذا الإفك كثيرون في حينه، وقبل أن يجف مداد قلمه.. فلقد كان أقل ما اجترحه طه حسين واعيا لما يفعل، أو غير واع له هو ما ذكره المحامي محمد لطفي جمعة في كتابه "الشهاب الراصد" الذي أصدره سنة 1926 للرد عليه، وذلك حيث يقول "إن طه حسين لم يترك فضيلة للعرب في علومهم وتاريخهم وآدابهم وعقائدهم دون أن يحاول هدمها بشدة وقسوة، وبتهكم واستهزاء، لم نعهد لها مثيلا في كتب العلماء.."

هذه هي أهداف الحرب الصليبية التي لا تزال معلنة على العرب المسلمين في وطنهم.. والتي صنعت لها أوروبا انكشارية جددا خدعتهم، وزيفت أفكارهم وسلطتهم بأسمائهم العربية الإسلامية على بني أوطانهم.. الأهداف دائما هي: الإسلام.. واللغة.. والتاريخ.. والخصائص والملامح والهوية العربية في أي صورة من صور الحياة.. لكي تحل محلها ملامح وخصائص ولغات وأنماط حياة أوروبية، شاذة، وغريبة، وتحت الصفر.. ولكي تطلع الشمس لأول مرة في تاريخ الأرض.. من الغرب!!

في ذلك العام نفسه.. سنة 1925.. سقطت الضربة الأخرى لحساب الشرق الشيوعي.. لم يكن الروس بعيدين كما كان يتصور البعض.. صدر الكتاب الذي أعيد طبعه سنة 1973 في بيروت وهو "الحركات الفكرية في الإسلام" لمؤلفه المجهول الهوية والجنسية "بندلي جوزي".. صدر

هذا الكتاب في القدس على شكل نداء أو "مانيفستو" بالعربي موجه إلى الشباب العرب لينتفضوا على المقومات العربية الإسلامية الأصيلة — تماما كما دعاها طه حسين ولكن بالمقلوب.. أي بالمفهوم الشيوعي!!

في هذا النداء العاطفي الخبيث يقول الخواجا بندلي جوزي بلغته العربية الأعجمية وهو يرسم مخططا عكسيا ومنسقا مع المخطط الاستعماري الغربي لكي يهدي هذه الأكاذيب القرمطية والإسماعيلية بلغة عصرية، إلى الذين حرروا عقولهم من تأثير الخرافات الاجتماعية والدينية والقومية"!!

في هذا الكتاب العميل يقدم بندلي جوزي باسم الاستشراق الروسي تاريخ الفتنة البابكية وزندقة القرامطة والإسماعيلية بصياغة جديدة تضعها في إطار "ثورات اجتماعية" ينبغي على الشعوبية المعاصرة داخل الوطن العربي أن تعيد إخراجها من قبورها في صورة أحزاب تتجه إلى ثورة شيوعية!

وفي موسوعة عن "المستشرقين" لنجيب العقيقي نجد بندلي جوزي مواطن القدس والمولد سنة 1871 محسوبا على قائمة الاستشراق الروسي، حيث أنه انتقل ليتعلم ويتخصص في اللغات السامية والدراسات الشرقية في جامعة قازان على نهر الفولجا، ثم قام بالتدريس في معهد للرهبان، ثم في جامعة قازان التي تعلم بها، ثم في جامعة باكو.. ويعتبره المستشرقون الروس أحد مراجعهم.. فمن هو بندلي جوزي؟.. ربما كان يعرف الجواب الصحيح الدكتور محمود إسماعيل عبد الرزاق مدرس التاريخ بجامعة عين شمس، والذي أعاد نشر معلومات بندلي جوزي في منشوره السابق داخل كتاب انتحله لنفسه تحت عنوان غريب وهو "الحركات السياسية في الإسلام" وكان ذلك ويا للعجب في سنة 1973.. في نفس السنة التي أعادت بيروت

فيها نشر كتاب بندلي جوزي الذي صدر سنة 1925، ونفس السنة التي حقق فيها العرب على إسرائيل كمفاجأة نصر حرب رمضان!

وهكذا ظل كورس أوروبا ينشد على الكثير من منابر ومسارح الإعلام العربي أناشيد ومفاهيم الثقافة الأوروبية الغربية والشرقية.. أناشيد مخدرة، مسكرة، ومضللة، وهدامة.. تملأ الجو بأصواتها الغربية، ورطاناتها المثيرة للتقزز في غياب الشريعة الإسلامية، التي كان المنتظر في حضورها أن يتهيأ المناخ العربي الإسلامي الذي تترشد فيه صحوة العرب، وهي تبلغ برشدهم القصد، وتستخلص نظريتهم للحياة، وقدرتهم على بناء مجتمع المؤمنين.. في هذا العصر الذي يتجلى فيه "إنسانيا" ضياع الغرب "والشرق.. معا!

لم يكن في وسع الكورس الأوروبي الفكر أن يكشف عن الدعائم الفكرية والثقافية الجديدة بالإنسان العربي في عصر صحوته، مستمدة من أصالته في الاعتقاد، وليس من تبعيته بالاستيراد..!

لم يستطع أحد من أفراد هذه الجوقة المنشدة بالأفرنجي أن يقف أمام هذا العار الخرافي الذي يتزايد انتشاره بتأثير أوروبي وشعوبي أيضا بانتشار الفرق الصوفية المتطرفة بنظريات الحلول والتي يشجعها الغرب.. وكذلك نشاط الفرق الشعوبية المقابلة، والتي تشجعها الشيوعية مع أنها تؤمن بنفس الصورة الحلولية للآلهة في البشر، كما في كتاب بندلي جوزي، ومع أن الشيوعيين يزعمون محاربة الخرافات.. ويتصورون في مناخ خرافتهم المادية أن الإيمان هو الخرافة الكبرى!

لم يبحث أحد في جوقة الإنشاد بالفكر الأوروبي في قضية "الزاهدين" في الحياة، أو قضية العدوانيين على الحياة.. لم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث عن "الهوية" وعن العقيدة.. وعن مقومات تنمية الشخصية

القومية.. وعن اعتبار إحياء اللغة العربية في مقدمة المهام الوطنية والقومية والإنسانية للإنسان العربي.

لقد تركوا ذلك ومثله ليبحثوا في القضايا المضادة.. ليتساءلوا بعجب وراء أساتذتهم الأوروبيين: ما هو فضل اللغة العربية على غيرها.. أليست هي فرعا من اللغات السامية مثل العبرية والحبشية؟!

وليتساءلوا: وما هو فضل العقلية العربية إذا قيست بغيرها من العقليات الأوروبية.. أليست هذه العقلية قد عجزت عن أن تنسج من الأساطير مثل الإلياذة والأوديسة.. أو أن تخترع من المسرات والعبثيات مثل الكوميديا والتراجيديا على المسرح؟!

وهم مع كل ذكائهم.. ومع تأنقهم بوضع القبعات والبيريهات على رؤوس أفكارهم وكلماتهم.. ومع فزعهم من تصور مستقبل التعرب والدين الخالص على هذه الأرض العربية.. ومن إيمانهم بأن أكثر رواد الفلسفة والفكر والشعر — بجوار السياسة والمال — كانوا في أوروبا التي يعشقونها من اليهود، ولم يكونوا من اليونان أو الفرنسيين أو الإنجليز مثل: كانت، وجوتة وبهجل، وشوبنهاور، ونيتشة، وسبينوزا، الذي نقل إلى أوروبا مقومات فلسفتها الحديثة على الأسس العربية الأندلسية، وكارل ماركس، وماكس نوردو، وسيجموند فرويد، وبرجسون، وصمويل بتلر أستاذ برنارد شو، وصاحب بدعة صراع الأجيال التي دارت حولها أكثر المسرحيات المصرية في الجيل الماضي.. إلخ.

إن هذه الجوقة المنشدة في بلادنا على الأرغن والأوراتوريوم الأوروبي العلماني والخداعي تنسى، وتجهل، وتتجاهل أحيانا أنه في الوقت الذي يحاولون أن يشدوا فيه انتباهات شعبنا إلى أسوأ ما في أوروبا، وأن تجحظ العيون رواءهم في التفاهات الفاضحات — فإنه على أرض عربية غالية،

منتزعة منا كحبات عيوننا، تزرع أوروبا "إسرائيل" امتدادا لنجاح المخططات الصهيونية - في غفلاتنا - وباستمرار التخدير الفكري لنا، والتنويم القومي. وإن إسرائيل التي هي امتداد المخططات المضادة. للعرب كانت تجسيدا لنجاح جمعيات أسسها المثقفون اليهود في قلب أوروبا باتجاه إحياء رفات شعب يهودي مات منذ نحو 20 قرنا، من أول جمعية "محبي صهيون" إلى جمعية "قديما" أي "إلى الأمام" التي نشأت سنة 1870 إلى حركة "بيلو" المأخوذة من الحروف الأولى من جملة من التوراة وهي "بت يعقوب ليخ أوتيلحا" أي "بيت يعقوب هلم فاسلك في نور الرب".. فهؤلاء اليهود سادة الثقافة الأوروبية يفتعلون الأسباب ضد التاريخ، وضد العرب، وضد العدل الإنساني، والقانون الدولي، تحت لهب أشواق دينية من عصور غابرة مصوغة ومنصهرة في أطماع سياسية.. إنهم يجيئون من أوروبا الملحدة ليقيموا على أرضنا، وفي ظل تاريخنا الشامخ. دولة دينية، ومجتمعا يحكمه كتاب من الله هو التوراة، وإن حرفوه، ويحبون من أجل ذلك لغتهم الميتة "العبرية" التي كانت في عز شبابها لا تتجاوز أن تكون إحدى اللهجات المريضة والمستعجمة باللسان العربي..

واليوم في إسرائيل يستمر اليهود أمام أعين المثقفين المتبرنطين على أفكارهم في بلادنا على نفس طريق أطماعهم.. وينشئون جمعية جديدة تزيد من إحساس الإسرائيلي القلق على مصيره أمام الصحوة العربية بأهمية قيادة "التوراة" للمجتمع الإسرائيلي.. لقد أنشئوا الجمعية أو الجماعة التي سموها "ناطوري كارتا" أي "حرس التوراة".. فهل كان من الممكن أن نتصور إمكان قيام "جنود القرآن" من هذا القبو الحلزوني الذي يعيش في جليده وعتامه هذه الجوقة من مثقفينا، الذين لا يزالون ينشدون ضياعهم

في حب أوروبا.. أوروبا المتعة.. والرواية الخيالية.. والمسرح الذي أخذ يحتضر؟!

غير معقول.. لأن هؤلاء الجنود.. جنود الله.. والقرآن.. هم الذين قدموا حياتهم لحياة وعزة العرب، ولبقاء ونماء معتقدات العرب ولغة العرب وهم يهتفون "الله أكبر".. ويعبرون القناة فوق أعناق جنود إسرائيل.. يعبرون القناة.. وعوائق التردد.. والهزيمة.. إلى تحرير الأرض العربية، وتحرير الإرادة أيضا، وامتلاك الطريق الصحيح.. طريق النصر.. الطريق الذي شقه الإنسان العربي الصادق.. الإنسان المؤمن.. الخبير بالسلم والحرب.. والمتركز إلى العلم والدين.. كما فعل في رمضان.

إن الطريق الكبير الذي لا تزال أمامنا أشواط وأشواط نقطعها عليه.. إنه طريق النصر الذي يحققه شعبنا وأجيالنا فوق الدبابات الإسرائيلية، كما يحققه فوق الإسرائيليات الأوروبية.. وفوق شراك الأكاذيب في الرواية الخيالية، والمسرح المخمور.. وأفلام الجنس والعنف والزيف..!

نعم إنه طريق النصر.. إلى بناء وجودنا العربي المتقدم بالعلم والإيمان.. والصدق والقرآن.

القسم الرابع

التعبير عن العصر الحديث عربياً...

الفصل الأول

ملامح وتناقضات المجتمع اليوناني القديم

كل ما مررنا به في الفصول السابقة في مجال الاستدلال على أن فن الرواية الخيالية والمسرح الأوروبي، فن غريب عن آدابنا، ومضاد لطبيعة مجتمعنا العربي الإسلامي ورسالته في الحياة، ومنهجه في التعبير، وأخلاقه ومبادئه – نمر هذا المرور العابر أيضًا بالمجتمع اليوناني القديم، الذي عاش به اليونان الأوائل، أو الإغريق، بكل خصائصهم الجنسية والفكرية والعبيرية، وبكل تراثهم الشعري الأسطوري، والمسرحي، والفلسفي، والسياسي يمثلون "الجذور" الحضارية لأوروبا كلها إلى اليوم، فهم الملهمون الأوائل لكل شعوب أوروبا اللاتينية والجرمانية، منذ ما كان الظلام يغطي أوروبا قبل المسيحية، وبعد المسيحية، وحتى ر النهضة التي عادت أوروبا به بعد الصحوة المفاجئة على الحضارة العربية الإسلامية العلمية – تستلهم اليونان القدماء، صبغة جديدة لوثنية عصر التفتح على العلم بمعنى المنهج والقانون.. وهكذا.. في عالم أوروبا الوثني بطبيعته عاش اليونان الأوائل مثالا فذا أمام الشعوب الأوروبية تستلهم منه حضارة الخمر والفلسفة والعدوان، بمثل ما عاش العرب الأوائل في قلب الوطن العربي مثالاً تستلهمه الشعوب العربية دائمًا مبادئ ولغة ومجتمع الدين والعلم، والعدل والرحمة..

الأصل الهندي

يرجع الإغريق إلى الجنس الآري، وجماعتهم الأولى نزحت من الهند مع جموع القبائل الهندية التي اتجهت من بحر قزوين غربًا وشمالاً إلى أوروبا. وعندما وصلوا في ترحلهم من آسية إلى شبه الجزيرة التي حلوا بها مرورًا بالدانوب كانوا قبيلة صغيرة من الرعاة تحمل في جعبتها أعظم أكاذيبها الغرورية عن نسبها المتميز على البشر، فلقد كانوا يطلقون على أسفسهم اسم "الهيلينين" نسبة إلى هيلين بن ديوكاليون من زوجته بيرها

الذين كانا المخلوقين – حسب أساطيرهم التي روجوها – الوحيدين اللذين منحهما زيوس النجاة من الطوفان الذين أغرق به العالم غضبًا على البشر!

ويشهد أكثر المؤرخين صدقًا أن هؤلاء الهيلينين القدماء كانوا كما يصفهم المؤرخ الهولندي هندريك فان لون: "على جانب كبير من انحطاط الخلق، يعيشون عيشة الخنازير، ويلقون بأجساد أعدائهم إلى الكلاب المتوحشة التي كانت تحرس أغنامهم، وقلما كانوا يحترمون حقوق الشعوب الأخرى، فقد قتلوا أهلي شبه جزيرة اليونان الذين كانوا يعرفون باسم الفلاسجة، ونهبوا مزارعهم، واستولوا على ماشيتهم، وسبوا نساءهم وبناتهم.. "!!

ثم يتحدث فان لون عن المصدر العربي الأول لثقافة هؤلاء الهمج في مجال العمران والتقدم، وليس في الوثنية والخرافة والعدوان فيقول: "وقد شاهدوا هنا وهناك حصون الايجيين فلم يهاجمرها لأنهم كانوا يخشون السيوف المعدنية والرماح في أيدي جنود إيجة، وعرفوا أنه لا أمل لهم في التغلب عليهم بواسطة فؤوسهم الحجرية الفجة.. وقد دأبوا على التجول عدة قرون حتى احتلوا البلاد بأجمعها ومن هذه اللحظة بدأت الحضارة الإغريقية، ذلك أن الفلاح الإغريقي الذي كان يعيش على مرأى من المستعمرات الإيجية قد دفعه فضوله آخر الأمر إلى زيارة جيرانه" حيث تبين له أنه يستطيع أن يتعلم منهم أمورا كثير نافعة .. وكان الفلاح الإغريقي تلميذًا نجيبًا، إذ سرعان ما برع في استعمال هذه الأسلحة الحديدية الغربية التي جلبها الإيجيون معهم من بابل وطيبة أي "العراق ومصر " وأدرك أسرار الملاحة فأخذ في بناء السفن فلما فرغ من كل ما يمكن أن يتعلمه من الإيجيين انقض عليهم، وطردهم إلى جزائرهم .." .. هكذا يتحدث فإن لون في كتابه "قصة الجنس البشري".

ثم يقول في عدوانية اليونان الأوائل "وسرعان ما تجاسر الإغريقي وركب البحر، وغزا جميع مدن بحر إيجة، وانتهى به الأمر في القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى سلب مدينة كنوسي وتخريسا" !!

الوثنية في الجذور:

تناول أحمد أمين في كتابه "قصة الأدب العالم" في تحليله لمعتقدات اليونان من آدابهم ما يؤكد هذا الرباط الخيالي عند اليونان بين كل من مفهوم الإنسان عندهم، ومفهوم الطبيعة، وهو رباط "الأسطورة" القائمة على تفسير الطبيعة والإنسان من المنظور اليوناني بتوهم وجوه الآلهة، واستعمالها كرموز خيالية يدور بها تفسير الوجود في إطار وثني إلى الأبد..

يقول أحمد أمين: "لعل اليونان لم يستطيعوا حل تلك المشكلة العويصة، أي مشكلة الإنسان والطبيعة والآلهة ذلك الحل الشعري، في أساطيرهم، إلا بتلك الخاصية التي يجمع النقاد على توفرها لديهم، ونعني بها أنهم قوم يفكرون "بخيالهم" وبذلك استطاعوا أن يجمعوا بين نشأة الآلهة ونشأة العالم".!

ثم يقول مما يكشف عن بذور صراع الإنسان اليوناني مع الطبيعة المحيطة به: "وفي كتاب الشاعر اليوناني هزيود الذي جاء بعد هوميروس بأربعة قرون نقرأ اليوم بوضوح فلسفة للكون تماشى تسلسل الآلهة: وتوزيع الاختصاص بينهم، وكانت هذه أول مرحلة لحل المشكلة — أي مشكلة الإنسان والطبيعة والآلهة — وكانت المرحلة الثانية أنهم خلعوا صفات الإنسان عن آلهتهم، وبذلك قربوها إليهم، وحملوها نزواتهم. ومنذ أصبحت لهم آلهة شبيهة بالبشر أخذوا يتصورون آلهة أخرى وربات في كل ما في الطبيعة من جبال وأنهار وغابات وأشجار، حتى لنستطيع أن نقول: إذا كان

الهنود يعتقدون بالحلول الإلهي في الكون، فإن اليونان اعتقدوا بالحلو الإنساني في الآلهة، فالإنسان عندهم حال بكل شيء، حال بالآلهة، ثم حال بالطبيعة التي تصوروها تملك كل خصائص الإنسان، وهكذا اتخذ اليونان من الإنسان محورًا للوجود كله، ومنبعًا له"... انتهى.

وكما أن اليوناني في أساطيره قلب المفهوم الهندي لآبائه عن الحلول الإلهي في الوجود أو وحدة الوجود، وذلك بسبب تغير مناخه من الحر إلى البرد، ومن الشبع إلى الجوع، واستمر لا يرى الوجود المحيطة به إلا واقعًا ممزقًا إلى أجزاء لا تمنحه المنظور الواسع الكامل المضيء، كما يراه ولا يزال يراه العرب فإن هذا اليوناني قد ورث تمامًا أسلافه الآريين في فلسفته الوثنية عن الزمن، واعتبر إرادة الإنسان حرة في وجه الجبر الإلهي.. لقد أخذ من طريق الرمز في أساطيره يعلن عن وجهته في إطلاق العنان لشهواته بغير ضوابط يمليها عليه إيمانه بالإله الحق الذي يحكم ويدير الوجود بعد خلقه، أو على الأقل يمليها عليه إيمانه بأن هذا الوجود – الذي عجز عن التفرس والتفكر فيه في حالة الصحو وليس في حالة الصحو وليس في حالة السكر – محكوم بقوانين العلم، وأن هذه القوانين محكومة أيضًا في قواعدها المتشعبة بقانون الاتساق والحتمية والصيرورة.

لقد قال اليوناني في فلسفته وهو ينصر "زيوس" أي النهار الذي يعمل فيه ويأكل ويسكر، على الزمن الذي روعته لا نهائيته، وأعجزته آفاقه، لقد قال ما يعني أن انتصار "النهار" وهو زيوس كبير الإلهة البشري الفاسق على كرونوس أي "الزمن" الذي أفلت من "وحوش العدم" التي كادت أن تمزقه إنما هو "انتصار للمحدود على غير المحدود" أي انتصار لغرض الإنسان ليعيش، ويحمل، ويستمتع" ويقرى بالخرافة والخمر والأسلحة ليبيد أعداءه ويستولى على ممتلكاتهم من حقول القمح والكروم.. من أجل

الخبـز والخمـر..! وهـكـذا كـان الإسـكندر مثـالا لهذا التفسير العدواني الخرافي للوجود .. تفسير السكارى الذين يهيجون بين الحين والحين بعد أن يخدروا أعداءهم بالأكاذيب والأساطير، لينقضوا عليهم بالغدر والعدوان والسرقة!!.

لقـد اعتبر اليونـاني الأول – كمـا كـان الفـرس يـرون في ديانـاتهم القديمة وفي بعض مذاهبهم الاعتقادية بعد الإسـلام- إن الإنسان مطلق الاختيار في هذا الوجود، وأنه تعبيرًا عن صراعه مع هذا الوجود قد وضع آلهته في "القيود" التي صنعها لهم بخياله. ليفرح ويمرح كما يشاء من خلال "الفوضى" التي غرق فيها بتفكيره الخيـالي.. بعيدًا عن دين حق. . أو علم ضابط .. أو فطرة سوية.. لا تدَّعي .. ولا تعتدي.. وهي تعرف "المعروف" واقعًا فتأخذ به ، وتنكر المنكر باطلاً في ضوء هذا المعروف فتنهى عنه!.

صناعة التفكير:

لم تكن لليوناني الأول فطرة الإنسان السوي التي تهديه في بداية العلم المكتسب إلى أول الطريق الصحيح في تفسير الوجود، وحل مشكلة الإنسان والطبيعة، فتأله من خلال آلهته، وبدأ يمارس تفكيره الباطني الذي يتيح له من غير ضوابط " الفطرة" أو "قوانين " العلم، أن يفجر بأفكاره كما يشاء، وأن يهذي ويخدع الناس، بعد أن يكون قد غرق في خديعة نفسه إلى ما فوق أذنيه..

لقد كان هذا اليوناني الأول بين الظلمة والجليد والطمع والغرور، يفكر كما يقول أحمد أمين "بخياله " وهو تعبير يتسع لجميع ما ذكرناه في الفصول السابقة لبيان انفصال هذا الإنسان عن وجوده المحيط به داخل نفسه. وإنه لم يكن يدرك هذا الوجود في تعبير لغته ألا يفعل "الكينونة"..

وإنه لم يكن يدرك البرهان على هذا الوجود بالبرهان العلمي الحسي بالنطق أو اللمس، فاعتبر أنه موجود بالتفكير، كما وضع ديكارت نفس هذا المفهوم في قوله المشهور: هو يفكر: فهو موجود.. !

وهكذا انطوى الواقع، وانعكس على قاع الفكر الإنساني بملايين الانعكاسات داخل أدمغة اليونان، وفي طوايا أنفسهم، وبملايين التناقضات، وهي تأخذ الشكل الهرمي بين قاعدة من العبيد وقمة من غير العبيد تنتهي إلى تحالف الملوك والأثرياء والفلاسفة.. وحيث يصف أفلاطون المنطق الصوري غير العلمي لقمة الفكر اليوناني بأنه أي المنطق أو "اللوجوس" وبعبارة يسجلها الفلاسفة المعاصرون هو "الاستعمال المعقول للكلمات في التفكير" !

فالفلسفة التي عاش اليونان وذيولهم يزعمون أنها طلب الحقيقة، وحب الحكمة ، ليست إلا قوالب فكرية، صورية، غير علمية في علاقة فكرها بالواقع، ولذلك فهي لا تكن أن تتجسد في واقع سوى، اجتماعي أو فردي، في حياة الإنسان.. والدليل قائم على ذلك في تضارب الفلسفة في كتبها، والفلسفة في مذاهبها ومجتمعاتها .. إلى اليوم.. !

قلنا في الفصول السابقة أن الفطرة النشطة في حياة المؤمن العملية هي الطبيعة السوية للإنسان الذي لا يعيش معناه "المجرد" والمعزول عن واقعه داخل نفسه، بل يعيش هذا الواقع مدركًا أنه جزء من أجزائه .. جزء فعال في الواقع، وفعال به، وفعال معه، ومعبر عنه، أي عن هذا الواقع الحي الذي يضئ به الإنسان كان هو عقل واقعه السليم، وصوت إيمان الواقع بلغة وعمل الإنسان.

ولذلك فالأوربيون لا يعرفون الفطرة وإنما يعرفون الضمير الذي يسمونه conscience ويقصدون به "الطوية" و"النية" أي ما هو في "داخل

الإنسان" مصدر تصوره ومعرفته لما هو في خارجه، ولذلك فهذه الكلمة على طريقة اللغات الأوربية التركيبية المفصلية تحمل معناها من مقطعين هما: eon وهي صادرة معناها: معًا.. و Scienee ومعناها : معرفة أو فن أو علم .. إذن فالمعنى الإجمالي لكلمة الضمير أو الطوية عند الأوربيين يساوي معنى "المعرفة الداخلية المنطوية في الإنسان مع نفسه"..

هذا المعنى الذي تتخلق به أجزاء المعرفة مضمرة في "ضمير" الإنسان الأوروبي بغير ضوابط تحكمه في واقع علمي للوجود خارج نفسه يؤكده لفظ أوروبي قريب من لفظ كلمة "الضمير" وهو conscious ومعناها "الشعور" والوجدان.. فالشعور الشخصي كان ولا يزال هو وعاء هذا "الضمير" المنطوي داخل نفس الإنسان الأوروبي، المتصادم مع الطبيعة المحيطة به، وغير المبصر لوحدة أجزائها، والمعزول عنها بالجوع وضربات الجليد، ليفكر فيها وراء جدار، وبجوار مدفأة، ومخمورًا أحيانًا كثيرة!. .

وهكذا فإنه كان حتمًا في حكمة خلق الله أن يرى الإنسان الأوروبي في واقع انفصاله عن الوجود والتفكير خارج نفسه – أن علاقته الأساسية بالوجود هي هذه "العمليات الفكرية" الفردية داخل نفسه، بحثًا عن تفسير مقبول للوجود المحيط به" وهو بذلك قد اكتشف أن من ضميره وطويته، ومن شعوره المبهم وأهوائه، من صور ومسموعات العالم الخارجي التي يجمعها بغير ضوابط، أو رؤية شمولية، أو وحدة مع الطبيعة، ليجرها إلى داخل نفسه – قد صنع عالمه على هواه داخل نفسه.. أو كما استطاع أن يقول بلغته "داخل عقله" الذي لم يكن له مفهوم في لغته ولا وعيه حتى الآن إلا أنه "الذكاء والرغبة والتذكر" وهي العوامل التي تساعده على عملية "التفلسف" وعلى اكتشاف الصيغ التي تساعده بآلة "العقل" على توليد

وتخليق أفكار جدلية جديدة .. أفكار لا تصلح للواقع الذي نشأت بعيداً عنه في قاع وباطن رأس فيلسوف.. وإن كانت تصلح لإضافة شبهة جديدة حول "الحقيقة" للجدل حولها في حلقات الفلسفة المفرغة منذ كانت إلى اليوم..

من أجل هذا تعددت دلالات كلمة "العقل" عند الإنسان الأوروبي الذي يصنع أفكاره بالاستبطان الداخلي معزولاً عن واقعه، فأصبح يعني الذهن والمخ للدلالة على مكان "العمليات الفكرانية" في الاستبطان الداخلي وذلك في كلمة Intellect من الأصل اللاتيني الذي يعني الدماغ والمخ والذهن intellect ومشتقاتها بعيداً تماماً عن مفهوم كلمة "العقل" بلغة العرب.

وكذلك أصبح " العقل" يعني "الذاكرة" التي هي أساس العمل العقلي والفكراني عند الإنسان الأوروبي، الذي يجلس للتفكير الباطني في عملية استرجاع وتذكر لأجزاء الواقع الممزقة، وإعادة تركيبها داخليًا، بالتوفيق مع لغة مفصلية عجماء ليس لها مع واقعها أي تماثل علمي.. فكلمة mind تعني الذاكرة، والرغبة التي تحرك الذاكرة، وهي ذات مصدرين في اللغة الإنجليزية.. المصدر اليوناني mainesthe بمعنى يتذكر .. ومصدر جرماني انجلوساكسوني قديم يرجع بالذاكرة الخرافية أيضًا لكلمة mind إلى الإله مانو minna الذي هو الأب الأعلى الأسطوري للجرمان.. !

وكذلك أصبح "العقل يعني الشعور" وذلك لارتباطه الفردي والذاتي بشعور الفيلسوف صانع واسكاني الأفكار الداخلية الذي يصنع أفكاره داخل أقبيته وسراديب مخه، وذاكرته، وخرافاته، بحسب "شعور" الذي هو غبته، كما يصنعها دائمًا بحسب " طويته" أو ضميره.. وبهذا فقد أصبحت كلمة eoncious أو eonciousness ومعناها الشعور تعني

عند الإنسان الأوروبي "العقل" وأصبح أيضًا للإنسان الأوروبي "العقل" وأصبح أيضًا للإنسان الأوروبي. كما اكتشف ذلك اليهودي فرويد — عقل باطن آخر تحت عقله الباطن الأول سماه "اللاشعور" unconscious ، وهو يعني أن جميع "الرغبات" التي لا تتحقق في عمليات "العقل" التي لا يعيها الأوروبي تسقط في "اللاشعور" الذي تتجمع فيه نفايات "عقله" أي "مصنع أفكاره الباطني" .. ومع الزمن تحدث هذه "النفايات" في " العقل الباطن" تلوثًا للبيئة حول " العقل الواعي" الحبيس داخل نفسه، وشعوره ، وفوق نفاياته ولا شعوره.. وتسبب له أفظع وأغرب "العقد" والأمراض النفسية والعقلية والعصبية .. التي أعلنت عن نفسها أخيرًا في أكثر مظاهر "العدوان " و"العبث" و "القلق" و"الانهيار" و"الضياع" كما يعيشها الأوربيون اليوم مع امتدادهم الأمريكي.. في انتظار يوم الحساب.. وسقوط أكاذيب هذه الحضارة "اليونانية الرومانية" الجديدة .. كما سقط أسلافها من قبل..

كذلك فإن العقل يعني عند الإنسان الأوروبي من أيام اليونان الأوائل — بخلاف الذكاء والذاكرة والرغبة والشعور — أنه "الفكر الحدسي الخالص" أي القائم على الظن والتخمين الفلسفي، كما تدل عليه كلمة عقل اليونانية وهي nous ومعنى هذا أن العقل بالمفهوم الأوروبي العام منفصل عن الواقع العلمي، بل أن نشاط العقل، أي الحدس، هو في بعض شطحات أرسطو الغامضة منفصل أو مفارق لنشاط البدن !!

من هذه العمليات "الفكرانية" الباطنية نشأت "الفلسفة" اليونانية تحمل تناقضاتها من أول يوم .. تناقضها مع نفسها بين "المادي" و"المثالي" .. وتناقضها مع الحقيقة التي تبحث عنها في شكل المجتمع "الطبقي" الذي لم تستطع أن تتصوره بكهانة الفكر إلا على أساس ملوك وعامة، وأحرار وعبيد .. وقاهرين ومقهورين .. وهي تبيح هذه الطبقية بغير خجل استنادًا إلى

" عمليات عقلية" لا تتم في داخل العقل الفردي إلا على أساس أن العقل هو "الذكاء" أو هو "الذاكر " أو هو "الرغبة" أو هو "الشعور" أو هو "الحدس" وليس على أساس علمي منهجي يرى الواقع في إطار للقوانين، والتي لا تتناقض، ولا تختل، من حكمة إلى غاية.. تمضي والإنسان معها، ليشهد عليها بعلمه وانتصاره، أو لتشهد عليه بغروره ، وضياعه!؟

ولابد أن نشير هنا في مجال التذكير بالأساس الواهي الذي يستند إليه كل تاريخ اليونان الفكري، ونتاجه الوثني من الفلسفة والأسطوره والمسرح إلى ما تناقله الكتب في سيرة الأسكندر المقدوني من غضبه على أرسطو عندما علم أن معلمه وفيلسوف الطبقة "المصطفاة" بالتفكير قد نشر عددًا من كتبه الفلسفية، وكان الأسكندر قد خرج في رحلته العدوانية التي اعتزم فيها " استبعاد" الشعوب الغنية في أرض العرب والشرق، وتحويل مواردها من القمح والخمر والأنسجة والذهب إلى بلاده الجائعة المقرورة.. فكتب إلى معلمه وكاهنه أرسطو يقول له في غرور ملك، وطمع لص: "إلى أرسطو. لقد ارتكبت خطأ بنشرك الأجزاء "الباطنة" من العلم، وإلا فكيف يبقى اختلافنا عن الناس، إذا جعلت "المعرفة العليا" التي اكتسبناها منك مشاعة في العالم أجمع"!

لقد سمى الأسكندر هذه الفلسفة بالعلم "الباطني" وهذا صحيح، إذ هي محاولات معرفة "باطنية" في مصدرها وهو التفكير "الباطني" المعزول عن الواقع، أي عن المصدر الصيغ العلمية للمعرفة، وبذلك تصبح تلك المعرفة "الباطنية" التي تحمل أداة "التفكير الكابح" للطبقات الأدنى هي "المعرفة العليا" التي لا تكون إلا للملوك وفلاسفتهم، أي كهنتهم الفكرانيين، الذين بوسعهم في شعب وثني شرس مثل قبائل الهيلينيين أن يجعلوا من مارك هذا الشعب، وتحت عنوان الديمقراطية الزائفة والخادعة

والمسرحية "آلهة" ينظمون طبقاته تنظيمًا "عبوديًا" ساحقًا، كما نظمها الكاهن السابق لأرسطو وهو أفلاطون بحيث يكون الملوك دائمًا "فرق" مع "أدمغتهم" من الفلاسفة ويكون الجيش للقتال هو الأذرع ومنها Arm ذراع وArmy جيش، وحيث يكون الحرفيون والفلاحون والعبيد عبيدًا في خدمة السادة وحدهم، وأحذية وأقدامًا في أرجلهم.. كما بلغ إليه ذكاء الكاهن الملكي الفلسفي الباطني اليوناني "أفلاطون" في جمهوريته الفاضلة.. للملوك والأغنياء وحدهم!

ديمقراطية الطبقة:

ويتحدث الكثيرون في بلادنا بغير صدق، من جوقة المنشدين بالإفرنجي عن ديموقراطية اليونان التي هي المصدر الموجه لديمقراطية الاستعمار.. ديمقراطية مسرحية تتناقض مع معنى هذه الكلمة وهو "حكم الشعب" أو سلطة الشعب..

ولكن المؤرخ الهولندي فان لون يتحدث أصدق منهم عن أخبار هذه الديمقراطية وطقوسها، فتكتشف أنها الديكتاتورية السافرة، أو ديمقراطية الأثرياء، وأن نسبة هذه الطبقة ممن سموا أنفسهم بالأحرار إلى نسبة العبيد الذين امتهنوهم وتوارثوهم هي نسبة 15 بالمائة من عدد اليونان الأوائل الأحرار إلى 85 بالمائة من عدد العبيد الأشقياء الذين يقومون فقط بخدمتهم!

يقول هندريك فان لون وهو أيضًا من الفخورين – أوربيا – بالديمقراطية اليونانية التي سمحت لهولندا ببضعة ملايين أن تستعمر أكثر من 100 مليون مسلم في اندونيسيا .. إنه يقول "والمدينة الإغريقية لم يحكمها ملك، وإنما كان يحكمها الأحرار، ولم يكن هذه ليتأتى إلا

إذا توافر جيش جرار من "العبيد" يفوق المواطنين الأحرار، عددًا بنسبة ستة أو خمسة إلى واحد، ويقوم هؤلاء العبيد بجميع تلك الأعمال التي نكرس لها نحن المحدثين كل وقتنا وجهدنا إذا أردنا أن نعول أسرة وتدفع إيجار المسكن!!

ثم يقول "كان العبيد هم الذين يتولون الحيازة، وطهو الطعام، وصناعة الشموع اللازمة للمدينة كلها، وهم الحائكون والنجارون، وصناع الحلي، والمدرسون، وأمناء المكتبات – لا تعجبوا – وحفظة المؤمن والمشرفون على المصانع"!

ماذا كان يصنع إذن ذلك اليوناني الأول الحر، الشديد الحرية..؟ يقول فان لون أيضًا دون أن يرتد إليه طرفه خجلاً، أو أن يموت ضحكًا "هذا على حين كان يذهب "السيد" – الإغريقي الهيليني إلى الاجتماع العام لمناقشة مسائل السلم والحرب، أو لزيارة المسرح لمشاهدة آخر مسرحيات اسخيلوس، أو لسماع حوار عن الآراء الثورية ليوريبيديس الذي تجاسر على إبداء بعض الشك في قدرة الإله الأعظم زيوس"!!

أي عار أفدح في تاريخ الإنسانية من مستوى هذا العار، حيث تمتطي قلة من العاطلين الخرافيين المعربدين السخفاء ظهر أربعة أضعافهم من "العبيد" المقهورين بالطغيان والرعب ليعملوا في خدمة هؤلاء السادة البرابرة من زراعة الأرض حتى أمان المكتبات وإدارة المصانع!!.. وعندما حدث أن عددًا من العرب اشترى من أسواق الروم والفرس بعض أسرى الحرب الذين باعوهم عبيدًا وكانوا يسمونهم "الرقيق" تلطفًا بهم، ولم ينظروا إليهم نظرة عدواني بتسميتهم "البرابرة" كما كان اليونان والرومان يسمونهم.. ولم يكونوا قط لأنهم كانوا أحرارًا- يسخّرون الرقيق عندهم للقتال عنهم كما كان يفعل اليونان والرومان.. ولم يكونوا يحرمونهم قط

من أحسن الطعام، وأحسن الملابس وأحب الأسماءز عندما حدث هذا فتح المستشرقون الأوربيون وتلامذتهم "جاعرتهم" للتنديد بوحشية العرب .. غير المتمدنين.. الذين كانوا يستخدمون العبيد!!

ويقول فان لون وهو يعلق أوسمة الإعجاب "الاستعماري" و"الاستعبادي" على صدر اليونان الأوائل : "أما العبيد فهم جميعًا خدم بالوراثة.. وليس من شك في أن حالة هؤلاء العبيد الذين كانوا يحرثون الأرض كانت سيئة للغاية"!!

لقد كان حكم الطبقة هو الفكر السياسي الملتوي والسافر في كلمة "الديمقراطية" بمفهوم السادة الإغريق الذين حكموا عبيدهم حكمًا شاملاً، وأقاموا على أجسادهم جمهورية المتبطلين والطغاة، فكان أفلاطون قبل "فان لون" وأمثاله يرى في فترة نضوج جرائم الفكر الخيالي الأثيني، وإعلانًا عن تأثره بالمزاج الارستقراطي للسادة الحاكمين — أنه من العدل حرمانه العمال وأرباب الحرف من "حقوقهم السياسية"، بينما يرى أرسطو بنظرة تقطر تقززًا واستعلاء وتتهاوى تناقضًا وبغيا —أن الحرف الوضعية- كما يقول جورج سول في كتابه "المذاهب الاقتصادية": "تسبب الدمار الكلي للعمال، ومديري الصناعة على السواء أو ترغم أصحابها على أن يحبوا حياة العزلة داخل بيوتهم، أو أن يقضوا في بعض الحالات يومهم كله أمام النار.. وإذ تضعف أعصابهم يدب المرض إلى نفوسهم، وهذه الحرف لوضيعة ينتفى معها تمامًا وجود الفراغ، وتمنع الناس من المشاركة في الحياة الاجتماعية والمدنية، والنتيجة أن يصبح أمثال هؤلاء الناس أهل سوء، ولا يبالون بالدفاع عن بلادهم.!!

أن أرسطو يتجاهل أن السادة القساة الجشعين والمعربدين، الذين هو منهم وهو كاهنهم، هم الذين فرضوا استعباد هذا العامل والحرفي،

وأثقلوه بالأعباء، وانتزعوا منه أهليته للمواطنة، وجعلوه – مثل المرأة اليونانية- متاعًا حقيرًا يورث فاللوم هو على الطبقة الوضيعة التي رضيت باسم ديمقراطيتها هذا القهر وهذا التدمير لكيان آدمي، يعمل بغير إرادته، لمن ينكل به وبطبقته، ومن تزيده القوة نكالا له، وتضاعف أغلال سلطانه في يده وقدمه..!!

وهكذا يصدر الكاهن أرسطو.. كاهن الارستقراطية اليونانية قراره بأنه ينبغي أن لا تكون للعمال حقوق سياسية !!.. كما جرى في هذا المجتمع الأرستقراطي المخمور حرمان "المرأة" اليونانية التعسة من كل حقوق الحياة!

المرأة متاع:

مع أن المؤرخ اليوناني ثيوسيديدس وهو يؤرخ لسقوط أثينا ذكر أسبابًا كثيرة تتعلق أيضًا بالمستوى الهابط للهيلينيين القدماء إلا أنه لم يذكر، وما كان ليدرك، أن أهم ظواهر الهمجية الهيلينية الأولى، وأبرز الدلالات على تمرغها الوحشي في اللا إنسانيات، هو موقف اليونان المنحط فعلاً من المرأة، ومن النظرة المهينة لها، التي تنزل بها كثيرًا عن مستوى الرجل. والمقصود هو المرأة اليونانية التي يسمونها حرة بالاسم .. وهو المقوف الذي أصبح عامًا في أوروبا.. إلى وقتنا هذا .. رغم التشدق الكاذب بمكانة المرأة الأوروبية ومساواتها بالرجال .. سواء في الغرب أو الشرق!

يقول ول ديورانت في كتابه "حياة اليونان" إن الكثير من مفكري اليونان الأوائل في عصر نضجهم كان ينادي بأنه "يجب أن يحبس اسم المرأة في البيت كما يحبس جسمها" فلم يكن لها لذلك أي "دور" بارز في مسرحية حياتهم المليئة بالتناقض والخداع، بل لقد كانوا يمنعونها من

وازدراء لها، حتى لقد كانوا يصنعون الأقنعة لوجوه النساء ليضعونها على وجوه من يقومون بتمثيل دور النساء، وكانوا لذلك، وبكل بساطة، يلجأون إلى خصي العبيد، وتحويل نخبة منهم إلى أغوات "كاستراتي" ليحتفظوا لهم بنعومة أصوات المرأة.. "المحتقرة" في الديمقراطية اليونانية.. الخادعة!!

ووظائف المرأة عند اليونان كما يحددها خطيبهم العظيم ديموستين هي بهذا الترتيب بحسب الأهمية في قوله : "إننا نتخذ العاهرات للذة، ونتخذ الخليلات للعناية بصحة أجسامنا اليومية، ونتخذ الزوجات ليلدن لنا الأبناء الشرعيين"! هكذا فقط.. كما تعلم ذلك، وتسعد به، جوقة المنشدين في بلادنا بالإفرنجي واليوناني على أبواب الدعاية لمسرح أوروبا!

والشاعر الهجائي سيمونيدس الأمورجي، الهيليني أيضًا، يصف المرأة اليونانية من وجهة نظر الرجل اليوناني، فهو كما خلقتها "آلهة السماء" كائن ناقص، وهي في أكثر أحوالها حيوان مزعج.. إلا ما ندر .. إنه يقول أو ينشد من نشيده الذي أورده احمد أمين في كتابه "قصة الأدب في العالم":

جعل الله عند الخلق طبائع النساء مختلفات

فجاءت إحداهن كأنما أخرجها الله من خنزير..

وأخرى كأنما أخرجها الله من ثعلبة ماكرة..

وأخرى كأنها هى الكلبة حركة ونشاطا...

تجو س أركان المكان فاحصة متطلعة

فأن لم تجد شيئاً أطلقت لسانها بالسوء

ولن يجدي فيها وعيد زوجها

كلا ولا يسكتها الغضب.. ولا حجر يلقى عليها فيحطم أسنانها ..!

بل وهي في ضيافة غيرها

تظل كالكلبة في صياحها ونباحها!

....

لقد صاغت آلهة السماء من تراب الأرض امرأة

قدمتها على نقصها للرجل زوجة .....

يعوزها العلم، فلا خيرًا عرفت ولا شرًا..

ولا تعرف عليها واجبًا إلا أن تأكل..

وإذا مستها لفحة البرد ارتعشت .. الخ... الخ؟؟!!!

فهذه هي المرأة اليونانية في نظر زوجها الظالم البليد .. هذه هي أمه وأخته وابنته.. وهذه هي خليعته وخليلته وزوجته.. وهذا هو علمه هو .. وإنسانيته بعد أن فقدت المرأة اليونانية العلم والإنسانية .. وأين تجدهما في مجتمع السادة المخمورين .. العهرة .. والمتبطلين !؟

حضارة العدوان:

من هذا النبع المسموم الذي فاضت به حضارة اليونان الأولى في حدود مفاهيمهم الوثقيه والاستبدادية والأسطورية، وحيث لم يكن الإنسان يساوي بمعيار المساواة الآدمية أي إنسان آخر في الحقوق والواجبات — تفرعت شجرة الحضارة الأوربية بكل عوائقها وغرائبها ومظالمها كأنها شجرة الزقوم، ليصبح الإنسان في كل أشكال ديمقراطياتها، ونظم

سياساتها ومذاهبها إما أكبر من واحد في قمة الهرم الظاهرة أو الخفية، وإما أقل من واحد.. أقل من إنسان في القاعدة التي هي دائمًا أقدام وأحذية وعبيد النظام الطبقي..!

وبنفس القياس مع فداحة المفارقة أصبح الأوروبي العدواني بغير إيمان أو كابح، أو فطرة ، أو عدل- يرى بميراث الجنس الآري – أن الرجل الأبيض على قمة السلطات التي يتمتع بها في نظمه الاستبدادية الاستغلالية المتنوعة – هو فوق الرجل الملون والرجل العربي .. هو الأحق وحده بالحياة.. هو السيد الوحيد للبشر، الذي يحق له – كما كان حقا للمتبطلين في المدن الإغريقية – أن يملك مواد كل الشعوب.. وأن يمتهن في خدمته قرى كل الشعوب .. بالقوة العسكرية كما كان الحال في الاستعمار القديم .. أو بالإرهاب والتجويع والمؤامرات والغزو الفكري والثقافي.. والمسرحي والسينمائي.. كما هو الحال في الاستعمار الجديد..

إنه ما كان ممكنًا لإحصاء مذابح اليونان والرومان في عصور ما قبل الإسلام لولا أنه قد بقي لنا في تاريخنا الديني ما لا يمكن محوه من الذاكرة، ونكتفي هنا بمثال واحد على المذابح التي لم يتنازل عنها الرومان، مع تغير الظروف الموضوعية للخلاف الديني بينهم وبين المصريين اللذين خضعوا لهم نحو ستة قرون طويلة كألف قرن ، ملطخة بعار الرومان، ومخضبة بدماء المسيحيين المصريين!

لقد كان مقتضى الاستبداد الروماني في حضارتهم العدوانية أن يخضع المغلوبون لهم لنفس معتقداتهم.. تحت زعمهم العنصري بتفوق الرجل الأبيض – وعلى هذا نشبت هذه الصراعات بين الرومان وبين المصريين الذين كانوا رغم تبعيتهم للرومان عربًا أحرارًا في عقيدتهم الدينية.

وهكذا خلال ستة قرون من العسف الروماني جرت مذابح الرومان على المصريين في بداية سنة 68م التي قتلوا فيها مرقس الرسول في الإسكندرية وجروا جثته في شوارعها، وقد اشتملت على المراحل الآتية كما لخصها الدكتور مراد كامل في كتاب "تاريخ الحضارة المصرية":

1- فترة الصراع مع أباطرة الرومان الوثنيين حتى سنة 313م.

2- فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين للهرطقة من سنة 313 إلى سنة 451.

3- فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا روما من 451 حتى 641 أي العام الذي حرر فيه عمرو بن العاص مصر من نير الرومان في مرحلة وحدة الوطن العربي وحريته وحرية اعتقاده تحت رايات الإسلام.

ونذكر بعد ذلك مما لا يمكن أن ينساه عربي وما لا يزال يرتعد لذكره كل إنسان طبيعي، ونعني بذلك هذه المذابح التي أقامها الأوربيون الأسبان باسم النصرانية، وأداروها على المسلمين منذ 1492 حتى سنة 1610، رغم شروط الصلح بين أمير الإمارة الأخيرة بالأندلس وبين الأسبان، والتي تقضي بتأمين المسلمين في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وأن يحتفظوا بشريعتهم وقضائهم، وأن يتمتعوا أحرارًا بشعائر دينهم، وأن تبقى المساجد حرمًا مصونًا.. لقد كان هذا أقل ما يمكن أن تؤديه أوروبا على يد الأسبان للعرب الذين أحيوا مواتها خلال ثمانية قرون.. ولكن من يكبح وحش العدوان في حضارة أرض الظلام والجليد.. أوروبا تلميذة اليونان والرومان؟!

يقول المستشار عبد الحليم الجندي عن هذه الفترة السوداء ووصمة العار من بين وصمات بلا حصر في تاريخ الحضارة الأوربية "لقد انقضى قرن وبعض قرن حتى سنة 1610 ذاق فيها العرب من العذاب ما لا تنساه البشرية من تنصير بالقوة، إلى إحراق الذين تنصروا، .. ولكن الحريق لم يبد العرب كافة فينصح كردينال طليطلة، وكان رئيسًا لمحاكم التفتيش، بقطع رؤوس من يتنصر من العرب، رجالاً ونساء، وشيوخًا وشبابًا، قولاً بأنه لا يعرف إخلاصهم في تنصرهم، ولما عارضت الحكومة في ذبح الملايين أمرت في سنة 1610 بإجلاء العرب عن أسبانيا، فجلا نحو مليون، وقتل في الطريق مئات الألوف، وارتاح الراهب "بيلدا" لقتل ثلاثة أرباع المهاجرين..." ثم يقول المستشار عبد الحليم الجندي متفجعًا :"لقد أفنى الأسبان من العرب ثلاثة ملايين من سنة 1491 حتى سنة 1610.. في حين لم يدخل العرب بلداً إلا وعمروه.. ولم ينشر الإسلام لواءه ليقتل النفوس.. وإنما ليحييها..!"

وأما ما شاهدته الأرض العربية من فظائع الحروب الصليبية، وما وقع من المذابح الجماعية في بيت المقدس فلا حاجة للتذكير به.. فهذه المهمة هي أبسط ما تقوم به اليوم جيوش أوروبا الإسرائيلية.. على أرض العرب.. من أجل نفس الأهداف العدوانية و.. والاستحواذية .. التي تتقنع، وتختفي كذبًا، وراء الدين.. وأي دين هذا الذي تسيل باسمه دماء الأبرياء.. ويستعبد الأحرار.. وتنهب الأرض والموارد من أيدي أصحابها.. ولكنها حضارة العدوان .. على جذور حضارة اليونان!!

حضارة الخمر:

من المعروف أن اليونان القدماء كانوا لا يشربون الماء إلا إذا تعذر عليهم العثور على الخمر التي يختزنونها في الأقبيه، ويعبون منها عبا بغير

حساب. وكان من أعجب ما انتهى إليه علمهم الديونيسيوسي أن الماء "ضار بالصحة إلى حد بعيد".. وهكذا سكروا حتى لا يضروا صحتهم.. وحتى لا يفيقوا إلى شيء يخجلهم .. وحتى لا يفزعوا من مظالمهم ومساخرهم وتناقضاتهم إذا انتبهوا إليها.. وحتى ترث عنهم شعوب أوروبا شرقًا وغربًا هذا الإدمان "الحميد" على الخمر.. وتنشأ وتنهار أيضًا بسبب الخمر.. !

لقد نشأت المسرحيات، ومن بعدها الأوبرات الغنائية، تحت رعاية الملوك والنبلاء المخمورين، وما ذلك إلا ليتمتعوا أكثر، وهم كانوا — حتى عصر لويس الرابع عشر الملك الشمس وقبل الثورة الفرنسية، يبدأون هذه المسرحيات والأوبرات بمنظر شبح خداعي هابط من السماء ينبه الحاضرين من زوار الملك أو النبيل، بالتفويض الإلهي الممنوح للملوك والنبلاء.. وكان المخمورون من صغار النبلاء والبطانة يسعدون في سكرهم باستمرار المسرحية الكبرى.. مسرحية الاستبداد في حضارة الخمر .. والعدوان!

من خلال الخمر كان يجري استغلال كل شيء لإخراجه من الصحوة إلى السكرة.. لإيقاف الوعي والثورة على الظلم.. ليبقى الاستبداد والقهر سائدًا حتى في عصور المسيحية ودعوة السلام والمحبة!

كان عصبة السكارى من حكام أوروبا وبالتحالف مع الكنيسة يستعينون بالخمر والموسيقى التصويرية، والقدامى اللاتيني ذي اللحن الثابت Canto fermo لكي يسدلوا على حياتهم الباغية من خارجها ستار الدين، والأخلاق والسلوك القويم.. والاستمرار في السلطان أيضًا بدون معارضة..!

ولكن على هذه الدعائم المسرحية كان الشعب خارج القصور وخارج الكنيسة يرى من بعيد، ويسمع.. ويفهم.. كان يرى أن الأباطرة وكبار رجال الكنيسة يعيشون حياة البذخ والتجاوز والشذوذ. بينما كان

الشعب خارج أسوار القصور والكنيسة، ومعهم صغار القس، يأكل لقمته السوداء مع الخمر الرخيصة.. كان يعيش محكومًا بنظام العبودية الثقيل الأغلال Servdum ولذلك فقد كانت له في ساعات سكره أيضًا أغانيه المعبرة عن واقعه الأليم .. ورده الساخر!

لقد استطاع الشعب من ثغرات عديدة أن يسخر من حكامه وجلاديه، فيصنع قداساته على نغم القداس اللاتيني الملكي محشوة بالألفاظ النابية والساخرة، من مستوى كلام الحانات والمواخير.. ليس عن ضيقه وتمرده ، وهو يخرج لسانه بهذا الأسلوب النغمي التمثيلي لمن يسلموا عليه.. ومثلوا به!

وجن جنون الآباء العظام .. ولكن ماذا كانوا يفعلون .. والشعب رغم ما ورثه من الخمر والإلحاد والموبقات كان لابد أن يطيح بالكابوس.. بالممثلين الكبار على مسرح شفائه.. وإن سقط مثخنًا بجراحه تحت الأنقاض من مواريثه كما لا يزال يحدث له في هذا العصر..

هذا وكان معلومًا أنه في حضارة الخمر كانت المجاري تتسلل أو تكسو الأسوار العالية والمغلقة حتى الأديرة.. ولقد نشرت فيما بعد أجزاء من أخبار مفزعة ، أو غريبة لا علاقة لها بأكاذيب الروايات الخيالية، تعيد على مسمع الأوربيين قراءة بعض تقارير كان رؤساء الأديرة يتلقونها عما يجري بداخلها في مناخ حضارة الخمر.. والتمثيل .. والاستبداد .. داخل القفازات الحريرية أو بالقبضات الحديدية عند اللزوم..!

تقرير مثلاً يقول "الراهبة فلانة .. كان الرهبان في الدير الفلاني يحزمونها لترقص لهم!! .. وفي اليوم التالي تقرير آخر يقول : شرحه!! .. بينما مع موسيقى العباقرة التعساء من أمثال باخ، أو الفجرة من أمثال فاجنر،

كانت تتنزل تلك الأشباح وأصواتها التي تعلن عوصية السماء: بطاعة الملك.. المخمور حتى أطرافه أنفه!

وبينما كانت الحروب تدور ليفنى فيها ويشقى الملايين من الجنود والفلاحين فان ماريا تريزا – وهي في حالة انبساط خمري – تجد من نشوتها وسعادتها إن تصبح في طبقتها من الملوك والملكات ساخرة بالحرب، ومتعالية فوق للم المتعة، والشعوب التعسة، الجائعة، والمثلوجة رغم النبيذ الرخيص والفودكا لتقول: "ما على الدول الأوربية إلا أن تثير الحروب فيما بينها" وأما عن النمساويين فإن علينا فقط أن ندخل في مصاهرات الزواج الرابحة"!!

في هذا الجو المعتم والظالم الذي ساد أوروبا بحضارتها المتفجرة من زجاجة خمر في يد باخوس إله الخمر اليوناني، وديونيسيوس إله الخصب الذي يعني وفرة الخمر- كان مؤلفوا المسرحيات وصانعوا أعظم الألحان الدينية، أو الدنيوية للكنيسة وللمسرح – فقراء تعساء أو فجارًا متسلقين -يحترفون الزنا إلى جانب احترافهم الموسيقى !

من المؤلفين الكبار العبيد في مجتمع حضارة الخمر المسكين يوحنا سباستيان باخ الذي كان يعمل مع سيده النبيل "ماركجراف براند نبرج" .. وعلينا أن نعرف أولاً أن كلمة ماركجراف Markgraf تحمل من آثار الحضارة العربية كلمة "جراف" بمعنى "شرف" فالنبيل الألماني الذي كان يحمل علامة الشرف والنبل لم يكن يعامل باخ في تعاقده معه بأي شرف أو تقدير.. هكذا التعاقد الذي ينص على أن يقوم باخ بالإنتاج الموسيقي اللازم للعزف في مناسبات سيده من زواج أو جنازة.. وان يعزف على الأرغن في المصلى الخارجي في قصر السيد، ويقوم بتأليف المطلوب وفقًا للأمر الصادر إليه.. !

وهـذا كلـه في مقابـل 85 جولـدن سـنويًا، وثلاثـة مكاييـل قمـح، وعيارين زيت، وحمل خشب، وست أحمال قش.. تسليم المنزل !!

وأما في هذا العصر فقد تجمع الربا السياسي والاجتماعي في حياة أولئك الحكام الأوربيين الطغاة ليغرق أحفادهم وذواريهم في الغرب والشرق في بحر من الخمر.. ومعها أخوانها البشعات من جرائم الجنس والعنف.. وأمراض الفصام والهلوسة والضياع!

في العدد الصادر من مجلة تايم الأمريكية بتاريخ 22- 4- 1974 تقول: "أن الشباب يتحول الآن عن المخدرات عمومًا إلى أشدها فتكا، وأوسعها انتشاراً وهي الخمر.. والكثيرون من المفرطين في الخمر تقع أعمارهم تحت الحادية والعشرين، وأن من بين 95 مليونًا ممن يعاقرون الخمر بنسب متفاوتة هناك نحو تسعة ملايين من المدنين من شي طبقات المجتمع"!

ويعاني الروس بالضرورة نفس المرض اليوناني القديم، فالفودكا من أيام القياصرة كانت مع الاستبداد والخرافة سببًا من أسباب "الفقر والجهل والمرض" كما يقول انطون تشيكوف في قصته التصويرية عن الفلاحين.

وإذا كان الحزب الشيوعي قد حقق الشعب الروسي بعض النجاحات الاقتصادية والعلمية في مقابل حرية إرادة المواطنين، فإنه لم ينجح في استئصال الفودكا أو لم يفكر جديًا في استئصالها أو تخفيفها، ذلك أن الخمر هي من صميم الفلسفة اليونانية القديمة بجزأيها المثالي الذي تفرع عليه النظام الرأسمالي، والمادي الذي قامت عليه النظرية الماركسية.

ومما يقال للتندر في هذا البلاء الذي حملته حضارة الخمر إلى ذويها من أحفاد باخوس أن الزعيم الشيوعي بريجينيف قال أخير لكيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة بمناسبة إنشاء أمريكا لمصانع المشروبات الخفيفة في روسيا: "ربما أمكن أن نعلم شعبنا أن يشرب فودكا أقل.. وبيبسي كولا أكثر"!!

تشريعات أوروبا:

والآن ننتقل إلى المجال الذي لا تستغني عنه جميع الدول في ضبط أعمالها وإدارة الحياة داخل مجتمعاتها، وهو مجال التشريع ووضع القوانين، لننظر إلى أي حد كانت عاهات الفكر الأوروبي، بتأثراته المستمرة من جذوره اليونانية – ظاهرة وجلية في هذه التشريعات التي ذقنا نكالها – نحو قرن من الزمان منذ أن مارس الإنجليز أكبر مظالمهم علينا سنة 1883 بتنحية الشريعة الإسلامية عن وجودها الفعلي في قيادة وإدارة حركة المجتمع المصري المؤمن.

لقد بلونا هذه التشريعات الأوروبية التي كان عليها بالضرورة مهما تنوعت أن تعكس في موادها ملامح هذا المجتمع الأوروبي، اليوناني في الجذور، الذي يرى أن الزنا عادة مدنية، وأن الخمر ضرورة يومية، وأن العدوان إن كان من الأوروبي فهو عمل إنساني، وإن كان على الأوروبي فهو جريمة لا تغتفر..!

وأترك للصديق المستشار عبد الحليم الجندي، المستشار القانوني بمجلس الشعب، والعالم الذي حقق بثقافته الإسلامية الواسعة وحدة الثقافة في فكر الإنسان المسلم فانتصر في نفسه وبمؤلفاته الإسلامية والقانونية على إرادة الاستعمار الذي شطر جسد الثقافة العربية الإسلامية إلى ثقافتين متنافرتين مدنية كما سماها.. ودينية .. أترك للصديق العالم أن

يتحدث عن طابع التشريع الأوربي الذي أوشكنا أن نتحرر منه، بعد تعديل الدستور، وبعد قرار مجلس الشعب بتنفيذ النص الخاص بتقنين الشريعة الإسلامية وتطبيقها في حياتنا كما كانت .. يقول المستشار الجندي:

"لقد كانت الجرائم في ظل القانون الإسلامي قبل أن يحمده المستعمرون قليلة، فلما فرضوا علينا القانون الأجنبي، الذي هو أشلاء قوانين أوربية من هنا وهناك زاد عدد الجرائم كثيرًا.. ومع ذلك بقت هذه القوانين تجسد في حياتنا أغلال الاستعمار التشريعي الذي يتوجب علينا إجلاؤه بحزم كما اعتزمنا"

"إن هذه التشريعات الأوربية في أكثر من دولة وشعب قد ظهر عجزها وقصورها تمامًا أما موجات الرذائل الناشئة في مجتمعها من ثمار هذه النظريات التي قامت عليها نظمها وتشريعاتها.. فكيف يجوز لنا وقد اهتزت هذه التشريعات الأوربية من أساسها أن نبطئ في استرجاع شريعتنا الإسلامية بالتقنين والتطبيق، وأن نبادر بذلك بالحيلولة دون اهتزاز مجتمعنا الذي تحافظ عليه.. والمثل ظاهر أمامنا..؟"

:إن المجتمع الغربي الذي نعمل بقوانينه المدنية والجنائية، والذي بلغ الأوج في علومه غير الاجتماعية، والذي يكتظ من عبادته للماديات بالأموال، ويعيش في غيبة الإيمان في ضياع نفسي واجتماعي يفقده نعمة الحياة والشعور بالأمن والسعادة .. هذا المجتمع يتخذ أمريكا مثالاً له وأما لسلوكه.. فماذا في أمريكا اليوم من آثار ضعف تشريعاتها؟"

"في أمريكا تدخل مكافحة الجريمة عنصراً أساسياً في البرنامج الانتخابي للرؤساء المتعاقبين للولايات المتحدة.. ذلك أنه في كل نهار يدخل السجون الأمريكية للمرة الأولى نحو 8000 سجين.. ناهيك بأفلام العنف والجنس التي أصبحت تحكم بآثارها المدن الشهيرة، فلا يجرؤ أحد أن

يمشي بعد الغسق في واشنطن العاصمة، أو في نيويورك، مخافة القتل أو السرقة والاغتصاب..

ومن ضحايا السرقة أعضاء في مجلس الشيوخ.. ولم لا .. والزنا بالمعنى المعروف لأعقاب عليه.. والخمر بدل الماء.. وقد بلغ عدد المصابين بالشذوذ الجنسي في بعض مظاهر انهيار هذا المجتمع في صحبة تشريعاته نحو أحد عشر مليونًا" .. انهي كلام المستشار الجندي.

من أجل هذا الضياع، والتخطيط لانهيار المجتمعات العربية التي تأخذ بالتشريعات الأوربية فرض علينا الإنجليز بقوة الحراب انتزاع الحصانة التشريعية بإيقاف الشريعة الإسلامية عن الحركة ، وهي النظام الإلهي الذي كنا نمسك به وحدة مجتمعنا على النقاء، ونحفظ به سلامة علاقات هذا المجتمع، ونضئ طرقه إلى السلام وانرخاء في كل عصر..

هذه الرواية التي لا يزال يمثلها تخطيط الاستعمار.. وتصبح بأدوارها أشباح تحت عنوان "المدنية الغربية" .. وتحت رايات "اليمين " أو "اليسار" .. وراء أهداف استئصال ذاكرة الأمة العربية، وقطع لسان لغتها، وإطفاء شمس كتابها، والحيلولة بينها وبين الحتمية التاريخية في بعث مقوماتها في بناء مجتمعها، والاغتسال من اللا دين في أفكارها، ومن أضغاث أحلام بعض مثقفيها – هذه الرواية المملة، التي تفضح زيف أصواتها/ وأقنعة أشباحها، وخداعية مشاهدها – أضواء شمس الصحوة، وطلائع صباح الإنابة .. هذه الرواية الاستعمارية بكل مراحلها وفصولها، وهمهمات ملقنيها، وضوضاء موسيقى الجاز الهمجية بين فصولها.. أليست لها نهاية يبدأ منها الواقع الحي بكل صدقه وأمانته؟ .. ألا ينزل الستار قريبًا على هذه المأساة الفكرية الهازلة.. وهذا الهزل المبتدع الأليم؟!

نعم.. فمع تدافع أمواج الصحوة بالإيمان تعود الشريعة الإسلامية إلى قلب الشعب ويده وموازينه.. ومع شروق شمسها من جديد تظهر وجوه الأوثان القبيحة، ويصبح "العيب" في نظر الأفراد الصالحين "عيبًا" في وعي كل المجتمع.. وتتحول المطابع إلى كتب أجدى وأنفع لصحوة الشعب من حشيش الروايات الخيالية.. وتتحول السينما إلى أداة تعليم وتثقيف.. ويتعرب المسرح فيذهب زيفه، وينطق فوقه من يخاطبون الشعب، وهن يواجهون معه مهم تقدمه، بلسان الصدق والعلم، ووحدة الهدف والطريق..

معنى هذا أن أول ما ينبغي إسقاطه، والتحرر منه، هو هذا "المسرح الاستعماري" الذي شيده الإنجليز منذ هزيمة عرابي في أكثر من موقع، وعرضوا عليه أكثر من رواية، وتكلموا فوقه بأكثر من لغة: وحققوا به وحاولوا أن يحققوا أكثر من هدف!

إن ذاكرة القارئ يمكن أن تسترجع الآن كثيرًا من الروايات التي أخرجها وعرضها الاستعمار على مسرحه في بلادنا، وتحت عناوين كثيرة غامضة، ولكنها عند التفسير واضحة تمامًا بوجهها الاستعماري، ويتناقضها مع وجودنا الموحد، ومع قيام مقوماتنا وازدهارها.. إنها عناوين تتكرية مثل "التحرر" و"التجديد" و"المدنية الحديثة".. عناوين صالحة لكل مذهب في كل عصر.. ولا يمكن أن تكون صالحة لنا إلا إذا باشرنا نحن تحديد هوية "التحرر" و "التجديد" و"المدنية الحديثة" في مجال علاقات المجتمع، وتنمية نوازع السلم والأمانة ، وتقليم الجنوح قبل استفحاله..

لقد أراد المستعمر لنا مصير الانهيار الذي أحاط بحضارته، واقتحم عليه مجتمع في ظل تشريعاته التي مارسناها، وعرفنا مدى علاقتها بالتصدع، ولغواية، وتنمية النزعات الفردية، والعدوانية، والاستخفاف بالقانون وحق المجتمع.. "لقد حدث" أن المصريين أخذوا في ظل هذه

التشريعات التي فرضها يتابعون، ويتعاملون، بياعات ومعاملات أوربية، ويؤاخذون مؤاخذات أوربية، ويعاقبون عقوبات غير إسلامية، وبذلك لم يعودوا مع الزمان يؤلفون مجتمعًا إسلاميًا،. كذلك فإنهم مهما كانت بياعاتهم وعقوباتهم أوربية فلن يصيروا أوربيين . وإنما يصيرون غير مسلمين، وغير مصريين، وغير أوربيين. وبهذا يصبحون امساخًا، وصورًا مهزوزة من الذين يلدونهم، وينسلخون من الجماعة التي نشأوا على قواعدها، إلى جماعة أخرى غريبة عنهم يكونون ذيولا لها: وهذا ما عناه المستعمر منذ ذلك التاريخ من سنة 1883"

المسرح الاستعماري:

معنى هذا كله أنه ليست الرواية الخيالية والقصص المسرحية هي وحدها مصدر الإشعاع الذري الأوربي الهدام لمجتمعنا من الداخل .. فالتشريع الأجنبي الذي فرضوه علينا كان أيضًا هو الراعي غير الصالح، لابس المسوح الأوربي، الذي أفشى فينا بنظريته الأوربية لقوانينه هذا التمزق والضياع في علاقات المجتمع، وفي نوع إرادة التقويم والتوجيه لسلوك الأفراد، فأصبحت الخمر لأبناء النيل العذب- مشروبًا مباحًا بمستوياته للجميع.. من السبرتو إلى الكوكتيل والشمبانيا.. وفي مستنقع الخمر، وهلوساتها، أصبح الزنا شريعة السكارى، وأصبح العنف والشذوذ طابع الضائعين من رواد الحانة.. ووراء هذا الغبار الخانق والقائم يتكئ أصحاب الدعوات الهدامة للدين ومقوماته، والحياة وأعبائها، ليتحدثوا وينفثوا، ويشيروا بأصابعهم.. ويصبح في كل حي جمعية للإصلاح بلا إصلاح، وفي كل حارة داعية للحق بلا حق... ويتلفت الناس في هذا الشعب الذي صمد للمؤامرات والهجمات الخارجية والداخلية، واحتفظ بوجدانه القوي العربي، المعبر عن اتجاهه الديني الإسلامي- ليتساءلوا في هذا "المسخ"

الأوربي بالقوانين والمسرح الأوربي وأفلام الجنس والعنف، وحانات الخمر، وصالات عرض اللحوم البشرية بأثمان مرتفعة، وإنسانية رخيصة- ليتساءلوا: من نحن؟ .. وماذا نريد؟ .. وفي ركاب من نسير؟ ... وهل يتسق هذا الذي صرنا بخداع الاستعمار إليه مع هذه الأصوات الجليلة من فوق رؤوس المآذن والتي لا تزال تهتف في أسماعنا.. بمقياس وملامح" هويتنا" نحن.. هويتنا وأصالتنا العربية الإسلامية .. وبمنهج نضعه، ونطبقه، ونشرف عليه .. في ضوء هذا العصر.. ومع مراعاة متغيراته .لتظل إرادتنا وقدوتنا على الاستباق نحو المستقبل حرة .. وراشدة!؟

لقد سقط المسرح الاستعماري في مناطق كثيرة .. سقط بتناقضه مع الحرية والأخلاق والعدل والعلم.. ويجب أن يسقط تمامًا في بلادنا.. ليس بعد أن يؤدي دوره ليقوم بعده من يؤديه، وإنما لكي ينتهي هذا الدور التمثيلي المخادع تمامًا .. لنستمر مسيرتنا القومية والحضارية، وتزداد وضوحًا وقوة، وهي تحقق مزيدًا من الانتصارات...

لقد سقط المسرح الاستعماري في مناطق كثيرة من بلادنا بعد أن ترك فيها جراحًا وآلامًا وقيمًا مضللة، ولكنه سقط.. وافتضح .. ويجب أن نستفيد من الدروس .. لقد سمعنا بالتأكيد عن مسرحية "لورنس شيخ العرب" الذي فادجيوش العرب لمحاربة الترك لصالح الإنجليز.. لورنس الذي لبس العباءة والكوفية والعقال.. وأخرج من بين البدو بطلاً أسطوريًا من عرب الأردن هو "عودة أبو تايه" .. وبهذا البطل الوهمي، المخدوع، انخدع كثير من البدو.. وأمكن في النهاية أن يدخل اختزال ؟؟ إلى فلسطين والقدس..

ويصبح الطريق مفتوحًا بانتداب الإنجليز – بعد الأتراك المسلمين – على فلسطين أن تبدأ الرواية الاستعمارية الأخرى لتحقيق الأمر الغريب جدًا

وهو إدخال البغل في الإبريق.. أي حشر الصهيونية باسم إسرائيل داخل ورغم وبذبح السكان العرب في فلسطين!!

ولقد سمعنا أيضًا عن مسرحية "جون جلوب" في الأردن أو "أبو حنيك" تلميذ لورنس، والذي بهذه الأمور بين البدو يعد خطوة لورنس مع الشريف حسين وأولاده — لكي تكون الحدود الطويلة شرقًا مع الكيان الإسرائيلي الداخلي مأمونة بقدر الإمكان. فمن هذه الحدود وحدها كان ولا يزال من الممكن إقلاق وإزعاج وإزاحة إسرائيل.. ولكن المسرحية كانت علاجًا لهذا المأزق مسرحية الاستعمار التي ألبست الإنجليزي الاستعماري جون جلوب ثوب البدوي، وعلمته اللهجة البدوية، وأتاحت له فرصة الجلوس الطويل في خيمة إلى شيوخ القبائل، وأبنائهم، ليصنع فيهم عملية تحول عكسي لشكل الحقيقة السياسية في عصرهم ، وذلك بتزييف جميع العناصر التي تتألف منها هذه الحقيقة.. وفي مقدمة هذه العناصر إزالة أي تخوف من جانب الإنجليز، ووضعهم في قلب الصورة المقدسة في أذهان البدو ليصبح الإنجليز ليسو أصدقاء العرب فحسب.. بل وأعظم وأحب أصدقائهم الذين يسهرون الليل، ويضحون بالمال وبأبنائهم في سبيل مصلحة "أقربائهم" العرب..!

لقد جلس جون جلوب ليالي ونهارات كثيرة ليزرع في نفوس البدو أن الإنجليز أصلهم من "قريش:!!.. ليست هذه مبالغة.. بل هي حقيقة مرة.. الإنجليز كما زعم جون جلوب المؤرخ الملفق للتاريخ الإسلامي العربي هم مثل حكام الأردن الذين يزعمون أنهم من قريش- من قريش أيضًا.. فكيف كان ذلك..؟!

اسمعوا العجب.. إننا نذكر بالطبع قصة جبلة ابن الأيهم أحد أمراء الغساسنة كما ترويها كتب التاريخ الإسلامي عن سيرة عمر بن الخطاب،

والتي تقول إن جبلة كان يحج في عهد عمر، فبينما كان يطوف بالكعبة وطئ إزاره رجل أعرابي، فلطمه جبلة على وجهه، فشكاه الأعرابي لعمر فأمر بالقصاص منه، ولطم الإعرابي الأمير الغساني اليمنى جبلة في قصاصه.. وأسرها جبلة في نفسه حتى واتته الفرصة ففر إلى أرض الروم، ولجأ إلى قيصر .. وتنصر...!

اسمعوا العجب الذي يرويه بدو الأردن، وقد سمعته من بعضهم... أن الأمير العربي جبلة هذا قد تزوج من سيدة رومية مسيحية بعد أن تنصر... وأولاد هذه الزوجة المسيحية هم الإنجليز.. هم أجداد الملكة إليزابيث .. رضي الله عنها!

هذا الجزء من المسرحية الإنجليزية في الأردن.. المسرحية التي وضعت حكام الأردن مع شعب الإنجليز وقادته في أرومة واحدة – ماذا كان أثرها في الشعب العربي الأردني، وبخاصة بين البدو الذين هم القوة الضاربة في الدولة؟ البدو الذين لم يحدثهم أحد بتصحيح الأكذوبة المسرحية الإنجليزية، ولم يلتفت منهم أحد إلى أن الأمير جبلة يمنى قطحاني رئيس من قريش.. وأن الإنجليز هنود أوربيين وليسوا عربًا..!

ولكن هل تبقى المسرحيات طويلاً؟ .. لقد أدرك بعض البدو في الأردن أن هذا الإنجليزي الاستعماري يكذب عليهم، ويربى الكوادر من أبنائهم على شرب الخمر، ويرشوهم بكافة أنواع المغريات.. ولهذا فقد تعرض لإطلاق النار عليه في موقف مباشر، ومرت الرصاصة في وجهه، فأعوج فمه وسموه من يومها تخليدًا لهذا الرد على الأكاذيب "أبو حنيك"....!

رواية أخرى قصها عليَّ رجل من قبيلة بني عطية التي تعيش إلى اليوم بين العلا وتبوك رواية بمعنى الخبر الصادق عن امرأة من قبيلة الشرارات ذهبت إلى أبو حنيك أو جون جلوب تطلب منه المساعدة في العثور على نياق

لها نفرت أمام بعض سيارات الجيش.. وكان جلوب يعني كثيرًا بأداة هذه الخدمات، ويجعلها وسيلة مشتركة للدعاية وبث الأخبار، ومعرفة الأخبار.

جاءت البدوية ملهوفة تسأل عن جلوب الذي أطلق على نفسه اسم "الصاحب" أي الصديق العربي القرشي لكل رب.. وعندما اقتربت من مخيمة سألت عنه بلهجتها فقالت: "وين هو الصاحب إلى يقولونه؟...." وأبلغوا "الصاحب" فورًا فجاء إليها يسعى مرحبًا، ماد ذراعية ببشاشة وهو يقول "مرحبًا بالخالة .. مرحبًا".

قالت وهي تقترب منه تتفرس فيه :" حلايب تبدي وخذن".. تعني أن "النياق الحلويات لأكبادها أي أولادها أخذن..." وكانت المرأة البدوية قد اقتربت منه تمامًا وهي ترى شعره الأشقر تحت الحطة أو الشماغ أو الكوفية، وتلمح عيونه الزرقاء شديدة الزرقة... قال وقد بدا عليه الاضطراب أمام ريبة البدوية فيه في حضور الناس: "أبشري يا خالة.." ... ولكن البدوية وقد روعتها غرابة ملامحه نسيت أبلها وقالت في استنكار صريح للإنجليزي الكذاب الذي مثل طويلاً على أرضنا، وبين ناس من شعبنها، دور الصاحب.. قالت المرأة الصادقة الشجاعة "هذي ما هي عيون صاحب.. هذه عيون عدو"!! وكلام آخر من معين هذا الصدق الذي تعيش به.. وتجاهد به.. وتنتصر به .. قالت هذه المرأة البدوية ..وغيرها... وغيرها... وكان لابد أن يسقط المسرح الاستعماري.. أو أن تهتز قوائمه بشدة ليسقط بعد أن افتضحت كل الأدوار... كان لابد أن تظهر المقاومة الفلسطينية الباسلة لتمحوا آثار أكثر المسرحيان.. والأكذوبات عن جبلة بن الأبهم الغساني.. أي الذي ينتمي إلى القبائل اليمنية القحطانية، وليس إلى قريش.. وتغسل الكثير عن أذهان الأردنيين الذين يطردون أخيراً أبو حنيك، وينتهون لمن بعده .. وكان لابد أن تكون المقاومة الفلسطينية مفتوحة لكل العرب..

وللأردنين في مقدمة العرب.. وأن يعبر العرب بالحرب أخدود الهزائم والمخاوف والأشباح الكرنفالية لقوة العدو.... ليحققوا بداية النصر في 10 رمضان 1393 .. تحت الراية نفسها... الراية التي سخر منها.. وخطط للالتفاف حولها أبو حنيك الإنجليزي المسرحي، الممثل، والمخادع، في كتابه المسموم رغم ما فيه من البريق، والذي جعل عنوانه "الفتوحات العربية الكبرى"... راية الإيمان.. راية العبور العربي: الله أكبر.

نعم .. من الحتم أن يسقط المسرح الاستعماري على أرض العرب.. مسرحه السياسي بمؤامرات التفوقة والتخريب .. وذلك المسرح الآخر الهابط الذي يقدم للعرب عقار الهلوسة .. وتخريب الفكر واللغة والعقيدة..!

أوهام المسرح:

كثيرة أذن هي روايات المسرح الاستعماري التي يمكن أن نتذكرها ونحن نتحرر، ونتوحد بالأصالة والعصرية.. في سيناء جرى بناء مثل هذا المسرح، وعمل عليه رجال أيضًا من المدرسة الكلاسيكية اللورسية أخرجوا عليه روايات عجيبة... ولكن المهم ونحن نتذكر كل إنتاج المسرح الاستعماري أن تقرر في جميع مناهجنا سقوط أشباحه الباقية بعوائها البشع في مجتمعنا داخل الأفلام الفاضحة، والمسرحيات الجانحة..

وربما كان من المفيد في ختام هذا الفصل عن المسرح الاستعماري أن نشير إلى عالم أوربي إنجليزي ظهر في القرن السابع عشر بعد أن هضمت أوروبا كل ما أمكنها استخلاصه من الحضارة العربية الإسلامية من منارة الأندلس، وبين مشاهد الحروب الصليبية وتروسها الدامية، وأهمها المنهج العلمي الذي جاء به القرآن وطبقة العرب، والذي يتناقض في نظرية القوانين وفي منهج التفكير والتعبير والحياة والعمران مع الفلسفة اليونانية وفكرها الخيالي نشير إلى فرنسيس بيكون الذي بسبب تأثره بالمنهج العربي، وما يتميز به من وضح التجربة الحسية موضع الأهمية في صناعة

البرهان على طبيعة الواقع، وعلى صحة القوانين المستمدة منه – أعلن رفضه للمنهج الفلسفي اليوناني القائم على "التجريد" و"الحدس" و"الظن" ... لقد أعلن بصراحة رفض المنهج التجريدي الذي عجز به اليونان قرونا عن التواصل إلى "العلم" وعن أداة الكشف عن قوانينه في الطبيعة التي فسروها بالخرافة، وعشقوا أنفسهم من خلال توهمت الحلول فيها، وسرقة خبراتها، والسكر بعصارة كرومها... لقد أسقط هذا المنهج في مقدمة محاولاته لتوجيه عنان الفكر الأوروبي باتجاه العلم، وصرفه عتما قادته إليه اليونان من متاهات الفلسفة..

يقول فرنسيس بيكون وهو يلخص رأيه في إسقاط المنطق اليوناني، كما أسقطه الأمام الشافعي من قبله بنحو عشرة قرون"إنه وإن كان المنطق اليوناني يجبر من يتابعه على التسليم بنتائجه الصورية إلا أنه لا يكشف في النهاية عن شيء جديد ، إنه ليس طريقًا للكشف العلمي، في الوقت الذي يبدو فيه وهو يجر "التجربة" من ورائه كما يجر الأسير" !!

من أجل العلم وبناء منهج عصر العلم، وعقلية الأوروبي العلمية، التي حققت للإنجليز السبق الكبير في ميدان الثورة العلمية والثورة الصناعية، بالاتجاه إلى الثورة بالفن الصناعي أو الثورة التكنولوجية، على كثير من الدول الأوربية، وبالذات على اليونان بلاد الأوليمب والسياحة التي تعيش حول ذكريات أرسطو وأسخيلوس والاكربول وراء أوروبا والعصر الحديث.. من اجل هذا الترشيد العلمي، وتخليص الإنسان الأوروبي من خرافات اليونان، وتنويره بحقائق عصر أوسع بالمفهوم العلمي من دائرة المصنع.. عصر يشمل بعلميته كل ساحات الحياة، وأنشطة الإنسان الإنسانية، وقدرته على الإدراك السليم، والتعبير القويم – وضع فرنيس بيكون منهجه الفكري الذي أهمّ أن يجعله وسيلة لتمكين الأوروبي من التصالح مع الطبيعة، ومن محاولة العلم الكامل بها، مع تيسير الوسيلة بمنهج استقرائي لتصبح العقول الإنسانية في مستوى واحد من حيث قدرتها

على تفسير الطبيعة، وبمعنى آخر تيسير نوع من اشتراكية العقول تجاه تفسير الطبيعة على أساس علمي إنساني، كالذي جاء به أساتذته العرب المسلمون، وليس على أساس فلسفي خرافي كالذي جاء به الهيلينون .. سادة الأسطورة والمسرح..

من أجل ذلك أوصى فرنسيس بيكون بالحذر من أوهام كثيرة.. أوهام تسبب الخلط في الفهم، وتؤدي إلى فساد فهم ما يسمعون.. وكان فرنسيس بيكون دقيقاً تمامًا، وصادق الإدراك العلمي إلى حد بعيد وهو يحذر من أحد أنواع هذه الأوهام التي أشاعها الفكر اليوناني الطبقي الخرافي في أرجاء أوروبا، والتي سماها في مذهبه الفكري الإصلاحي "أوهام المسرح"....!

لقد حذر فرنسيس بيكون منذ القرن السابع عشر من هذا المرض المضاد للعلم، وللرؤية العلمية ، وللبصيرة الإنسانية التي تلتمس التوصل إلى الحقائق العلمية من معين الطبيعة المتسقة بتدبير، والماضية إلى غاية.. هذا المرض هو "أوهام المسرح" الذي ربط بيكون أسبابه بكل وضوح بأثر المذاهب الفلسفية التي تبدأ بمقدمات خرافية، ثم تغرس أقدامها فيها، ثم تفتح فمها وتهذى باسم المعرفة .. بل والمعرفة العليا.. فهل يسمع أبناء حضرة العلم اليقيني في الدين، والمنهج العلمي في الحياة، لكي يتذكروا ماذا صنع بهم المسرح الاستعماري.. والاستعمار المسرحي.. فيتطهروا من "أوهام المسرح"... ويبرأوا منه مرض المسرح.. لكي نعبر عن حياتنا المؤمنة والجادة والصادقة .. عربيًا ... وإسلاميًا !؟

الفصل الثاني

وعندما نجحت الإرساليات في الغواية بالفن الأوروبي أغار الإنكشارية على تراث أوروبا وأصبحوا قصاصين

نجاح الإرساليات:

بعد سنة 1860 اقبلت الإرساليات الأجنبية على بيروت فأنشأت كثيرًا من المعاهد وأهمها كلية بيروت التي وكل أمرها إلى مستشرق قس يسمونه الدكتور فانديك، وعلى يد هذا الرجل تخرج أول فوج من الصحفيين الذين تألفت منهم طليعة الدعاية للفن القصصي الأوروبي، أي "الذهب المسبوك" كما يسميه مارون نقاش – داخل الأقطار العربية، وأكثر هؤلاء الصحفيين شدوا رحالهم إلى مصر، قلب الأمة العربية وعقلها، حيث تم إنشاء المقطم والهلال والأهرام، كما صاحبهم لفيف من المترجمين مثل أديب اسحاق ، ونجيب حداد ، الذي ترجم رواية إسكندر دوماس المشهورة "الفرسان الثلاثة" في أربعة مجلدات.

وفي أواخر القرن التاسع عشر حضر إلى مصر أيضًا كل من نقولا رزق الله، وخليل مطران، وطانيوس عبده، أما نقولا فالتحق بالأهرام، وعكف على ترجمة الروايات الأوروبية بأسلوب هين، فلما نجح الاستهواء عهد إليه بترجمة رواية طويلة تحت شعار "إبعاد الشباب عن مزالق الرذيلة" فقام في 30 نوفمبر سنة 1904 بترجمة رواية "سقوط نابليون الثالث" في أكثر من ألف صفحة، وقد أحدثت هذه الرواية أثرها المطلوب في أوساط الأدباء المصريين الذين كانوا يعانون أزمة الانفصال الطويلة عن جذورهم العربية في نماذج وصيغ التعبير الواضحة الرؤية للحياة والهدف، كما كانوا في أزمتهم أكثر قابلية لتغيير ازيائهم المهلهلة التي لا هي عربية ولا هي إسلامية، فسارعوا إلى استقبال الغزو الفكري والتعبيري الجديد، وفرحوا بما قدمه إليهم الغزاة من الحرز الملون، ولعب الأطفال، وتماثيل فينوس وكيوبيد رجوبيرا

لهذا فقد أعقب هذا الحادث القصصي ظهور نتيجة بين المقلدين فنشط عدد من الشباب المصريين لترجمة الروايات على هذا الطراز، وأنشأ أحدهم مجلة باسم "مسامرات الشعب" كانما كان هذا الشعب الذي يجر أغلال الاستعمار، وأغلال التخلف، والجهل بالقراءة والكتابة والعلم، والفاقة، قد بلغ من الحرية والرخاء حدا يتكئ فيه ويسترخى ليستمتع بمن يسامره!

وعاد نقولا رزق الله وقد حمى وطيس الترجمة إلى إخراج سلسلة "الروايات الجديدة" ولم يلبث ان أنشأ زميله طانيوس عبده مجلة الراوي التي أخذ يعرب فيها الروايات الشهيرة المليئة بغواية البطولة الخرافية داخل حياة أوربية بحتة تغيب وراءها شيئًا فشيئًا أية رؤية للحياة العربية في لغتها وعقيدتها وتاريخها من ذاكرة القارئ العربي، فأخذت تظهر وتنتشر هذه المخدرات المقروءة من امثال "باردليان وفوستا" و "الملكة إيزابو" مما أنير به أكثر ما في النفوس الراهنة، والمصروفة بالعجز عن واجباتها، من الانفعالات الرخيصة، حتى لقد كانت الأسلاك التليفونية تهتز من أطراف القطر لسؤال المترجم المحترم عن خبر الوقائع التالية من هذه الروايات ... ومن هذه الملاحظة نفسها نستطيع أن نحصر القطاع الصغير من مترفي الأقطار الكبيرة في المدن. "قطاع السادة الذين يحتاجون إلى من يسامرهم ويسليهم... مع يحتاجون إلى الاطمئنان إلى أن هذا "المخدر الخرافي" القوي جاهز لتخدير أي قوى شعبية محرومة من حق الحياة، وحق المساواة، وحق التعليم ، وحق التعبير بعيدًا عن الفرصة الطبيعية للتجمع الواعي من أجل انتزاع هذه الحقوق من السادة فرسان الإقطاع، وسكان القصور، من المستمتعين بخرافات باردليان وفوستا، وعائشة أو هي والفرسان الثلاثة!

ثم كان للجعبة أن تفرغ، لأن التركيز لمهمة الإرساليات الأجنبية كان على الأنواع الرخيصة من المخدرات القصصية، فلم تنشأ الكتابة القصصية بالتفكير الخيالي الأوروبي نتيجة إرادة شعبية يحبها شعب محقق لتراثه وذاته، وصادق التعبير عن نفسه وحريته وعقيدته وأهدافه إلى الإطلاع والدراسة التحليلية والنقدية لآداب الشعوب الأخرى، حتى وإن كانت الشعوب الأوروبية... وإنما كانت هجمة التبشير بآداب أوروبا الوثنية مخططًا استعماريًا على أساس انتزاع هؤلاء العرب من ذاتهم، استهوائهم بالخرز، واللعب، والخمر اليونانية القوية بدلاً من خمير جوز الهند، لحساب التبعية المطلقة والعمياء للأوروبيين.. الذين هنا نحن هؤلاء أهم وقد علقوا هذا الخرز نفسه على جباههم،وهم يسيرون في أجيالهم القمصية الضائعة في أشكال قبائل جديدة للضياع... قبائل "الهيبز" أو "المرقين" داخل سراويلهم المرقعة للتعبير بالرمز عن أزمتهم النفسية التي ذهبت بوابهم .. وحلت بالسكرة الأخيرة لمدنيتهم .. مدنية الخرافة والخمر والحنا..!

فرغت الجعبة بالضرورة في أيدي السحرة من طلائع القصة الأوروبية، فانقبضت أيدي المترجمين عن موالاة المدنين بمطلوبهم، وكان الداء قد تنبه في مجموع المتعلمين من أبناء الطبقة في المدن، وهم لا يجاوزون جزءًا من الواحد في المائة، وكانوا وهم في الفراغ المسوم لهم لا يجدون مجالاً للانتفاع بما تعلموه، فأقبلوا على قتل الفراغ بقتل عقولهم وفضائلهم، وفضائل شعبهم، وعلى هذا فقد نشط منهم من أداروا عجلة الترجمة من جديد فظهرت أنواع جديدة من القصص المصنَعة محليًا أي القصص المغشوشة رغم أنها تحمل العلامات التجارية الأوربية، فهي علامات مزورة كهذه التي يحترف الآن تزويرها تجار الشنطة والسلع الترفية المستوردة في مثل شارع الشواربي، استمروا في نفس خطة الإلهاء والشغل والتخدير

بالتوافه.. وهكذا ظهرت مجلات تنشر قصصًا من أمثال وقائع نقولا كارتر واللص الشريف وهوكر... ومخترعات حافظ نجيب الخ!

ثم لم نكد تنتهي الحرب العالمية الأولى حتى كان الطفيلي القصصي الخيالي قد كبر في أحشاء العقلية الأدبية الأوربية الخرافية السائدة، وأصبح بعد الحرب طفلاً "يوأوى" ويطلب الرضاعة... يطلب مزيدًا من الأفيون والحشيش القصصي صناعة وتوجيه وتخدير بلاد بره!!

أضغاث الأحلام:

ومع الأيام والحضانة كان طفيلي القصة يكبر، وتصبح له أسنان.. ثم مع انتشار التعليم على الأساس الأجنبي الانفصالي بين المدني والديني كما وضعه الإنجليز – كان صوت القصص الخرافي يعلو، ويدخل في متاهات أكثر توقرًا وإيهامًا بالجدية، والتحليق إلى مستوى الأدب الرفيع. ومع ذلك فقد كانت قواعد المخطط الأول مستمرة ونشطة تحت كل الشارات، وهي تأليف القصص داخل قنواتها أو قواعدها الخمس لتكون قصصًا :ضد العرب، وضد الدين، وضد اللغة العربية، وضد التاريخ، ومع المدنية الحديثة.. ولكن بمفهومها الأوروبي!!

بهذه القواعد سادت موجات القصص في كل اتجاه عشوائي، بعيدة عن رقابة الشعب، وبعيدًا عن دراسة أمينة لهذا الأدب، وبغير محاولة لافتعال محاكاة الصدق – إن كان هذا ممكنًا قبوله بديلاً من الصدق – في إنتاج لا يتجه لخدمة أهداف الشعب المصري والأمة العربية، ولقد كانت القضايا حتى فيما كانوا يتشبهون به بالمذهب الواقعي، ومسرح المشكلة، ستارًا لما يتخلل ركاكتها من الدعاية المضادة لمقومات قيام المجتمع السليم بغير طبقة، وبغير تخلف، وبغير استغلال، وعلى أسس الدين واللغة،

والقومية والوحدة والعصرية بمفهوم الإرادة الحرة في حركة الانفتاح بالأصالة العربية على العصر المتحرك والمتغير..!

واستمرت الأحلام، أو أضغاث الأحلام، تظهر كالهذيان في الروايات الأجنبية المترجمة.. أحلام نستوردها من غابة الظلام والجليد الأوروبي حيث يرفعون شعار" محاربة الجوع والموت".. ويطلبون الخلود حتى من طريق السحر وتحضير الأرواح .. نعم في هذا العصر الحديث.. لأن الأوروبي الجائع لا يريد أن يتخلى عن سرقة الشعوب .. ولأنه يستمتع بخيرات شعوب الأرض الدافئة والخصبة والمضيئة.. فإنه لا يريد أن يموت!

نعم.. وصلت إلينا أوهام رايدر هجارد في قصصه الخرافية عن طلب الخلود مثل "بياتريس" و"كليوباترا" وعائشة أوهي" .. كما وصلت أضغاث الأحلام التي تطلب الخلود أيضًا من طريق القوة البدنية مثل قصص "طرزان" التي سحروا بها مجتمعات الشعوب الملونة، التي لم تكن تحس في مخدر هذه القصص أن "طرزان" ليس إلا رمزًا للأمنية غير الأخلاقية وغير الإنسانية التي تصعد نفسها من أعماق التخطيط الشرس لمستقبل الاستعمار في هذا الرمز الخرافي "طرزان " ابن أوروبا.. ابن الطبقة وسليل عصر الملوك والإقطاع والرأسمالية والاستعمار الذي يعطي الإشارة إلى أفريقية السوداء..

أرض المستقبل للإنسان الأبيض عندما تضيق أوروبا بسكانها .. وطرزان يعطي في نفس الوقت منهج هذا المستقبل وهو القدرة التي يدخرها هذا الأوروبي غير الإنساني لترويض الأفارقة القرود والوحوش من أجل أبادتهم.. والحلول محلهم .. من أجل محاربة الجوع والموت .. ثم الخلود .. الكاذب !!

فهذا هو الحوار بين أوروبا الاستعمارية وبين ضحايا المستقبل.. أوروبا الوحش الذي لازلنا نجد من يسجدون له في معبد أكاذيبه .. إذا كنا .. والحمد لله نجد بيننا دائمًا من يفطنون إليه، ويحسنون الحوار معه بالإرادة العربية المؤمنة الحرة... كما حدث ذلك في تاريخنا مرارًا، وعند الحاجة .. كما حدث عند ظهور مثل صلاح الدين، وعرابي، وجمال عبد الناصر، وأنور السادات لمواجهة أوروبا، والحد من أطماعها، باللغة التي تفهمها .. مع العمل على بناء الإنسان العربي باسترجاع أصالته له، وإيضاح هدفه إليه، وفتح الطرق أمام تحقيقه العظيم لذاته من خلال تعلمه وكفاحه وتقدمه..

الغارة الإنكشارية:

وكان لابد وقد وقع أكثر المتعلمين في الشتات، وتاهوا عن هويتهم قبل الثورة، وأحس أكثر الجيل الناشئ بعد الحرب العالمية الأولى، ومع وطأة الأحزاب، نشاط رسالة "المدنية الأوربية" في الجامعة، وسفور حملة التشكيك القاسية والظالمة التي قادها طه حسين في كتبه وفي الصحف وقاعات المحاضرات لإسقاط أهم المسلمات العربية والإسلامية، وهو ينكر صحة قصص القرآن عن إبراهيم ويتمحض في كتابه "الشعر الجاهلي" وما تلاه من منهجه عن هذه "الأقاويل الخرافية" التي عاش يموج بها تارة، وينحسر عنها تارة أخرى.. حملة تشبث الغريق بهدم مقومات هذه الأمة، وتراث أسلافها، وطمس شريعة حياتها – كان لابد من أن يندفع عدد غير قليل من إنكشارية صغار المؤلفين والمتأدبين ومن كبارهم، وإن لم يكن من السهل تعقب سرقاتهم – للإغارة على أرخص ما في التراث الأوروبي من القصص، ونسبته إلى أنفسهم .. فالقصة لم تكن قضية "أدب رفيع" يعكس ملامح وآمال شعب بقدر ما كانت هذه الهجمة الإنكشارية على مستودع مباح علنًا بكل الإغراء.. مستودع الحشيش القصصي الأوروبي

الخرافي.. الذي تركه الاستعمار يقع بسهولة في أيدي هؤلاء "المحرومين" مما يعبرون به عن أنفسهم ، ليسهل فرحهم به كغنيمة .. كما كان جنود الاحتلال يبيحون في كثير من الأحوال سرقة معسكراتهم، ليتلهى الشعب الجائع بما فيها، ولتموت فكرته عن مقاومة جنودها.. وإن كان ما كانوا يحذرونه قد وقع تمامًا عندما انقض الفدائيون المصريون في جيل الثورة وأزعجوا الوجود العسكري الإنجليزي في مصر مقدمة لخروجهم.. نعم كان لابد في طبيعة هذا الشعب أن يصحح أخطاء المنحرفين أو الضائعين من أبنائه .. فتظهر بعد شراذم اللصوص والمرتزقة — كتائب المجاهدين والملتزمة!

نعم .. ففي مرحلة تماثل مرحلة التفريخ ، والهذيان بأعراض الحمى، فوجئت مصر فجأة بظهور إنتاج ضخم من آلاف القصص "المسروقة" أو المنسوبة بالترجمة إلى روائيين أوربيين مشهورين تظهر به في كثير من الصحف والمجلات اسماء أدباء عظام، وقصاصين ملهمين ، يطلقون على أنفسهم تمجدًا وفخرًا أسماء "ديموسيه الشرق" و "موباسان مصر" و"جوركي النيل" أي من أمثال عاطري الذكر محمود كامل المحامي وأدوارد سعد عبده، وطاهر لاشين، ومحمود تيمور، وغيرهم وغيرهم .. كثيرون!

لقد كانت حرفة سهلة، ومريحة مع الشعور بالعظمة، المفاجئة ، والانخراط بحيلة رخيصة في سجل المزعوم خلودهم.. فما أسهل ببعض أعمال النشل الأدبي، وخفة يد القلم المحروم، وبمعرفة لا تتجاوز معرفة الترجمان عند الهرم باللغات الأجنبية تسمح بتغيير الاسم من أرمان إلى حسن، ومن ايرين إلى سلمي .. أن يصبح أصغر فنان ناشئ على قهوة أديبًا خالدًا!

على سبيل المثال المتواضع فقط نذكر أن موياسان مصر نشر في مجلته قصة له بعنوان "ابنة الشارع" في سنة 1934 مع أن هذه القصة نفسها نشرت ترجمتها عن القصة الأوربية الأصلية في إحدى مجلات دار الهلال في نفس السنة تحت عنوان "ضحية المجتمع" من القصص الإنجليزي .. والفرق لم يكن أكثر بكل بساطة من تغيير في العنوان وأسماء الشخصيات..!

ولم يكن ذلك قاصرًا على الصغار من الأدباء فقد ظهرت مفارقات كثيرة من هذه الإغارات لأدباء كبار يحسنون لغة أوربية على الأقل مثل إبراهيم المازني الذي صنعن نفس الشيء بالنسبة لقصة إنجليزية نسبها إلى نفسه، ثم تطوع أحد أبناء الحلال فنشر الأصل المسروق والترجمة التي انتحلها المازني في كتاب واحد لإثبات هذا السطو المباح لسد الفراغ... وأي فراغ !!

حدثني الأخ والزميل حسن عبد المقصود المحرر حاليًا في جريدة الأخبار من ذكريات شبابه عن هذه الإغارات الإنكشارية التي أسهم فيها بحسن نية إلى أن تاب وأناب والحمد لله فرجع إلى منابع الأصالة في القرآن والتراث دينًا وقصصًا وأدبًا – فقال إنه كان يعمل في سنة 1926 وما بعدها في مجلة "السياسة الأسبوعية" ، وأنه جريا على مرض السرقة الذي يصيب العظماء أحيانًا، والذي ظهر في تلك الفترة وما بعدها كوباء أصاب الأدباء والمتأدبين – فقد نشر في هذه المجلة قصصًا كثيرة من وضعه واختراعه كانت من وجهة نظر، إلى الفراغ المحيط به "متنفسًا" عن متاعب حياته الأولى، وتحيرات عقله، وآمال نفسه، وانه كان لا يجد صعوبة أبدًا في ذلك العهد في أن يوقعها باسم مستعار له وهو ينسبها إلى "فيكتور هوجو" لتجوز على السياسة الأسبوعية من غير عناء، إذ تجد في اسم القصاص الفرنسي الشهير "علامة تجارية" تضمن الرواج للسلعة التافهة..!

علـى أن الأمـر أصـبح مـع الـزمن أكثـر يـسرًا في اختـراع القـصص المنسوبة، وذلك حين اهتدى الأخ حسن إلى ان يتجاوز اختراعه القصص إلى اختراع الكاتب القصصي نفسه، فأصبح يوقع مترجماته المزعومة باسم الكاتب الفرنسي الكبير "موريس فاليه".. الذي لا وجود له أبدًا في الواقع.. أعجب ما يحكيه الصديق من ذكريات عهد الغارة الإنكشارية نحو الإدعاء والانتحال والتأليف أنه فوجئ يومًا ما بأحد أصدقائه ينشر في مجلة أخرى قصة غريبة منسوبة إلى المؤلف الذي لا يعرفه أحد سواه، لأنه هو الذي اخترعه سرًا وهو هذا الموريس فاليه!.. على أنه أعجب من هذا العجب أيضًا أنهما وهما يتذكران ما وقع أن يصر القصاص الإنكشاري أمام صديقه حسن عبد المقصود على أن موريس فاليه، وحق جوبيتر.. قصاص فرنسي عظيم.. مثل فيكتور هوجو تمامًا الذي يعرفه المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل الأديب والمتذوق للأدب الفرنسي منذ كان رئيسًا لتحرير السياسة الأسبوعية عندما كان حسن عبد المقصود ينشر تحت إشرافه، ودون أن يميز الدكتور هيكل بين أدب هوجو وبين مخترعات شاب مصري ينفس عن نفسه.. بل وكان يؤمن ربما بأن موريس فاليه كان قصاصًا عظيمًا أيضًا .. من أدباء المدرسة الرومانسية مثلاً.. ولماذا تتزمتون!؟

ثم على المكشوف:

وكان لابد أن تتخلق في هذا التيه الخرافي الوضعي اتجاهات فكرية سافرة تبدأ في الإعلان عن التزامها المذهبي بمعتقدات أوروبا التي تعزل الدين عن الحياة والسياسة، وتصنع لها دينًا سياسيا جديدًا له مفهوم الحادي شرقي، أو مفهوم الحادي غربي... وهكذا نشط في مقابل الاتجاه الرأسمالي ذلك الاتجاه الشيوعي تحت عنوان دعوة جذابة للاشتراكية من طريق الإلحاد، وليس كما عاشها المجتمع العربي عصورًا طويلة بأسمائها

الصحيحة عن طريق الدين، وتحت عنوان الإيمان .. وفي صورة تقاسم المؤمنين المتساوين – أموال الله في أيديهم، حقًا مكتوبًا وحقًا سائدًا..

في كثير من الصحف، وفي صحف بعينها، امتد هذا التفكير الخيالي القصصي داخل مخيم جديد للهجوم السافر على الدين، والساخر من الرجوع إلى الدين، وتحت شتى العناوين النضالية التي يتم تحتها الخلط والتناقض، والعدوان على المقومات مثل "العالمية" و"التقدمية" .. وظهر مثل "المجلة الجديدة" التي أصدرها من قبل سلامة موسى، ومثل "الطريق" و"الطليعة" و"المكشوف" .. وأصبح الإلحاد المستورد، الإلحاد المسلح بإيديولوجية، وخطط باطنية، وأسلحة جدلية، وظلال قائمة بالإرهاب الدولي يسقط من بعيد على مجتمعنا النامي من معسكر شيوعي أوروبي قوي- أصبح هذا الإلحاد على المكشوف – واحدة ممن أخطر ثمار التحول بالمجتمع من خلال المراحل التي غزاها الاستعمار قبل الثورة أصبح هذا الإلحاد جلطة حقيقية في شرايين التقدم.. وعقبة بالغموض والتعالم السياسي أمام الطريق الصحيح لبناء مجتمعنا العربي الإسلامي.

وبهذه الجلطه الإيديولوجية المتسربة في العالم من حصاد العصر القصصي الاستعماري بلغنا مرحلة التعادل بالفكر الأوروبي الغريب على أرضنا بين من يرفعون راية الإلحاد الإيديولوجي الصريح أمام مخططهم الغامض عن العدل الاجتماعي باسم اليسار – وبين من يبطنون تحت راية "ابتعاث المحاكاة للغرب الرأسمالي" برنامج الإلحاد الاجتماعي الصريح، ومخطط الاستغلال الطبقي بمزايا التقسيط المريح، من خلال مخدر الرواية الخرافية، ومسرح الهلس.. وشوارع تملأها شوارب وهدايا ومقومات ومورفينات الشواربي .. باشا باسم اليمين!

هذا بينما يملأ صوت القرآن الكريم الآفاق، ومن مسجلات من شوارع الشواربي نفسه، ربما ليلعب دوره – كما يريدون في التهدئة

النفسية والعزاء وليس كما هو في رسالته رسالة الإيمان والتنمية العلمية والاجتماعية.. والرخاء.

ثم لقد كان هذا كله خلال مراحله الطويلة قبل الثورة يحكي حكاية الصحف، والمسلسلات القصصية، وروايات مسرح الاحتلال الهابطة، وهي تسير مجندة، وزاحفة ، لإحداث عجلة الانقلاب الفكري في حياة المصريين من أهل المدن باتجاه ضرب الوطنية، والقومية، والعقيدة ، مع كل جذور الإنسان العربي لكي يتحول إلى شبه إنسان ضائع، بغير هوية ولا أصالة، ولا عقيدة، ولا شريعة، ولا آداب للمجتمع، أو آداب في الثقافة.. إنسان كان يرى وهو في ثوب "الباشا" أو "العمدة" أو "تاجر القطن" أو "خريج أكسفورد أو السوربون" .. أو وراء هؤلاء .. أن معادلة حياته تظل صحيحة بقدر ما يجمع بين النمط الأوربي في الحياة، وفي التفكير ، وفي الأطعمة، والملابس واللهو.. وبين مفهوم المدنية والتقدم في ظل التحالف مع الاحتلال والاستعمار .. الأوربي أيضًا!

لقد كان هذا كله يحكي مواقف وظواهر بغير جذور على سطح المجتمع العربي السابق، حتى جاءت كلمة الله في كلمة الشعب.. وقامت ثورة جديدة سنة 1952 لتحقق خطوة أوسع، ورؤية اشمل.. وبدأت الصحف القادمة مع المد الاستعماري تخلع ثوبها، وتتجدد، وتصبح ولو في ظاهرها في ملكية الشعب.. وتعمل أساسًا في موضوع واحد هو تحرير وترشيد وتنمية هذا الشعب على أساس جذوره في العروبة، وجذوره في العدل الاجتماعي المستمد من عقيدته، ومن آماله في الوحدة التي هي درعه وسلاحه لمواجهة أعدائه في الدفاع عن أرضه وحريته، وعن دينه، وتقدمه... في صحوة يشرق بها تقدم العرب كلهم فوق الخمر، وفوق الأساطير، وفوق الخرافة والإثارة والمسرح!

الفصل الثالث

تحذيرات عصرية تدين القصص الخيالي
من علماء وأدباء أوروبيين وعرب

المواجهة قائمة:

لم نكن بعيدين عن الصواب ونحن نناقش قضية الفن القصصي الأوروبي الخيالي في هذا الكتاب، ونضعه – كما هو – بكل مخاطره، وأهداف المروجين له، في مواجهة المنهج القرآني في قصصه، وفي بيانه، وفي منهجه التعبيري بالخطاب المباشر الذي هو المنهج العربي فيما أكده التراث، وفيما حملت به الحضارة العربية خصائصها وعطاءها لنفسها، عبر كل العصور وللعالم..

إن هذه الأهداف المضادة للمنهج القرآني، وللأصالة التعبيرية العربية، هي أيضًا في أذهان واهتمامات واتجاهات الكثيرين من الأدباء العرب واضحة لهم تمامًا.. وقبل أن تسجل في هذا الفصل أصوات وآراء وتحذيرات الكثيرين من علماء وأدباء العصر عربًا وأوروبيين – من المخاطر العقلية، والأمراض النفسية والاجتماعية، زيادة على تفكك الشخصية القومية، وانهيار اللغة والآداب في انتشار وباء القصص الخيالي الأوروبي – تقدم هذا المثال من أمثلة وعى التضاد لمنهج القرآن التربوي والقصصي، والترويج لعكسه، وإعلان الحرب الدعائية الظاهرية والخفية عليه في كلام أحد أعلام القصص في مصر وهو الكاتب محمود تيمور الذي نشرت له مجلة الشئون الاجتماعية في العدد الرابع من السنة الرابعة نص محاضرته التي ألقاها على بعض طلبة الأزهر وعنوانها "أثر القصة في التربية"..

يقول محمود تيمور في هدفه المباشر من المحاضرة: "جاءت الكتب السماوية بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وكانت المواعظ التي تبث، والخطب التي تلقى تتخذ شكل الترغيب والتحذير، والوعد والوعيد، في

أسلوب صريح، ومنحى واضح، فهي تمثل الطريقة المباشرة في الوعظ والإرشاد"!

ثم يتثنى محمود تيمور ليؤيد أسلوب القصص الأوروبي الخيالي في التربية ويراه هو الأفضل، وينسب فضل هذا الأسلوب – بأسلوب مباشر – إلى نفسه وزملائه فيقول : "إلا أن جماعة من أهل الرأي فطنوا إلى وسيلة أخرى لبلوغ هذا الهدف من طريق غير مباشر، دون استخدام الحض الصريح، والتنفير المكشوف، فكانت القصة الفنية مظهر هذه الوسيلة، وهي وسيلة في العرض والتعبير تفعل في النفس اكثر من الوعد المباشر، أو الوعيد المباشر"!!

وتلخيص ما أراده محمود تيمور من كلماته الدعائية للفن الأوروبي وأهدافه مجتمعة يتحدد في هذين المعنيين بغير لبس أو إبهام:

1- منهج القرآن الكريم، وهو نهاية ما يصل إليه البيان العربي لا يتمشى مع الفن القصصي الأوروبي الخيالي..

2- هذا المنهج المباشر لا يفعل في النفوس مثل ما تفعله القصص الخيالية والملفوفة التي لا تستعمل الحض الصريح والتنفير المكشوف!!

وطبعًا.. لم يتحدث محمود تيمور في محاضرته عن وجه المقارنة أو المباينة بين أهدافه هو ورفاقه من قصصهم المقتبس من آداب الغاليين الأوروبيين غير العرب، وغير المؤمنين، وبين غايات الدعوة والشريعة في منهج القرآن الكريم.. المباشر!؟

ولم يتحدث بالضرورة عن مدى حرجه، بل وفزعه ، لو أن الأسلوب المباشر قد عاد ليستقر في منهج الأمة العربية التعبيري، كما هو خصائصها وأصالتها إذا ما اتجه ضوء هذا المنهج المباشر إلى شخص

محمود تيمور في عمومه وخصوصه.. لينفذ بشاعة الكاشف إلى الكثير مما يحب أن يخفيه من أخطائه وضعفه، بعيدًا عن الحض الصريح على الاستقامة، والتنفير المكشوف من العيب!!

كان هذا في الأربعينات .. ولا يزال نفس هذا الصوت يرتفع متبجحًا بنفس هذا الهدف الذي يدمدمون به في كبرياء الدعي، وغيظ المأزوم. ففي السبعينات في 3 مارس 1976 يكتب كاتب الأوهام والأباطيل لويس عوض في بعض أباطيله، وتحت عنوان "المدنية لا تتجزأ" وهو يعني بالمدنية "أوربا" وخدها شكلاً وموضوعاً، وطولاً وعرضًا، وخيرًا وشرًا، ثم يسب كلما استطاع -مدنية الأمة التي ينتمي إليها، المدنية التي يسميها باسم العار المنسوب لسيدته أوروبا، والذي يلحسه وينساه.. يسميها باسم "العصور الوسطى" عصور ظلام أوروبا.. وأضواء وأنوار الوطن العربي على العالم!

إنه يكتب أو يهلوس فيقول من أحزانه المبرنطة والمرفهة من أجل دار الأوبرا المصرية التي احترق ومعها ذكريات عزيزة جدًا على لويس عوض تخص الخديو إسماعيل شخصيًا، والأمبراطورة أوجيني، وذكريات الميجل "فرعون" في قصة عابدة لفردي.. وأيضًا ذكريات عن عبثيات الملك فاروق في صالونه الخاص والسري جدًا لشئون الدولة الترفيهية العليا في دار الأوبرا كما يعلم كل من اشتغلوا بها، ألموا بأسرارها الدرامية مع حسناوات الفرق الأوربية المستوردة!!

يكتب لويس عوض في بعض هزاره السمج ليقول متظارفًا وثقيلاً جدًا في رواية أحزانه من أجل الأوبرا لا من أجل تعليم الفلاحين، وكسر عائق الأمية، وإعادة بناء القرية، ودعم اقتصاد مصر، وتنمية مواردها — فهو يقول: "إني منذ احتراق دار الأوبرا في سنة 1971 وأنا كلما قابلت إنسانًا متمديناً — يعني أوربيا — جددت معه هذا السؤال: كيف السبيل إلى

بناء دار جديدة للأوبرا؟ - يعني في مصر - وعندما كنت في أمريكا منذ عامين خرجت من كونسير للعازف "اسحق شترن" وحبست نفسي في بيتي أربعًا وعشرين ساعة كتبت فيها بالإنجليزية نداء لمثقفي العالم لإنشاء صندوق دولي لأوبرا القاهرة الجديدة: وطلبت مني جريدة لاس إنجيلبس تايمز هذا النداء لنشره، ولكني ترددت ثم مزقت أوراقي وألقيت بها في سلة المهملات . وفي روما في العام الماضي تكرر نفس هذا الموقف. وكنت دائمًا أتراجع لأني في أعماقي أعرف أني رجل بغير صفة، فلم يكلفني أحد لأتكلم عن أحزان وطني، ومن فيه من المتمدنين - أي من موالي الثقافة والمدنية بمفهومها الأوروبي- " !!

ثم يقول مسترسلاً مع أحزانه وأحاديثه مع أصدقائه في أمريكا ومنهم إسحق شترن: "قال صاحبي الأمريكي: وما حاجتكم إلى دار الأوبرا؟.. أجبت : دار الأوبرا عندنا رمز ومؤشر .. هل يسأل سائل: وما حاجتكم لهرم خوفوا أو لمعبد أبي سمبل؟ هي رمز اتخذناه منذ مائة عام - أي بتاريخ بدء التدخل الأوروبي في شئون مصر في عهد الخديو إسماعيل والذي انتهى إلى الاحتلال الإنجليزي - رمز نستدل به على أن مصر جزء من العالم المتمدن - أي قطعة من أوربا كما كان يحلم الخديو إسماعيل - ودليل على أن جسور الفكر والفن والثقافة بيننا وبين الشعوب المتحضرة - أي أوروبا وأمريكا - قائمة لا تتقطع، وهي مؤشر إلى أننا نتقدم إلى الأمام، ولا نعود إلى العصور الوسطى" !!

وهذا هو المهم عند كاتب الأباطيل، ورجل الأحزان من أجل الأوبرا ، وليس من أجل قيام شعب مصر بفلاحيه وعماله ومثقفيه على مقوماته الأصلية وليس الدخيلة.. المهم هو التراقص والاختلاج على أنغام موسيقى الجاز، وأوبرا الطبقة، باتجاه أوروبا .. بعيدًا عن أي قنوات يجب أن تهدمها

بإرشاد لويس عوض كما هو تفكيره دائمًا وكما هي عقدته – بيننا وبين الحضارة العربية الإسلامية .. التي ظهرت لتضيء العالم بمنهج حضارتها العالمية والإنسانية في الوقت الذي كانت أوروبا في العصور التي سمتها "الوسطى" تخوض الظلام، وتركع تحت المظالم - حتى أيقظها، وأنقذها : العرب المسلمون، فقامت تغير بمنهجهم العلمي منهجها الخرافي الأسطوري والأوبرالي .. ذلك المنهج الذي يعض عليه الآن بأسنان عقله المتمدين جداً – كاتب الأباطيل، وشبح العصور الوسطى الأوربية .. لويس عوض!!

الهستيريا القصصية:

في الرد على أمثال هؤلاء الكتبة ممن يمثلون بعض أحزان مصر الحقيقية يقول أحد علماء النفس المعاصرين عن القصة بمفهومها الخيالي الأوروبي وهو "بول باوزفيلد" في كتابه "مبادئ التحليل النفسي" وهو يحذر من القصة : كتابة لها وقراءة ، أو تعلقاً بمشاهدتها على المسرح:

"جميع من يكتبون القصة هم من ذوي التفكير الخيالي والتفكير الخيالي تفكير غير موجه، والخطر في الإفراط فيه يشبه خطر إدمان المورفين، كما أن فيه كل مساوئ وأضرار العادات، لأن هذا التفكير لا يمكن أ يظهر في نفس الوقت مع التفكير الموجه أو التفكير الحقيقي، وينبغي أن نتبين أن التفكير الحقيقي هو الأصل في تكوين الاخلاق، وفي التقدم الجوهري للعالم"!

ثم يقول : "إن اهتمامنا عند قراءة قصة ليس إلا نوعًا من التفكير الخيالي تخلط فيه أنفسنا بالبطل، ومثل هذه العملية الخطرة تحدث لغالبية الناس الآن في المسارح ودور السينما، وهي في متناول اليد لمن يملك ثمنها الزهيد"!

ثم يقول "وقد يظن البعض أنها مفيدة للمجتمع من حيث ناحيتها التعليمية ولكن القضاة الذين يشتغلون في محاكم الأحداث يعرفون مقدار ما تسببه السينما في الأذى لعقل الطفل. ولا شك أن الآثار النفسية لهذه المخدرات العقلية ضارة بالغريزة الجنسية عمومًا أبلغ الضرر، والإفراط فيها يشجع عادة التفكير الخيالي بثمن زهيد ومثل هذه العادة تصبح مع الوقت جزءًا من كيان الفرد. فالسيناريو مثل الأحلام، ومثل الهستيريا، ليس إلا التحقيق الخيالي لرغبة ما عند المتفرج أو القارئ. ولا يقف الضرر عند هذا الحد، فإن الخيال يتجه في هذه الحالات إلى تحقيق رغبات مستحيلة، ورد الفعل العاطفي لهذا الخيال يرتفع كثيرًا عما يقابله من الأسباب الحقيقية المثيرة لهذه العاطفة ، فينتج عن هذا أن لا يقع التأثر العاطفي أو "المنصرف العاطفي" في موقعه الملائم من العقل الباطن، وهذا هو أساس كثير من الاضطرابات العصبية"!!

والانحلال العقلي:

ثم يستأنف بول باورفيلد في تحليله الدقيق والقاسي على أحلام مثقفينا المهسترين بالتفكير الخيالي في الرواية والمسرح هربًا صوفيًا من مواجهة الحقائق وعجزًا أليمًا عن التصرف بالتفكير الحقيقي حيالها.. فهو يقول "إننا هنا يجب أن نذكر أن الاضطرابات العصبية قد لا تصيب الأفراد فقط، بل أنها غالبًا ما تكون مرضًا يصيب الشعوب! وفي ضوء ما سبق نعلم أن الصحة العقلية للأفراد والشعوب يمكن أن تصان إذا احتفظ الفرد، أو الشعب، في الوعي بحقائق الحياة اليومية سواء أكانت هذه الحقائق سارة أو مؤلمة"!

ثم يقول: " إن التفكير الخيالي يتضمن دائمًا ضغط كل التفكير الحقيقي الذي يسبب الألم، فهو تجنب الحقائق ببديل لا يمكن تحقيقه"!

ثم يقول: "ويمكن منع هذه الحالة الخطرة، أو على العكس يمكن تشجيعها في الطفولة، حيث أن القصص الخيالية تعد في حياتنا "الأوربية" من امتيازات الطفولة، ولكنها في الواقع، وبرغم الفكرة الزائفة عنها هي آفة الأطفال المهلكة!!".

ثم يقول "وقد يسأل الإنسان نفسه ماذا عسى أن يكون من أمر الطفل الصغير لولا القصص الخيالية؟ وإن أمه "الأوربية" لتقص عليه واحدة منها كل مساء، فأجيبه هنا بأن الأم في كل مساء تربي في أبنها المسكين عادة تجنب الحقائق، وتشجعه على الاستعاضة عنها بخيالات قد تعرضه في المستقبل للكثير من المصائب والآلام !!"

ثم هو ينصح الآباء الأوربيين في ضوء أهمية "التفكير الحقيقي" وأخطار التفكير الخيالي فيقول من كلام لعله يفيد شيوخ القصة الكبار في بلادنا: "إن واجب الآباء في ضوء هذه الحقائق أن يجعلوا للتصعيد فرصة في تحويل القوة النفسية، فإن الطفل— مهما قيل من شأنه — يمكن أن يعتاد التماس اللذة من "التفكير الحقيقي" بنفس الطاقة التي يلتمس بها تلك اللذة الضارة من خيال القصص الخرافية، ذلك لأن هذه القصص على الرغم مما فيها من إشباع رغبة التمتع عند الطفل لا تؤدي إلى شيء غير الانحلال العقلي"!!

وهكذا فإن ثمار المنهج العلمي الذي كان بعض عطاء الحضارة العربية الإسلامية تعود إلى الأمة العربية على أقساط من علوم مختلفة في هذا العصر، ومنها هذه الحقائق التي تؤكد سلامة المنهج العربي الإسلامي والقرآني في "التفكير الموجه" و"التفكير الحقيقي" الذي يعكس الواقع الحي كما هو في صدقة، وفي دلالاته العلمية وأعبائه، وكما هو في آماله الواسعة أيضًا وفي خلود الإنسان المؤمن فيه..

هـذا هـو بعض مـا تنبـأ بـه علم النفس التحليل عـن مصير "المتحدثين بـالأوبرا" وبتماثيـل الآلهـة الكاذبـة، وبالخرافـة الوثنيـة في كـل أشـكالها اليونانية القديمة، والأوربية المعاصرة.. حتى في عصر العلم .. وهو ما ينبغي أن تتنزه عن الوقوع فيـه بالبلاهـة، ومـع أصوات الأطفـال الكبـار العاشقين لثقافة أوروبا القصصية.. لتصاب شعوبنا بالخلل العصبي.. وانحلال العقل غالبًا !

مثل هذا التشخيص العلمي لردود أفعال "التخييل" الخطرة بعيدًا عن الواقع، في رواية خيالية أو أمـام المسرح، أو داخل صالة عرض سينمائي، مما يترتب على تراكماته حالة "الانفصام" المهلكة بين التخييل الكاذب رغـم حلاوتـه والواقـع الحقيقـي رغـم مرارتـه – إن مثـل هـذا التـشخيص لأمراض "الرواية والمسرح" معلوم ولا شك لدى القوى الاستعمارية في أوروبا، ولدى الأوساط العلمية فيها، ولكنها نعجز عن مقاومة التيار الاستهلاكي التي تضيع فيه النفس الأوروبية، كما تعجز عن تقديم البديل الذي لم تستطع حتى الآن أن تدركه وهو الإيمان الحق بالإله الحق، ولكنها لا يفوتها أن تستخدم هـذه الآفات "الخيالية" المهلكة بقوة وشراسة ضد ضحاياها من الشعوب المبتلاة بالاستعمار مثل الشعب العربي، وشعوب آسية وأفريقية..!

بهـذا يـصرح وزيـر المستعمرات الهولنـدي ألكسندر ايـدنبورج عـن مخطط هولندا الشيطاني ضد المسلمين في اندونيسيا، كما نشرت ذلك مجلة الاعتصام الإسلامية لقرائها في عدد المحرم 1396 ويناير 1976، حيث يقول الوزير واثقاً مما يفعل: "لابد من تحطيم الإسلام، وذلك بعرض آداب الغرب في نفوس المسلمين ليبتعدوا عن دينهم وهم لا يشعرون"!!

نعم ... وماذا في آداب الغرب غير الرواية والمسرح، والشعر الوثني؟ أي ماذا عند الغرب في آدابه غير هستيريا "التفكير الخيالي" وأمراض المسرح النفسية والعصبية، وما يصاحبها بالمضاعفات من الانحلال العقلي.. وهي الأمراض التي لم يتعرض لها - رغم كل ما تعرض له - ريفنا المصري، الذي لا يزال اهله يحافظون مع صحبتهم الطويلة والقسرية للفقر والمرض والتخلف - على أصالتهم ودينهم، أي على مصدر "التفكير الحقيقي" الذي هو كما يقول الدكتور باورفيلد "الأصل في تكوين الأخلاق، والأصل في التقدم الجوهري للعالم"

وجوههم للباطل:

ونعيد هنا مرة أخرى للتذكير بها كلمات مصطفى صادق الرافعي الذي وصف القصص الخيالية في تلخيص جامع لكلام باورفيلد بأنها "تفعل فعل المخدرات إذا تكون مسكنات عصبية ثم تنقلب بعد قليل مهيجات عصبية" ولم يستمد الرافعي هذا الإدراك الحقيقي إلا من منهج القرآن والأدب العربي في التفكير الحقيقي..

لهذا فهو يرد الحاجة إلى التسكين العصبي، والتي تصبح فيما بعد مرضًا عصبيًا إلى موقف مؤلفي هذه القصص والمتعلقين بها من البعد عن الحقيقة" وإدمان التوجه بوجوههم على الباطل.. فهو يقول : "ألا ترى أن من يكتبون هذه القصص الخيالية إنما يكتبونها مدبرين عن الحقيقة، وعن معنى الحقيقة؟ وأنت متى كان وجهك إلى الباطل، وظهرك إلى الحق، فمهما تتقدم في رأي نفسك فإنما تتأخر في رأي الحق"!

ثم يقول وهو يرد جميع أمراض أوروبا العقلية إلى فلسفتها غير العلمية - كما فعل ذلك فيما بعد أحد تلاميذ المنهج العربي العالمي - فرنسيس

بيكون .. يقول الرافعي: "لقد مات سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة والحكماء، وما استطاعوا أن يؤدبوا بحكمتهم وفلسفتهم إلا الكتب التي كتبوها"!!

أعذار للمستهترين:

وبنفس الاتجاه للتحذير يقول المرحوم الدكتور حسين الهرواي صاحب كتاب "النظريات العلمية في القرآن":

"بحث كثير من الشباب عن قصة مثل القصة الأوربية في الأدب العربى، فلما لم يجدوها تمنوا لو أنها كانت موجودة في تراث أمتنا العربية، وفات هؤلاء أن القصة بطبيعة التكلف في اختلاقها، واتجاهها على تعقيد البسيط، وتخفيف وطأة الواقع، والإبهام بوجود ما ليس موجودًا – لا تستطيع أن تعيش لحظة تحت شمس صحارينا المشرقة، وقضاء بلادنا الواسع المضيء، فمؤلفها لا يكاد يضع خيوط عقدتها الوهمية حتى تتبدد من بين يديه وتلاشى، ليبقى الواقع قائمًا جليًا أمام عينيه كما كان"

ثم يقول "لقد كانت جناية القصص الخيالية كبيرة على أخلاق الأمم والأفراد، لأنها قربت إلى أذهان أفكار الاستهانة، والتغلغل في السقوط الأخلاقي.. بل إنها التمست الأعذار الكاذبة للمستهترين الذين ما كان أحدهم مستطيعًا أن يلتمسها لنفسه متفرداً.."

ثم يقول " فإذا نظرت مثلاً لقصة مانون ليسكو، أو ذات الكاميليا، أو اعترافات فتى العصر، وغيرها من القصص التي تبرر الانحراف وتعتذر عنه للساقطين والساقطات، نجد أن هذه القصص قد أثرت تأثيرًا سيئاً على عقول النشء فجعلتهم يستهترون وينحرفون وينتحرون. ولا شك أن من أهم أسباب ضياع هذا الجيل الحاضر عقليته الضعيفة التي انتهت بها إليه

هذه التجارة الرخيصة في الحكايات الغرامية المثيرة والمبتذلة، والقصص البوليسية.."!

ضد موضوعية المسلم:

ومن كلمات موجزة وقوية الدلالة يقول الصديق المستشار عبد الحليم الجندي وهو يسجل رأيه في حديث معي في موضوع هذا الكتاب يقول فيها: "جاء المسرح إلى بلدان الوطن العربي مع المستعمرين والمستثمرين من أهل أوروبا من أجل فرنجة الأغنياء والطبقة في عصر الخديو إسماعيل، وبهذا بنيت دار الأوبرا، وعرفت القصور المراقص، وحفلات الباليه، والعراء شبه الكلي، أو العراء الجزئي"!

ثم يقول: "والمسلمون لا يستبيحون استعراض النساء على خشبة مسرح أو غيره. والمرأة هي نصف الناس، ولا يتصور المسرحيون مسرحًا من دونها. وحسدها عورة إلا لمحارمها، والمسرحيون لا يتصورون مسرحًا للمحارم! وقوام المسرح المأساة والملهاة وكل منهما يقومان على "الخيال" الذي لا يتسع له الواقع. والغرب " عمليون" وواقعيون بطبعهم، وخيال شعرائهم من عصر المعلقات إلى عهد المتنبي والبحتري لا مصر لصوره إلا الواقع نفسه. أما شوقي في مصر فإنه عندما ألف للمسرح فإنما كان يؤلف لبلد استوردوا له المسرح، كما أن شوقي قد قضى بضع سنوات يتعلم في فرنسا بلد المسرح"

ثم يقول "والمنهج العلمي الإسلامي منهج " موضوعي "يقوم على الواقع" واستعمال العقل، ولذلك نقلته أوروبا في العلوم. وإن إنقضاء ثلاثة عشر قرنًا على المسلمين دون الاقتراب من المسرح دلالة على واقعيتهم، وموضوعية فكرهم، وليس على قصورهم أو قصور خيالهم عنه. كما أنه

في الدلالة على الواقعية والموضوعية نقل العرب من علوم أوروبا ما وجوده من ذلك في القرنين الثالث والرابع الهجري.."

ثم يقول: "والقصص في القرآن تأريخ لحقائق واقعة يعلم الله بها الناس. والقصص ولفظ قرآني يشير إلى "الأثر" بمفهوم الاهتداء بالإتباع والتتبع لمعالم الطريق الصحيح.. طريق الحق.. الذي نعرفه بالقصص الحق"

الوقتي والتافه:

وأما المتخصص في الأوبرا والمسرح والموسيقى إلى جانب فنون مصر الشعبية وهو الصديق فرج عبد الرازق العنتري عضو فني هيئة السينما والمسرح والموسيقى بوزارة الثقافة ، وسكرتير عام نقابة المهن الموسيقية ، فيقول مسهمًا برأيه في هذه القضية ، وبعبارة أدق لإضاءة بعض الحقائق حول هذه القضية من وجهة نظر خبير في الموسيقى المسرحية:

"المسرحية بطبيعة جذورها اليونانية تحتفظ بالتخوم بين الطبقات، وهي تفعل ذلك في توزيع الأصوات الموسيقية ، وفي الأدوار ، وفي لغة الحوار.. فالتراجيديا التي بها ملوك وقادة وطبقة تختص في التأليف بتمييز الطبقة بمصطلح "الأفعال النبيلة" وبحذلقة الطبقة أيضًا في كلماتها المترفعة.. وإشاراتها من فوق إلى تحت .. أو إلى هناك .. وأما الكوميديا فلغتها أقرب إلى لغة العامة ولابد فيها من شخص مضحك، أو مثير بالإخراج الذي يظهر به للضحك، وبالطبع مثل هذا الشخص لا يكون من السادة"!

ثم يقول " إن المسرح بقصصه وإخراجه وموسيقاه كان ظاهرة ترف الطبقة بسبب كثرة نفقاته، وبطبيعة الهدف المستهدف به أساسًا وهو حفظ مناخ "العظمة " و"السلطان" للملوك والسادة .. مع الترفيه عنهمّ فلقد كان معروفًا في بلاط لويس الرابع عشر، أي حتى عصر متأخر، أن هناك

ستارة تهبط من سقف المسرح ومعها أشخاص يظهرون بالحيل المسرحية على صورة آلهة – بالمفهوم الوثني اليوناني – تدعو الناس الحاضرين لشهود المسرحية من بطانة الملك ونبلاء عصره – إلى الولاء والطاعة للملك الموجود أمامهم، والذي هو ظل الله في الأرض.. كذلك فقد كان راسم الشخصية المسرحية الكلاسيكية يحرص تمامًا على أن تعرض الرواية ملوك السيد وعباراته بما يوضح تميزه بالفهم، وتمكنه في الحياة، وقدراته الخارقة، وأنه لا يمكن أبدًا أن يسف فهبط إلى أسلوب عبد أو عامل أو خادم .. حتى على سبيل المرح"!

ثم يقول لتأكيد تبعية المؤلفين للسلطة في أمم المسرح مع تنوع أشكال السلطة حتى بعد أن تحولت السلطة إلى رأس المال والاحتكار، أو إلى الحزب والرقابة الإيديولوجية: "الملاحظ أن المؤلف المسرحي عاش دائمًا مثل زميله في الشرق وهو الشاعر المداح في عصور الانحلال.. المؤلف المسرحي عاش طفيليًا على موائد الملوك والسلطة في كل عصر.. وإن لقبا مثل "مطرب الملوك والأمراء" هو أحد ألقاب البلاط القديم.. المسرحية إذن كانت دائمًا هي صورة قيام السلطة بمهمة تمجيد نفسها حتى وإن كانت تفعل ذلك باسم الشعب"!

ثم يتحدث عن بداية ظهور سلطة الشعب قبيل الثورة الفرنسية، وأثر ذلك في تصاعد السخرية الشعبية المعبرة بمصالحها عن الواقع لتهز تقاليد الطبقة، وتفضح "تمثيلهم" وتنتزع أو تحاول أن تنتزع الساحة منهم فهو يقول عن نجم شعبي في التأليف المسرحي هو بومارشيه:

"إن بومارشيه يعتبره النقاد أول من أطلق شرارة الثورة الفرنسية، فهو أول من وضع على المسرح لحساب الشعب شخصية الإنسان الشعبي

"الفهلوي" الجريء اللسان الذي لم يكن موجودًا من قبل داخل القصور، او يتجرأ أن يكون، وهي شخصية الفيجارو.."

"قامت قصة بومارشيه "زواج فيجارو" على أساس إعلان تمرد عامة الشعب على واحد من القيود المهينة للعبودية للسيد النبيل،وهي أن يقدم المواطن "عروسه" للنبيل قبل أن تزف إليه، ليتفضل النبيل – من غير نبل بتذوقها نيابة عن تابعه، وافتضاضها وتقديمها له بعد ذلك.. وكانت هذه الجريمة في أوروبا حتى نهاية القرن الثامن عشر تسمى "حق السيد" .. ومن البداية يعمد الإخراج الموسيقي إلى رسم شخصية العامي المتمرد على سيده بنغم طليق، رنان فصيح، يثير التعاطف معه أكثر مما يثير عاطفة الطاعة للسيد المغتصب.. وكان هذا دليلاً – رغم تأخر الوقت – على بداية تطور في المجتمع الأوروبي وأفكاره للدلالة على اتجاه الشعب لانتزاع المسرح من السلطة وتمكين فيجارو من الهرب بعروسه – لأول مرة على المسرح – دون أن تتعرض العروس للمرور عارية تحت قوس النصر في غرفة النبيل قبل أن تصل إلى عريسها.."!

ثم يقول الصديق فرج العنتري في ملاحظة دقيقة "على أن العجيب أن بون مارشيه الذي تربى داخل قصر من القصور، وكان حرفيًا في الأصل، والذي اتجه بعمله الفني لاشعال الثورة على النبلاء من أجل مساواتهم بالشعب عاد بعد الشهرة والمال فتمرد على هذه المساواة العامة، وقد كان في نكسة شعوره بالمساواة جريئاً ووقحًا في نفس الوقت عندما قال في الترفع عن كل الفيجارو في فرنسا: الحرية نعم.. الإخاء نعم.. أما المساواة بهذه الصورة.. فلا!!"

من أجل هنا بدأ المسرح الخرافي، والطبقي بطبيعته، يتهاوى ليسقط في عصر الشعب الذي أيقظه العلم إلى حريته، وكان أحرى أن يحقق له

أمانة وسلامة ببعض الإيمان الذي عجز عنه فعاش يطلع بعلم من غير إيمان.. وفي مصير المسرح يقول فرج العنتري "وعلى الرغم من تزايد مراكز التجمع المدنية في المدن فإن عددًا من المسارح المحترقة قد أصابه الركود القاتل خلال هذا القرن، فلم يبق إلا نشاط فوق الهواة. وعلى الرغم من الفيلم والراديو والتليفزيون التي تقوم بإخراج أعداد هائلة من الدراما بمختلف أنواعها، فإن أكثر ما يتم أخراجه بهذه الوسائل وقتي وتافه، ومع هذا فجيب أن نتذكر أن المسرح – كأداة تسلية – كان دائمًا يحتوي على نسبة كبرى من المؤثرات الوقتية.. ومن التفاهات !!"

بين الشبقية والعهر:

ونذكر من حديث الدكتور حسين فوزي في الأهرام وتحت عنوان "السينما الفاضحة" بتاريخ 22 فبراير 1976 كلمات للتحذير من هذا الاتجاه بالنسبة لما أصبح يجري في السينما – حفيدة المسرح المعربدة – في مصر.. تسابقا بالتقليد الفاضح مع ما أصبح يجري في السينما الأوروبية في هذا الاتجاه..

يقول حسين فوزي : "الأدب أو الفن الحديث في أرقاه إذا ما عالج غريزة الجنس يمكن ان يوصف بأنه "شبقي" وفي أحطه يدمغ بالعهر"

ثم يقول "كانت السينما حتى عهد بعيد لا تسمح بتصوير "القبلة" بين العاشقين إلا لفترة جد محدودة. وإذا بالفن السينمائي ينتهي بعد الحرب العالمية الأخيرة إلى السماح بتصوير الفتى الأول مع فتاته تحت أغطية الفراش فلا يظهر من عريهما إلا ما فوق السرة.. ثم انتهى ذلك في السنوات الأخيرة إلى كشف الأغطية أمام الرؤية المباشرة، وبهذا تحول الوصف

الروائي – مثار الخيال – إلى الواقع مرئيًا مسموعًا فيما نصطلح عليه : عيني عينك!!"

معنى هذا في مسار ومضاعفات "الفصام" بالتفكير الخيالي بين المرئي والمسموع بالخيال والمرئي والمسموع في الواقع – أن هذا الفصام والانفصام قد بلغ أقصى درجاته في أكثر مراكز الإثارة العصبية حساسية وهي "الجنس" حتى أصبح من الممكن – عيني عينك – رؤية الفعل الفاضح في أشد فتكاته يبدو، وهو مجرد خيال، كأنه وقع في الواقع المرئي والمسموع، وعلى مشهد من مجتمع يسبغ عليه حكم اليقين .. بينما هو خيال.. خيال أفرزته "الهستيريا الجماعية" فأصبح على الشاشة الصهيونية هو هذيان المجتمع الذي يتزف عقله أمامها بينما يتسرب واقعه من بين يديه .. ربما إلى الأبد .. بقروش زهيدة!

ويتحدث حسين فوزي عن فزع المسئولين في أوروبا أمام هذه الموجة من الفن العاهر المدمر لمجتمع بأسره، فيذكر أن وزير الثقافة الفرنسي استصدر قانوناً حاول به أن يحد من حرية المنتجين لمقاومة ارتفاع موجة الجنس في الأفلام الفرنسية، حتى لا تتجاوز ما وصلت إليه وهو ثلث الإنتاج السينمائي، وكان أسلوبه هو تخصيص أماكن معينة لعرض أفلام الجنس.. فقط لا غير .. ومع ذلك احتج عليه بعض من يدافعون عن العدوان بالحرية وسألوه لماذا فعل ما فعل.. واعتبروا التقويم عدوانًا على الحرية!

يقول حسين في فوزي وهو ينقل إجابة الوزير على من احتجوا عليه: "إذا كنا سنترك الحبل على الغارب فإن جماهيرنا ستنتهي إلى ما انتهت إليه ألمانيا الغربية من عدم التمييز بين دور السينما، وبيوت الدعارة" !!.. هذا هو كلام وزير ثقافة معاصرة في بلد أوروبي شديد العصرية!!

التنفير من الدين:

ويتكلم أنيس منصور عن المسرح والسينما في مصر من جانب معين هو الروايات الدينية التي لاحظ نزول مستوى التمثيل فيها للشخصيات الدينية إلى حد من الامتهان يثير التساؤل، فهو يمزج أسلوبه الساخر بقليل من الغضب ليسأل في كلمة أعادت نشرها له مجلة "المسلم" بعدد المحرم سنة 1396 حيث يقول:

"لماذا.. في كل التمثيليات الدينية، أو حتى الأفلام الدينية، نجد أن من يقومون بأدوار الأبطال المسلمين، المقاتلين من أجل الإسلام — يخرجونهم في صورة مجانين متهوسين، غلاظ الصوت وثقلاء؟ .. المفروض أن هؤلاء الذين ينشرون الدعوة، ويدافعون عنها، ويقفون أصعب المواقف التاريخية من أجلها — هم مثل عليا لكل الناس، حيث لا تجري على ألسنتهم إلا أجمل العبارات، الدالة مع حركاتهم على النبل والرقة والكياسة والعقل"

ثم يقول "لابد أن الدين عند المؤلفين والممثلين والمخرجين له معنى سخيف جداً، ولابد أن يكون مفهوم الجدية في الدين عندهم هو أن يكون الإنسان ثقيل الدم.. ولذلك ألصقوا بالشخصيات الدينية كل ما ينفر الناس من الدين، والدعوة الدينية.. بينما احتفظوا بخفة الدم للصوص والمجرمين.. والعشاق:!!

.. كلام صريح لا يحتاج إلى تعليق.. فقط نذكر القارئ بما قلناه من قبل عن الجذور الوثيقة للمسرح ومشتقاته .. وعن "دور" الرواية والمسرح والسينما في جراب المخطط الصهيوني والاستعماري.. وبالذات نجاة الإسلام كما نذكر القارئ بتلك المرحلة التي شاهدتها مصر خلال الحربين

العالميتين الأولى والثانية حيث كانت الشخصية "المضحكة" بتوجيه نافي المرض المسرحي هي دائمًا، وبجميع مستويات الإنتاج المعروض ، شخصية الشيخ المعمم... المأذون، أو مدرس العربي، أو قارئ القرآن.. والمشهد الذي يضج له سكارى شوارع المسرح بالضحك – كما رباهم الاستعمار على ذلك – هو العرض الشهير عن "الفقهاء الثلاثة " الذين كانوا بكل ما يلقيه العملاء والجهلاء على ألسنتهم وهم ينتحرون قوميًا وهو بذاءته وسوقيته وهبوطه المتعمد صراخ هستيري حاقد ليس له تلخيص إلا أنه سب للإسلام على أرض عاصمته العربية "القاهرة" .. وسب بالضرورة واحتقار للمسلمين في هذه البلاد... واستخفاف وسخرية بالقرآن الكريم تنتهي من كتب المستشرقين إلى هذا التجسيد للحقد الصليبي على العرب بلغة فن الوثنية والخمر والعهارة ، المنحدر من غياهب الخرافة اليونانية.. نعم هو هذا التجسيد للحقد الذي لا تبرا منه سياسة أحبار الصهيونية، وزعماء الاستعمار.. حقد أسفروا عنه طويلاً.. وإن يكن أمام جمهور السكارى من العمد، ولصوص المعسكرات ، وموالي الثقافة الأوروبية وفنونها الساقطة.. ولا تزال تقاليد هذا المرض الاستعماري تعاود مخرجي التمثيليات والأفلام الدينية. حيث يعتبرون أن كل شخصية إسلامية في التاريخ، أو كل عالم ديني في المجتمع، هو واحد بالضرورة من "الفقهاء الثلاثة" الذين كانوا يظهرون لإضحاك الجنود الإنجليز في شارع عماد الدين، وجمهور العمد وتجار القطن والقوادين .. وإلا فمن يكون!!؟

إفلاس المسرح:

وكان لابد أن يفلس المسرح أخيراً في أوروبا بعد أن أدى "دوره" في عقوبتها ، وانتهاك قواها.. وبعد أن أسلم شعوبها من طريق السينما إلى مرض الانهيار التحمي.. إلى التثليث الفاتك في "الخمر والجنس والجريمة" ..

لقد أفلس المسرح الأوروبي الذي ظل قرونًا طويلة "مصونًا" وراء أسوار الملوك والإقطاعيين عن أعين العامة، وعن تلويثهم لرحابه.. ثم مع العلم الذي جاء منهجه إلى أوروبا من أرض "التفكير الحقيقي" ومع حضارة العرب المسلمين نهضت هذه الشعوب على أنقاض أربابها، وسقط الترف المسرحي، وأفلس التأليف الرفيع بمستوى تملق شهوات الملوك الذي يدفعون بسخاء للمؤلف، وواضح الموسيقى، وجوفة الممثلين والممثلات، لتظهر من داخل الشعوب طبقة جديدة من ملوك المال، الذين من أجل المال: ومن أجل السياسة أيضا أمسكوا بزمام هذه الشعوب من غرائزها الدنيا.. وكان العلم مع ثورته وثورة الشعوب قد جاء بالسينما.. وبقوة الصهيونية داخل شعارات وفلسفات الحرية الزائفة من وجه، والعدوانية من وجه آخر.. وبذلك أغلقت أبواب المسرح القيصري، الذي أصبح وثنًا ومزاراً للتذكار.. كما أغلقت أبواب المسرح الواقعي، أو مسرح المشكلة الاجتماعية، وحتى المسرح الوثائقي الذي جاء به بريخت الألماني في موقف وسط بين الحوار غير المباشر بين الممثلين على المسرح، وبين الخطاب المباشر بين الممثلين والجمهور.. أي بين الأسلوب اليوناني والمنهج العرب.. ذلك أن الجميع في أوروبا فزعوا من هذا المنهج ... فزعوا من يقظة الشعب عبر أسلوب جديد يتخطى الإغراق في التمويه، والاستدراج الخيالي ، والأهداف الخداعية — إلى التفكير العلمي والخطاب المباشر، وجهها لوجه عبر الممثلين، بين المؤلف والجمهور.. المؤلف الذي يواجه الجمهور بأفكاره السياسية والاجتماعية ليقوده على أرض الواقع، ويوجهه إلى أهداف حقيقية مطلوبة في الواقع.. لقد فزعت أوروبا كلها من هذا الخطر.. خطر صحوة الشعوب فوق أنقاض صناعة التمويه المسرحي، وتراث وكهنة وكذبة المسرحين اليونان الأوائل، والأوربيين الأواخر.. لقد فزع الشيوعيون مع أن بروتولد بريخت كان شيوعياً أو

اشـتراكيًا .. وفـزع بـالطبع ملـوك الاحتكـار ورأس المـال ، ورؤسـاء الحكومات الاستعمارية الخلفية...!

ويتحدث رشدي صالح في الأخبار في عدد 12 نوفمبر 1975 عن الروايات الهابطة، فيشير إلى أزمة المسرح العالمي .. الأزمة التي انتهت فعلاً إلى إشهار إفلاسه بالصمت .. أو بالعبرات الصامتة .. إنه يحلل أزمة المسرح بمنطقه الخاص، ولكنه يعلن لقرائه في مصر أن هذه الأزمة الشديدة واقع حقيقي وليست ظاهرة عارضة ، بينما يرفع صوته في مقدمة مقاله بأن "الفن الهابط " أي الفن المسف وغير الأخلاقي هو علة متفق عليها لهذه الأزمة في المسرح العالمي فهو يقول:

"الذين يقولون إن الروايات المسرحية "الهابطة" هي التي تحقق أرباحًا وتصنع رواجًا قد خسروا جولة هامة على النطاق العلمي، ووضعوا أنفسهم موضع الفرجة"!.

ثم يقول "في لندن وهي إحدى عواصم المسرح الكبرى لم تزل "الزوبعة" تعصف حول فنون التمثيل والمسرح والموسيقى والباليه هناك، من أزمة مالية جارحة، ومن أزمة خطيرة أخرى تبدو في انصراف أعداد غير قليلة عن المسارح" !.. انتهى

ولكن السؤال المهم في هذه الأزمة هو: من أين تأتي الأرباح الكثيرة حتى ينجح العمل؟ ... وحتى يغري القائمين به؟ ... لقد كان الملوك والإقطاعيون يدفعون من جيوب عبيدهم لإقامة المسرح البهيج لهم في قصورهم .. اليوم من يدفع؟ .. الشعب هو الذي يدفع .. ولكن كيف يجعله الأوصياء الجدد .. ملوك الظل.. المستغلون التجار.. كيف يجعلون الشعب يدفع كثيراً.. هل عن طريق فن رفيع ..! ؟ الفن الرفيع ليس هو "صناعة تعلم الاحترام للملوك" كما كان شأن الروايات الكلاسيكية كلها..؟ .. الفن

الرفيع هو :صحوة الشعب عن الخمور والشرور التي تبيحها له الرأسمالية بكل يدها اليمين.. كما تبيحها الشيوعية بكل يدها الشمال.. فكيف يمكن أن يكون الفن رفيعًا بلغة الشعوب.. وليس هابطًا لمصلحة السياسة.. في أوروبا كلها.. هذا هو السؤال؟!

لقد حاول مخترع المسرح الملحمي أو الوثائقي الألماني بروتولد بريخت أن يتقدم من طريق الخطوة التي اتخذها في مسرحه ليتحول بالجمهور من مجرد تقبل الإثارة .. على المشاركة في القضية المطروحة واتخاذ المواقف، ومن تصور المشاهدين أن الوجود دلالته "التفكير" إلى وعيهم أن الوجود دلالته "المجتمع" ومن الاقتناع بمجرد الإيحاء والشعور.. إلى يقظة الجمهور — من هذا المنهج المباشر لتفهم "البرهان "العقلي والتأثر به .. ومع ذلك ، وعلى طريقه في تنشيط الجمهور للقضايا الاجتماعية، فإن أفكار بريخت لقيت المعارضة الشديدة في حكومة ألمانيا الشرقية، كما أن أدب بريخت "الاشتراكي" في جملته لم يكن مقبولاً في دوائر النقاد في روسيا السوفيتية وإن تسامحوا معهَ !

هذه أذن هي أزمة المسرح الأوروبي الوثني ، الذي له راع يستغله دائمًا هو السلطة.. راع لا يستطيع أن يقدم للجماهير فناً رفيعًا، لأن Patronago الفن الرفيع هو فن الواقع والحقيقة، والحياة ،وقضايا الحياة، وهو فن لا يمكن أن يقوم على هذه الدعائم إلا بالمنهج المباشر. المنهج العلمي العربي الإسلامي الذي عاش به أدب الأحرار المؤمنين الصادقين.. ومعنى الأسلوب المباشر للمسرح الأوروبي بحسب طبيعته، وبحسب تقاليده، وبحسب مخدراته وتسليته وخداعياته أنه يسقط وينهار.. ومعنى أنه لا يعيش للجماهير في عصر الشعوب — كما افتضح أمره وعجزه او هبوطه أخيرًا — أنه يسقط الآن وينهار.. وهذا هو الدرس الذي تعلمه الناس هناك من بريخت

.. لقد تعلموا أن توجيه نقد صريح للحزب الشيوعي الذي يحكم الجميع بأهواء قلة من الجميع ليس إلا نوعًا من الاستشهاد الذاتي.. وكذلك بالتأكيد لا يمكن أن تتحمل الحكومات الرأسمالية أي نقد صريح يسمح بالدعاية للشيوعية مثلاً على مسارحها.. أو في أغرب ما يمكن تصوره أن تسمح بالدعوة إلى مبادئ "الإسلام" الحق في قلب لندن أو باريس أو نيويورك .. إن كل هذا مستحيل بالطبع في منطق من أصبح المسرح عليهم عبئًا بعد أن فقد طبقته.. وبعد أن حلت الصورة والصوت والحركة والمشهد الخيالي مثل السينما والتليفزيون .. وأفلام العرض الخاصة في بيوت الأغنياء والطبقة أيضا؟!!

وهكذا مع احتضار الحضارة الأوروبية كلها إنسانيا وأخلاقيا، ومع تمزقها نفسيًا واجتماعيًا.. يفلس المسرح .. وتملأ وجهه الغضون وهو ينكس رأسه المثقل بالأكاذيب ، بينما يدب الشيب غير الكريم إلى شعوره المستعارة.. كلها!!

هذا.. بينما تستمع إلى الدكتورة ليلى عنان أيضًا وهي تحذر في مقال لها بمجلة روز اليوسف 15 مارس 1976 من استمرار عقدة الخواجة في دماغ بعض المثقفين ، وتقول : "متى نتحرر من هذه العقدة وتعرف أن الموسيقى العالمية ليست إلا الموسيقى الأوروبية ، وأن الأدب العالمي ليس إلا الأدب الأوروبي.." أليس معنى ذلك ضرورة استعادة آدابنا.. وهويتنا!؟

فيلم عن النبي:

كل هذه التحذيرات، وهي إشارة فقط لما تدل عليه من المخاطر على الشعب العربي في حالة صحوته بينما هو يملك عقيدته الكاملة اجتماعيًا وإنسانيًا مع وسائل التعبير السليم والصحي والتقدمي عنها — لابد وأن

تحمـل المسئولين " المثقفين علـى مراجعـة الـنفس، والعقـل، لتفـادى هـذه المخاطر التي تعرض لها بالفعل عالم أوروبا الذي كان المثال الخاطئ للذين اختاروا محاكاته من الأدباء والفنانين .. على أن أكبر الخطـر على شعبنا العربـي في كـل أقطـاره ليس هـو فقـط هـذا الـذي أشـارت إليـه الكلمـات السابقة بإيجاز.. وإنما هو في ظاهره غزو شرسة أخرى تطرق الأبواب بشدة من الغـرب حاملة علـى وجهها الوحشي والصهيوني قناعًا زائفًا مـن أسمـاء عربيـة حتـى يجـوز علـى مـواطني بلادنـا. إنهـا غـزوة أفـلام دينيـة تـزعم أنهـا إسلامية، وتتكلم العربيـة، وهـدفها الأساسـي والبـاطني في أعمـاق أهـداف خداعيـة متعـددة هـو الزرايـة بأسـلاف العـرب وتحقيرهـم كشعب تُلصق بـه كـل العيـوب.. عيـوب أكثـر كثير ممـا ألـصقها الغـزاة الأمريكـان بـالهنود الحمر.. ثم العبث بالتاريخ الإسلامي لصالح إسـرائيل.. ثـم فـتح بـاب العـدوان علـى الرسـول وأصـحابه بإظهـارهم في أفـلام متعـددة الأهـداف، حيـث يقـوم بتمثيـل شخـصياتهم مـن يعمـل علـى التمثيـل بشخـصياتهم، واسـتخدامهم كأدوات تلهوا بها الصهيونية العالميـة، ملكـة السينما والدعايـة الكاذبـة، لحساب" إسـرائيليات عـصرية" تـذبح بهـا المفتريـات وتنتـشر بهـا فتنـة التفـرق والتمـذهب بـين المـسلمين الـذين كـادوا أن يـذوبوا وتتقـرض خيـام معسكراتهم تحت وطـأة أعاصير التفـرق والتمـذهب في ديـن واحـد يـدعو بكتاب واحد إلى إله واحد.

إن ما أحكى عنه هنا بإيجاز شديد هو فيلم "محمد رسول الله" الذي لا زالـت بقيـة الرشـد في هـذه الأمـة تعمـل علـى منـع عرضـه بعـد أعـدت لـه الـشركة العربيـة الأمريكيـة، صـاحبته، كـل وسـائل النـشر الواسـع، والإعـلان المـدوي، إذا أتـيح لهـا تكـسر المعارضـة الإسـلامية الـشاملة لـه وتعرضه..

في ظروف عابرة في أوائل 1971 كنت في موقع للمسئولية الشعبية أتاح اطلاعي على تفاصيل قصة هذا الفيلم، كما فرض أن أعطى رأيا أمينا فيه من وجهة النظر الإسلامية، وقد أتيح لي على أثر مقال كتبته في جريدة الأخبار في 29- 1- 1971 عن هذا الفيلم تحت عنوان "إسرائيليات عصرية" أستنكر فيه أن يكون الرسول موضع تجربة وممارسة جديدة للعدوانية على الإسلام بعد حملات المستشرقين الطويلة – أتيح لي أن ألتقى بأحد الواجهات العربية للشركة التي تخرج الفيلم في أمريكا وهو محمد ناصر السنعوسي الذي زارني في مكان عملي ليرد على المقال. قال و هو يعرفني بنفسه: أنه كويتي تعلم في أمريكا، وحصل على دراسة جامعية في الأعلام، ودرجة علمية في فنون السينما الخ.. وزعم لي أيضًا أنه نجدى من قبيلة شمر.. ثم قال إنه التقى في لوس أنجلوس بصاحب شركة صغيرة للسينما وهو مصطفى العقاد: سوري من حلب.. ثم زعم أنه في مواجهة ما كان يحسه بالضياع – مع شباب العالم في أمريكا – فكر مع صديقه السوري في إخراج فيلم ينوب عنهما في "تعريف العالم بحقيقة الإسلام.." ثم قال: "إن الفيلم يهدف أيضًا إلى "إثارة المسلمين إلى وحدتهم .. وإنه من اجل هذا أنشأوا شركة سينمائية جديدة لها مركز في بيروت، بعد أن أسهمت فيها رؤوس أموال عربية من أكثر من دولة" .. ثم عن إظهار شخصية تمثل الرسول وأصحابه قال: لقد وافقنا على أن نكتفي بمؤثرات استحضار الشخصية للرسول وأصحابه مع اختفائها..!

بعد حديث طويل مع السنعوسي الذي اعتقدت أنه مع حذلقته الأمريكية كان كما رأيته – لا يزال ضائعًا ، وأنه يسهم بحماسته في لعبة سياسية خطرة لا يدري حدودها بالقدر الذي يدركه صديقه السوري مصطفى العقاد وكتبت تقريرًا بتاريخ 2- 2- 1971 إلى كبار

المسئولين حول هذا الفيلم أضمنه رأيي من خلاصة تحليل المعلومات التي حدثني عنها السنعوسي، في ضوء هذا السؤال الطبيعي: "ما الذي تريده إسرائيل وحلفاءها في أمريكا من أهداف عاجلة وأخرى مع الزمن بهذا الفيلم ؟!"

وفي هذا التقرير لخصت الإجابة عن هذا السؤال وذلك بعرض أهداف إسرائيل وحلفائها من هذا الفيلم وهي كما يأتي:

1- الدعوة إلى الوحدة الإسلامية بمفهوم الحلف الإسلامي الخاضع لحلف الأطلسي بديلاً لما يراد ضربه من مفهوم "القومية العربية" التي لا يمكن أساساً أن تقوم إلا حول محتوى عقائدي إسلامي.. ضمنًا هز الثقة في الاتفاق الرباعي بين مصر وسوريا وليبيا والسودان ، وضرب العلاقات النامية بين المشرق العربي والمغرب العربي باتجاه الوحدة.

2- تمييع المواقف العربية لصالح إسرائيل، واستغلال قصة المعاهدة بين النبي ويهود المدينة لتنشيط الآراء المأجورة التي تنادى بالصلح قبل انسحاب إسرائيل عن الأراضي العربية، وبذلك يجري تفسير التاريخ الإسلامي في بدايته على هوى السياسة الإسرائيلية، مع طمس مواقف الخيانة والغدر التي استمت بها مواقف يهود المدينة الذين "نقضوا المعاهدة" وأثبتوا أن الحل السليم والطريق الوحيد للصلح هو جلائهم التام عن المدينة!

3- إظهار العرب كأنهم كانوا قبيل الإسلام في صورة الشعب البدائي المتهوس الشره، الذي يعيش على السرقة والجنس والخمر، وظلم العبيد، بينما هم في مكة قوم محمد ، وأترابه، وأهل المكارم والمآثر والعفاف- إلا قلة لا يؤبه بها – وأنهم كما اجتباهم الله للدين . تعقلوا بمستوى البيان والنظر العقلي والعلمي والأخلاقي ما

جاء القرآن ليذكرهم به فآمنوا جميعًا بعد سنوات قليلة وبعد عدد قليل من القتلى والشهداء أقل في عددهم من حوادث القتل والسيارات التي تجرى الآن في يوم واحد في مدينة واحدة مثل نيويورك.. !

4- فتح الباب لهجمة رعاة البقر على التاريخ العربي الإسلامي من طريق "الفيلم" العدواني الدعائي لإثارة الخلافات، والحروب الصغيرة والكبيرة بين العرب.. وهذه مهمة تسعد إسرائيل إذا أعطيناها الفرصة بهذا الفيلم لتتولاها بنفسها.. وليس من طريق السنعوسي ومصطفى العقاد.. ولا من طريق الكتاب المصريين الذين تفضلوا فشاركوا في المهام الفنية لهذا الفيلم، وعلى رأسهم العبقري "الكلامنجي" توفيق الحكيم الذي وضع الحوار .. والكلامنجي هذه ليست من عندي، وإنما هي في إحدى شطحات الحكيم الصفة التى تميز الإنسان كما تصدى لتعريفه بأحدى مقالات الأهرام وقد أختار أن يصوغ له هذه الصفة ... باللهجة التركية.. التي يحبها جداً.. ولأنه أيضًا في بعض حالات غياب الوعي نسى الكلمة العربية التي تدل على الكلام.. هذا هو أحد الأقنعة العربية التي يزف بها فيلم عدواني هو مقدمة لغيره .فيلم يسمونه بالجرأة وبغير حياء فيلم "محمد رسول الله" بينما هم يصعدون به بإصرار حرب "الكلمة والصورة " ضد التماسك العربي.. وأمل وحدة العرب .. وأمل أكبر في نهضتهم، ووحدتهم أولاً – قبل وحدة العالم الإسلامي المتباين اللغات والحدود على أساس الإسلام..!

الفصل الرابع

والآن ما هو البديل عربيًا وإسلاميًا
من موجة الانحلال العقلي بالرواية والمسرح

بين القديم والجديد:

واليوم إذا أردنا أن نتدرج من الخروج من حمأة الفكر الخيالي، والخرافي الأسطوري، لنحقق الأصالة العصرية في وعينا للواقع، ونحن نفكر ونعبر مع هذا الواقع تفكيرًا حقيقيًا، ونعبر تعبيرًا أدبيًا علميًا.. سنجد من البداية في ضوء ما سبقت الإشارة إليه في فصول هذا الكتاب – أن الأمة العربية تعيش في مفهوم القديم والجديد بين نارين من نيران الخيال الكاذب، والخرافة الباطلة.. فلقد أحاطت الخرافات بالتراث الإسلامي المدون حتى كادت أن تستوعبه، وأن تعزل الصحيح منه لتعلو بالزائف، وتقدمه على أنه الصحيح.. كما أن الجديد في التفكير والتعبير هو هذا البلاء القصصي المسرحي اليوناني بجذوره الضارية في الوثنية اعتقادًا وتصورًا، وتفكيرًا وتعبيرًا.. مما انتهى أمام أعيننا إلى ضياع أصحابه في أوروبا.. واحتراق أعصابهم به.. وهم في ذروة قوتهم المجنونة بالأدوات والأسلحة..!

إننا ونحن نكافح الخرافة العصرية بجذورها القديمة لا ننسى أن نكافح في تراثنا ما استحكم في أكثر مدوناته من الخرافة القديمة التي تسود أكثر الجانب الديني في حياتنا العصرية.. هذه الخرافات التي نبه إليها القرآن في قصصه عن الأمم السابقة، وبخاصة عن اليهود.. وهي الخرافات التي انتبه إليها بعد أن استرجعها اليهود والشعوبية في أثواب إسلامية مزيفة إلى المجتمع العربي الجديد – عدد كبير من أعلام المسلمين الأولين.. بينما لا يزال عد من المؤلفين المعاصرين يحمل هذا التحذير بتنقية التراث منها ويزيد من بيان الخطر من كل هذه الخرافات التي لم تكن لتجد لها صيغة تتستر فيها، وتتمطى بداخلها أسطوريًا غير القصص المخترعة..!

في "الإتقان" أن الإمام أحمد بن حنبل قال عن مجالات الاختراع والدس على المسلمين "ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي"!

ويقول أحمد أمين في كتابه "فجر الإسلام" وهو يقدم لمحة على مشهد من مشاهد الوضع في التفسير اعتمادًا على الرواية التي دخلها الكذب الإسرائيلي ويعلل ذلك: "إن كثيرًا من الشعوب المختلفة ذوات التاريخ دخلت في الإسلام، وهؤلاء أخذوا يدخلون تاريخ أممهم ويبثونه بين المسلمين العرب، إما عصبية من لقومهم أو نحو ذلك، فكثير من اليهود أسلموا وهم يعلمون كثيرًا من تاريخ اليهودية وأخبار الحوادث حسبما وردت في التوراة وشروحها، فأخذوا يحدثون المسلمين بها، وهؤلاء ربطوها بتفسير القرآن أحيانًا، وبتاريخ الأمم الأخرى، وإن شئت فاقرأ ما في الجزء الأول من تاريخ الطبري تجد منه الشيء الكثير مثل "وحدثني المثنى بن إبراهيم قال: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني أبو معشر عن سعي بن سعيد عن عب الله بن سلام أنه قال: إن الله بدأ بالخلق يوم الأحد، فخلق الأرض في الأحد والاثنين وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، خلق السماوات في الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم على عجل، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة"!!!

ثم يقول أحمد أمين: "وكثير من هذا النوع روى حول ما ورد في القرآن من قصص الأنبياء، كذلك كان للفرس تاريخ، وكان لهم أساطير، فلما أسلموا رووا تاريخهم وأساطيرهم، وكذلك فعل النصارى.."!

وفي الإشارة إلى مرحلة الوضع والتخييل واختراع القصص وتقويض أركان التاريخ الصحيح والقصص الحق – يقول المستشار عبد الحليم الجندي في كتابه عن "أحمد بن حنبل": "وكان بعض الوعاظ في ذلك العصر يطلقون الأعنة للأخيلة، فهم يتخيلون ثم يخالون، أو يشبهون

ويجسمون، أو يلهون الأذهان بالتزويق والتلفيق، أو تأويل الحديث والقرآن، أو يعظون بأحاديث موضوعة"!

ثم يقول: "يقول الفضل بن مهران -في عصر ابن حنبل- قلت ليحيى بن معين: لي أخ يقعد إلى القصاص. قال: انهه.. قال: إنه لا يقبل.. قال: عظه.. قال.. لا يقبل.. أفأهجره؟.. قال: نعم -فأتيت الإمام أحمد بن حنبل فذكرت له نحو ذلك فقال: قل له يقرأ المصحف ويذكر الله تعالى في نفسه، ويطلب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن هذا الاجتماع محدث "أي إن مجلس القصاص الملفق بدعة" قلت: فإن لم يقبل أوأهجره؟ فتبسم وسكت"..

أوليس هذا الذي كان ينهى عنه أحمد بن حنبل وأصحابه، ويكادون يهجرون من يأخذ به وهو مجرد الاستماع إلى التلفيق والتخييل وليس جريمة الوضع والاختلاق نفسها.. أليس هذا قد أصبح المناخ الذي يسود برواية الغرائب والأكاذيب مما لا أصل له في الكتاب والسنة — أكثر مجالس ومنتديات وكتابات وكتب المتصوفة والدعاة باسم القرآن والإسلام.. في عصرنا هذا.. عصر الرواية الخيالية، والمسرح التلفيقي، والأفلام التي تتاجر في العنف والجنس، وتقتل الواقع بالخيال، وتدمر المستقبل في متعة لحظة قصيرة: مملوءة بالأكاذيب..

والأغنية أيضاً:

ونار ثالثة يشعلها الغواة أيضًا بين النارين.. نار الخرافة القديمة والخرافة العصرية وهي النيران الأكثر تغلغلًا بغير جهد يذكر إلى أوسع الجماهير، وفي أعماق الحساسيات الموجهة للإنسان.. ونغني بها الأغنية.. الأغنية التي لها ألف وسيلة لتطير إلى الأفواه، وتتفجر في المشاعر، وتذهب

بالعقول، وهي تلخص كل مرض الأثارة بالخيال، والتنفيس الجنسي المرضي، في نغمة غاوية عارية، ترقص بوسطها، وتغمز بعينها، وهي تدفع المتأثرين بها إلى هاوية الضياع والابتذال والهستيريا بين حدي الشبقية والعهارة كما يقول الدكتور حسين فوزي.

حول هذه "الأغنية" التي أفلت عيارها منذ جعلها الانجليز، كما جعلها مزاج الإقطاع، محذرًا وشاغلًا للشعب عن قضاياه الوطنية والقومية والاجتماعية يقول الصديق فرج عبد الرازق العنتري سكرتير عام نقابة المهن الموسيقية والعضو الفني الموسيقي بهيئة السينما والمسرح والموسيقى بوزارة الثقافة:

"ظلت الأغنية المعاصرة في المدينة تتجه باستخدام مؤثرات عجيبة وشاذة من البكاء والتباكي الملحن - إلى محو الشخصية، وتعطيل الفعالية الواعية أمام مواقف الحياة.. وعندما لم تحصل على البديل الصحيح لها مستمدا من أعماق التراث الشعبي السلوكي، والنغمي، في القرية المصرية فإن الشباب المثقف قد بدأ بعد مراحل من الوعي السياسي ينصرف عنها بإباء، ولكن ليجنح مضطرا إلى مسارات لها نفس الخطورة والوعورة.."

ثم يقول:

"فأولا.. هذا المسار المتفرنج الذي يعكس طابع ضياع الشباب الأوروبي، والذي يأخذ شكل إيقاع "الجاز" والصراخ بالألفاظ الأجنبية، وطبيعي أن شحن وجدان المتذوق لهذا الفن الهمجي الحديث لا يتم إلا في جو ضوء أحمر، وكأس، وانقلاب من كل الضوابط بغير يقظة أو وعي.. فهذا هو أحد البدائل في غيبة "أغنيتنا" المعبرة عن يقظتنا كما كانت تعبر عنها الأغنية المصرية وهي تصحب كل ثوراتنا في العصر الحديث.."

"ثانيا.. ظهرت في مسار آخر هذه "الأغنية السياسية" الهستيرية أيضًا، والتي أصبح يتداولها عدد غير قليل من الشباب المثقفين، والتي تنسب إلى "الشيخ إمام" وهي في شكلها ومضمونها بيان عن فكر سياسي رافض، أخذ مسحة من الترنيم ليس فيها من الفكر بقدر ما فيها من النكتة اللاذعة أحيانا، على أن هذه الأغنية السياسية بين الشباب المثقفين هي أيضا مؤشر على غياب الأغنية التي تصدق مع الحياة، وهي تعكس طموحهم الإنساني ونبضهم السليم.

"وثالثا ظهر تحت هذين المسارين مسار "سلبي" ليهتز به رجل الشارع، وطفل الحارة، في نوع من اختلاج رقص الزار بعد إشعال مفاجئ لحميا الجنس من خلال هذه الأغنيات المسوسة ذات الإيقاع الغامز بعين النبْر، والتي عرفت باسم "العدويات" والسح والدح والتي تستهدف أساسا ترقيص النصف الغريزي الأسفل على صوت شخير القوى الواعية في النصف الأعلى"[1]

ثم يقول في الإشارة إلى البديل المهجور: "على أن القرية العربية في مصر وفي كل الأقطار العربية لا تزال تلتزم بالشكل الفني العربي الأصيل ميزان الشعر في البحر البسيط: وذلك في الموال الذي سجّل به الفلاح المصري في القرية، وابن العرب في المدينة، كل مواقف النضال الوطني والقومي، وكل ما أمكن التعبير عنه رغم التخلف المعتمد بوطأة الاستعمار عن الحكمة العربية ونظرية العلاقات الإنسانية في ضوء الدين.. هذا الموال في مصر أو الميجانا والعتابا ونظائرهما في الشام والعراق. أو الدوبيت في السودان، أو أجزاء النوبة الموسيقية في المغرب - هو مصدر الانتباه لمنابع الأصالة الغنية - بعيدا عن التخريف والإثارة. وعن هذا الاختيار المر بين أغاني الذل والأنين أو أغاني المصروعين والممسوسين.. هذه

المنابع التي يمكن أن تساعدنا الآن على أن نخطو الخطوة الأولى الموجهة نحو الأغنية السمحة المعبرة عن جمال آفاق ومشاهد أوطاننا الغنية بدواعي الإنسانية والسلام كما تفعل "فيروز" وحيدة بالنسبة للبنان.. الأغنية المعبرة أيضا عن جمال ونقاء نفس الإنسان العربي المؤمن عندما يحب حبه العفيف لا الفاجر.. نوع الأغنية العفيفة القوية ببساطتها وعمقها الشعبي وإطارها النوراني من طبيعتنا كما تقدمها فيروز وحيدة أيضا.. وأنها أخيرا أو أولا الأغنية التي تسجل نضالنا القومي، وتزيد تعميم حوافزنا له، وتجسيده بالنغم والمعنى الخالد لآمالنا وتقدمنا من ورائه.. كما قدمت فيروز للمرة الثالثة عن فلسطين.. وكما قدمت أم كلثوم أيضا من بعض حسناتها "أغنية" الموقف النضالي، وبعض القصائد الدينية.. وإن يكن بالقدر الذي لم يتجاوز - داخل الأعاصير الهوجاء التي عصفت. ولا تزال تعصف بالأغنية العربية - حدود ما نسميه أضعف الإيمان ..!"

ثم يقول "لو أن صانعي أغنية المدينة كانوا ممن أثمر فيهم عيش بلدهم وملحها لرجعوا فورا إلى منابع هذه الثروة النغمية والسلوكية في القرية المصرية. ولتمسكوا بالمبدأ القومي في الفنون والآداب، وهو الذي يرى أن الشعب هو الذي يصنع موسيقاه، ويحدد حدود آدابه، وما على الأدباء الفنانين إلا تنسيقها، والتعبير عنها.. ذلك أن "النغمة" السليمة، والخالية من هزات المرض العصبي، أو الإيحاء الاستعماري.. مهمة أيضا مع غيرها من الدعائم في "الفكرة" و"الكلمة" و"المادة" في صياغة القانون.. من أجل إيقاظ الفطرة وجدان السليم، وضبط الإيقاع اللازم في حركة المجتمع لتحقيق سلامه النفسي والعقلي والاجتماعي"

العزلة عن القرآن:

لقد رأينا أن كل القوى المعادية من أول ظهر الاختلاف في القصص الخيالي في التراث إلى بداية الحملة القصصية المنظمة مع الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر لإنشاء دعائم المسرح الأوروبي الدعائي لأوروبا، والمنوم عن واقع العرب - قد رأينا كيف أن كل هذه القوى كانت تجعل هدفها المركزي الخفي هو الابتعاد بالعرب عن منهج القرآن في قصصه الصادق، وخطابه المباشر، وغاياته من الحفاظ على سلامة التعبير عن حياة الإيمان، وعن مقومات مجتمعه في اللغة المبينة، والتاريخ الحي، والدين الحق..

من أجل ذلك لم يكن غريبا أن تفرخ الآراء الاستشراقية التي نشطت في المناخ الاستعماري، ومسخ سياسة التعليم على يد دهاة الإنجليز، فيظهر من بين العلماء المتعالمين من يعلن في محاضراته وكتبه عن نفس الأفكار الأوروبية العدوانية تجاه القرآن الذي هو شمس الإسلام الدائمة، ومن يعمل وراء التظاهر بانتهاج الديكارتية في التفكير مثل طه حسين، أو بادعاء الأمانة العقلية ستارا للهوس بالعدوان على العقل، والخروج في أكثر أثواب التهريج الفكري ابتذالا للقول، باسم العمى والضلالة، وليس باسم العلم والبحث، مثل ما قاله أمين الخولي ومحمد أحمد خلف الله، وأشباه لهما غصوا باضطراباتهم العقلية فنثروها على وجوه تلامذتهم..!

والهدف كان - والجيش الإنجليزي لا يزال مقيما في ثكنات قصر النيل - هو تنزيل "التنزيل" عن درجة "الوحي الإلهي" إلى مستوى "العمل الفني" في القصص.. ومع ذلك فلم ينزل "التنزيل" عن درجته العليا في نفوس المؤمنين، الذين يقاسون بوعيهم وعملهم، وليس بكثرتهم وغثائهم..

كذلك فإن قامات الأقزام لم ترتفع قيراطا بهذا الهوس والإسفاف بالأمانة والعقل.. بل ساخت بهم الأقدام!

على سبيل المثال من الأقوال التي دمغت وجوه قائليها بقترة الكذب، والتلفيق الشعوبي، والمس الإغريقي، قول أمين الخولي استمرارا في المنهج التشكيكي لمدرسة طه حسين، وهو يصف الصدق البياني في قصص القرآن بأنه عرض فني أدبي وليس عرضا تاريخيا تحقيقيا: "إن عرض القرآن لأحداث الماضين، ووقائع حياتهم، والحديث عن تلك الأحداث والأشخاص، ليس إلا العرض الفني الأدبي لا العرض التاريخي التحقيقي" ثم يرتب على هذا التصوير الاختلاقي منه لقصص القرآن بأنه مجرد عرض فني أدبي - أن يطلق وسواسه الحبيس فيقول بغير أمانة: "وعلى هذا الأساس يستطيع المثقف الراقي حين يتدين أن يعتقد في تسليم مطمئن بحديث القرآن الفني في قصصه، ومع ذلك يحقق ويحلل في عمق ووضوح هاتيك الأحداث، وأشخاص أصحابها، وينفي في ذلك ويثبت مطمئنا إلى أن هذا لن يصادم بحال ما ذلك العرض الفني الآخر، وأن هذا العرض الفني مهما يقل التاريخ في أحداثه لن يمس سلامة القرآن وصدقه"!

يريد المتعالم في لحظات ضعفه أن يقول: إن حقائق التاريخ شيء والأحداث التي تحدث عنها القرآن شيء آخر.. الأولى علم.. والثانية فن.. ومهما اختلف العلم التاريخي الصحيح بتحقيق أمثال الشيخ أمين الخولي والشيخ خلف الله عن الوقائع التي أوردها القرآن في مجرد عرضه الفني الأدبي.. فاطمئنوا.. في حالة ما إذا كنتم متدينين فقط.. إلى أن هذا التناقض القائم بين إيمانكم وبين ما يدعيه هذا العلم الجديد.. ليس قائما.. فالتاريخ الذي عليكم أن تبحثوا فيه بعيدا عن وقائع القرآن صحيح.. والقرآن البعيد أيضا عن هذه الوقائع الصحيحة.. هو من أجب خاطركم إن

كنتم متدينين.. صحيح أيضا"!!.. أية هاوية من الكذب الرخيص تردّى إليها الشيخان!

ويمثل هذا الهوس غير الواعي في العدوان على عقيدة أمة العلم والعقل، وفي لحظات غفوتها، وهي في قيود أسر الأمية لأكثر أبنائها - يرفع محمد أحمد خلف الله صوته بالتعالم الهاذر في كتاب "الفن القصصي في القرآن" ليشير الزعم بأن القرآن كتاب "فني" أيضا ربما مثل الإلياذة والأوديسة في نظره - وفيه أساطير! فهو يقول في لغة غير علمية: "إن القرآن نفسه لم يحرص على أن ينفي عن نفسه وجود الأساطير فيه وإنما حرص على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام وليس من عند الله".

ولقد أوفى الأخ عبد الكريم الخطيب في كتابه "القصص القرآني" حق الرد على هذه الادعاءات الصورية المسرحية في كلام الخولي وتلميذه وروايته، وهو يصور مصدر الجنوح الفكري في رؤية محمد أحمد خلف الله لقصص القرآن بحيث انعكست عليها أساطيره هو لا ما زعمه من وجود أساطير في القرآن، وذلك حيث يقول الخطيب: "ومع اعتراف الدكتور خلف الله، وإيمانه بأن القرآن من عند الله، وأنه كلام الله، فقد نحىّ هذه الحقيقة جانبا، وساق القرآن سوقا إلى ساحة "الفن" وحكم فيه مقاييس الفن، وأخذه بمعاييره، كأي كلام أدبي يصدر من كاتب أو خطيب أو شاعر، وذلك فيما قص من قصص وصور، ومن أخبار وأحداث. وهذا التناول قد سمح للدكتور خلف الله بأن يقول في القصص القرآني أقوالا تنزع عن صفة الصدق الذي له، والذي لا ينفصم عنه أبدا، لكي تلحقه أقواله بالقصص الأسطوري، أو التمثيلي والتخييلي.."!!

وهكذا كانت الخطى الحثيثة التي تركض وتدبدب في الظلام، وفي العتمات، تستهدف عزل الشعب العربي المؤمن عن القرآن تفكرا وتعبيرا ويهجا. وهي تتلاقى كلها بغير خجل في جهود من يخطونها بالعمد أو بالجهل وسواء أكانت هي خطوة في ظلام شارع المدينة بالأغنية التي تقول بتشجيع الاستعمار "ارخي الستارة اللي في ريحنا" أو كانت هي الأغنية التي تحاول غزو القرية المعتمة بالتخلف بجوار تلك الحانة التي أنشأها تاجر القطن اليوناني داخل دكان للبقالة والتسليف بالربا وبيع الخمر، في الخطة الاستعمارية الواسعة والتي تقول - أي الأغنية على لسان القروية العفيفة لغزو خيالها، وإصابتها بالمس بينما العمدة يسكر عند الخواجا ويبيع أرضه: "كان إيه جرى في المندرة؟.. ما اعرفش.. كنت صغيرة!!".. أو كانت الخطوة الخطرة هي "النظرية" الخيالية في منطق الخواجا اليواناني نفسه في خمارة القرية.. التي يقول أصحابها للعبث بعقول شباب الجامعة في بواكير أعمارهم "أبشروا.. القرآن أساطير أيضا"!!.. نعم كانت هذه الخطى التي صنع الاستعمار كلماتها وإيقاعها وهدفها تسير في كل وقعها المتباين في المستوى ونوع المجال والناس منسجمة تماما نحو هدفها الشرس لتأكيد عزلة هؤلاء الناس الذين ينهش الاستعمار معتقداتهم ولغتهم وآدابهم، كما افترس موادهم وأخمد نشاطهم وحيويتهم، وأذهانهم إلى فترة ما غير قصيرة عن أنفسهم..

العربي المعاصر:

لقد كان هذا يجري بعنف في الثلاثينات والأربعينات لتطويق الصحوة الوطنية والقومية وقيادتها إلى الطريق الخاطئ. لقد حدث ذلك في ظل الشقاق الحزبي.. في ظل الأحزاب التي تبارت في رفع مفهوم أوروبي غريب على ساحة التحرير، وسارعت إلى صنع الأثواب السياسية بالمفاهيم

الأوروبية المتنوعة لتقوم بأدوارها المستمرة من عهد إسماعيل لمحاكاة أوروبا فيما لا ينفع.لقد كانت هذه الأفكار الغربية التي تعمل على تقويض التراث وهدم الأصالة ترفع أصواتها مع الشعور بالزهو، والرضى العام من الباشوات، بينما كانت هذه الأصوات تختلف على مصلحة وطن واحد وسط الهتافات التي تزعق "يحيا سعد" و"يحيا عدلي" و"يحيا صدقي"..!

كانت هذه الأصوات في التجهم على حقائق القرآن، والتي أدانها قرار النائب العام محمد نور في محاكمته لطه حسين كما نشرتها مجلة الهلال في عدد أول يوليو 1970 عن أقوال مشابهة - كانت هذه الأصوات تتغنى وتتبجح في ظل الفرقة السياسية الحزبية إلى أن تحرك الشعب بثورته سنة 1052 ليظهر بإرادته داخل تجمع وتحالف أبناء القرى والمدن.. تجمع كل الشعب من الفلاحين والعمال والمثقفين، في تحالف جاد باتجاه المصالح الوطنية والقومية فهو لا يسمح بمثل هذا الالتواء بالثقافة عن منابع الشعب، وعن تراث الأمة، كما لا يدع مجالا للزعم غير العلمي بأن قصص القرآن قصص فني أدبي وليس قصصًا تاريخيا تحقيقا.. هذا الزعم الذي لم يستطيعوا تأكيده على أي حقبة من حقب التاريخ التي تناولها القرآن في قصصه بالحق العلمي، والصدق البياني والذي جاء توفيق الحكيم في أولى تجاربه القصصية التاريخية وهي "أهل الكهف" فأثبت عجز هذه المدرسة الأوروبية عن شيء غير الخرافة، وغير الأسطورة التي قادت الحكيم إلى قسر التاريخ الحقيقي باسم دواعي الفن لكي يسبغ الأفكار الرومية بهواه على هذه القصة البكماء، بل أن يقلب وقائع هذا التاريخ رأسا على عقب وهو يفترض بجبروت هواه أن تحدث حادثة "أهل الكهف" في بلدة طرسوس البيزنطية، وبيت فتية آمنوا من أهل الروم..! بل ومن أبناء الطبقة الظرفاء في بلاط ملكه المزعوم دقيوس.. وحيث يزعم مسبقا في حوار ظرفائه الروم

والذين آمنوا أن آمنوا أن مثل هذه الحادثة وقعت قبل ذلك فيما ترويه بعض الأساطير اليابانية.. أي إنه ليس في نوم أهل الكهف في قصص القرآن أي آية ترتبط بالإيمان ولا خلافه.. وكيف وقد جعل ظرفاءه من أبناء الطبقة الذين آمنوا يظهرون أمام مشاهديهم من الأروام أيضا بعد صحوتهم الموقوتة بمظهر المجانين الذين كان همهم الوحيد البحث عن الدنيا التي تركوها بالإيمان.. عن المعشوقة والأسرة والبيت والولد.. بينما يجدفون بالإيمان.. ويسخرون منه بلغة توفيق الحكيم!!

لقد قامت الثورة والصحوة العربية والاجتماعية والإنسانية في مصر بعد ذلك، ورغم ذلك، حيث أصبح التقدم الطبيعي مع التاريخ الحقيقي، ومع سنن العلم، وليس مع الشطحات والخرافات التي لا يمكن قبولها تحت أي شعار.. كما أصبحت الشريعة الإسلامية على الأبواب، مع حصيلة يقظة نحو ربع قرن.. الشريعة التي تبنى بالإيمان فوق أنقاض هذا الهذيان الطويل مجتمع الوعي والصدق، والطهارة الأخلاقية والعمل الجاد..

ومع ذلك.. مع اقتراب القرية إلى المدينة.. ومع التحول إلى اعتبار الجد والصدق والوعي الاجتماعي باتجاه السواسية صفات أساسية للتقدم، تظهر في رجحان النظر العلمي شيئا فشيئا، وفي الحاجة إلى ما هو أكثر في التعبير والسلوك من الوضوح بالفكر تجاه الإيمان.. مع كل ذلك فإننا عندما وصلنا بداية الأمان على الطريق، وأول العبور إلى الصحيح، تبين لهذا الإنسان العربي أنه لا يزال يسابق جهد المستعمر حتى لا يجرده من معالم ومناخ الرؤية لطبيعة هذه "الأصالة" التي أصبح يلح عليها منذ ورقة أكتوبر للرئيس محمد أنور السادات، حتى يعيد إحياءها في حياته، وإحياء حياته بها، في ثوب ومفهوم وطابع العصر..

بكل بساطة.. ومن النظرة الأولى إلى العربي المعاصر نجد أن جميع المراحل السابقة في عهد الاستعمار قد أسلمت هذا الإنسان العربي إلى عصر الثورة في إطار هذه النقائض التي لا تزال تعبر عن تبعيته الفكرية والقانونية والفنية لغزاته الأجانب في الظواهر الآتية:

أولا: مجتمع يحكمه القانون الأوروبي الذي يدمر قيمه، ويطمس ذاته، ويوقع هذا الانفصال في حياة هذا المجتمع بين الحقيقة القانونية وبين الواقع الاجتماعي..

ثانيًا: بيت يسكنه أكثر المواطنين في القرى من الطين يحمل كل دلالات التخلف الطويل الذي تتجمد به إرادة الإنسان المصري المنتج للغذاء داخل أغلال الجهل بالقراءة والكتابة، والعجز عن الرؤية العلمية للواقع الجديد باتساع الوطن والعالم.. أو مسكن في المدينة - كيفما كان مستواه - في عمارة بالطراز الأوروبي، الجاثم وسط مناخنا المشرق بطابع بلاد الجليد.. طراز لا هو عربي إسلامي.. ولا هو حديث في وعيه وتلبيته لحاجة الإنسان في مناخ عربي ومدينة إسلامية..!

ثالثًا: إنسان يفقد حتى الآن على جسده، وعلى رأسه، في المدينة زيه القومي الذي تحققه الآن رغم ثقافتها الأوروبية باكستان الإسلامية والهند الهندوسية.. فلم يكن ذلك مدعاة لشعور مواطنيها بالنقص، أو لنزولهم عن مستوى ملاحقة العصر في نظر السادة الأوروبيين..! .. بينما يواجه الذين يتمتعون بهذا الزي القومي من غالبية سكان القرى هذا الشعور الذي يثيره المتفرنجون في المدينة ضد هذا الزي، المنحدر إلينا من عصر الرسول، وما قبله، وما بعده- بتهمة لا علاقة لها به وهي التخلف بالجهل والفقر والمرض!!

رابعًا: لغة هذا الإنسان العربي المعاصر التي دخلها من طريق مسرح الروايات الرخيصة، وكلمات الأدباء العوام - أعداد كبيرة من التراكيب والكلمات الأوروبية، فضلا عن الإلحاح على اللغة الفصحى بالحرب، ومع الإصرار على إهمال تعليمها، أو العناية بمدرسيها، في مدارس التعليم العام، بل ومنذ الطفولة، إلى أن أصبحت العامية أو تكاد هي اللهجة الشائعة بين المتعلمين!

خامسًا: علاقات المجتمع نتيجة ذلك تغيرت طبيعتها داخل هذا المناخ الغريب لقد تغيرت إنسانيا وبعيدا عن طبيعتها العربية الإسلامية التي لا تزال تحس أثرها حتى في كتابات الرحالة الأجانب إلى أوطاننا خلال المائة سنة الأخيرة.. بل ولازلنا نجد بقاياها فيما اصطلح الاستعمار على تسميته بالأحياء الوطنية في عواصم البلاد العربية من القاهرة حتى بغداد ودمشق شرقا.. وحتى قرطاجة والجزائر والرباط والدار البيضاء - في أقصى الغرب.

هذا بينما في قلب هذه العلاقات الواهنة والاغترابية بين أهل السلام والألفة والإيثار في طبيعتهم، وطبيعة علاقاتهم - ترتفع أصوات مقرئي القرآن.. أصوات باعة البركة.. لا أصوات الدعاة.. لتشغل مآتم العزاء.. ولتصل عبر الإذاعة إلى القرية من أجل البركة أيضا.. وليس في مقام الدعوة والتثقيف والسلوك..

نعم.. إنه القرآن يقف صامدا وشامخا رغم ذلك في مواجهة قذائف الأعماق الهدامة في إنتاج الرواية الخيالية، والمسرحية الهابطة، والفيلم العدواني.. ليس الفيلم المصري فقط، وإنما الفيلم الصهيوني القادم من الساحل الغربي لأمريكا.. حاملا أساطير وأقانيم معابد وديانة العصر.. الخمر والجنس والجريمة!!

الشريعة والعلم:

وتأتي حركة التصحيح لتحدد سلامة الاتجاه بحركة المجتمع بعد الثورة وبعد التخلص من الاستعمار العسكري، وبداية البناء للاستقلال الاقتصادي، فتعمد إلى تقويم هذه الحركة وتخليصها من بعض الخطايا والأخطاء، وذلك بمنطق قومي، ومنهج علمي، يرتفع به في سنة 1971 شعار دولة العلم والإيمان، ثم يصدر الدستور بعد تعديله يحمل تأكيدا لهذا الشعار في مادته التي تنص لأول مرة في دستور مصري حديث على أن "مبادئ الشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع".. وفي سنة 1973 تصدر وثيقة أكتوبر التي تشرح تركيب المنهج التقدمي السليم على أساس التكامل بين جذور الأصالة وواقع العصرية.. وهكذا في سنة 1976 بدأت اللجان المتخصصة تعمل للفراغ من تقنين الشريعة الإسلامية، ليعود الحق إلى أهله، وينتهي التناقض إلى الأبد إن شاء الله بيد الحقيقة القانونية في حياتنا وإيماننا وتراثنا وبير الواقع الاجتماعي.

وخلال هذا وذاك كانت أخلاق القرية، والدعوة لها في الكلمات الصريحة، وبالأسلوب الخطابي المباشر من رئيس الدولة إلى الشعب تتردد بالكلمة والأسوة، وبالقوانين الجديدة من أجل الحد والصدق والتسامح، ومن قرية ميت الكوم وصلت إلى المدينة صور رئيس الدولة الذي يفخر بقريته، وبأنه فلاح مناضل عن شعبه، ومع شعبه - لابسا ذلك الثوب الأصيل في تاريخ أمتنا، الثوب الذي لا يزال يلبسه أكبر تعداد من أبناء أمتنا العربية، من فئات واضحة تجمع بين فلاحين ومثقفين وعلماء وملوك.. إنه ثوب الفلاح الذي وصل إلينا من عصر الرسول وما قبله.. وتعبيرا عن مناخنا لا ضده.. ومع الثوب العباءة العربية.. ومع هذا كله إشارة نحو

المستقبل.. مستقبل صحة الإرادة الشعبية، وصحة تطبيقاتها باتجاه عقيدتها وأصالتها..

وهكذا مع التوسع في تشجيع العلم، وفي استكمال الحرية التشريعية بقوانين الشريعة الإسلامية نستعيد، ونعد المناخ الصالح، لمنهج التعبير الأفضل في الأدب العربي الذي طال صمته على غير عادته، وعلى الرغم من صحوة الشعب إلى الكثير من حقوقه.

إننا باستعادة هذا المناخ الصحي داخل مجتمع يدور بحركته بقوانين شريعة الله، يتوارى بالضرورة هذا المناخ الذي صنعته الأحزاب، ولا تزال تحاول أن تصنعه في ظل هذه القوانين الأوروبية التي أعدها أصحابها هناك لنظام وضعي، لا ديني، متغير الأصول، غير منضبط القواعد.. نظام يفترض بأحزابه القابلة للتشكيل والتناقض قيام الصراع الدائم بين السلطة والشعب، بهذا الأسلوب الدعائي، والخيالي أحيانا كثيرة، والذي يؤدي إلى القلق الدائم وإطالة المنازعات، وتخليقها إن لم تكن موجودة..!

إننا باستعادة هذا المناخ الصحي داخل مجتمع تصنع علاقاته، وتبنى إنسانية، شريعة الله.. نستطيع أن نكشف ما غاب عنا طويلا من أن كلمة "الاشتراكية" التي نحاول أن نأخذ بها من منابع أوروبية - شرقية أو غربية - هي بلفظها الأوروبي المعاصر Socalism أو سوشيالزم تشير من أول وجودها إلى الكلمة العربية التي نقلتها أوروبا من بين الكثير الذي نقلته - على قدر وعيها - من كلمات وركائز الحضارة العربية الإسلامية وهي بالذات كلمة "السواسية".. الكلمة العربية المؤمنة، التي عجزت اللغات الأوروبية القديمة عن التعبير عنها بمفهومها في مجتمع المسلمين الإنساني، والمتساوي إنسانيا في الحقوق والواجبات، فأسرع الأوروبيون بعد عصر النهضة وبعد الحروب الصليبية يدخلون في لغاتهم هذه

الكلمة العربية حاملة معناها الاجتماعي الجديد على أوروبا الطبقية بمفهوم الرغبة والأهلية لبناء المجتمع على أساس "التساوي" بين أفراده، وذلك حيث يقولون عن المجتمع Society أو Societe، وحيث يشتقون الاصطلاح عن مذهب "الاشتراكية" من هذه الكلمة نفسها فيقولون Socialism أي "الاجتماعية" وهو الاصطلاح الذي نقول عنه بالخطأ عربيا "الاشتراكية" بينما المعنى الأساسي هو "الاجتماعية".. أو هو بالضبط عربي وإسلاميا "السواسية" التي ينطقها الأوروبيون اليوم بكل لغاتهم قريبا من هذه الكلمة، وانتماء على البعد إليها فيقولون "سوشيالزم" أو سوسيالية..

نعم.. سندرك في المناخ الصحي والمرتقب بتطبيق الشريعة الإسلامية في أحكام مجتمعنا أن الكلمة الصحيحة للدلالة على مفهوم الاشتراكية هي "الاجتماعية"، وأن الكلمة العربية والإسلامية لهذه "الاجتماعية" هي "السواسية" التي يستعملها الأوروبيون بأقرب ما يستطيعون من اللفظ العربي كما اعتادوا أن يستخدموا للدلالة على معنى "الميثاق" كلمة تشارتر التي هي Charter أو Carta، وهي منقولة بالمحاكاة إلى لغاتهم المفصلية من الكلمة العربية "شرط" أي العهد والميثاق، وكان أبرز استخدام تاريخي لهذه الكلمة عندهم في "الماجناكارتا" أي "الشرط المغني" أو "الشرط العظيم" على عهد الملك الإنجليزي جون 1215.

في هذا المناخ الصحي، القرآني، وتحت أحكام شريعة نتنفس فيها الحرية بأكرم معانيها الإنسانية، ونعيش "السواسية" الإسلامية بدلالتها الحقيقية عن الاشتراكية - يمكن مع النمو التعبيري في طاقات الشعب وحاجاته، ومع التوسع في التعليم، ورعاية التعليم الديني، وتعليم اللغة، أو نجد البديل الذي نطلبه.. البديل العظيم الذي نعبر به عربيا وإسلاميا - في هذا العصر الحديث - في مواجهة الرواية الخيالية والمسرح، والذي

نتجاوز به جميع مخاطر التفكير الخيالي من الانحلال العقلي، والسقوط الأخلاقي، وضياع المجتمع عن أهدافه الحقيقية في الحياة من أجل الحرية والتقدم والوحدة..

ما هو البديل:

والآن ما العمل؟.. إذا صح كل هذا الكلام الصادق بأدلته وبرهانه فما هو الدليل؟.. ماذا بعد.. أو ماذا غير؟.. هل تغلق المسارح، ونجلس على المقاهي في الأحياء الشعبية لندخن الحشيش.. أو نقيم ليالي عنتر وأبو زيد أو نسترجع الحكواتي الشرقي الكذوب والأراجوز.. أم نفتح أبواب التصوف على آخرها ونغيب جميعا في حلقات الذكر!!

البديل رغم ضجيج الأبواق في بعض مواقع الثقافة وأجهزة الإعلام.. ورغم غطيط بعض المؤسسات والجمعيات الدينية التي لا تصنع شيئا هنا أو هناك.. البديل هو الأصيل.. البديل مع عملية الاعتدال الصحي، وليس الانقلاب الصحي، هو مع وضوح حاجتنا الشديدة إلى الحد، ومع استمرار أهبتنا للحرب عن الأرض التي يحتلها العدو - هو بالدرجة الأولى أدب مباشر نجمع به الحقائق، ونتزود من طريقه بالعلوم، ونصحح برؤيته أفق التاريخ العربي الإسلامي الذي وضعه الغرب، وهو يكتبه بنا من خرافات الشرق، وبأطماع الاستعمار - على شكل "أسطورة" رهيبة الظلمات، تختفي فيها الشخصيات الرئيسية، وتتباعد ملامحها ومعالمها، بينما لا تظهر داخل هذه الأسطورة المعروضة عن تاريخنا إلا بروق ورعود النزاعات والخلافات، وحروب الثأر والعصبية، والصراع السياسي بين الهاشميين والأمويين، وبين الأمويين والعباسيين، وبين العباسيين والجنود المرتزقة من الترك والمماليك.. وكأن تاريخنا الزاهر بعصور السلام، والرخاء، واجتماع الأضداد في توافقية وألفة في أعظم مناخ للحرية ينشد فيه جميع الناس من

العلماء والعامة أعذب الشعر، ويروون الأخبار، ويسمعون إلى القصص التي بدأ يدخلها "التخييل" بتأثير الرفاهية، وتجاوز حد الكفاية، .. كأن هذا التاريخ الزاهر بالسلام الاجتماعي، والسلام النفسي، والعلم والعمران، وبالرخاء والسواسية، خلال عشرة قرون.. لم يكن إلا مذبحة متصلة بغير هدنة داخل مجتمع خرافي من الكراهية والحقد، والجوع والجنون..!

ولقد يظن البعض ممن يتلمسون بخيالهم وجود وشائج قصصية مسرحية في التراث العربي يمكن بها تهجين الأدب المعاصر أوروبيا - قد يظن هؤلاء كما سجلوا في بعض كتيباتهم الدعائية للمسرح أن أدب الجاحظ القصصي في مثل كتابه "البخلاء" هو أدب قصصي يمكن تنشيطه أوروبيا.. أو مثل المقامات الأعجمية باللسان العربي.. أو نزولا إلى مستوى الحكواتي، والأراجوز، والمداح..!

والحقيقة التي تغيب عن بعض الدارسين المعاصرين لأدب الجاحظ من زاوية القصص أن الجاحظ قد ظهر في عصر تزايد السيطرة الأعجمية على الدولة العربية، وفوق أرضها، وإن يكن لسان هذه السلطة الأعجمية هو اللسان العربي الذي بدأ يدب إليه السقام حتى ليصبح على أرض العرب ما قاله المتنبي في مثل هذا الحال:

تـــرى الفتـــى العربـــي فيهـــا   غريـب الوجـه واليـد واللـسان

فحيث ولد الجاحظ في البصرة من أبوين عربيين تحت وطأة انقلاب السيادة باتجاه النمط الفارسي، والهوى الأعجمي، في قصور العباسيين ببغداد نشأ يحكمه كما يقول الدكتور أحمد كمال زكي في كتابه عنه - هذا الشعور المتولد من اكتشافه بداية انطواء الإنسان العربي عن هذا المجتمع.. وأن هذه الانطوائية مع التطلع فيه إلى الأحسن، ومع شعوره بهوان أسرته في مجتمع يتطاحن بالقوميات من رؤوسها جعله من اضطرابه

واهتزازه "يكتب في الشيء ونقيضه، متحدثا عن الكلب والديك - مثلا - حديثا يبدو عاديا أو يبدو كما لو كان صدى لولعه بالجدل العقلي، أو امتدادا - قد نوه هو به - لمنافرات الجاهلين، ولكننا لا نلبث أن نتبين صلته الوثيقة بالوضع السياسي والاجتماعي"!

ومع ذلك فقد كان الجاحظ بعروبته، وفي غير اضطرابه القلق، قد نشأ وتأسس بكل ذاته وفصاحته وحافظته نشأة الرواية، وقد قصد إلى البادية في أكثر من رحلة طويلة يرى بها أرض الأسلاف، ويسمع ممن بقى سليما بها من شيوخها وشبابها وأعرابها، كما كان ينتجع إليهم لنفس هدف التزود بالأخبار واللغة أكثر علماء الأعاجم..

وكتاب الجاحظ "البخلاء" يحكي عن هذه الأوضاع الاجتماعية من منظور القياس العربي الذي يرى أن "الكرم" هو أحد "أبعاد" المروءة في الفرد. والصحة في المجتمع. فلم تكن قصصه اللاذعة والماجنة والاغرابية أحيانا إلا أخبارًا تنتحل ثوب الصدق الإخباري، وهي في جملتها مثل الرسوم الساخرة للأشخاص حين تعرضهم في وضع مكبر أو مصغر بدلالة النقد.. فالقصص في كتاب البخلاء ليست قصصا خيالية وإنما هي في قالب "الأخبار" قصص تشبع فيها داخل مجرى الفصاحة اللغوية، والتعبير الخطابي المباشر - ألوان مستطرقة من السخرية، تتفق مع الترف، والفراغ وصراع التوأم الذي ولدته الدولة العربية الإسلامية الكبرى.. التوأم العربي الأعجمي الذي التصق به العربي والشعوبي في المدينة العربية، كي منهما إلى ظهر الآخر.. بينما أخذت الملامح والرغبات والخصائص تتباعد بينهما مع الزمن حتى انفك كل منهما عن الآخر..

وكان مع الجاحظ في توأم واحد شعوبي سافر هو إبراهيم بن سيار رفيق طفولته، والمماوج معه في تلقي متناقضات هذه المواجهة في كل

المجالات بين العروبة والشعوبية، والتي كان يخفف منها دائما هذا الثراء في اللغة العربية، وهذه السماحة في عقيدة الإسلام.. فكان أثره على الجاحظ كبيرا في كل زلاته التي وقع فيها بأدبه الدعائي، والتجاري، فكتب يمدح ويذم كلا من العرب والعجم.. ويتكسب ويسترشي كلا من العرب والعجم.. بكلام ملك به ناصية البيان العربي بحجم زمنه، وعلى قدر حاجته، ولم تكن تلك الحاجة كالتي نواجهها اليوم هي إقامة أمة على قوائمها من جديد، وإنما كانت حاجة لا تزيد عن التشاتم باللغة، والتقارب من التريص، ومغالبة الفاقة القائلة في مجتمع المرفهين بإضحاك هؤلاء المرفهين، وإرهابهم أحيانا بالهجاء داخل "نادرة" أو "خبر" بهذه السخرية المتمنعة بحجة اللغة، وحجة التاريخ.. وهكذا جحظ الجاحظ براوية أخباره الاضحاكية.. فجحظ له المرفهون بما كان يسعى إليه بينهم مت عطاياهم السخيفة!

أما "المقامات" التي حاول بها الأعاجم محاكاة الفصاحة بأسلوب الوشي وزخرف القول، مع الزاوية في نفس الوقت بالأدب العربي من طريق عرض السجع البلاغي في قماشة زخرفية، باهتة الخيوط والنسيج، فقد كانت أقرب ما تكون إلى سجع الكهان، ولم تكن مع مغيب شمس البلاغة العربية الأولى أكثر من نماذج من الأدب العربي لا تصلح للفهم، وهي في شكلها أقرب إلى بضاعة السجاجيد لتي لا تستخدم في شيء نافع، وإنما تعلق على بعض الجدران، في بعض المتاحف للفرجة فقط.. والتندر!!

دفاع عن الخطابة:

البديل ظاهر.. ومعلوم.. ومستقر رغم تباعده القهري في حياتنا المعاصرة، وهو لا يحتاج إلا إلى الإرادة الجماعية ليدخل حياتنا الجديدة..

وقبل أن أعرض لعناوين هذا البديل أشير بكلمة لابد منها إلى الخطابة التي كثيرًا ما أنحى عليها الجاحدون والجاهلون باللوم والتقريع.. فمن البداهة أن عمود كل قدراتنا ونهضاتنا كان هو "الخطابة التلقائية" أو التي يسبقها التفكير والأعداد.. لا نقول إن المجتمع الإسلامي بامتداده الذي حقق ما كان في نظر الروم والفرس أسطورة غير قابلة للتحقيق.. لا نقول فقط إن هذا المجتمع العربي والعالمي قام حتى اليوم على منهج القرآن الخطابي الذي أسقط كل الأساطير.. ولا على خطب النبي في أصحابه من المهاجرين والأنصار.. ثم خطبته إلى جميع المسلمين في حجه بعد عام الفتح والنصر.. بل نقول إن كل تاريخ الأمة العربية في جميع مراحلها حتى ثورة 1952 قامت فيها القوة التعبيرية الجامعة والقائدة للجماهير على أساس الخطابة والأسلوب المباشر..

في جميع مواقع الحسم كان الزعماء خطباء.. وفي العصور فيما بعد الدولة العربية الواحدة.. كان صلاح الدين المنتصر بعروبة ثقافته وإسلامه خطيبًا.. وكان عرابي الثائر الذي كسب جولة لمصر رغم هزيمته خطيبًا.. وكان سعد ومصطفى النحاس ومكرم خطباء.. وكان جمال عبد الناصر وهو يرتقي بكلمته من العامية إلى العربية خطيبًا.. بينما عرفت المنابر أنور السادات في الضيق والسعة.. وخارج الحكم وعلى رأس الدولة خطيبًا يتميز بأدبه السياسي، ومنهجه العقلي، مع طابع الإيمان وهدفه..

ولكني أذكر – مع وفرة الخطباء في جميع المجالات – مثالًا واحدًا لخطيب واحد يعرفه الخاصة والعامة في القاهرة.. خطيب أضعه في كفة وأضع جميع أدباء القصة والمسرح منذ بدأت الكتابة بهما في مصر في الكفة المقابلة.. إنه خطيب مسجد كفيف.. يبصر المصلون على صوته كثيرًا من الحقائق التي تهمل أكثرها أجهزة الإعلام والصحف، فلا

تتصدى لها، ولا تتحدث عنها، وتتركها معلقة أمام الناس الذين يتساءلون.. ويريدون إشباع حق النقد والتصحيح والتقويم.. إنه الشيخ عبد الحميد كشك الذي توجد مسجلات خطبه في المسجد الذي يصلي به، والذي يغص داخله وخارجه بالمصلين، كما توجد هذه التسجيلات لخطبه لدى جمهور كبير هو في وعيه وثقافته أفضل، وأجدى، في حيوية هذه الأمة من قراء القصص الرخيصة المعنى، والمسرحيات العربية المنهج.. ممثلة أو مقروءة!

إن الشيخ عبد الحميد كشك يعطي على الرغم من توقف أسلوبه على النقد شحنة من الحيوية والنشاط في الاتجاه الصحيح، يبث بها الشعور بقيمة الحرية التي تسعه بها الدولة هو وجميع جمهوره الكبير، ممن يتاح لهم أن يصلوا الجمعة معه، أو أن يشتروا أحدث تسجيل لخطبته، أو أن يسمعوا أقوال أفراد ممن حضروا وسمعوا آخر روائعه الخطابية المباشرة عن هذا أو ذاك من أحداث كل يوم..

ولقد كان من الممكن أن يصبح غالبية خطباء المساجد من هذا الطراز الفذ، لولا قيود الوظيفة في وزارة الأوقاف التي ربطت وظيفتها بوصايا الموتى، بينما هذه المنابر التي ترعاها أمنة للمسلمين واجبة الأداء بوصية الله الحي الذي لا يموت..

ليس العيب في الخطابة إذن، ولا في الأسلوب المباشر.. بل إن صوتًا خطابيًا مئذنيًا صاعدًا مثل صوت أم كلثوم قد أثبت سرعة انتشاره في الوطن العربي وقوة تأثيره في شد أزر النضال الوطني، ودعم الحرب العربية المصرية أكثر كثيرًا في وزنه وقيمته من جميع تلك الكتب الطقوسية القصصية التي نام فيها كتابها على أرواحهم، وسرحوا مع أحلامهم،

بعيدًا عن مراكز المواجهة بالتعبير، وخمولًا في أبراجهم الوهمية عن يقظة الحياة، وشمس الواقع..

كتب مجموعة من الكتاب اليساريين في عدد خاص عن أم كلثوم في مجلة روز اليوسف تحية لها وتقديرًا للجانب الوطني والإنساني في حياتها وفنها فقالوا تحت عنوان "70 عامًا من فن الخطابة": "لم تكن أم كلثوم مطربة وإنما خطيبة. كانت على أنغام صوتها تخطب في الناس.. تحرضهم.. تشرح لهم.. تنقل انفعالها إليهم.. وكان انفعالها مصريًا دائمًا"

وطبعًا كان هؤلاء الكتاب يعلمون وهو يكتبون أن أعظم ما كان خطابيًا ومؤثرًا في صوت أم كلثوم – باتساع الوطن العربي – كان هبة لها من القرآن الكريم، الذي حفظته بالحب والإيمان والولاء منذ طفولتها، فصنع هبة الله في صوتها صنعًا عربيَّ الأداء، جلي الفصاحة، حفظت به في أحسن ما أنشدته في خدمة وطنها حق الشكر لله على ما أنعم به عليها.. وغفر لها الله إن شاء ما انساقت إليه من أهواء من غلبوها من شعراء الإثارة على أهوائهم..!!.. وطبعًا هذه الجملة الأخيرة ليست مما كتبه اليساريون!

اللغة أولًا:

لقد كان تأثير الأدب الخيالي، الروائي والمسرحي، سيئًا جدًا على بنية اللغة العربية المعاصرة، التي أخذت تعاني من التخمة القاتلة بالتراكيب والمفردات الأجنبية، ولابد لكي يعتدل اتجاه الأدب العربي للتعبير بالمنهج الواقعي السليم أن تبرأ اللغة العربية من هذه التخمة التي يختلط بها الحي من لغة القرآن بالرميم من تراكيب اللغات الأوروبية وغرائب عاهاتها التعبيرية.

في أحد مراكز دراسة وتحليل اللغات العالمية بجامعات أمريكا علمت واطلعت على بعض أبحاث هذا المركز في جامعة ميتشجان عن اللغة العربية المعاصرة، وقد تناول البحث في وسائل تحليله عرض نماذج كثيرة من كتب الأدباء المعاصرين، وأكثرها قصص وروايات بالطبع لمؤلفين في أكثر البلاد العربية وفي مقدمتهم مصر – وذلك على الحاسب الإلكتروني لاستخراج نسبة ما في هذه الكتابات المحسوبة على العربية بكونها عصرية – من التراكيب الأوروبية، ومن الكلمات الأوروبية، ومن الكلمات العامية، ومن الاستعمالات التي يتجاوز بها أكثر هؤلاء الكتاب قواعد النحو والصرف، أو صحة استعمال الضمائر وأسماء الإشارة.. وكانت النتيجة من وجهة النظر العربية سيئة، وأليمة، بينما كانت من وجهة النظر الأمريكية، وهي نظرة بطبيعتها غير ودية لهذه اللغة، إعلانًا عن نتيجة سارة، ومشجعة على البدء في وضع مشروع من نوع مشروعات الغزو والهجوم المتواصل على هذه اللغة، منذ صيحات الحروف اللاتينية، وإزالة النحو وتشجيع العامية، ثم الادعاء والتباكي المسرحي بسبب صعوبة النطق بالعربية الفصحى.. وكان هذا المشروع الذي أطلعت عليه سنة 1974، وناقشت فيه مع غيري من المهتمين باللغة من المصريين ذلك السائح العربي الأمريكي، والأستاذ بجامعة ميتشجان الذي زار مصر بعد زيارته العراق وسوريا ولبنان، كما زار بعد مصر وتونس والجزائر – كان هذا المشروع مشروعًا أمريكيًا خاصًا بتبسيط النحو.. أو بمحاولة فض الاشتباك – لصالح أمريكا وإسرائيل في الوطن العربي – بين اللغة العربية والنحو..!

ربما يمكن الظن مؤقتًا بأن مركز البحث والتحليل للغات الشرقية الحية في ميتشجان قد أخذ يتمهل في مشروعه قليلًا بعد هذا الاستفتاء الذي

قام به السائح العربي الأمريكي في بلادنا، والذي سمع في مصر من علماء اللغة وبعض أعضاء المجمع اللغوي كثيرًا من النقد الشديد لهذا الاتجاه العدائي والسافر للغة العربية تحت عنوان الحاجة إلى تدريس اللغة العربية المعاصرة "مبسطة" كما يكتبها الأدباء المعاصرون من القصاصين وأشباههم مثلًا.. لطلبة جامعاتها في أقسام اللغة العربية..!

وهذه الحجة التي تعلق الأعذار في عنق القصاصين حجة واهية بالطبع.. ولكنها تكشف عن النوم غير الصحي للمجامع العربية كلها في بغداد ودمشق والقاهرة وتونس.. كما تكشف عما أصاب اللغة نفسها من هذه التخمة المميتة بالتراكيب الأجنبية، والتي أصابت اللغة في رؤيتها للواقع بالحلول المسرحي، فهي فاترة الأداء، تلوكها ألسنة حائرة، يتكسر فيها النطق بين المعنى الأوروبي والترجمة العربية الحرفية لهذا المعنى في لسان شعوب غريبة.. واللغة تذبل.. والناطقون بها أو أكثرهم لا يعرفون ماذا يصنعون. بينما على حساب هذا الازدواج الشاذ، مع خطورته القومية والوطنية، يزداد البحث وراء تعلم اللغات الأوروبية.. وتتضاعف الدعاية لهذه اللغات.. وينسى من يحرضون على هذه الخطايا أن من لا يحسن لغة قومه هو عن لغات الآخرين أعجز.. وهكذا يتردى المتعلمون من شباب هذا الجيل في الكثير من عثرات النطق والفهم سواء بالنسبة للغة العربية أو لغيرها من اللغات..

ومن بعض ما يضحك أن التركيب الأوروبي المقتبس من مناخ حياة المسرح والذي ترجمته الحرفية "يلعب دورًا" قد أظهره التحليل الأمريكي بنسبة عالية، دلالة على سعادة الأدباء القصاصين المتفرنجين بترويج هذا التركيب، حتى شاع استعماله فيما يصلح له وما لا يصلح، وأصبح أكثر أفراد المجتمع "يلعبون أدوارًا".. فأية أدوار يا ترى يلعبها الناس عندنا.. ومن

الذي يرسم لهم هذه الأدوار.. وهل هي أدوار مع المجتمع أو على المجتمع.. أو هل هي مع المجتمع وعليه في وقت واحد.. وهل الأدوار التي يلعبها اليمين مثل الأدوار التي يلعبها اليسار في مصلحة هذا الشعب.. وهل يمكن لجماعة إسلامية، أو لحزب يقول إنه ناصري أن يلعب كل منهما أدوارًا أيضًا.. وهل إذا تشابهت المفاهيم السياسية بين اليمين والغرب، وبين اليسار والشرق، يمكن أن تختلف مصادر الأدوار.. أو تتشابه بين الأصول والفروع.. أم لا أحد يعرف إذا ما نشطت حركة التأليف السياسي للأحزاب أي للروايات السياسية، بهذه الأشكال التي كانت قبل الثورة، أو بالأشكال المقترحة بعد انتهاء شوطها الشرعي.. من هو الذي – بالتعبير المستورد – يضع الدور.. ومن هو الذي يلعبه!!؟

على أن هنالك إصابة أخرى تعرضت لها اللغة العربية وهي تحمل جراحتها في صمت، وتدافع عن وجهها الصبوح بشرف.. إصابة في القلب.. إصابة لا يستطيع الحاسب الإلكتروني أن يدركها ويسجلها.. إنها إصابة في صميم الدلالة الوثيقة على مناخ "الإلحاد" المتزايد في كلمات مستحدثة نستخدمها استخدامًا وثنيًا مثل الغرب، أو كلمات أصيلة تحولنا لها وراء الغرب فأصبحنا نستخدمها هيا الاستخدام الوثني المعتم..!

.. من هذه الكلمات كلمة "الوجود" وهذه الكلمة أوروبية في الفلسفة، وهي تدل في الألسنة والمكتوبات الأوروبية على الكلمات العربية: "الخلق" وعلى التعبير القرآني: "ملكوت السماوات والأرض".. الفارق بين الخلق والوجود واضح في أن الكلمة العربية تحمل دلالة الإيمان بالخالق، بينما كلمة "الوجود" التي دخلت إلينا من طريق نقل علماء الكلام والمعتزلة للفلسفة اليونانية في صيغ إسلامية – لا تعني إلا مفهوم

الوجود بذاته.. الوجود كما هو في العين والحس.. هكذا.. ثم تبدأ الفلسفة في البحث عمن وراء هذا الوجود.. أو عما وراءه.. ثم تخبط طويل..!

ولقد استعملت كلمة الوجود في بعض فصول هذا الكتاب. لمواجهة المفهوم المقابل في الفلسفة، وفي المعنى المدرج في الستة المثقفين المعاصرين، وحتى علماء المسلمين، ولكني أضفت إليها كلمة "الحي" للدلالة على أن الوجود الحي لا يكون حيًا إلا بالخلق الذي هو قوانين حركة، ومشيئة الخالق تظهر في حركة هذه القوانين للدلالة لمن يفهم، ولمن يؤمن، على حكمة الخالق، وغاية الخالق..

.. ومن هذه الكلمات كلمة "السماء" بمعنى "الله" فقد جرت محاكاة أوروبا في استعمال كلمة السماء لتدل على الله، كأنما الله جالس هناك في السماء كما يجلس ملك على عرش، وهو استعمال أوروبي من عصور المسيحية، فكلمة Heaven تعني: السماء: والجنة أيضًا: كما تعني: الله عندهم. وهذا المعنى في العربية غير صحيح، فالله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، والله يقول عن نفسه: "وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ".. إن هذا الاستعمال الذي شاع مع الأسف حتى بين علماء الدين هو تعبير يحمل دلالة التجسيد، الذي يبتعد بالمسلم عن سلامة اعتقاده في الله الحي.. الله الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، وليس كمثله شيء.

.. ومن هذه الكلمات كلمة "العقلانية" وتعني نقلًا عن الفكر الأوروبي في مثل كلمة Rationalism المذهب العقلي المقابل للمذهب الاتباعي الذي يؤمن بالله والوحي. وبهذا أصبحت كلمة "عقلي" تعني غير ديني، وأصبحت كلمة "ديني" في لغة أوروبا بعد تحللها من المسيحية، واختراعها كلمة الأيديولوجية تعني "غير عقلي".. بينما العكس هو

الصحيح في معنى كلمة "عقل" باللغة العربية، وفي دلالة الكلمة وموضعها في القرآن.. فالعقل. وهو معنى لا مقابل له في جميع اللغات الأوروبية والأعجمية – يعني إدراك الصحيح، وهو إدراك يتم بمواجهة الواقع، والتفكير داخل حركة الواقع، وليس في عزلة وانطواء عنه، وهذا الإدراك الصحيح – كما يقرر بيان القرآن – وهو الطريق المباشر إلى الإيمان بالله الحق.. وفي هذا الارتباط بين العقل وإدراك برهان الإيمان يقول القرآن: "قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ" ويقول: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ".. فالعقلانية إذن باللغة الصحيحة هي مذهب المؤمنين.. وليست دعوى الملحدين الذين لا يعقلون بمفهوم لغتنا الكاملة السوية، وإن كانوا بلغتهم "يفكرون باطنيًا، وهو في حالة انفصام عن الواقع.. ثم يتفلسفون.. ويتخبطون.. ويتناقضون!.

.. نعم .. إن العقلانية بلغات أوروبا ليست لها علاقة بالعقل العربي الذي يدرك في واقعه المتحرك برهان الإيمان.. العقل عندهم طاقة داخلية غير محددة للتفكير.. إنها أحيانا تختلط بكلمة الروح Spirit.. وأحيانًا تختلط بكلمة النفس Psyghe.. التي لها أيضًا في تصور اليونان الخرافي قصة مع كيوبيد!

.. ومن هذه الكلمات أيضًا "المادية" وقد شاع استعمالها بتأثير ظهور الفكر الشيوعي، ونقلًا عن اللغات الأوروبية بمعنى أن "المادية" هي الإلحاد وأن المادية: Materialism هي عبادة المادة.. بينما الإلحاد هو في حقيقته وقوف عند تفسير "الخلق" وما فيه من الأشياء الحسية بأنه وجود ذاتي. وليس من خلق الخالق، ولا يعني عجز الملحدين الماديين عن إدراك "الخالق" المهيمن أن ننكر ما علمنا الله من أن "المادة" في عالم الأشياء إنما هي النعمة التي استخلفنا الله فيها بالعمر الصالح، بعد أن علقنا في حركتها

واتساقها وحكمة الخلق فيها، برهانها الحي، والدائم لنا، على الله القادر والمنعم.. ومعنى هذا أن علينا أن نفرق بين المذهب المادي والإلحادي وبين كلمة المادة" التي أخذت تشيع في ألسنة المتدروشين، الذين يخبون أحيانًا في الحرير، ويركبون السيارات الفارهة، ويستمتعون بالمادة – على أنها رجس يجب اجتنابه، وأصبح التعامل مع الأشياء حتى في طاعة الله هو في نظرهم "مادي" وانحراف.. وهذا معنى يجب تقويمه لأن كل ما حولنا مادة.. السماء والأرض والبيت والمكتب.. الزوجة والأبناء.. الشارع والسوق.. الحقل والمصنع.. الزملاء والأصدقاء.. كل هذا وكل هؤلاء "مادة" حية.. فأي انحراف في الإحسان بهؤلاء، وإلى هؤلاء، ومع هؤلاء، في صدق استخدام المواد أو "الأشياء" التي هي نعم لا تحصى.. في طاعة الله، وكما شاء الله؟

.. ومن هذه الكلمات أيضًا كلمة "الروحانية"، وهي كلمة متطرفة في انحراف معناها عن سواء اللغة والقرآنية كانحراف المعاني المستحدثة لكلمة "المادية" وقد بلغ إلى لغتنا المعاصرة هذا المعنى المنحرف، والمتزيد من الباب الهندي الصوفي القديم، كما وصلت إلينا في هذا العصر بانحرافات الفكر الأوروبي حول كلمة الروح التي شاع معناها المتناقض مع معنى القرآن إلى درجة انتشار أكاذيب علنية وشعوذات ندعي أن هناك "أرواحًا" هائمة للموتى، وأنهم يقومون بتحضيرها، واستخبارها عن الغيب الماضي والمستقبل.

وكلمة "الروح" كما وردت في القرآن تعني بالتحديد والنص "مشيئة الله وأمره" فالله يقول في جوابه عنها – وهي كلمة لم يستخدمها العرب بالمفهوم الذي نقله اليهود عن الفرس واليونان – "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي".. وفي القرآن الكريم لا نجد كلمة الروح منسوبة لغير الله.. ولا نجد فيه مطلقًا جمع كلمة روح على أرواح، فالروح الذي هو روح

الله وأمره واحد.. كما أن الله خلف وسوّى للإنسان نفسًا لا روحًا، وهو في ذلك يقول: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا" ويقول: "كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ" ويقول: "يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا" والنفس دلالة أيضًا على الذات وفي هذا يقول المسيح لله: "تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ".

فالروحانية إذن مذهب مبتدع على المسلمين، ولا أصل له في الإسلام وهو في مقابل المادية نغمة في مقام الجواب على ترك المادة، أي إهمال نعمة الله في الأشياء بإتباع الزهد الهندي في عقيدة البراهمة، وبعض الصوفية الداعين للخروج من الحياة، ومن التفكير، ومن العمل.. تمامًا بحسب نفس المصدر الروحاني عند البراهمة الهنود الذين يرون أن إلههم برهمن هو "البريم آنمان" أي الروح الأعلى، وأن الإنسان "جيو آنمان" هو الروح الأرضي، أن روح برهمن موزعة على أرواح تحل في كل شيء، حتى في العقارب والصراصير، والكلاب والقطط، وعلى هذا فممنوع في البراهمية والبوذية كذلك قتل ما فيه "روح" ولو كان ذبابة تحمل مرض النوم أو الكوليرا!!

"الروحانية" هي أوهام التفكير الاستنباطي الهندي، وهي قد رجعت إلى اليونان في صورة الفلسفة الأولى للمذهب الصوري أو المثالي.. ثم تفجرت إلى أجزاء في أوروبا مع أمراض المسرح، ومع مآسي العدوان، والأحقاد وغلظة القلوب في الحروب المتكررة بالأسلحة الفتاكة التي استأصلت الملايين من شعوبها في الحربين العالميتين الأولى والثانية.. تفجرت منابع الهوس الروحاني عند من فقدوا أعزائهم، فسخر الدجاجلة الأوربيون منهم ومن أحزانهم وعادوا بهم إلى "الروحانيات" الهندية الأسطورية، وزادوا عليها علمًا دجالًا يروج بين المرضى والمصابين هو شعوذة "تحضير الأرواح"!!

لقد ساد المذهب الروحي القائل بأن لكل شيء في الطبيعة روحًا لها حق العبادة، وهو المذهب الذي أطلقوا عليه كلمة Animism- أرجاء أوروبا، من اليونان حتى بلاد الغال وإنجلترا في العصور الأولى التي حملوا فيها تراث الهند.. ثم أخيرًا مع الضربات والخيال والمسرح وأكاذيب السياسة الاستغلالية والحروب الطاحنة بدافع انحلال أوروبا العقلي تظهر الروحانية في صورة مرض عصبي جماعي جديد يؤمن بتحضير أرواح خيالية لا وجود لها.. أما البديل لها وهو "النفس" فهي عند الله يمسكها حية بعد الموت إلى يوم البعث وهذا هو قوله تعالى: "اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى" [الزمر:42].. فكيف تكون هناك أرواح، وهي في لغة القرآن أنفس.. وكيف يستحضرها دجال الروحانية والله يمسكها..؟!

إذا فاستعمال كلمة "الروحانية" في لغتنا نوع من قبول الوهم بما يرفضه الإسلام، وتأباه اللغة السليمة، سواء بمعنى Animism أي عبادة أرواح الأشياء في الطبيعة بالمفهوم الهندوسي الأوروبي واليوناني القديم — أو بمعنى Spirtism أي تحضير الأرواح المزعومة في دجل أوروبا الحديث!!

هذه فقط نماذج من كلمات كثيرة تدور في لغتنا المعاصرة حاملة مرض الإلحاد في الفكر، والتبلد عن الوعي، والاستكانة للغزو الفكري الخارجي من خلال اللغة، وتغير خصائصها باتجاه عكسي على طريق العجمة والتفكير الخيالي.. وعلى هذا فإن أي خطوة راشدة نحو صحوة عربية موفقة، مؤمنة، آمنة من طابع الصراع، والقلق، والعلل العقلية الكامنة في لغة التخاطب أو الكتابة المعاصرة تبدأ أساسًا من تنقية اللغة مما أصابها، وتصحيح مسارها، والرعاية لها.. لتنمو بنا، وننمو بها.. تفكيرًا وتعبيرًا وعملًا.. إن شاء الله.

الأصالة ومنابرها:

من هنا ينفتح الطريق في حدود الإشارة إلى هذا البديل عن الرواية الخيالية لنعبر بآدابنا في هذا العصر تعبيرًا عربيًا إسلاميًا.. ولهذا البديل الذي تتسع له اللغة العربية النقية من المرض العصبي، ومن الفكر الوثني، والتفكير الخيالي باتجاه بناء مجتمع ودولة العلم والإيمان.. يشمل تنشيط المنابر الآتية:

الأدب العلمي:

وهو أن نعرض جميع العلوم في خطة واسعة لنشر العلم النافع من خلال صياغة أدبية ترفع من إنسانية المتعلم، ومن قدر المعلوم. وقد شق هذا الطريق الرحب، ونجح فيه نجاحًا محققًا لفيف من العلماء الإنسانيين الطليعيين نذكر في مقدمتهم الدكتور أحمد زكي يرحمه الله، والدكتور عبد المحسن صالح، كما نذكر الدكتور حسين الهراوي والجيولوجي القديم محمد محمود، وعددًا من العلماء الذين دونوا موسوعة أعلام العرب بعد الثورة مثل الدكتور أحمد كمال زكي، وأمثالهم على الطريق.. لو أننا أعددنا هذه الخطة الجادة لنشر جميع العلوم النافعة مبسطة من خلال منهج وهدف..

المنبر الديني:

كذلك فمن خلال إعداد الداعية الإسلامي على منبر المسجد ليكون مبشرًا بما يقول، وواعيًا لما يقول، ومعاصرًا وعاملًا بما يقول، ومستندًا إلى العلم الذي يقوم به القرآن ويقوم عليه الحديث فيما يقول.. فهذا إشباع تعبيري علمي تقدمي يكسر حدة المرض العصبي المتراكم من آثار المسرح والسينما، ويفرض تيارًا شعبيًا صحيًا يرشد ويوجه ما تبقى من

أطلال فنون المسرح والسينما.. تيارًا يتدفق من المنبر الديني كما ينبغي أن يكون..

المنابر السياسية:

والمقال الأدبي السياسي في الصحف كان متعة في عصر الأحزاب، وكان درسًا من دروس الإثارة العقلية، وتنشيط البرهان، وتجميع المتفرق. هكذا كانت رغم شوائبها مقالات العقاد ومحمد حسين هيكل وعبد القادر حمزة وأمثالهم. وكذلك كان الخطاب السياسي الرفيع الكلمة، والسريع الأثر، والوافر الإشباع والتوحيد والتجديد للشخصية المصرية العربية في كلمات زعماء وقادة أحبهم الشعب في مختلف أطواره، والتف حولهم، ونقل عنهم، مقل عبد الله النديم في عهد عرابي، ومثل مصطفى كامل، ثم سعد زغلول، ثم جمال عبد الناصر والسادات.. بما كان ولا يزال أعظم في الحجم من مليون مسرح على خشبته عشرين مليون زاعق وزاعقة بالأراجيف.. والخداعيات.. والأوهام..!

نعم.. هذه المنابر السياسية التي لا تملك النجاح إلا بالخطاب المباشر المالك بأصالة اللفظ والنظم والمعني أدب التعبير، وصدق الوجهة، سواء أكان مقالًا في صحيفة، أو خطبة في مجلس شعبي، أو في جمهور ناخبين، أو دعوة لدعم الاقتصاد، ومضاعفة العمل، ومناجزة العدو.. هذه المنابر تملك أعظم البديل بالكلمة الحقيقية والصحية للمجتمع عن الكلمة الخداعية في المسرح والفيلم، والتي تجلب المرض العصبي، بينما يتحول إليها اهتمام الجماهير كلما نضجت الكلمة الحقيقية في مجالس السياسة، وكلما خلا التعبير السياسي – كما نلاحظ على مستوى الأداء التعبيري للكثيرين من أعضاء الاتحاد الاشتراكي- من جاذبيته الأدبية، ومن طلاقته وصدقه وفعاليته.

ومن أحق بهذا الميدان المفتوح للأدب السياسي الرفيع في كلمة مكتوبة، أو خطبة مسموعة من أعضاء التحالف السلمي لفئات الشعب.. التحالف غير الصراعي.. الذي هو الأجدر بأن يقدم لجماهيره الكلمة الحرة المعبرة بالفصحى.. وبالجد والصدق.. بدلًا من ذلك اللون الذي نشأ أخيرًا في العمل السياسي من نثر الكلمات المعطرة.. والمتعثرة.. معنى وذوقًا وبيانًا.. وهدفًا!

التاريخ والسير:

ومن البديل عن المسرح والرواية الخيالية أيضًا حركة أدبية شاملة لإعادة كتابة التاريخ في شتى أبعاده.. تاريخ شعوبنا.. وأبطالنا.. وقادتنا.. وعلمائنا.. ومدننا.. وأنهارنا.. تاريخ نصحح به التاريخ في الروايات الشعوبية، وفي العنصرية الأوروبية.. بينما نمحو به في علمه وأدبه ووطنيته وقوميته هذه الصورة المفزعة لتاريخ أسود مكذوب على التاريخ، ليس فيه إلا الحرب والقتل، أو الخمر والجواري.. ومع هذا التاريخ، وتحت أجنحته مجال لنشر الكثير من القصص الإخباري الواقعي.. القصص الذي نكتبه من مصادره، ونقرأه من محققيه، لتنقية وتجلية صورة ذلك الماضي الذي نحمل إلى اليوم وراثاته، واستباقاته إلى المستقبل الأفضل..

في هذا التاريخ، وسير القادة من الأنبياء -بعيدًا عن الإسرائيليات- وسير القواد والزعماء والعلماء والفقهاء.. وفي هذا القصص الحق الذي نستعيد به ملامحنا على ملامح أسلافنا، ونؤكد من خصائصنا، ونجدد من قدراتنا على مزيد من العلم والابتكار، أو سد ثغرات المعرفة اللازمة لنمائنا وتقدمنا.. سنجد ولا شك هذا البديل الصحيح من تلك السلاسل والأغلال الخرافية التي سحقت أحلام وطهارة الشباب من أمثال أرسلين لوبين، واللص الشريف، وطرزان، وجونسون وملتون توب.. ومن عقارات

الهلوسة في كتب المجانين من قتلى الجنس والخمر من أمثال موباسان والفريد ي موسيه وتوماس هاردي، وصمويل بتلر اليهودي الذي اخترع صراع الأجيال، لتدمير الأجيال في قصة البنت التي تعشق في الحرام، فإذا اعترضها أبوها، لعنت التقاليد، ومزقت روابط الأسرة، وقمت للحرية صورتها التقليدية كما تريدها الصهيونية وهي حرية المرأة التي يمكن أن تبيع نفسها دائمًا.. فيروج شارع الهوى.. وتروج الخمارات.. ومحلات بيع المجوهرات والهدايا.. وتكثر الحاجة إلى بيع ما في اليد، وبيع التراث والأخلاق، أو الاقتراض بالربا الفاحش..!!

نعم.. نستغنى عن هذه المخدرات العقلية بأسمائها المتنوعة في القصص الخيالي، والمسرح العصابي، والفيلم الهستيري.. نستغنى بهذه الثروة المهدرة، والكنوز المخبوءة في أخبار وبطولات وقصص عصور الثورات العربية في مصر وغيرها.. هذه الثروة التي أتيح للأخ والزميل عبد الوارث الدسوقي بجريدة الأخبار أن يكشف أول الطريق إلى بعض منابعها المطمورة، وهو يفتح في جريدة الجمعة بالأخبار باب الإشارة إليها، ويقدم منها نماذج وعينات في أحاديث نشرها عن ذكريات جهاد ديني ووطني مع علماء أعلام ومجاهدين من أمثال المرحوم الشيخ يوسف خطاب رئيس الجمعية الشرعية السابق، والشيخ عبد الجليل عيسى -أطال الله عمره- عضو مجمع البحوث الإسلامية. ومن أمثال ثائر الأزهر القديم الشيخ الفتى عبد اللطيف دراز، وتلميذه الراوية المخضرم الشيخ أحمد حسن الباقوري.

ومن هذا اللون القصصي التاريخي ما أذاعته الإذاعة للشيخ الباقوري من أحاديث عن ذكريات تلمذته بالأزهر، مما أثار بها اهتمام وعجب الجيل الحديث حتى بين العوام في المدينة والريف وهم يستمعون إلى مرحلة من تاريخ القاهرة كانت على مرمى البصر منهم ثم طواها التاريخ عنهم من

غير تسجيل.. مرحلة وصفها الباقوري وصفًا جاحظيًا بكل ما بقي في ذاكرته عن عصر تلمذته من غرائب الألوان والمشاعرن وزحام الصور والأصوات، وعجائب الأحلام والمفاجآت، في ذلك الحي التاريخي المغلق حول الأزهر، والذي كان في خياله يومذاك "عالمه العجيب"، الذي يفتح فيه الأزهريون أعينهم -في نهاية ظلمات العصر المملوكي- على ارهاصات فجر الكفاح ضد الاستعمار الجاثم، وعلى أضواء المستقبل الواعد للمسلمين مع الحرية والعلم.. وأمل الحياة من جيد.

فكيف نرضى.. ولمصلحة من.. تندثر هذه الثروة القصصية في كل جوانب حياتنا الحقيقية.. بينما.. مع تقبل الغرق الذي أراده الاستعمار في بحار أوهام القصص الخيالي والمسرحي – نفرض على أجيالنا الظامئة للحقيقة هذا الفراغ التاريخي الذي يغترون فيه عن وطنهم.. الفراغ الذي يملأونه أحيانًا كثيرة بالتوافه.. مثل جمع طوابع البريد.. يريد العالم الذي نوشك ونحن فيه بغير تاريخ.. أن نفقد تصور رسالتنا فيه.. ورسالتنا إليه!!

أليس بمثل هذا القصص الواقعي، الذي عرفته وعاشت به أمتنا العربية منذ قبل الإسلام، وما بعد الإسلام – نتجنب مخاطر هذا الفصام التاريخي بين جيل وجيل.. هذا الفصام الذي يتكسر به في مجرى حياة أمة عريقة تسلسل مسارها، وتدفق عصارتها وحكمتها، بحيث تفقد الأجيال اللاحقة وهي تفقد عصارة الأصالة قدرتها على أن تستتبت عند القمم من جهودها أزهار وثمار أهدافها وآمالها..

منذ الذي يتذكر اليوم من أبناء هذا الجيل، وعلى وجه اليقين والعبرة ودقة الاستحضار – ماذا جرى خلال ثورة عرابي، حيث انتفضت هذه الثورة بأول بذور حقيقية للقومية العربية.. كيف كان هناك أهلنا يومذاك يعيشون ويفكرون.. وليس من وجهة نظر مؤرخي الانجليز الذين

أجهضوا الثورة.. ولا مؤرخي الخديو توفيق الذي تحالف بغير خجل مع الانجليز!؟

لقد ضاعت أكثر الحقائق.. وتوارت في الضياع، وفي أوراق الكتب الهزيلة التي أرخت لهذه الثورة أصدق ألوانها، ومذاقاتها، وصورها، ونكهة تاريخها.. كما ضاعت من بعد أخبار وحكايات وبطولات حقيقية عرفتها ثورة 19.. بينما بقية من أبطالها لا يزالون يتنفسون بيننا إلى اليوم ولا يتكلمون.. أبطال من الأزهر.. ومن الكنيسة القبطية.. ومن القرية.. ومن الشارع.. وقصص أعداء.. وأخطاء. وتجارب.. كان لابد أن نذكرها اليوم وغداً كما لو كنا نراها.. ونعلمها لأبنائنا..

ثم ها نحن هؤلاء قد بدأنا نختلف حول رؤيتنا العربية في مصر لأحداث ودوافع ثورة 52.. لاشك أننا نستطيع أن نرى.. وأن نوقف هذا النزيف للحقائق.. لنسجل القصص الحقيقية.. لنسجل في تاريخ هذه الثورة وغيرها ملامح فكرنا وعقيدتنا وكفاحنا.. إذا ما استرجعنا هذا البديل من الخرافة وسجلنا أدب وقصص الواقع.

الفيلم التسجيلي:

كل هذه البدائل لا تمنع بل تشجع استخدام السينما في عملية إحياء واسعة للعلوم باتساع مصر والوطن العربي، وذلك بالتوسع في استخدام الفيلم العلمي التسجيلي لنشر جميع العلوم، كما يجري هذا الاستخدام الآن في الجامعات والمجامع والمؤسسات العلمية، وفي مجال التدريب على الفنون الصناعية الحديثة.. وما أعظمها من مهمة تكفر بها السينما الأيروتية والبرونوجرافية كما يقول الدكتور حسين فوزي في نعيه الأخير

للسينما المصرية – عن جميع سيئاتها التي كانت.. والتي يمكن أن تكون..

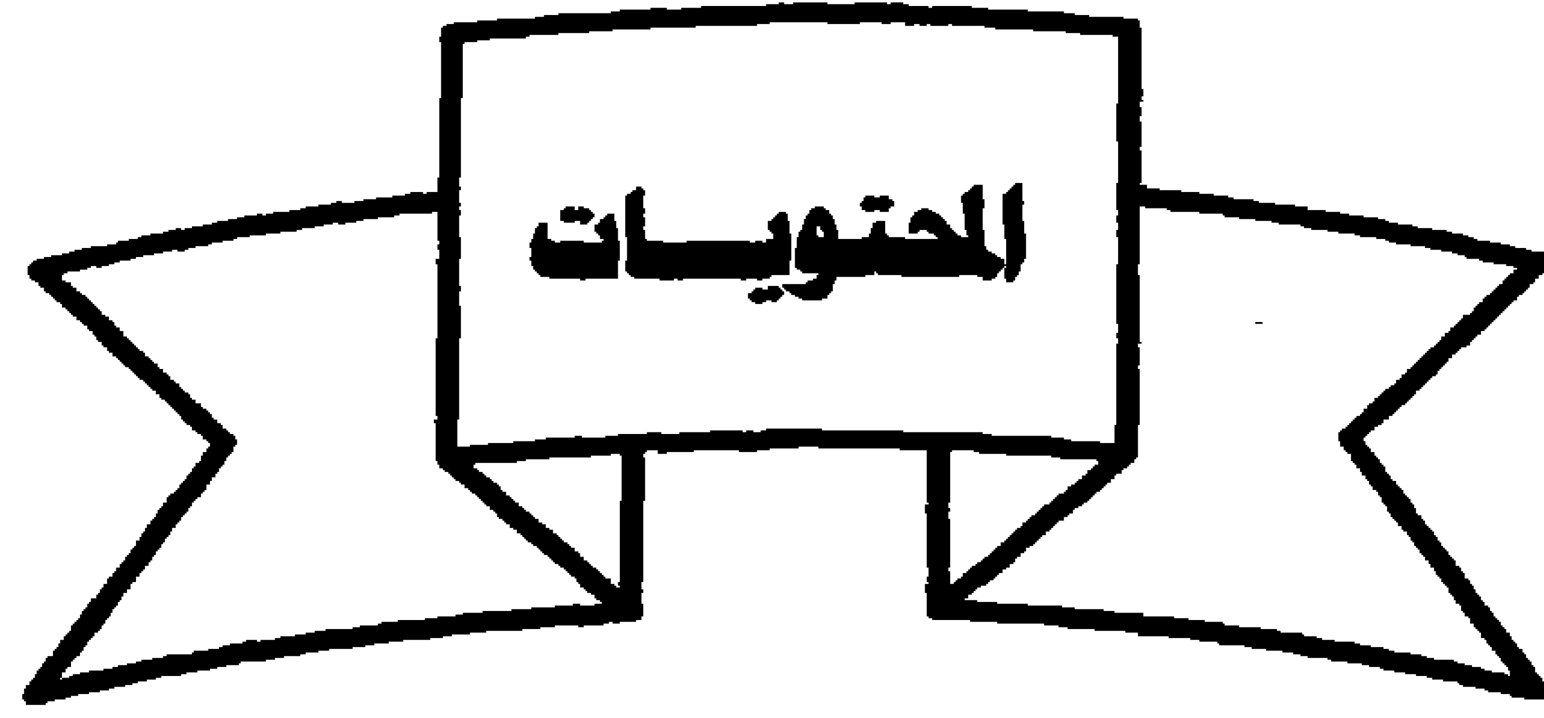
وأما المسرح فوظيفته الحقيقية بعد تعقيم مكانه هو المحاضرات.. مزيد من المحاضرات في كل مجال ديني وعلمي وأدبي وقانوني.. محاضرات يظهر بها على المسرح نجوم وأبطال لهم ضوء مشع على الحقائق المتنوعة، والمتكاملة الدلالة، والتي لا زلنا حتى على مستوى المثقفين – الانتلجنسيا- كما يحبون تسميتهم- في أشد الحاجة إليها.. حاجة الفلاح الذي أهزلته الطفيليات إلى العلاج.. وإلى البروتينات والغذاء الصحي.. وفي هذه الحالة سيتسع فراغ الوقت بالتأكيد لأعمال اجتماعية كثيرة لترشي المجتمع، كما سيمتلي فراغ القلب القاسي عند بعض العلماء والمثقفين بالحب الاجتماعي، بحيث يمكن أن تتحرك المسارح البسيطة إلى القرية، وفوقها نجوم وأبطال حقيقيون من علماء مصر، الناطقين بالعربية المبينة.. يقدمون علمًا أعظم وأحب وأصدق في عطائهم لمواطنيهم.. بعيدًا عن أي عبث وتخييل وتضليل كالذي يجري على مسارح اليوم.. وأفلام اليوم!

عقيدة ورسالة:

وأخيرًا.. بعد هذا الخطاب الطويل والمباشر في هذا الكتاب –لأحب الناس إلي، وإلى أقربهم مني، من أبناء مصر والشعب العربي.. يبقى أن أؤكد الصحيح مرة أخرى، وهو أن هذا الشعب العربي في جميع أطوار حياته الممتدة منذ فجر التاريخ إلى اليوم كان شعب العقيدة الدينية، وشعب الرسالة التي يحملها لنفسه من منابع الدين، والحق، والصدق.. وإلى العالم المحيط به.. وهكذا كان عطاؤه الدائم للغير في فترات الرشد والصحو.. وهكذا كان دفاعه عن عقيدته وعن حقيقته، وعن حريته ولغته في فترات التخلف ورد العدوان..

إن الشعب العربي في مصر، وفي جميع الأقطار العربية، شعب ظاهره كباطنه، وعقيدته التي هي حقيقته هي رسالته.. إنه بالحقيقة التي آمن بها، وبالرسالة التي يحمل بجهده أعباءها، ويعطي من نفسه عطاءها — شعب "لا يلعب أدوارًا" في التاريخ.. شعب لا يمثل شخصية غير شخصيته.. ولا ينطق بكلام يوضع في فمه غير كلامه.. هكذا استعصى على اليونان والرومان، واشتد إيمانه بالمسيحية والإسلام، وحمل رغم العقبات وخطط القهر والتمويه والغواية رسالة الإيمان، يشعل منها زيت حياته، ويضيء بها طرق تقدمه.. كما كان فهو اليوم يكون.. وكما هو غدًا بمشيئة الله سوف يكون..

لقد عرف الشعب العربي نفسه في عقيدته، ولمس باليقين إيمانه بإلاهه، وهو بهذه العقيدة والرسالة ينال من الجهد أحيانًا.. يفتر.. يدركه بعض النعاس.. بينما يبث البعض في أذنه بعض أسطورات مسكرة، وأكذوبات مخدرة.. ولكنه سرعان ما يفيق.. إنه يفيق دائمًا.. ليضع الأسطورات الوثنية، والأكذوبات الإلحادية، وراء ظهره، أو تحت قدمه.. وهو ينهض بعقيدته، وإلى رسالته — كما يمكن أن تستمر صحوته ونهوضه اليوم، وغدًا، وهو يستحضر قول الله تعالى: "هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل".. والحمد لله رب العالمين.. والأمر إلى الله من قبل ومن بعد.. وعلى الله قصد السبيل..


المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع

الموضوع	رقم الصفحة

القسم الرابع

الموضوع	رقم الصفحة

كتب للمؤلف

1- ضوء في تاريخ التوحيد.. من مطبوعات الأنصار.. نفد.

2- قناع الفرعونية.. من مطبوعات الأنصار.. نفد.

3- الإسلام وقضايانا المعاصرة.. دار الجيل.. طبعة ثانية.

4- حقائق أساسية في الإسلام.. دار روزاليوسف.. نفد.

5- لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب.. دار الجيل.. تحت الطبع.

6- سباق المستقبل بين الدين والشيوعية.. دار الجيل.. تحت الطبع.

تم بحمد الله

رقم الإيداع : 3080/ 2013

الترقيم الدولي : 978/977/6413/56/6

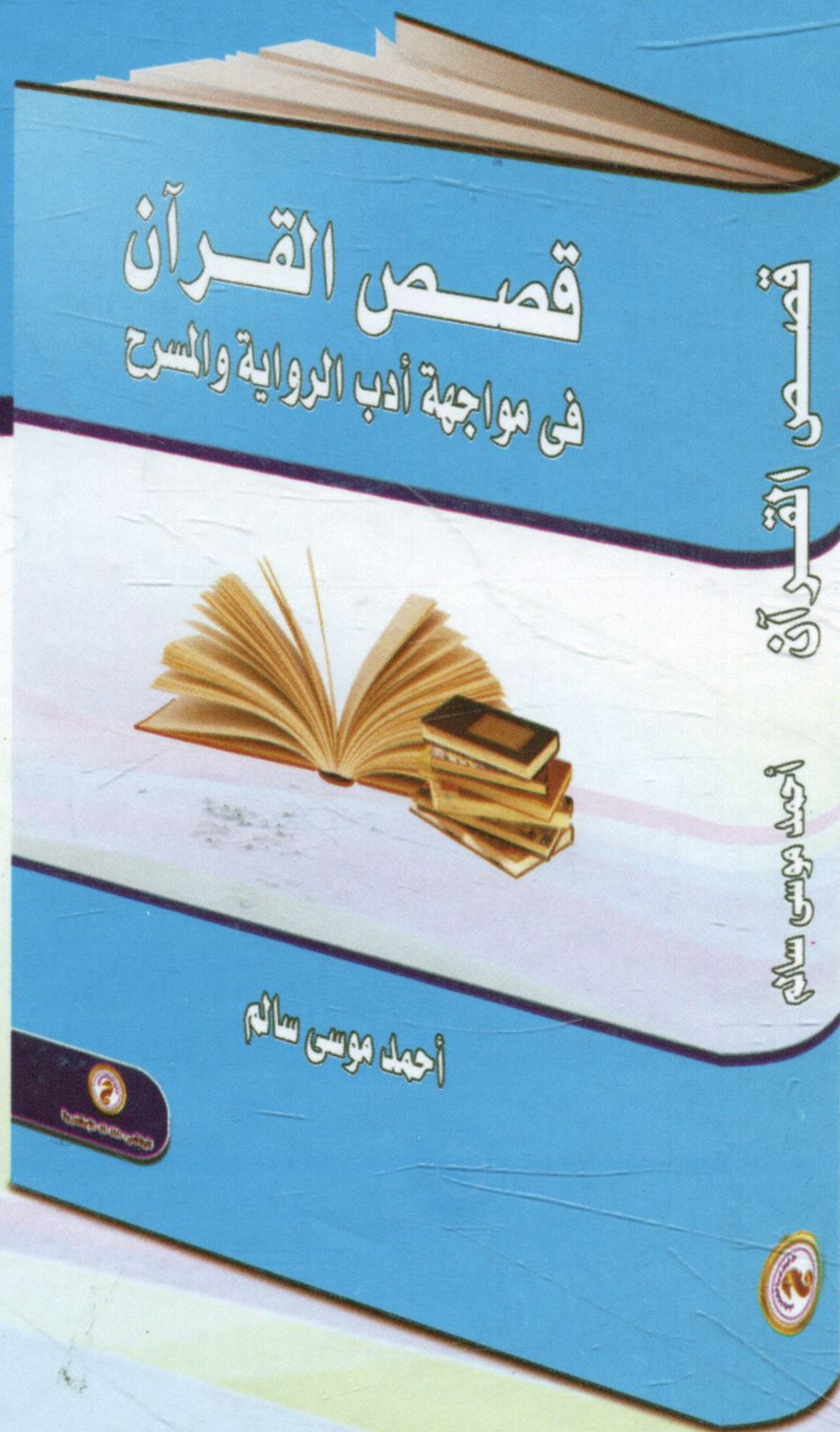
مع تحيات

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس : 5404480 – الإسكندرية


دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر


دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر



الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
٥٩ ش محمود صدقى متفرع من العيسوى سيدى بشر - الاسكندرية
تليفاكس : ٥٤٠٤٤٨٠ / ٠٠٢٠٣ - الاسكندرية

ISBN: 977-641-356-6

9 789776 413566